http://www.shamela.ws

تم إعداد هذا الملف آليا بواسطة المكتبة الشاملة

اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥٧)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُمْ مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ } ؛ معناه : اللهُ وليُّ المؤمنين في نصرِهم وإظهارهم وهدايتِهم في إقامةِ الحجة في دينهم ، ومتولِّي خزانتَهم على حُسن عملهم ، يُخرجهم من ظُلُمَاتِ الكفرِ إلى نُور الهدى.
وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } ؛ معناهُ : والذين جَحَدوا توحيدَ الله أولياؤُهم الذينَ يتولونَهم الطاغوتُ.
ومعنى : { يُخْرِجُونَهُمْ مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ } ، ولم يكن لهم نورٌ ؛ قيل : أرادَ به اليهودَ والنصارى الذين كانوا على دينِ عيسى عليه السلام ؛ خَرجوا من التوحيدِ الذي كانوا فيه إلى الكفرِ بمُحَمّدٍ صلى الله عليه وسلم.

(٠/٠)

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨)

وقوله عَزَّ وَجَلَّ : { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ } ؛ أي أَلَمْ تعلم يا محمدُ بالذي جادلَ إبراهيمَ في ربه ؛ أي هل رأيتَ كالذي { حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ } أي بأن أعطاهُ اللهُ الملكَ وأُعجب بملكه وسلطانه وهو نَمْرُودُ بْنُ كَنْعَانَ أوَّل من تجبَّر في الأرضِ بادعاء الرُّبُوبيَّةِ فَخاصمَ إبراهيمَ في توحيدِهِ. وقيل : إنّ الهاءَ في قوله { آتَاهُ } راجعةٌ إلى إبراهيمَ عليه السلام ، و { الْمُلْكَ } هو النبوَّة ووجوبُ طاعتهِ على الناس.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ } ؛ وذلك أن نَمْرُودُ قال لإبراهيم : مَنْ رَبُّكَ ؟ قال : { إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ } عند انقضاءِ الأجل. فـ { قَالَ } ؛ نَمْرُودُ : { أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ } قالَ إبراهيمُ : ائتني ببيانِ ذلك ؟ فأتَى برجلين من سجنهِ وجبَ عليهما القتلُ ؛ فقتلَ أحدهما وتركَ الآخر. فقال : هذا قد أحييتهُ ، وهذا قد أمَتُّهُ. { قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ } ؛ أي تَحيّر وانقطعَ بما ظهرَ عليه من الحجَّة ، { وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } ؛ أي لا يرشِدُ المشركينَ إلى دينه وحجَّته.

فإن قيل : لِمَ لَمْ يَثْبُتْ إبراهيمُ على الحجَّة الأولى ؛ والانتقالُ من الحجة إلى حجَّةٍ أخرى في المناظرةِ غيرُ محمودٍ ؟ قيل : عنهُ أجوبةٌ :

أحدُها : أن إبراهيم كان داعياً ولم يكن مُناظراً ، فمى كان يراهُ أقربَ إلى الهداية أخذَ به.

والثاني : أنه روي أنه قالَ لنمرود : إنكَ أمَتَّ الحيَّ ولم تُحْيي الميَّتَ ، والانتقالُ بعد الإلزامِ محمودٌ.

والثالث : أن نَمرودَ كان عالماً أن ما ذكرهُ ليس بمعارضةٍ وكان مَن حوله من أصحابهِ يوقنون بكذبهِ في قوله : { أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ } لكن أرادَ التمويهَ على أغمَار قومه كما قال فرعونُ للسحرة حين آمنوا : أن هذا المكرَ مكرتُموه في المدينةِ ، كذلك فعلَ نَمرودُ بقوله : { أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ }. فتركَ إبراهيم إطالةَ الكلامِ ، وعَدَلَ إلى حجَّةٍ مسكتةٍ لا يُمكنه التمويهُ فيها.

فإن قيل : فهلاَّ قال نَمرود لإبراهيمَ : إن مجيءَ الشمس هو العادةُ ؟ فقُلْ لربك حتى يأتي بها من المغرب! قيل : عَلِمَ لِمَا رأى من المعجزات التي ظهرت أنهُ لو سأله ذلك لأتى بهِ. فكان يزدادُ فضِيحة عند الناسِ. وقيل : خَذَلَهُ عن هذا القولِ ، فلم يُوَفَّق للسؤالِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ } البُهْتُ في اللغة : هي مُوَاجَهَةُ الرجلِ بالكذب عليه ؛ يقال : بَهَتَ يَبْهَتُ بُهتاناً ، وبَاهَتَ يُبَاهِتُ مُبَاهَتَةً. وفي الحديثِ : " إنَّ الْيَهُودَ قَوْمٌ بُهْتٌ " أي كَذَبَةٌ. والبهتُ الحيرة عند انقطاعِ الحجة أيضاً. وفيه لغاتٌ : بَهَتَ وبَهِتَ وبُهِتَ ، وأجودها بُهِتَ بضمِّ الباء.

(٠/٠)

أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩)

قوله عَزَّ وَجلَّ : { أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا } ؛ عَطْفَ هذه الآية على معنى الكلامِ الأول لا على اللفظِ ، كأنه قالَ : أرأيتَ كالذي (حَاجَّ إبْرَاهِيمَ فِي رَبِهِ) (أوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ).

قال ابْنُ عباس : (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي عُزَيْرِ بْنِ شَرِيْحَيَّا ، وَكَانَ مَنْ عُلَمَاءِ بَنِي إسْرَائِيْلَ ، سَبَاهُ بَخْتَنَصِّرَ مِنَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ إلَى أرْضِ بَابلَ حِيْنَ سَلَّطَهُ اللهُ عَلَيْهِ فَخَرَّبَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ ، فَخَرَجَ عُزَيْرُ فِي أرْضِ بَابلَ ذاتَ يَوْمٍ عَلَى حِمَارٍ ، فَمَرَّ بدَيْرِ هِرَقْلَ عَلَى شَاطِئِ دِجْلَةَ ، فَطَافَ بالْقَرْيَةِ فَلَمْ يَرَ بهَا سَاكِناً وَعَامَّةُ شَجَرِهَا حَامِلٌ ، فَجَعَلَ يَتَعَجَّبُ مِنْ خَرَاب الْقَرْيَةِ وَمَوْتِ أهْلِهَا وَكَثْرَةِ حَمْلِهَا وَهِيَ سَاقِطَةٌ عَلَى سُقُوفِهَا. وَذَلِكَ أنَّ السَّقْفَ يَقَعُ قَبْلَ الْحِيْطَانِ ، ثُمَّ تَقَعُ الْحِيْطَانُ عَلَيْهِ ، فَأَخَذَ شَيْئاً مِنَ التِّيْنِ وَالْعِنَب ، وعَصَرَ الْعِنَبَ فَشَرِبَ مِنْهُ ، ثُمَّ جَعَلَ فَضْلَ التِّيْنِ فِي سَلَّةٍ وَفَضْلَ الْعِنَب فِي الأُخْرَى وَفَضْلَ الْعَصِيْرِ فِي الزِّقِّ ، ثُمَّ نَظَرَ إلَى الْقَرْيَةِ فَ { قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَاذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا } ؛ أيْ كَيْفَ يُحْيِي اللهُ هَذِهِ الْقَرْيَةَ بَعْدَ خَرَابهَا وَمَوْتِ أهْلِهَا!؟

لَمْ يَكُنْ هَذَا الْقَوْلُ مِنْهُ إنْكَاراً لِلْبَعْثِ ، لَكِنْ أحَبَّ أنْ يَرَى كَيْفَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى فَيَزْدَادُ بَصِيْرَةً فِي إيْمَانِهِ ، فَنَامَ فِي ذلِكَ الدَّيْرِ ؛ { فَأَمَاتَهُ اللَّهُ } في منامهِ ؛ { مِئَةَ عَامٍ } ؛ وَأعْمَى عَنْهُ السِّبَاعَ وَالطَّيْرَ ، ثُمَّ أحْيَاهُ فَنُودِيَ : يَا عُزَيْرُ : { كَمْ لَبِثْتَ } ؟ وَكَانَ أُمِيْتَ فِي صَدْرِ النَّهَار ، { ثُمَّ بَعَثَهُ } ؛ بَعْدَ مِائَةِ سَنَةٍ فِي آخِرِ النَّهَار ، فَظَنَّ أنَّ مِقْدَارَ لُبْثِهِ يَوْمٌ ، { قَالَ كَمْ لَبِثْتَ } ؟ فَ { قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً } ، فَلَمَّا نَظَرَ إلَى الشَّمْسِ قَدْ بَقِيَ مِنْهَا شَيْءٌ ، فَقَالَ : { أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ } ؛ فَنُودِيَ؟. { قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ } ؛ مَيْتاً ، { فَانْظُرْ إلَى طَعَامِكَ } ، مِنَ التِّيْنِ وَالْعِنَب ، { وَشَرَابِكَ } ، الْعَصِيْرِ ، { لَمْ يَتَسَنَّهْ } ؛ أيْ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهَا بَعْدَ مِائَةِ عَامٍ وَلَمْ تُغَيِّرْهَا السُّنُونُ ؛ فَنَظَرَ فَإذَا بالْعِنَب وَالتِّيْنِ كَمَا شَاهَدَهُ وَبالْعَصِيْرِ طَرِيّاً.

ثُمَّ قِيْلَ لَهُ : { وَانْظُرْ إلَى حِمَارِكَ } ؛ فَنَظَرَ فَإذا هُوَ عِظَامٌ بِيْضٌ تلوحُ قَدْ تَفَرَّقَتْ أوْصَالُهُ ، فَسَمِعَ صَوْتاً : (أيَّتُهَا الْعِظَامُ الْبَالِيَةُ إنِّي جَاعِلٌ فِيْكُنَّ رُوحاً فَاجْتَمِعْنَ) فَارْتَهَشَتِ الْعِظَامُ وَسَعَى بَعْضُهَا إلَى بَعْضٍ ، قَالَ : فَرَأَيْتُ الصُّلْبَ يَسْعَى كُلُّ فَقَرَةٍ مِنْهَا إلَى صَاحِبَتِهَا ، ثُمَّ رَأَيْتُ الْوِرِكَيْنِ يَسْعَيَانِ إلَى مَكَانِهِمَا ؛ وَالسَّاقَيْنِ إلَى مَكَانِهِمَا ؛ وَالْعِطْفَينِ إلَى مَكَانِهِمَا ، ثُمَّ رَأَيْتُ كُلَّ الأَضْلاَعِ يَسْعَى كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ إلَى فَقَرَتِهِ ، ثُمَّ رَأَيْتُ الْكَعْبَيْنِ سَعَيَا إلَى مَكَانِهِمَا ؛ وَالذِّرَاعَيْنِ إلَى مَكَانِهِمَا ، ثُمَّ رَأَيْتُ الْعُنُقَ يَسْعَى كُلُّ فَقَرَةٍ مِنْهُ إلَى صَاحِبَتِهَا ، ثُمَّ جَاءَ الرَّأْسُ إلَى مَكَانِهِ ، ثُمَّ رَأَيْتُ الْعَصَبَ وَالْعُرُوقَ وَاللَّحْمَ أُلْقِيَ عَلَيْهِ ، ثُمَّ بُسِطَ عَلَيْهِ الْجِلْدُ ، ثُمَّ دُرِيَ عَلَيْهِ الشَّعْرُ ، ثُمَّ نُفِخَ فِيْهِ الرُّوحُ ، فَإذَا هُوَ قَائِمٌ يَنْهَقُ. فَخَرَّ عُزَيْرٌ سَاجِداً للهِ تَعَالَى ؛ وَقَالَ عِنْدَ ذَلِكَ : { أَعْلَمُ أنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي } ؛ تقديرُ الآية : أَلَمْ ترَ إذ قالَ إبراهيمُ ؛ ويقال : وَاذْكُرْ إذ قالَ إبراهيمُ. قال ابنُ عباس : ((سَبَبُ هَذِهِ الْقِصَّةِ : أَنَّ إِبْرَاهِيْمَ عليه السلام مَرَّ بِجِيْفَةٍ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ ، تَنْقَضُّ عَلَيْهَا طُيُورُ السَّمَاءِ فَتَأْخُذُ مِنْهَا بِأَفْوَاهِهَا فَتَأْكُلُهُ ، وَيَسْقُطُ مِنْ أَفْوَاهِهَا فِي الْبَحْرِ فَيَأْكُلُ مِنْهُ الْحِيْتَانُ ، وَتَجِيْءُ السِّبَاعُ فَتَأْخُذُ مِنْهُ عُضْواً. فَوَقَفَ مُتَعَجِّباً!! وَقَالَ : { رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن } أيْ أوَلَمْ تُصَدِّقْ بِأَنِّي أُحيِي الْمَوْتَى ؟ { قَالَ بَلَى } عَرَفْتُ ، وَلَكِنْ أَحْبَبْتُ أنْ أعْلَمَ كَيْفَ تُحْيي هَذِهِ النَّفْسَ الَّتِي أرَى بَعْضَهَا فِي بُطُونِ السِّبَاعِ ؛ وبَعْضَهَا فِي بُطُونِ الْحِيْتَانِ ؛ وَبَعْضَهَا فِي حَوَاصِلِ الطَّيْرِ. فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي }). وَقيل : معنى { وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي } أي لِيَسْكُنَ قلبي أنكَ أعطيتني ما سألتُكَ. وقيل : إنك اتَّخَذْتَنِي خليلاً.

{ قَالَ } ؛ اللهُ تعالى : { فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً } ؛ وذلك أنَّ إبراهيم عليه السلام لما مرَّ بالجيفةِ وقد توزَّعَتها الطيورُ والسباع والحيتانُ ، تعجَّبَ وقال : يا رب قد علمتُ بأنكَ تجمعُها من بطونِ السباع وحواصلِ الطير وبطونِ الحيتان ، فأرني كيفَ تُحْيِيْهَا لأُعَاينَ ذلك فأزدادُ يقيناً ؟ قال اللهُ تعالى لهُ : { أَوَلَمْ تُؤْمِنْ. قَالَ بَلَى } يا رب آمنتُ وليس الخبرُ كالمعاينةِ والمشاهدة.

وقال ابنُ زيد : (مَرَّ إِبْرَاهِيْمُ عليه السلام بحُوتٍ مَيْتٍ نِصْفُهُ فِي الْبَحْرِ وَنِصْفُهُ فِي الْبَرِّ ، فَمَا كَانَ فِي الْبَحْرِ فَدَوَابُّ الْبَحْرِ تَأْكُلُهُ ، وَمَا كَانَ فِي الْبَرِّ فَدَوَابُّ الْبَرِّ تَأْكُلُهُ ، فَقَالَ إِبْلِيْسُ لَعْنَةُ اللهِ عَلَيْهِ : يَا إِبْرَاهِيْمُ ، مَتَى يَجْمَعُ اللهُ هَذَا مِنْ بُطُونِ هَؤُلاَءِ؟! فَقَالَ : { رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى * قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي } بذَهَاب وَسْوَسَةِ الشَّيْطَانِ وَيَصِيْرُ الشَّيْطَانُ خَاسِئاً صَاغِراً).

وروي أنَّ نَمرودَ قال لإبراهيم : أنتَ تزعمُ أن ربكَ يحيي الموتى وتدعوني إلى عبادتهِ ، فقُل له يُحيي الموتَى إنْ كان قادراً ، وإلاَّ أقتلُكَ. فقالَ إبراهيمُ : { رَب أرني كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى * قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ } بأني أُحييهم ، فـ { قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي } بقوةِ حُجَّتي ونَجاتي من القتلِ ، فإنَّ عدوَّ اللهِ توعدَّني بالقتلِ إن لَمْ تُحيي لهُ ميتاً.

وقال ابنُ عباس وابن جبيرٍ والسديُّ : (لَمَّا اتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيْمَ خَلِيْلاً ، سَأَلَ مَلَكُ الْمَوْتِ رَبَّهُ أنْ يَأْذَنَ لَهُ فَيُبَشِّرَ إِبْرَاهِيْمَ بذَلِكَ فَأَذِنَ لَهُ ، فَأَتَى إِلَى إِبْرَاهِيْمَ وَقَالَ : يَا إِبْرَاهِيْمُ ، جِئْتُ أُبَشِّرُكَ بِأَنَّ اللهَ اتَّخَذَكَ خَلِيْلاً ، فَحَمَدَ اللهَ تَعَالَى ؛ وَقَالَ : مَا عَلاَمَةُ ذَلِكَ ؟ قَالَ : أنْ يُجِيْبَ اللهُ دُعَاءَكَ وَيُحْيِي الْمَوْتَى بسُؤَالِكَ. ثُمَّ

انْطَلَقَ مَلَكُ الْمَوْتِ ، فَقَالَ إبْرَاهِيْمُ : { رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى * قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي } أيْ لِيُعْلَمَ أنَّكَ تُجِيْبُنِي إذَا دَعَوْتُكَ.

(٠/٠)

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { مَّثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ } ؛ وجهُ اتصالِ هذه الآية بما قبلَها آيةٌ أخرى فيما تقدَّمَ ذكرُ النفقةِ في الجهادِ بقولهِ تعالى : { مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً }[البقرة : ٢٤٥] ، ثم ذكرَ ما كان مِن مسألةِ قوم أشمويل مِن الله أن يبعثَ له مَلِكاً يقاتلون معه أعداءَهم ، وكانت الغلبةُ لهم مع قلَّةِ عددهم ، ثم عقَّبَهُ الله تعالى بذكرِ أمورٍ تدلُّ على واحدانيَّته ، فبيَّنَ أنَّ الكُفْرَ بعد هذهِ الآيات أعْظَمُ وأشْنَعُ ، فمن كَفَرَ بعد هذا فقاتِلُوه وأنفِقُوا في القتال ، فإنَّ النفقةَ في القتالِ تكونُ بسبعمائةٍ.

وعنِ ابنِ عبَّاس : (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ وَالَّتِي بَعْدَهَا فِي شَأْنِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّان وَعَبْدِالرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا. أمَّا عُثْمَانُ فَجَاءَ إلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ ، فَقَالَ : عَلَيَّ جِهَازُ مَنْ لاَ جِهَازَ لَهُ ، وَأشْتَرِي بِئْرَ رُومَةَ وَأجْعَلُهَا سَبِيْلاً لِلْمُسْلِمِيْنَ. وَأمَّا عَبْدُالرَّحْمَنِ فَكَانَ لَهُ ثَمَانِيَةُ آلاَفٍ ، فَجَاءَ بِأَرْبَعَةِ آلاَفٍ إلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ : إنَّ لِي ثَمَانِيَةَ آلاَفٍ ؛ أمْسَكْتُ نِصْفَهَا لِنَفْسِي وَلِعِيَالِي ؛ وَأقْرَضْتُ نِصْفَهَا لِرَبِي وَهِيَ هَذِهِ. فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " بَارَكَ اللهُ لَكَ فِيْمَا أمْسَكْتَ وَفِيْمَا أعْطَيْتَ " وَأمَرَ بِهَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَقُبِضَتْ مِنْهُ).

ومعنى الآية : صفةُ { الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي } طاعةِ الله كصِفَةِ { حَبَّةٍ } أُلقيت في الأرضِ وأخْرَجَتْ { سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ } أي كما تكونُ الحبَّة واحدةُ والمكتسبُ منها سبعمائة ، فكذلك النفقةُ تكون واحدةً والمكتسبُ بها سبعمائةِ ضِعْفٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَآءُ } ؛ أي كما يُضَاعِفُ اللهُ في زرعِ الزُّرَّاعِ الحادثِ من البَذْر الجيِّد في الأرضِ العامرةِ ، كذلك يُضَاعِفُ للمرءِ الصالحِ ثوابَ صدقتِهِ بالمالِ الطيِّب إذا وضعَهُ في موضعِهِ. يضاعفُ لمن يشاءُ من السَّبْعِ إلى السَّبعين إلى سبعمائة إلى مائةِ ألْفٍ إلى ما شاءَ الله من الأضعافِ مِمَّا لا يعلمهُ إلا هو.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } ؛ أي غَنِيٌّ بتلك الأضعافِ { عَلِيمٌ } بمَنْ يُنْفِقُ. وقيل : معناهُ : { وَاللَّهُ وَاسِعٌ } الفضلِ ، جَوَادٌ لا ينقصهُ ما يتفضَّل به من السَّعَةِ والمضاعفةِ ؛ { عَلِيمٌ } بمن يستحقُّ

الزيادةَ.

والفائدةُ في تخصيصِ السبع في الآيةِ ما قالوا : إنَّ السَّبْعَ أشرفُ الأعدادِ كما روي عنِ ابن عبَّاس أنه قالَ : (كَادَتِ الأَشْيَاءُ تَكُونُ كُلُّهَا سَبْعاً ؛ فَإِنَّ السَّمَواتِ سَبْعٌ ؛ وَالأَرْضُونَ سَبْعٌ ؛ وَالْكَوَاكِبَ السَّيَّارَةَ سَبْعٌ ؛ وَالْبحَارَ سَبْعَةٌ ؛ وَأَيَّامَ الأُسْبُوعِ سَبْعَةٌ ؛ وَسُجُودَ الْعَبْدِ عَلَى سَبْعَةِ أعْضَاءٍ).

وأجمعَ أهلُ التفسير إلا السديِّ : أنَّ العدَّة المضاعفةَ بسبعمائة مختصَّةٌ بالإنفاقِ في الجهاد ؛ وأما غيرُ ذلك من الطاعاتِ ؛ فالحسنَةُ بعشرِ أمثالها كما قالَ الله تعالى : { مَن جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا }[الأنعام : ١٦٠].

(٠/٠)

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٦٢)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَآ أَنْفَقُواْ مَنّاً وَلاَ أَذًى } ؛ نَزَلَتْ فِي شأنِ النفقةِ التي يُسْتَحَقُّ بها الثوابُ المضاعفُ ؛ معناهُ : { الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي } طاعةً اللهِ { ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَآ أَنْفَقُواْ مَنّاً } على السائلِ نحو أن يقولَ للسائل إذا وقعَ بينه وبينه خصومةٌ : أعطيتُك كذا ، وأحسنتُ إليك ، وما أشبهه مما يبغضُ على السائلِ. وأصلهُ من القَطْعِ ؛ يقال : مَنَنْتُ الشيءَ إذا قَطَعْتُهُ ؛ ومنهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ }[التين : ٦] أي غيرُ مقطوعٍ ، ويقال : جَبَلٌ مَنِيْنٌ ؛ أي مقطوعٌ. وقيل : أصل الْمِنَّةِ النعمةُ ، يقال : مِنَّ (يَمُنُّ) إذا أعْطَى وأنْعَمَ ، قال اللهُ تعالى : { هَاذَا عَطَآؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ }[ص : ٣٩] أي أعْطِ أو أمسِك.

وقال الكلبيُّ : (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي عُثْمَانَ وَعَبْدِالرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ ، أمَّا عُثْمَانُ رضي الله عنه فَجَهَّزَ الْمُسْلِمِيْنَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ بِأَلْفِ بَعِيْرٍ بِأَقْتَابِهَا وَأَحْمَالِهَا). " وروي أن عثمانَ جاء بألفِ مِثْقَالٍ في جيشِ العسرةِ فصبَّها في حِجْرِ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، فكانَ صلى الله عليه وسلم يُدْخِلُ يَدَهُ فِيْهَا وَيُقَلِّبُهَا وَيَقُولُ : [مَا يَضُرُّ عُثْمَانَ مَاذَا عَمِلَ بَعْدَ الْيَوْمِ]. وقال أبو سعيدٍ الخدري : رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم رَافِعاً يَدَيْهِ يَدْعُو لِعُثْمَانَ وَيَقُولُ : [يَا رَب ، عُثْمَانُ رَضِيْتُ عَنْهُ فَارْضَ عَنْهُ] فَمَا زَالَ يَدْعُو رَافِعاً يَدَيْهِ حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ " ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ. وأما عبدالرحمن بن عوف فقد ذكرنا صدقته.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ أَذًى } أي لا يؤذي السائلَ ؛ لا يُعَيِّرُهُ ولا يزجرهُ ؛ نحو أن يقول : أنتَ أبداً في فقرٍ وما أبلانا بكَ ، وأراحَنَا اللهُ منكَ ، وأعطيناكَ فما شكرتَ ، وما أشبه ذلك. قَالَ صلى الله عليه وسلم : " الْمَانُّ بمَا يُعْطِي لاَ يُكَلِّمُهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يَنْظُرُ إلَيْهِ وَلاَ يُزَكِّيْهِ وَلَهُ عَذَابٌ أَلِيْمٌ " فحظرَ اللهُ الْمَنَّ

بالصَّنيعة على عبادهِ واختصَّ به صفةً لنفسه ؛ لأنه مِن العبدِ تَعيْيْرٌ وَتَكْدِيْرٌ ؛ ومِن اللهِ تعالى إفْضَالٌ وَتَذْكِيْرٌ. قال بعضُهم : أفْسَدْتَ بالْمَنِّ مَا قَدَّمْتَ مِنْ حَسَنٍ لَيْسَ الْكَرِيْمُ إذَا أعْطَى بمَنَّانِقَوْلُهُ تَعَالَى : { لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ } ؛ أيْ { لا خَوْفٌ عَلَيْهُمْ } فيما يستقبلُهم من أهوالِ يوم القيامةِ ، { وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ } على ما خلَّفوا في الدُّنيا.

(٠/٠)

قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (٢٦٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى } ؛ أي كلام حسنٌ وردٌّ جميلٌ على السائلِ ولطفٌ به ودعاءٌ له بالسعةِ ؛ وتجاوزٌ عن مَظْلَمَةٍ ؛ وعدة حسنةٌ { خَيْرٌ } عندَ الله { مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى } لأن الصدقةَ إذا أتبعَها الآذى ذهبَ المالُ والثواب جميعاً. وقال الضحَّاك : (مَعْنَى الآيَةِ : قَوْلٌ فِي إصْلاَحِ ذاتِ الْبَيْنِ).

قوله : { وَمَغْفِرَةٌ } ؛ قال ابنُ جرير : (وَمَعْنَى { وَمَغْفِرَةٌ } أيْ سَتْرُ مِنْهُ عَلَيْهِ لِمَا عَلِمَ مِنْ خَلَّتِهِ وَفَاقَتِهِ).

وقيل : يتجاوزُ عن السائلِ إذا استطالَ عليه عندَ ردِّه ؛ علمَ الله أنَّ الفقيرَ إذا رُدَّ بغيرِ شيء شُقَّ عليهِ ذلك ، فربَّما دعاهُ ذلك إلى بذاءةِ اللسان وإظهار الشكوى ، وعَلِمَ ما يلحقُ المانع منه فحثَّه على العَفْوِ والصَّفْحِ.

رُوي عن رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم أنهُ قالَ : " إذا سَأَلَ السَّائِلُ فَلاَ تَقْطَعُواْ عَلَيْهِ مَسْأَلَتَهُ حَتَّى يَفْرَغَ مِنْهَا ، ثُمَّ رُدُّوهَا عَلَيْهِ بوَقَارٍ وَلِيْنٍ وَببَذْلٍ يَسِيْرٍ أوْ رَدٍّ جَمِيْلٍ ، فَإنَّهُ قَدْ يَأْتِيكُمْ مَنْ لَيْسَ بإنْسٍ وَلاَ جَانٌ يَنْظُرُ كَيْفَ صُنْعُكُمْ فِيْمَا خَوَّلَكُمُ اللهُ مِنَ النِّعَمِ ".

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ } ؛ أي { غَنِيٌّ } عن صدقاتِ العباد ، { حَلِيمٌ } إذا لم يعجِّل بالعقوبةِ على الذي " مَنَّ " بصدقتِه. روى بشْرُ بنُ الحارثِ ؛ قال : رَأيْتُ عَلِيّاً رضي الله عنه فِي الْمَنَامِ ، فَقُلْتُ لَهُ : يَا أمِيْرَ الْمُؤْمِنِيْنَ ، تَقُولُ شَيْئاً لَعَلَّ اللهَ يَنْفَعُ بِهِ ؟ فَقَالَ لِي : مَا أحْسَنَ عَطْفَ الأَغْنِيَاءِ عَلَى الْفُقَرَاءِ رَغْبَةً فِي ثَوَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَأحْسَنَ مِنْهُ صَبْرُ الْفُقَرَاءِ عَنِ الأَغْنِيَاءِ ثِقَةً باللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

(٠/٠)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤) وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٦٥)

قوله عَزَّ وجَلَّ : { ياأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَآءَ النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ } ؛ أي تبطِلوا صدقاتِكم بذلك كإبطالِ مَن ينفقُ ماله مُرَاءَاةً وسُمعةً لِيَرَواْ نفقتهُ ويقال : إنه سخيٌّ كريم صالحٌ ، يعني بذلك المنافقَ الذي ينفقُ ماله لا رغبةً في الثواب ولا رهبةً من العقاب ، بل خوفاً من الناس ورياءً لهم أنه مؤمنٌ. { فَمَثَلُهُ } ؛ أي مَثل نفقةِ هذا المنافق الْمُرَائي ؛ { كَمَثَلِ صَفْوَانٍ } ؛ أي كحَجَرٍ أملسٍ ؛ { عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ } ؛ أي مطرٌ كثير شديدُ الوقعِ فذهب بالتراب الذي كان " على " الحجرِ ، وبقيَ الحجرُ يابساً لا شيءَ عليه.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَتَرَكَهُ صَلْداً } ؛ أي حَجَراً صَلْباً أمْلساً لا يبقى عليه شيء ، وهو مِن الأرضِ ما لا يُنْبتُ ، ومن الرؤوسِ ما لا شعرَ عليه. قال رُؤْبَةُ : ..... بَرَّاقُ أصْلاَدِ الْجَبينِ

الأَجْلَهِوهذا مثلٌ ضربه اللهُ لنفقةِ المنافق والمرائي والمؤمن الذي يَمُنُّ بصدقته ويؤذي ؛ يعني أنَّ الناس يرونَ أن لهؤلاء أعمالاً كما ترَى الترابَ على هذا الصَّفوان ، وإذا كان يومُ القيامة اضمحلَّ وبَطَلَ ؛ لأنهُ لم يكن للهِ كما أذهبَ الوابلَ ما كان على الصَّفوانِ من التراب ، { فَتَرَكَهُ صَلْداً } لا شيءَ عليه.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ } ؛ أي لا يقدرُ الْمَانُّ بنفقتهِ والمؤذي والمنافقُ على ثواب شيء مما أنفقُوا ، كما لا يقدرُ أحدٌ من الخلقِ على التراب الذي كان على الحجرِ الأملس بعدما أذهبَه المطرُ الشديد.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ } ؛ أي لا يهديهم حتى يُخلصوا أعمالَهم. وقيل : لا يهديهم بالمثوبة لهم كما يهدي المؤمنينَ.

وأصلُ الوَابلِ من الوَبْلِ وهو الشديدُ كما قالَ تعالى : { أَخْذاً وَبِيلاً }[المزمل : ١٦]. ويقال : وَبَلَتِ السَّمَاءُ تَبلُ ؛ إذا اشتدَّ مطرُها. والصَّلْدُ : الحجرُ الأملسُ الصلبُ ، ويسمى البخيل صَلْداً تشبيهاً له بالحجرِ في أنه لا يخرجُ منه شيء. ويقال للأرضِ التي لا تُنْبتُ شيئاً : صُلْداً ، وصَلَدَ الزَّنْدُ صُلُوداً إذ لَمْ يُور نَاراً.

وفي الآية دلالةٌ على أنَّ الصدقةَ وسائرَ القُرَب إذا لم تكن خالصةً لله تعالى لا يتعلَّقُ بها الثوابُ ، ويكونُ فاعلها كمن لا يفعلُ ؛ ولهذا قالَ أصحابُنا : لا يجوزُ الاستئجارُ على الحجِّ وسائر الأفعالِ التي من شرطِها أن تُفعل على وجهِ القربةِ ؛ لأن أخذَ الأجرَةِ عليها يُخرجها من أنْ تكون قربةً.

ثم ضربَ جَلَّ ذِكْرُهُ لنفقةِ المخلصين المثيبين مثلاً آخرَ أعلى من المثلِ الأول فقالَ : { وَمَثَلُ الَّذِينَ

يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَآءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتاً مِّنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ } ؛ أي صِفَةُ الذين ينفقون أموالهم لطلب رضا الله تصديقاً وحقيقةً. قال الشعبيُّ والكلبي والضحَّاك : { يَعْنِي تَصْدِيْقاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، يُخْرِجُونَ الزَّكَاةَ طَيِّبَةً بهَا نُفُوسُهُمْ).

(٠/٠)

أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢٦٦)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ } ؛ الآية ؛ هذا استفهامٌ في الظاهرِ يقتضي في الحقيقةِ تقديراً : أي لا يَوَدُّ أحدُكم كقولهِ تعالى : { أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً }[الحجرات : ١٢].
ومعنى الآية : يتمنَّى أحدُكم أن يكونَ له بستانٌ من نخيل وكَرْمٍ ؛ تجري من تحتِ شجرِها ومساكنِها وغرفِها الأنْهارُ ، له في الجنةِ من ألوانِ الثمار كلِّها ، وأصابَه الْهَرَمُ والضعفُ وله أولادٌ ضعاف عَجَزَةٌ عن الحيلة ، { فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ } ، يعني تلكَ الجنةَ. والإعصارُ : ريْحٌ عاصفُ تَهُبُّ به مِن الأرضِ بالشدة كالعمودِ إلى نحو السماءِ ، وتسميها العربُ الزَّوْبَعَةَ ، وسُميت إعصاراً لأنَّها تعلُو كثوبٍ عُصِرَ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ } ؛ أي الجنةَ. وهذا مثلٌ ضربه الله لنفقةِ المنافقِ والمرائي ، تقولُ عَمَلُ هذا المرائي في حُسنه كحُسن الجنةِ ينتفعُ بها كما ينتفعُ صاحب الجنةِ ، فإذا كَبُرَ وضَعُفَ فصار له أولادٌ صغار ضِعَافٌ ، أصاب جنتَهُ إعصارٌ فيه نارٌ ، فاحترقت عندما هو أحوجُ إليها وضَعُفَ عن إصلاحِها لِكِبَرِهِ وضَعُفَ أولادهُ عن أصلاحِها لِصِغَرِهِمْ ؛ وعجزِهِ وعجزِهم من أن يَغْرِسُوا مثلها ، لا يُرَدُّ عليه شبابهُ وقوته ليغرسَ ، فيحزنَ ويغتَمَّ ويهلك أسفاً وتحسُّراً على ذلك ، فلا هو يجدُ شيئاً يعيشه ولا معَ أولاده شيءٌ يعودون به عليه ، فبقي هو وأولادهُ فُقَراءَ عجزةً متحيرينَ لا يقدرون على حيلةٍ ،
فكذلك يُبْطِلُ اللهُ صدقةَ هذا المرائي والمنافقُ والْمَانُّ بصدقتهِ ؛ حيثُ لا يسمع مستغيثَ لهما ولا توبةَ ولا إقالة ، يُحْرَمُ أجرَها عند أفقرِ ما يكونُ إليها ، ويرى في القيامةِ أعمالَه هباءً منثوراً ، ولا يؤذنُ له في الرجوعِ إلى الدنيا ليتصدَّق وليكون من الصالحين.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ } أي كهذا البيانِ الذي بَيَّنَ اللهُ لكم فيما تقدَّم ؛ ويبيِّن لكم الدلالات والعلامات لكي تتفكَّروا فتعتَبروا.
فإنْ قيلَ : قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ } فعلُ مستقبلٍ ، وقوله : { وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ } فعلُ ماضٍ ، فكيفَ

عطفَ الماضي على المستقبلِ ؟ والجوابُ من وجهين :
أحدُهما : أن (قد) ها هنا مقدَّرة ؛ المعنى وقد أصابهُ الكِبَرُ ، فيكون للحالِ كما قالَ في آيةٍ أخرى : { وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ }[يوسف : ٢٧] أي قَدْ قُدَّ.
والثَّاني : أنَّ (يودُّ) يقتضي أن يكون في خبرِهِ (لو) كما في قولِهِ : { يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ }[البقرة : ٩٦] وقولِهِ : { وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ }[النساء : ٨٩] ويقتضي أن يكون في أخْبُرِهِ (إنْ) كما في هذه الآية و(لو) للماضي ، و(أنّ) للمستقبل. ثم قد تستعمل (لو) مكانَ (إن) ؛ و(إنْ) مكان (لو) يقامُ أحدهما مقام الآخر ، ويقولُ الإنسان : أنا أتَمنَّى لو كان لي ولدٌ ، ويقول : أتَمنَّى إن كان لي ولدٌ. وإذا كان معنى التمنِّي قد يقعُ على الماضي صحَّ عطفُ الماضي عليهِ.

(٠/٠)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٢٦٧)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { ياأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنْفِقُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ } ؛ أي أنفقوا من خِيار ما كسبتم ، وخيارهُ نظيرهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ }[آل عمران : ٩٢]. وقال ابن مسعودٍ ومجاهد : (مِنْ حَلاَلِ مَا كَسَبْتُمْ مِنَ الأَمْوَالِ) دليلهُ : { ياأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ }[المؤمنون : ٥١] وقال عَلَيْهِ السَّلاَمُ : " إنَّ اللهَ طَيِّبٌ لاَ يُحِبُّ إلاَّ الطَّيِّبَ ، لاَ يَكْسَبُ عَبْدٌ مَالاً مِنْ حَرَامٍ فَيَتَصَدَّقُ بِهِ فَيُقْبَلُ مِنْهُ ؛ وَلاَ يُنْفِقُ فَيُبَارِكُ لَهُ فِيْهِ ، وَلاَ يَتْرُكُهُ خَلْفَهُ إلاَّ كَانَ زَادَهُ إلَى النَّار ، وَإنَّ اللهَ لاَ يَمْحُو السَّيِّءَ بالسَّيِّءِ ، وَلَكِنْ يَمْحُو السَّيِّءَ بالْحَسَنِ ، وَإنَّ الْخَبِيْثَ لاَ يَمْحُو الْخَبِيْثَ ".
وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ } أي من أعشار الحبوب والثمار.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ } ؛ أي لا تعمَدُوا إلى الرَّدِيء من أموالِكم منه تتصدقون ، ولستم بقابضِيه وقابليهِ (إلا أنْ تُغْمِضُوا فِيهِ) ، يقول : لو كانَ لبعضِكم على بعضٍ حقٌّ فجاءَ بدون حقِّه ، لم يأخذ منهُ إلا أن يَتَغَامَضَ له عن بعضِ حقِّهِ ويتسامَحَ عن عيبٍ فيه ، فكيفَ تُعطونه في الصدقةِ.
وقد رُوي في سبب نزول هذه الآية " أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم حَثَّ النَّاسَ عَلَى الصَّدَقَةِ وَقَالَ : [إنَّ للهِ فِي أمْوَالِكُمْ حَقّاً]. فَكَانَ يَأْتِي أهْلُ الصَّدَقَةِ بصَدَقَاتِهِمْ فَيَضَعُونَها فِي الْمَسْجِدِ ، فَيُقَسِّمُهَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم بَيْنَهُمْ ، فَجَاءَ رَجُلٌ ذاتَ يَوْمٍ بَعْدَمَا تَفَرَّقَ عَامَّةُ أهْلِ الْمَسْجِدِ بعَذْقٍ مِنْ حَشَفٍ

فَوَضَعَهُ فِي الصَّدَقَةِ ، فَلَمَّا أبْصَرَهُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ : [بِئْسَ مَا صَنَعَ صَاحِبُ الْحَشَفِ] فأَمَرَ بِهِ فَعُلِّقَ ، فَجَعَلَ كُلُّ مَنْ يَرَاهُ يَقُولُ : بِئْسَ مَا صَنَعَ صَاحِبُ الْحَشَفِ " ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةِ.

وقال بعضُهم : معنى : { وَلاَ تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ } أي لا تتصدَّقوا بالحرامِ. فيكون معنى (إلا أنْ تُغْمِضُوا فِيهِ) على هذا التأويلِ : إلاَّ أن تَتَرَخَّصُواْ في تناولهِ إنْ كان حَرَاماً. والإغماضُ : تركُ النظرِ ، يقال في الْمَثَلِ : أغْمِضْ فِي هَذَا وَغَمِّضْ ؛ أي لا تَسْتَقْصِ وكُنْ كأنَّكَ لَمْ تُبْصِرْ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ } ؛ أي { غَنِيٌّ } عن صدقاتِكم محمودٌ في أفعالهِ ، ولم يأمرْكم بالصدقةِ عن عِوَضٍ ولكن بلاكُم بما أمركم ، فهو مستحقٌ للحمدِ على ذلك وعلى جميعِ أمرهِ.

وفي الآية إباحةُ الكسب وإخبارٌ أن فيه ما هو طيِّب ، قالَ صلى الله عليه وسلم : " وَالْخَيْرُ عَشْرَةُ أجْزَاءٍ أفْضَلُهَا التِّجَارَةُ إذَا أخَذَ الْحَقَّ وَأعْطَى الْحَقَّ " وَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " تِسْعَةُ أعْشَارِ الرِّزْقِ فِي التِّجَارَةِ ، وَلاَ يَفْتَقِرُ مِنَ التُجَّارِ إلاَّ تَاجِرٌ حَلاَّفٌ " " سُئِلَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم : أيُّ كَسْبَ الرِّزْقِ أفْضَلُ ؟ قَالَ : [عَمَلُ الرَّجُلِ بِيَدَيْهِ ، وَكُلُّ بَيْعٍ مَبْرُورٍ] " وقالَ صلى الله عليه وسلم : " يَا مَعْشَرَ التُّجَّارِ ، إنَّ هَذَا الْبَيْعَ يَحْضُرُهُ اللَّغْوُ وَالْكَذِبُ ، فَشُوبُوهُ بالصَّدَقَةِ ".

(٠/٠)

الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦٨)

قولهُ عَزَّ وَجَلَّ : { الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَآءِ } ؛ أي الشيطانُ يَعِدُكُمْ بالفقرِ فحذفَ الباءَ كقولِ الشاعرِ : أمَرْتُكَ الْخَيْرَ لَكِنْ مَا ائْتَمَرْتَ بِهِ فَقَدْ تَرَكْتَ ذا مَالٍ وَذا نَشَبِويقال : وَعَدْتُهُ خَيْراً ؛ وَوَعَدْتُهُ شَرّاً ، وقالَ اللهُ تعالى في الخيرِ : { وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً }[الفتح : ٢٠] وقال في الشَّرِّ : { النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ }[الحج : ٧٢] وإذا لم تَذْكُرِ الخيرَ والشرَّ ؛ قُلْتَ في الخيرِ : وَعَدْتُهُ ؛ وفي الشرِّ : أوْعَدْتُهُ. قال الشاعرُ : وَإنِّي إذا أوْعَدْتُهُ أوْ وَعَدْتُهُ لَمُخْلِفٌ مِيْعَادِي وَمُنْجِزٌ مَوْعِدِيومعنى : { يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ } أي يخوِّفُكم الفقرَ بالنفقةِ في وجوهِ البرِّ وإنفاقِ الجيِّد من المالِ ، وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَآءِ } أي بالبخلِ ومنعِ الزكاة ، وزَعَمَ الكلبيُّ أن كلَّ فَحشاءٍ في القرآن فهو زنَا إلا في هذه الآيةِ ، وإنما سُمي منعُ الزكاة فحشاءً ؛ لأن العربَ تسمي البخيلَ فاحشاً ؛ والبخلَ فحشاءً. والفقرُ : سُوءُ الحالِ وقلةُ ذاتِ اليد ، وفيه لغتان : الْفَقْرُ وَالْفَقْرُ ، كالضَّعفِ والضُّعفِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً } ؛ أي { مَّغْفِرَةً } لذنوبكم بالإنفاقِ من خِيَارِ الأموالِ ، { وَفَضْلاً } أي خلفاً في الدُّنيا والآخرةِ ، { وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } ؛ يوسِعُ الرزقَ والخلفَ والمثوبةَ ، ويعلمُ

حيث ينبغي أن تكونَ السَّعَةُ ، قال ابنُ عباس وابن مسعودٍ : (ثِنْتَانِ مِنَ اللهِ وَثِنْتَانِ مِنَ الشَّيْطَانِ ؛ فَمِنَ اللهِ الْمَغْفِرَةُ وَالْفَضْلُ ، وَمِنَ الشَّيْطَانِ الْفَقْرُ وَالْفَحْشَاءُ). ووعدُ الشيطانِ وَسَاوسُ وتَخَيُّلٌ ؛ أي يُخَيِّلُ إلَيْكَ أنَّكَ إنْ أمْسَكْتَ مالَكَ استغنيتَ ، وإن تصدقتَ به افتقرتَ.

(٠/٠)

يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٢٦٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ } ؛ اختلفوا في تفسيرِ الحكمة ؛ قال ابنُ مسعود : (هِيَ الْقُرْآنُ). وقال ابنُ عباس وقتادةُ : (عِلْمُ نَاسِخِ الْقُرْآنِ وَمَنْسُوخِهِ ؛ وَمُحْكَمِهِ وَمُتَشَابِهِهِ ؛ وَمُقَدَّمِهِ وَمُؤَخَّرِهِ ؛ وَحَلاَلِهِ وَحَرَامِهِ ؛ وَأَمْثَالِهِ ؛ وَغَيْرِهِ). وقال السديُّ : (هُيَ النُّبُوَّةُ). وقال أبو العاليةِ : (هِيَ الْفِقْهُ). وقال مجاهدُ وإبراهيم : (هِيَ الإِصَابَةُ وَالْفَهْمُ). وقال الربيع : (هِيَ خِشْيَةُ اللهِ تَعَالَى). وقال سهلُ بن عبدِالله : (هِيَ السُّنَّةُ). وقيل : هي سرعةُ الجواب مع إصابةِ الصواب ، واللهُ أعلمُ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً } ؛ أي من يُعْطَ العلمَ فقد أُعطيَ خيراً كثيراً يصلُ به إلى رحمةِ اللهِ تعالى. قال بعضُ الحكماء : سَمَّى اللهُ العلمَ خيراً كثيراً ، والدنيا مَتَاعاً قليلاً ، فينبغي لِمن أُوتِيَ العلمَ أن يعرفَ قَدْرَ نفسهِ ولا يتواضعَ لأصحاب الدنيا لدنياهم. وقال الحسنُ : (وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ ؛ يَعْنِي الْوَرَعَ فِي دِيْنِ اللهِ).

قرأ الربيعُ : (تُؤتِي الْحِكْمَةَ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ) بالتاءِ ، وقرأ يعقوب : (وَمَنْ يُؤْتِ الْحِكْمَةَ) بكسرِ التاء ، أرادَ ومن يُؤْتِهِ الله ؛ فحذف الهاءَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ } ؛ وما يَتَّعِظُ إلا ذوُو العقولِ ؛ واللُّبُّ من العقلِ ما صَفِيَ عن دواعي الهوى ، وَسُمِّي العقلُ لُبّاً لأنه أنْفَسُ ما في الإنسان كما أن لُبَّ الثمرةِ أنفسُ ما فيها.

(٠/٠)

وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٢٧٠)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { وَمَآ أَنفَقْتُمْ مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ } ؛ أي ما تصدَّقتم بهِ مِن صدقةٍ أو أوجبتُمُوه على أنفسِكم من فعلِ برٍّ مثلَ صلاةٍ أو صدقةٍ أو صومٍ ، فإنَّ اللهَ لا يخفَى عليه ذلكَ ويقبلَه

ويجازي عليهِ.
ويقالُ : معنى { فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ } أي يحفظهُ ، وإنَّما قالَ : { يَعْلَمُهُ } ولم يقل يعلمُهَا ؛ لأنه ردَّهُ إلى الآخرِ منهُما كقولهِ تعالى : { وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً }[النساء : ١١٢]. وإنْ شئتَ حَمَلْتَهُ على (ما) التي قبلهُ كقوله تعالى : { وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ }[البقرة : ٢٣١] ولم يقل : بهما.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ } ؛ أي وما للواضعينَ النفقةَ والنَّذْرَ في غيرِ موضعِهما بالرِّيَاءِ والمعصيةِ ونحوِهما (مِنْ) أعوانٍ يدفعون عنهم العذابَ. والأَنْصَارُ : جمع نَصِيْرٍ مثل جَنِيبٍ وأجنابٍ وشريفٍ وأشرافٍ.

(٠/٠)

إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٧١)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { إِن تُبْدُواْ الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ } ؛ وذلك أنَّهم قالوا : يَا رَسُولَ اللهِ ، مَنْ أفْضَلُ ؛ صَدَقَةُ السِّرِّ أوْ صَدَقَةُ الْعَلاَنِيَةِ ؟ فأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ. ومعناها : إنْ تُظهروا الصدقات وتُعلنوها ؛ فَنِعِمَّا الشيءُ صدقةُ العلانيةِ.
وأصلُ { فَنِعِمَّا هِيَ } : فَنِعِمَا مَا هِيَ ؛ فَوُصِلَتْ وأُدْغِمَتْ. وكان الحسنُ يقرأ : (فَنِعِمَا مَا هِيَ) مفصولةً عن الأصلِ ؛ أي نِعْمَتِ الخصلةُ. و(ما) في موضعِ الرفع و(هِيَ) في محلِّ النصب كما يقول : نِعِمَّا الرجلُ رَجُلاً ، فإذا عَرَّفْتَ رَفَعْتَ وَقُلْتَ : نِعْمَ الرَّجُلُ زَيْدٌ.
وقرأ أبو جعفر ونافعُ وشيبة وعاصمُ وأبو عمرو بكسرِ النونِ وجزمِ العين ، ومثلهُ في سورةِ النساء ، واختارهُ أبو عبيدةَ وذلك أنَّها لغةُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم حين قال لَعَمْرِو بنِ العَاصِ : " نِعْمَ الْمَالُ الصَّالِحُ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ ".
وقرأ ابنُ عامرٍ ويحيى بن وثابٍ والأعمشُ وحمزة والكسائي وخلفُ بفتح النونِ وكسرِ العين. وقرأ طلحةُ وابن كثيرٍ وورش وحفصُ ويعقوب وأيوب بكسر النون والعين. وهي لغاتٌ صحيحةٌ.
قولهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ } ؛ أي وإن تُسرُّوها وتعطوها الفقراءَ سِرّاً فهو خيرٌ لكم وأفضلُ من العلانيةِ ، وكلاهُما مقبولٌ منكم إذا كانت النيةُ صادقةً ، ولكن صدقةُ السرِّ أفضلُ ، قال صلى الله عليه وسلم : " صَدَقَةُ السِّرِّ تُطْفِئُ غَضَبَ الرَّب ، وَتُطْفِئُ الْخَطِيْئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ ، وَتَدْفَعُ سَبْعِيْنَ بَاباً مِنَ الْبَلاَءِ ".

وقَالَ صلى الله عليه وسلم : " سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إلاَّ ظِلُّهُ : الإمَامُ الْعَادِلُ ، وَشابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بالْمَسْجِدِ ، وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي اللهِ ؛ فَاجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذاتُ حُسْنٍ وَجَمَالٍ ؛ فَقَالَ : إنِّي أخَافُ اللهَ ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لاَ تَعْلَمَ يَمِيْنُهُ مَا تُنْفِقُ شِمَالُهُ ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِياً فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ ".

قال أهلُ المعاني : هذهِ الآيةُ في صدقةِ التطوعِ ، ولإجماعِ العلماءِ أنَّ الزكاةَ المفروضةَ إعلانُها أفضلُ كالصلاةِ المفروضةِ في الجماعةِ أفضلُ من إفرادِها ، وكذلكَ سائرُ الفرائضِ ؛ لمعنيينِ ؛ أحدِهما : ليقتدي به الناسُ ، والثاني : لزوالِ التهمةِ ؛ لِئَلاَّ يسيءَ به الناسُ الظنَّ ، ولا رياءَ في الفرضِ.

وأما النوافلُ والفضائلُ فإخفاؤها أفضلُ لِبُعْدِهَا عن الرياءِ ، يدلُّ على صحَّةِ هذا التأويلِ ما روي عن أبي جعفرَ في قولهِ تعالى : { إِن تُبْدُواْ الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ } قالَ : (يَعْنِي الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَآءَ } يَعْنِي التّطَوُّعَ). وعن ابنِ عباس أنه قالَ : (جَعَلَ اللهُ صَدَقَةَ التَّطَوُّعِ فِي السِّرِّ تَفْضُلُ عَلاَنِيَتَهَا بسَبْعِيْنَ ضِعْفاً ، وَصَدَقَةُ الْفَرِيْضَةِ تُفْضُلُ عَلاَنِيَتُهَا سِرَّهَا بخَمْسٍ وَعِشْرِيْنَ ضِعْفاً).

وَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " الْمُسِرُّ بالْقُرْآنِ كَالْمُسِرِّ بالصَّدَقَةِ ، وَالْجَاهِرُ بالْقُرْآنِ كَالْجَاهِرِ بالصَّدَقَةِ "

وذهب الحسنُ وقتادةُ إلى أن الإخفاءِ في كلِّ صدقةٍ أفضل ؛ مفروضةً كانت أم تطوُّعاً.

(٠/٠)

لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٢٧٢)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَاكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ } ؛ قال ابنُ عباس والكلبيُّ : (اعْتَمَرَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم عُمْرَةَ الْقَضَاءِ ، وَكَانَتْ مَعَهُ فِي تِلْكَ الْعُمْرَةِ أسْمَاءُ بنْتُ أبي بَكْرٍ الصِّدِّيْقِ رضي الله عنه ، فَجَاءَتْهَا أُمُّهَا قُتَيْلَةُ وَجَدُّهَا أبُو قُحَافَةَ يَسْأَلُونَهَا الصِّلَةَ وَالْعَطِيَّةَ ، فَقَالَتْ : لاَ أُعْطِيْكُمْ شَيْئاً حَتَّى أسْتَأْذِنَ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم ؛ فَإنَّكُمْ لَسْتُمْ عَلَى دِيْنٍ ؛ فَاسْتَأْذَنَتْهُ فِي ذلِكَ ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ ، فَأَمَرَهَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم بالتَّصَدُّقِ عَلَيْهِمَا). وقال محمدُ بن الحنفيَّةِ : (كَانَ يَكْبُرُ عَلَى الْمُسْلِمِيْنَ التَّصَدُّقُ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ، فَأُمِرُواْ بذَلِكَ فِي غَيْرِ فَرِيْضَةٍ).

ومعنى الآيةِ : ليسَ عليكَ يا محمدُ تَحْصِيْلَ الهدى لهم بأن تَمنعهم من الصدقةِ لتحملهم على الإيْمانِ ، ولكنَّ اللهَ يُثبتُ وَيُرْشِدُ ويوَفِّقُ للخيرِ مَن يشاءُ. وروي أنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّاب رضي الله عنه رَأى رَجُلاً مِنْ أهْلِ الذِّمَّةِ يَسْأَلُ عَلَى أبْوَاب الْمُسْلِمِيْنَ ، فَقَالَ : (مَا أنْصَفْنَاكَ ؛ أخذْنَا مِنْكَ الْجِزْيَةَ وَأنْتَ شَابٌّ ؛ ثُمَّ ضَيَّعْنَاكَ الْيَوْمَ) فَأَمَرَ أنْ يَجْرِيَ عَلَيْهِ قُوتُهُ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا تُنْفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلأَنْفُسِكُمْ } ؛ أي ما تنفِقُوا من مالٍ على برٍّ أو فاجِرٍ فلأنفسِكُم ثوابهُ ونفعهُ عائدٌ إليكم ، { وَمَا تُنْفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَآءَ وَجْهِ اللَّهِ } ؛ أي عَلِمَ اللهُ أنكم لا تريدون بنفقتِكُم إلا طلبَ مرضاةِ اللهِ وإنْ كان المتصدَّق عليه كافراً.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا تُنْفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ } أي ما تتصدَّقوا به من مالٍ يوفَّ إليكم ثوابهُ في الآخرةِ ، { وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ } أي لا تُنْقَصُونَ شيئاً من ثواب أعمالِكم وصدقاتِكم.

وظاهرُ الآيةِ يقتضي جوازَ دفعِ الصدقاتِ إلى الكفَّار إلاَّ أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم خَصَّ مِنْهَا الزَّكَاةَ ؛ فَقَالَ : " أُمِرْتُ أنْ آخُذَ الصَّدَقَةَ مِنْ أغْنِيَائِكُمْ وَأرُدُّهَا عَلَى فُقَرَائِكُمْ ".

(٠/٠)

لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢٧٣)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { لِلْفُقَرَآءِ الَّذِينَ أُحصِرُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ التَّعَفُّفِ } ؛ قيل : معناهُ : ما أنفقتُم من نفقةٍ للفقراء ، وقيل : معناهُ : عليكم بالنفقةِ للفقراءِ الذين حُبسُوا في طاعةِ اللهِ ؛ أي أحْصَرَهُمْ فرضُ الجهادِ فمنعَهم من التصرُّفِ والسيرِ لطلب المعاشِ ، وهؤلاء أصحابُ الصُّفَّةِ حَبَسُوا أنفسَهم لطلب العلمِ ؛ وفضل الجمعة ؛ وخدمةِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم من أربعمائةِ رجلٍ لم يكن لهم مساكنُ ولا عشائرُ ؛ كانوا معتكفينَ في المسجدِ في صُفَّته ؛ قالوا : نخرجُ في كلِّ سَرِيَّةٍ يبعثُها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في سبيلِ الله ، فحثَّ اللهُ على الصدقةِ عليهم ، فكان الرجلُ إذا بقيَ عنده فضلٌ أتاهم به.

وقوله تعالى : { لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الأَرْضِ } الضربُ في اللغة : السَّيْرُ ، يعني لا يستطيعون سَيْراً في الأرضِ للتجارة وطلب المعيشة ، ونظيرهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ }[النساء : ١٠١] وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ }[المزمل : ٢٠]. وقالَ الشاعرُ : لَحِفْظُ الْمَالِ أيْسَرُ مِنْ فَنَائِهِ وَضَرْبٌ فِي الْبِلاَدِ بِغَيْرِ زَادِوقال ابنُ زيد : (مِنْ كَثْرَةِ مَا جَاهَدُواْ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الأَرْضِ ، فَصَارَتِ الأَرْضُ كُلُّهَا حَرْباً عَلَيْهِمْ ؛ لاَ يَتَوَجَّهُونَ فِيْهَا جِهَةً إلاَّ وَلَهُمْ فِيْهَا عَدُوٌّ). وكان السديُّ يقول : (مَعْنَى { أُحصِرُواْ } أيْ مَنَعَهُمُ الْكُفَّارُ بالْخَوْفِ مِنْهُمْ ؛ فَلاَ يَسْتَطِيْعُونَ تَفَرُّقاً فِي الأَرْضِ لِمَنْعِ الْكُفَّار إيَّاهُمْ عَنْ ذَلِكَ). وقيلَ : هذا لا يصحُّ ؛ لأنه لو كان كذلكَ لقال : حُصِروا ، بغير ألِفٍ.

وقال سعيدُ بن جبير : (هَؤُلاَءِ قَوْمٌ أصَابَتْهُمُ جِرَاحَاتٌ مَعَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ؛ فَصَارُواْ زُمَناً وَأحْصَرَهُمُ الْمَرَضُ وَالزَّمَانَةُ عَنِ الضَّرْبِ فِي الأَرْضِ). فاختارَ الكسائيُّ هذا القولَ لأنه يقال : أُحْصِرُواْ من

المرضِ والزَّمَانَةِ عن الضرب في الأرض ، ولو أراد الحبسَ قال : حُصِرُواْ ، وإنَّما الإحصارُ من الخوفِ أو المرضِ ، والحَصْرُ : الحبسُ في غيرهما.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ التَّعَفُّفِ } قرأ الحسنُ وأبو جعفر وشيبة وابنُ عامر والأعمشُ وعاصم وحمزةُ : (يَحْسَبُهُمْ) بفتحِ السينِ في جميع القرآن ، والباقون بالكسرِ.

ومعنى الآية : يظنُّهم الجاهلُ بأمرِهم وشأنِهم أغنياءَ من التعفُّفِ عن السؤالِ ؛ لِتَجَمُّلِهِمْ باللباسِ وكَفِّهِم عن المسألةِ. والتعفُّفُ يُذْكَرُ ويراد به تَرْكَ المسألةِ كما قالَ صلى الله عليه وسلم : " مَنِ اسْتَغْنَى أغْنَاهُ اللهُ تَعَالَى ، وَمَنِ اسْتَعَفَّ أعَفَّهُ اللهُ ".

قَوْلُهُ تَعَالَى : { تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ } ؛ أي تعرفهم أنتَ يا محمدُ بعلامةِ فقرهم ورَثَاثَةِ حالِهم. وقيلَ : بتخشُّعهم وتواضُعِهم. وقيلَ : بصفرة ألوانِهم من الجوعِ وقيامِ الليل وصيامِ النهار. وقيلَ : بفَرَحِهِمْ واستقامةِ حالِهم عند توارِدِ البلاءِ عليهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً } ؛ قال عطاءُ : (إذَا كَانَ عِنْدَهُ غَدَاءٌ لاَ يَسْأَلُ عَشَاءً ، وَإنْ كَانَ عِنْدَهُ عَشَاءٌ لاَ يَسْأَلُ غَدَاءً). وقال أهلُ المعاني : { لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً } ولا غيرَ إلحافٍ ؛ أي ليس لهم سؤالٌ فيكون إلحافاً ، والإلْحَافُ : الإلْحَاحُ ، دليلُ هذا القولِ قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ التَّعَفُّفِ } أي من القناعةِ ، ولو كانوا يسألونَ لكان يعرفُهم بالسؤالِ لا بالسيماءِ.

(٠/٠)

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ } ؛ قال ابنُ عباس ومقاتلُ : (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي عَلِيٍّ رضي الله عنه ؛ كَانَتْ لَهُ أرْبَعَةُ دَرَاهِمَ لَمْ يَمْلِكْ غَيْرَهَا ؛ فَتَصَدَّقَ بدِرْهَمٍ لَيْلاً ؛ وَبدِرْهَمٍ نَهَاراً ؛ وَبدِرْهَمٍ سِرّاً ؛ وَبدِرْهَمٍ عَلاَنِيَةً ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ).

وعن ابنِ عباس قال : (لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى : { لِلْفُقَرَآءِ الَّذِينَ أُحصِرُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ }[البقرة : ٢٧٣] بَعَثَ عَبْدُالرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ بدَنَانِيْرَ كَثِيْرَةٍ إلَى أصْحَاب الصُّفَّةِ حَتَّى أغْنَاهُمْ ؛ وَبَعَثَ عَلِيُّ بْنُ أبي طَالِبٍ رضي الله عنه فِي جَوْفِ اللَّيْلِ بوِسْقٍ مِنَ التَّمْرِ – وَالْوِسْقُ سُتُّونَ صَاعاً فَكَانَ أحَبُّ الصَّدَقَتَيْنِ إلَى اللهِ تَعَالَى صَدَقَةُ عَلِيٍّ رضي الله عنه وَنَزَلَ فِيْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى : { الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً } أرَادَ باللَّيْلِ سِرّاً صَدَقَةَ عليٍّ رضي الله عنه وَبالنَّهَار عَلاَنِيَةً صَدَقَةَ عَبْدِالرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ رضي

الله عنه).

وروي أيضاً عن ابنِ عباس في هذه الآية { الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ } : يَعْنِي فِي عَلْفِ الْخَيْلِ الْمُرْتَبطَةِ فِي سَبيْلِ اللهِ. وكان أبو هريرةَ إذا مَرَّ بفَرَسٍ سَمِيْنٍ تَلاَ هَذِهِ الآيَةَ ؛ فَإذا مَرَّ بفَرَسٍ أعْجَفَ سَكَتَ.

وعن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أنَّهُ قَالَ : " مَنِ ارْتَبَطَ فَرَساً فِي سَبيْلِ اللهِ وَأنْفَقَ عَلَيْهِ احْتِسَاباً ؛ كَانَ شَبَعُهُ وَجُوعُهُ وَرَيُّهُ وَظَمَؤُهُ وَبَوْلُهُ وَرَوْثُهُ فِي مِيْزَانِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ " وقال صلى الله عليه وسلم : " الْمُنْفِقُ فِي سَبيْلِ اللهِ عَلَى فَرَسِهِ كَالْبَاسِطِ كَفَّيْهِ بالصُّرَّةِ ".

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ } قال الأخفشُ وقُطْرُبُ : (جَعَلَ الْخَبَرَ بالْفَاءِ ؛ لأَنَّهُ فِي مَعْنَى (مَن) ، وَجَوَابُ (مَن) بالْفَاءِ ؛ كَأَنَّهُ قَالَ : مَنْ أنْفَقَ كَذَا فَلَهُ أجْرُهُ عِنْدَ رَبِه). وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ } قد تقدَّم تفسيرهُ.

(٠/٠)

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَاواْ لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ } ؛ معناهُ : { الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَاواْ } في الدنيا { لاَ يَقُومُونَ } في الآخرةِ من قبورهم لِعِظَمِ بطونِهم ، { إِلاَّ كَمَا يَقُومُ } في الدنيا الذي يضرِبُه ويصيبهُ { الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ } أي مِن الجنونِ. روي أنَّهم يُبعثونَ يوم القيامةِ وقد انتفخت بطونُهم كلَّما قامُوا سقطُوا والناسُ يَمشونَ عليهم وهم كالْمَجَانِيْنِ. قال الحسنُ : (هَذِهِ عَلاَمَةُ أكْلِ الرِّبَا ؛ يُعْرَفُونَ بهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَاواْ } ؛ ومعناهُ : كان الرجلُ إذا حلَّ مالهُ بعد الأجلِ طلبَهُ ؛ فيقول المطلوبُ : زدني في الأجل وأزيدُك في مالِكَ. فيفعلان ذلكَ ؛ فإذا قيلَ لهم : إن هذا ربَا ؛ قالوا : هُما سواءٌ ؛ والزيادةُ في آخرِ البيع بعد الأجلِ كالزيادة في أوَّلِ البيع إذا بعتَ بالنسيئةِ سواءٌ. وليس الأمرُ كما توهَّموا ؛ لأن الزيادةَ في الثمنِ في آخر البيعِ لأجْل الإبعاد في الأجَلِ بعدما صارَ الثمنُ دَيناً في الذمة يكون عِوَضاً عن الأجلِ ؛ والاعتياضُ عن الأجل باطلٌ ، وأما الزيادةُ في الثمنِ في أصل العقدِ فتكون مقابلةً للبيعِ ، ويجوزُ بيعُ المبيع بثمنٍ قليل وثَمن كثيرٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَاواْ } ؛ أي أحلَّ الزيادةَ في أول البيعِ وحرَّم الزيادة في آخرِهِ ؛

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَمَن جَآءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّنْ رَّبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ } ؛ أي فمن جاءه زَجْرٌ من ربهِ ونُهِيَ عن الرِّبَا فانتهَى فلهُ ما مضى من أكلهِ الرِّبَا قبل النهي ؛ أي لا إثْمَ عليهِ في ذلكَ ، وأمرُهُ فيما بقيَ من عمرهِ إلى اللهِ ؛ إنْ شاءَ عَصَمَهُ وإن شاءَ لَمْ يَعْصِمْهُ. وقيل : معناهُ : { فَلَهُ مَا سَلَفَ } أي لهُ ما أخذَ من الربا قبل التحريمِ ، { وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ } في المستأنفِ في العفوِ والتجاوز.

وإنَّما لم يقل : فَمَنْ جَاءَتهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبهِ ؛ لأن تأنيثَ الموعظةِ ليس بحقيقيٍّ ، فيجوزُ تذكيرهُ ويجوز أن ينصرفَ إلى المعنى ، كأنه قالَ : فمن جاءَهُ وعظٌ ونُهي من ربهِ عن الرِّبا.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَائِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } أي من عَادَ إلى أكلِ الربا { فَأُوْلَائِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا } دائمون إلى ما شاءَ الله. وقيل : معناهُ : مَن عادَ بعد النهي إلى قولهِ إنَّما البيعُ مثلُ الربا ؛ فأولئكَ أهلُ النار هم فيها مقيمون ؛ لأن مستحلَّ الربا كافرٌ لإنكارهِ آيةً مِن كتاب اللهِ تعالى.

وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه عن رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم أنهُ قَالَ : " سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لاَ يَبْقَى أَحَدٌ إلاَّ أَكَلَ الرِّبَا ، وَإِنْ لَمْ يَأْكُلْهُ أَصَابَهُ مِنْ غُبَارِهِ " وعن عبدِالله بن مسعودٍ قال : (آكِلُ الرِّبَا وَمُؤَكِّلَهُ وَكَاتِبُهُ وَشَاهِدُهُ إذا عَلِمُواْ بِهِ ؛ مَلْعُونُونَ عَلَى لِسَانِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ).

وقال صلى الله عليه وسلم : " الرِّبَا بِضْعٌ وَسَبْعُونَ بَاباً ؛ أَدْنَاهَا كَإِتْيَانِ الرَّجُلِ أُمَّهُ ".

والْخَبَطُ في اللغةِ هو الضربُ على غيرِ استواءٍ ؛ يقال : خَبَطَ البعيرُ إذا ضربَ بيدهِ. والْمَسُّ : الجنونُ ، يقال : رجلٌ مَمْسُوسٌ ؛ أي مجنونٌ.

(٠/٠)

يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَاواْ وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ } ؛ معناه : يُهْلِكُ اللهُ الربا ويذهبُ ببَرَكَتِهِ.

والْمَحْقُ : نقصانُ الشيءِ حالاً بعد حالٍ ، ويقال : إنَّ الربا ينقصُ حالاً بعد حالٍ إلى أن يتلفَ كلُّه. قوله : { وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ } أي يقبلُها ويعطي خَلَفها في الدنيا ، ويضاعفُ ثوابه في الآخرة واحدةً إلى عشر إلى سبعينَ إلى سبعمائةٍ إلى ما شاءَ الله من الأضعافِ. كما روي عن رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم أنهُ قالَ : " إنَّ اللهَ يَقْبَلُ الصَّدَقَاتِ وَلاَ يَقْبَلُ مِنْهَا إلاَّ الطَّيِّبَةَ ، وَيُرَبيهَا لِصَاحِبهَا كَمَا يُرْبِي أَحَدُكُمْ مُهْرَهُ وَفَصِيْلَهُ حَتَّى أَنَّ اللُّقْمَةَ تَصِيْرُ مِثْلَ أُحُدٍ ".

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ } ؛ أي يبغضُ كلَّ جاحدٍ تحريمَ الربا ؛ فاجرٍ عاصٍ بأكلهِ

واستحلالهِ. وإنَّما قالَ : { كَفَّارٍ } ولم يقل : كافرٍ ؛ ليبيِّن أن مستحلَّ الربا مع كونه كافراً كَفَّارٌ للنعمةِ. والأثيمُ : الْمَادِي في الإثْمِ ، والآثِمُ : الفاعلُ للإثْمِ.

(٠/٠)

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٧)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُواْ الصَّلَاةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ } ؛ معناهُ : { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ } باللهِ وكتبهِ ورسله وتحريمِ الربا { وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ } فيما بينهم وبينَ ربهم ، وأتَمُّوا الصلواتَ الخمس ، وأعطوا الزكاة المفروضةَ من أموالهم ، فلهُم جزاؤهم وثوابُهم في الآخرة { عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ } إذا ذبحَ الموتُ { وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ } إذا أطبقتِ النارُ على أهلها.

(٠/٠)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٧٨)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { ياأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَاوَاْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ } ؛ قال ابنُ عباس : (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي نَفَرٍ مِنْ ثَقِيْفِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَحَبِيْبٍ وَرَبِيْعَةٍ وَعَبْدِ يَالَيْلِ بَنِي عَمْرِو بْنِ عُمَيْرَ الثَّقَفِيّ ، كَانَتْ لَهُمْ دُيُونٌ عَلَى بَنِي الْمُغِيْرَةِ ؛ وَكَانَ بَنُو الْمُغِيْرَةِ يُرْبُوهُمْ ، فَلَمَّا ظَهَرَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم عَلَى أَهْلِ مَكَّةَ وُضِعَ الرِّبَا كُلُّهُ ، وَكَانَ أَهْلُ الْطَّائِفِ قَدْ صَالَحُواْ عَلَى أَنَّ لَهُمْ رِبَاهُمْ مِنَ النَّاسِ يَأْخُذُونَهُ ، وَمَا كَانَ عَلَيْهِمْ مِنْ ربَا النَّاسِ فَهُوَ مَوْضُوعٌ عَنْهُمْ لاَ يُؤْخَذُ مِنْهُمْ ، فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " أُكْتُبْ فِي آخِرِ كِتَابِهِمْ : أَنَّ لَكُمْ مَا لِلْمُسْلِمِيْنَ وَعَلَيْكُمْ مَا عَلَيْهِمْ " فَلَمَّا حَلَّ الأَجَلُ طَلَبَتْ ثَقِيْفُ مِنْ بَنِي الْمُغِيْرَةِ رِبَاهُمْ ؛ فَقَالَتْ بَنُو الْمُغِيْرَةِ : مَا بَالَنُا نَكُونُ أَشْقَى النَّاسِ ؛ وُضِعَ الرِّبَا عَنِ النَّاسِ كُلِّهِمْ وَيُؤْخَذُ مِنَّا خَاصَّةً! فَقَالَتْ لَهُمْ ثَقِيْفُ : إِنَّا صَالَحْنَا عَلَى ذلِكَ ، فَاخْتَصَمُواْ إِلَى أَمِيْنِ مَكَّةَ وَهُوَ عَتَّابُ بْنُ أُسَيْدٍ ، فَلَمْ يَدْر مَاذا يَقْضِي بَيْنَهُمْ ، فَكَتَبَ إِلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم بالْمَدِيْنَةِ ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ خِطَاباً لِثَقِيْفٍ).

ومعناها : { ياأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ } اخْشَوا اللهَ واتركوا { مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَاواْ } فإنه لم يَبْقَ غيرُ ربَاكُمْ { إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ } أي مصدِّقين بتحريم الرِّبا فهذا حكمهُ.

(٠/٠)

فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ (٢٧٩) وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ } ؛ أي إن لم تقبَلُوا أمرَ الله ولم تُقِرُّوا بتحريمِ الربا ولم تتركوهُ ، فاعلموا أنكم كفَّارٌ يحاربكم اللهُ ورسوله ؛ أي يعذِّبكم الله في الآخرة بالنار ؛ ويعذِّبكم رسولهُ في الدنيا بالسَّيْفِ. والإذْنُ : الإعْلاَمُ ، ومن قرأ (فَأْذِنُوا) أي فأعلِمُوا أصحابَكم المتمسكينَ بمثل ما أنتُمْ عليه : أنَّ مَنْ عامَلَ بالربا مستحِلاً له حاربَهم اللهُ ورسوله.

وقيل : معنَى الآيةِ : فإن لم تتركُوا ما بقيَ من الربا بعد نزولِ الأمر بتركهِ { فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ }.

ومثلُ هذا اللفظ لا يوجبُ الإكفارَ ؛ لأن لفظَ محاربة الله ورسولهِ يُطلق على ما دونِ الكفر كما في آية قُطَّاعِ الطريقِ. وهذا الحكمُ في آية الربا إنَّما هو مستقيمٌ إذا اجتمعَ أهل بلدة لهم مَنَعَةٌ وقوَّةٌ على المعاملةِ بالربا وكانوا محرِّمين له ، فإن الإمامَ يستتيبُهم ؛ فإن تابوا وإلا قاتلَهَم. وأما إذا عامَلَ واحد أو جماعةٌ قليلٌ عددهم معاملةَ الربا ، فإن الإمام يستتيبُهم ؛ فإن تابوا وإلا زَجَرَهم وحبسَهم إلى أن يُظهروا توبتهم. وقد روي عنِ ابن عباس وقتادةَ والربيعِ فيمن أرْبَا : (أنَّ الإمَامَ يَسْتَتِيْبُهُ ، فَإِنْ تَابَ وإلاَّ قَتَلَهُ). فهذا محمولٌ على أن يفعله مُستحلاً له ؛ لأنه على خلافَ بين العلماء أنه ليسَ بكافرٍ إذا اعتقدَ تحريْمَه.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُون } ؛ أي فإن رجعتُمْ عن استحلالِ الربا وأقررتُم بتحريْمِه. ويقال : إنْ تُبْتُمْ عن معاملةِ الربا { فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ } التي أسلفْتُموها بني المغيرةِ ، { لاَ تَظْلِمُونَ } بطلب الزيادة على رأسِ المال ، { وَلاَ تُظْلَمُون } بحبسِ رأس المال عنكم.

قال ابنُ عباس : (فَلَمَّا نَزَلَتْ هَاتَانِ الآيَتَانِ ، كَتَبَ بِهِمَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم إِلَى عَتَّابٍ ، فَقَرَأَهُمَا عَلَى ثَقِيْفٍ فَقَالُواْ : بَلَى ، نَتُوبُ إِلَى اللهِ فَإِنَّهُ لإِيْذَانٌ لَنَا بحَرْب اللهِ وَرَسُولِهِ ، ثُمَّ طَلَبُواْ رُؤُوسَ أَمْوَالِهِمْ مِنْ بَنِي الْمُغِيْرَةِ ، فَقَالَتْ بَنُو الْمُغِيْرَةِ : نَحْنُ الْيَوْمَ أَهْلُ عُسْرٍ وَأَخِّرُونَا إِلَى أَنْ تُدْرَكَ الثِّمَارُ ، فَأَبَواْ أَنْ يُؤَخِّرُوهُمْ ، فَنَزَلَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ } ؛ أي إن كان المطلوبُ ذا ضيقٍ وشدَّةٍ ؛ فتأخيرهُ إلى سَعَةٍ ويَسَارٍ.

وروي عن ابنِ عباس وشريحٍ وإبراهيم : (أنَّ الإنْظَارَ إنَّمَا يَجِبُ فِي الدَّيْنِ ، يَعْنِي دَيْنَ الرِّبَا خَاصَّةً). وكان شُرَيْحٌ يحبسُ المعسرَ في غيره من الديون. وعن أبي هريرةَ والحسنِ والضحَّاك : (أنَّ ذلِكَ وَاجِبٌ فِي كُلِّ دَيْنٍ) وهذا هو الأَصحُّ ؛ لأنَّ نزولَ الآية في رأسِ مال الربا لا يَمنعُ اعتبارَ سائرِ الديون بها بالاستدلال والقياسِ.

وذهبَ بعض النحويِّينَ : إلى أن الرفعَ في قوله { ذُو عُسْرَةٍ } دليل على أنه ابتداءٌ على معنى : وإن وقعَ ذو عسرةٍ ، أو وجد ذو عسرة ، ولو كان مختصّاً هذا بالربا لقال : وإنْ كان ذَا عُسْرَةٍ ، بالنصب.

(٠/٠)

وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٨١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاتَّقُواْ يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ } ؛ هذا تحذيرٌ من الله عَزَّ وَجَلَّ أن يوافي العبادُ ذلك اليومَ على غِرَّةٍ وغفلةٍ وتقصيرٍ في أوامر الله ومخالفتهِ فيما أحلَّ الله وحرَّم ، يقول : اخْشَوا عذاب يومٍ ترجعون فيه إلى جزاءِ الله.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ } ؛ أي توفَّى كلُّ نفسٍ جزاءَ ما عملت من خيرٍ أو شرٍّ ، { وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ } أي لا يُنقصُ من حسناتِهم ولا يُزاد في سيئاتِهم.

قرأ أبو عمرٍو ويعقوبُ : (تَرْجِعُونَ) بفتح التاء ، واعتبرهُ بقراءة أُبَيّ (وَاتَّقُوا يَوْمًا تَصِيْرُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ).

وقرأ الباقون (تُرْجَعُونَ) بضمِّ التاء ، اعتباراً بقراءة عبدِالله : (وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرَدُّونَ فِيهِ إِلَى اللهِ).

قال ابنُ عباس : (هَذِهِ آخِرُ آيَةٍ نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، وَذلِكَ أَنَّهُ لَمَّا حَجَّ الْبَيْتَ نَزَلَ عَلَيْهِ جِبْرِيْلُ عليه السلام وَهُوَ وَاقِفٌ بعَرَفَةَ بقَوْلِهِ تَعَالَى : { الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ }[المائدة : ٣] الآيَةُ ، ثُمَّ نَزَلَ بَعْدَ ذَلِكَ هَذِهِ الآيَةُ { وَاتَّقُواْ يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ }. قَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ، ضَعْهَا عَلَى رَأْسِ ثَمَانِيْنَ وَمِائَتَي آيَةٍ مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ، فَقُبِضَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم بَعْدَ هَذِهِ الآيَةِ بِتِسْعَةِ أَيَّامٍ).

قال المفسرونَ : " لَمَّا نزلَ على رسولِ الله صلى الله عليه وسلم { إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَّيِّتُونَ } قَالَ : [يَا لَيْتَنِي أَعْلَمُ مَتَى ذلِكَ] فأنزلَ اللهُ هذه الآية { إِذَا جَآءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ } ، قَالَ : [أَمَا إِنَّ نَفْسِي نُعِيَتْ إِلَيَّ] ثم بَكى بكاءً شديداً ، فقيلَ لهُ : يا رسولَ اللهِ ، أتبكي من الموتِ وقد غُفِرَ لك ما تقدَّمَ من ذنبكَ وما تأخرَ؟! فَقَالَ : [وَأَيْنَ خَوْفُ الْمَطْلَعِ ، وَأَيْنَ ضِيْقُ الْقَبْرِ وَظُلْمَةُ اللَّحْدِ ، وَأَيْنَ الْقِيَامَةُ وَالأَهْوَالُ] "

فعاشَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بعد نزولِ هذه الآيةِ عاماً ؛ ثم نزل قوله : { لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ }[التوبة : ١٢٨] فعاش رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه الآية عَامَهَا بستةِ أشهرٍ.

ثم لَمَّا خرجَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى حَجَّةِ الوداعِ نزلَ عليه في الطريقِ{ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلاَلَةِ }[النساء : ١٧٦] إلى آخرِها ، ثم نزلَ بعدَها وهو واقفٌ بعرفةَ{ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ }[المائدة : ٣] الآيةُ ، فعاشَ بعدها إحدَى وثَمانينَ ليلةً ، ثم نزل بعدَها آياتُ الرِّبَا. ثم نزلَ بعد ذلكَ { وَاتَّقُواْ يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ } وهي آخرُ آيةٍ نزلت ، فعاشَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بعدَها إحدَى وعشرين ليلةً ، قال ابن جُريج : (تِسْعَ لَيَالٍ). وقال ابن جُبير ومقاتلُ : (سَبْعَ لَيَالٍ). ثم ماتَ يومَ الاثنينِ لليلتين مضت من شهرِ ربيعٍ الأول حينَ زاغَتِ الشمسُ سنةَ إحدَى عشرةَ من الهجرةِ.

(٠/٠)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ } ؛ قال ابنُ عباس : (لَمَّا حَرَّمَ الرِّبَا أَبَاحَ السَّلَمَ) وَظَاهِرُ الآيَةِ عَلَى كُلِّ دَيْنٍ مِنْ سَلَمٍ وَغَيْرِهِ. ومعنى الآية : { يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا } تبايعتم بالنَّسيئةِ إلى وقتٍ معلوم فاكتبُوا الدَّين بأجلهِ وأشْهِدُوا عليه كَيْلا تحدِّث نفسُ أحدِكم بالطمعِ في حقِّ صاحبه ، ولا يقعُ شكٌّ في مقدارهِ ، ولا جحودٌ ولا نسيانٌ. والدَّين : ما كانَ مؤجَّلاً ، والعينُ : ما كان حَاضِراً.

واختلفُوا في هذه الكتابةِ أنَّها فَرْضٌ أو ندبٌ ؟ فذهبَ أبو سعيدٍ الخدري والحسنُ والشعبيُّ : (أنَّ الْكِتَابَةَ والإشْهَادَ عَلَى الدُّيُونِ الآجِلَةِ كَانَا وَاجِبَيْنِ بِهَذِهِ الآيَةِ ، ثُمَّ نُسِخَا بقَوْلِهِ تَعَالَى : { فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضاً }[البقرة : ٢٨٣]. وقال ابنُ عباس : (لاَ وَاللهِ ، إنَّ آيَةَ الدَّيْنِ مُحْكَمَةٌ مَا فِيْهَا نَسْخٌ). وهو قولُ الربيعِ وكعبٍ ، وهذا هو الأصحُّ ؛ لأن الأمرَ بالكتابةِ والإشهادِ إنَّما وردَ مقروناً بقولهِ : { فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضاً }[البقرة : ٢٨٣] ، ويستحيلُ ورودُ الناسخِ والمنسوخِ معاً في شيءٍ واحد ، فكأنَّ المرادَ بالأمرِ الندبُ.

والفائدةُ في قوله : { إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى } بيانُ إعلامِ وجوب الأجلِ ؛ فإن جهالةَ الأجلِ في الْمُبَاعَاتِ تفسدُها. وقال بعضُهم : إن الكتابةَ فرضٌ واجبٌ.

وقال ابن جُريج : (مَنْ أدَانَ دَيْناً فَلْيَكْتُبْ ، وَمَنْ بَاعَ فَلْيُشْهِدْ). يدلُّ عليه ما رُوي أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قالَ : " ثَلاَثَةٌ يَدْعُونَ اللهَ فَلاَ يُسْتَجَابُ لَهُمْ : رَجُلٌ كَانَ لَهُ دَيْنٌ فَلَمْ يُشْهِدْ ، وَرَجُلٌ أعْطَى سَفِيْهاً مَالاً وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : { وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَآءَ أَمْوَالَكُمُ } ، وَرَجُلٌ كَانَتْ عِنْدَهُ امْرَأةٌ سَيِّئَةُ الْخُلُقِ فَلَمْ يُطَلِّقْهَا ".

وقال قومٌ : هو مستحبٌ ؛ وإن كتَبَ فحسنٌ وإن تركَ فلا بأسَ ، كقولهِ تعالى : { وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُواْ }[المائدة : ٢] وقولهِ تعالى : { فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاَةُ فَانتَشِرُواْ }[الجمعة : ١٠].

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ } ؛ قرأ الحسنُ : (وَلِيَكْتُبْ) بكسرِ اللام وهذه لامُ الأمرِ ، وهي إذا كانت مفردةً " سُكِّنَتْ " طلباً للخفَّةِ ، ومنهم من يكسِرُها فليس فيها إلا الحركةُ ، وإذا كان قبلَها (واو) أو (فاء) أو (ثُمَّ) فأكثرُ العرب على تسكينِها طلباً للخفَّةِ. ومنهم من يكسِرُها على الأصلِ.

ومعنى هذه الآيةِ : وَلْيَكْتُبْ كاتبٌ بين البائعِ والمشتري ؛ والطالب والمطلوب بالحقِّ والإنصافِ ، فلا يزادُ فيه ولا ينقصُ منه ، ولا يقدِّمُ الأجلَ ولا يؤخِّرهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ } ؛ أي لا يَمْتَنِعُ أن يكتبَ كما أَلْهَمَهُ اللهُ شُكراً لِما أنعمَ عليه حيث علَّمهُ الكتابةَ وأحوجَ غيرهُ إليهِ ؛ { فَلْيَكْتُبْ }.

واختلفوا في وجوب الكتابة على الكاتِب ؛ والشهادةِ على الشاهدِ ؛ فقال مجاهدُ والربيع : (وَاجِبٌ عَلَى الْكَاتِب أنْ يَكْتُبَ). وقال الحسنُ : (ذَلِكَ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي لاَ يَقْدِرُ فِيْهِ عَلَى كَاتِبٍ غَيْرِهِ ، فَيَضُرُّ بصَاحِب الدَّيْنِ إنِ امْتَنَعَ ، فَإنَّ الْكِتَابَةَ حِيْنَئِذٍ عَلَيْهِ فَرِيْضَةٌ.

(٠/٠)

وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِن كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِباً فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ } الآيةُ ، معناه : إذا كنتم مسافرين { وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِباً } يكتبُ الوثيقة بالحقِّ ، (فَ) الوثيقةُ (رِهَانٌ) يقبضُها الذي له الحقُّ.

قرأ ابنُ عباس وأبو العالية ومجاهدُ : (كِتَاباً) يعني الصحيفةَ والدَّواةَ ؛ قالوا : لأنه ربَّما يجدُ الكاتبَ ولا يجد المرادَ والصحيفةَ والدواةَ. وقرأ الضحَّاك : (كُتَّاباً) على جمعِ الكاتب. وقرأ الباقون : (كَاتِباً) وهو المختارُ لموافقة الْمُصْحَفِ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ } قرأ ابنُ عباس ومجاهدُ وابن كثير وأبو عمرٍو : (فَرُهُنٌ). وقرأ عكرمةُ وعبدالوارث : (فَرَهْنُ) بإسكانِ الهاء. وقرأ الباقون : (فَرِهَانٌ) وهو جمعُ رهنٍ مثل نَعْلٍ ونِعَالٍ ؛ وجَبَلٍ وجِبَالٍ. والرُّهُنُ : جمعُ رهان وهو جمع الجَمعِ ، قاله الفرَّاءُ والكسائي. وقال أبو عبيدٍ : (هُوَ جَمْعُ رَهْنٍ ، مِثْلُ سَقْفٍ وسُقُفٍ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ } ؛ أي إنْ كان الذي عليه الحقُّ أميناً عند صاحب الحق فلم يرتَهن منه شيئاً لِثِقَتِهِ وحُسن ظنِّه ؛ { فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ } أي فليؤدِّ المطلوبُ أمانتَه بأن لا يبخَسَ ولا يجحدَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ تَكْتُمُواْ الشَّهَادَةَ } ؛ أي لا تكتُمُوها عند الحكَّام ولا تَمتنعوا عن أدائِها ، { وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ } ؛ أي فاجرٌ سَرِيْرَتُهُ ، وأضافَ الإثْمَ إلى القلب وإن كان الآثِمُ هو الكاتِم ؛ لأن اكتسابَ الإثم بكتمانِ الشهادة يقعُ بالقلب ؛ وهذا أبلغُ في الوعيدِ وأحسنُ في البيانِ ؛ لأن كاتِم الشهادة يلحقهُ الإثم من وجهين ؛ أحدُهما : العزمُ على أن لا يؤدِّي. والثاني : تركُ أدائها باللسانِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ } ؛ أي عليمٌ بما تعملون به من كتمانِ الشهادةِ وإقامتها ؛ وأداءِ الأمانة والخيانةِ فيها ؛ عالِمٌ لا يخفَى عليه شيء مِمَّا تفعلونَ.

ولا خلافَ بين العلماء في جواز الرهن في الْحَضَرِ ؛ لأنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم " اشْتَرَى مِنْ يَهُودِيٍّ طَعَاماً إلَى أجَلٍ وَرَهَنَهُ دِرْعَهُ " والفائدةُ في ذكرِ السفرِ في الآية : أن الأغلبَ من حالِ السفر عدمُ الشهود والكُتَّاب ؛ فخُصَّ الرهنُ بحال السفرِ. وعن مجاهد : (أنَّهُ كَانَ يَكْرَهُ الرَّهْنَ فِي الْحَضَرِ).

(٠/٠)

لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٨٤)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { للَّهِ ما فِي السَّمَاواتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ } ؛ اختلفَ المفسرونَ في هذه الآيةِ ؛ فقال قومٌ : هي خاصَّة ؛ واختلفوا في خصوصِها ، فقال بعضُهم : نزلت في كتمانِ الشهادة وإقامتِها. يعني { وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ } أيُّها الشهودُ مِن كتمان الشهادةِ أو تُخفوا الكتمانَ { يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ }. وهذا قولُ الشعبيِّ وعكرمةَ ، وروايةُ مجاهد عن ابنِ عباس ، يدلُّ عليه قَوْلُهُ تَعَالَى فيما قبلها : { وَلاَ تَكْتُمُواْ الشَّهَادَةَ }[البقرة : ٢٨٣] الآيةُ.

وذهبَ بعضُهم إلى أنَّها عامَّةٌ في الشهادةِ وفي غيرها ، ثم اختلفُوا في وجهِ عمومِها ؛ فقال بعضُهم : هي منسوخةٌ.

" وروي أنَّهُ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ جَاءَ أبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعَبْدُالرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ وَنَاسٌ مِنَ الأَنْصَار إلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ؛ فَجَثَواْ عَلَى الرُّكَب وَقَالُواْ : يَا رَسُولَ اللهِ ، مَا نَزَلَ عَلَيْنَا آيَةً أشَدُّ مِنْ هَذِهِ ؛ إنَّ أحَدَنَا لَيُحَدِّثُ نَفْسَهُ بمَا لاَ يُحِبُّ أنْ يَثْبُتَ فِي قَلْبِهِ – يعني يحدثُ نفسهُ بأمرٍ من المعصيةِ ثُم لا يعملُ بها – وَإنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بمَا تُحَدِّثُ بِهِ نُفُوسَنَا إذا هَلَكْنَا ؟ فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : [هَكَذَا نَزَلَتْ] ، فَقَالُواْ : كُلِّفْنَا مِنَ الْعَمَلِ مَا لاَ نُطِيْقُ ، فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : [أفَتَقُولُونَ كَمَا قَالَتِ الْيَهُودُ : سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا؟!] فَقَالُواْ : بَلْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا يَا رَسُولَ الله. وَاشْتَدَّ عَلَيْهِمْ ذلِكَ ؛ فَمَكَثُواْ حَوْلاً ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : { لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَهَا } فَنَسَخَتْ مَا قَبْلَهَا. فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : [إنَّ اللهَ تَجَاوَزَ لأُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أنْفُسَهَا مَا لَمْ يَعْمَلُواْ أوْ يَتَكَلَّمُواْ بِهِ] " وهذا قولُ ابنِ مسعودٍ وأبي هريرةَ وعائشةَ برواية ابنِ جبير وعطاءٍ وابن سيرين وقتادةَ والكلبيِّ وشيبانَ.

وقال بعضُهم : لا يجوزُ أن تكون هذه الآيةُ منسوخةً ؛ لأنَّها خبرٌ من عندِ الله ؛ والخَبرُ لا يحتملُ النسخَ ؛ لأنه خَلَفٌ ؛ تَعَالَى اللهُ عَنْ ذلِكَ عُلُوّاً كَبِيْراً ، لكنَّ المرادَ بالآية إظهارُ العمل وإخفاؤُه. وقال الربيعُ : (هَذِهِ الآيَةُ مُحْكَمَةٌ لَمْ يَنْسَخْهَا شَيْءٌ ، فَإنَّ اللهَ تَعَالَى يُعَرِّفُ عَبْدَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، يَقُولُ : إنَّكَ أخْفَيْتَ فِي صَدْرِكَ كَذَا وَكَذَا ، يُحَاسِبُهُ عَلَى مَا أسَرَّ وَأعْلَنَ مِنْ حَرَكَةٍ فِي جَوَارِحِهِ وَهَمِّهِ فِي قَلْبِهِ ، فَهَكَذَا يُصْنَعُ بكُلِّ عِبَادِهِ ، ثم يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ).

وقيل : لا يؤاخذُ المؤمنَ بما حاسبَهُ من ذلك ، فمعناهُ : وإن تُظهروا ما في أنفسكم من المعاصي أو تُضمروا إرادتَها في أنفسكم فتخفوها { يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ } أي يخبرُكم بها ويحاسبُكم عليها ، ثم يغفرُ لمن يشاء ويعذبُ من يشاء ، وهذا قولُ الحسنِ والربيع وروايةُ الضحاكِ عن ابن عباس ، يدلُّ عليه قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولائِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً }

(٠/٠)

آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥) لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٨٦)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَآ أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ } ؛ الآية ، لَمَّا سبقَ في السورة ذكرُ أحكامٍ كثيرة أثنى اللهُ على مَن آمن بها وقَبلَهَا ، وقال عَزَّ من قائلٍ : { ءَامَنَ الرَّسُولُ }

بجميعِ الأحكامِ التي أنزلَها اللهُ تعالى ، وكذلك المؤمنونَ كلُّهم آمنوا باللهِ ، وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَلاَئِكَتِهِ } ؛ إنَّما أتى بالملائكةِ لأن حَيّاً من خُزاعة كانوا يقولون : الملائكةُ بناتُ اللهِ ، فقالَ صلى الله عليه وسلم : " وَالْمُؤْمِنُونَ يَقُولُونَ : إنَّ الْمَلاَئِكَةَ عِبَادُ اللهِ ".

قولهُ : { وَكُتُبِهِ } ؛ قرأ ابن عباس وعكرمةُ والأعمش وحمزة والكسائيُّ وخَلَفُ : (وَكِتَابِهِ) بالألفِ. وقرأ الباقون (وَكُتُبِهِ) بالجمعِ ، وهو ظاهرٌ كقوله { وَمَلاَئِكَتِهِ وَرُسِلِهِ }. وللتوحيدِ وجهان ؛ أحدُهما : أنَّهم أرادوا القرآنَ خاصَّةً ، والثاني : أنَّهم أرادوا جميعَ الكُتُب ؛ كقول العرب : كَثُرَ الدرهمُ والدينار في أيدي الناسِ ، يريدون الدراهمَ والدنانيرَ. يدلُّ عليه قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ }[البقرة : ٢١٣].

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَرُسُلِهِ } ؛ قرأ الحسن : (وَرُسْلِهِ) بسكونِ السين لكثرةِ الحركات ؛ { لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ } ؛ أي لا نفعلُ كما فعلَ أهلُ الكتاب آمنوا ببعضِ الرسل وكفروا ببعضٍ. وفي مُصحفِ عبدِالله : (لاَ يُفَرِّقُونَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ). وقرأ جُرير بن عبدالله وسعيدُ بن جبيرٍ ويحيى بن يَعْمُرَ ويعقوبُ : (لاَ يُفَرِّقُ) بالياءِ ، بمعنى لا يفرِّقُ الكلّ ، ويجوزُ أن يكون خبراً عن الرسولِ. وقرأ الباقون بالنون على إضمار القولِ ؛ تقديرهُ : قالوا لا نُفَرِّقُ ، كقولهِ تعالى : { وَالمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلاَمٌ عَلَيْكُم }[الرعد : ٢٣-٢٤] ؛ أي يقولون : سلامٌ عليكم.

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا } ؛ أي سَمعنا قولَك وأطَعنا أمرَكَ. وقيل : معنى { وَأَطَعْنَا } قَبلْنَا ما سَمعنا ؛ بخلافِ ما قالتِ اليهودُ. وقَوْلُهُ تَعَالَى : { غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ } ؛ أي اغْفِرْ غُفْرَانَكَ يَا رَبَّنَا. وقيل : معناهُ : نسألُكَ غفرانَك. والأول مصدرٌ ، والثاني مفعولٌ. وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ } أي نحنُ مقرُّون بالبعثِ. ومعنى قوله : { وَإِلَيْكَ } أي إلى جَزَائِكَ ؛ وهذا كما قالَ عَزَّ وَجَلَّ حكايةً عن إبراهيمَ عليه السلام : { إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ }[الصافات : ٩٩] أي إلى حيثُ أمرُ رَبي.

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ } ؛ قرأ إبراهيمُ بن أبي عبلةَ : (إلاَّ وَسِعَهَا) بفتحِ الواو وكسرِ السين على الفعلِ ؛ يريدُ إلا وَسِعَهَا أمرُهُ.

ومعنى الآيةِ : { لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً } فَرْضاً من فروضها من صومٍ أو صلاة أو صدقةٍ أو غير ذلك من حديثِ النفسِ ؛ إلا مقدارَ طاقتها كما قالَ صلى الله عليه وسلم لِعِمْرَانَ بْنِ الْحُصَيْنِ : " صَلِّ قَائِماً ؛ فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِداً ؛ فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبكَ تُومِئُ إِيْمَاءً ".

قال قومٌ : لو كلَّفَ اللهُ العبادَ فوقَ وسعِهم لكان ذلك لهُ ؛ لأن الخلقَ خلقهُ والأمرَ أمره ، ولكنه أخبرَ أنه لا يفعلهُ.

الم (١) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢)

{ الم * اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ } ، قال ابنُ عبَّاس معناه : (أَنا اللهُ أعْلَمُ) ، ويقال : هو قَسَمٌ أقْسَمَ اللهُ بأنه واحدٌ لا شريكَ له ولا معبودَ للخلقِ سواهُ ، وقد تقدَّم تفسيرُ الحروف المقطَّعة في أولِ سورة البقرَة.

قال أنسُ رضي الله عنه : " نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي وَفْدِ نَجْرَانَ وَكَانُوا سِتِّينَ رَاكِباً قَدِمُواْ عَلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَفِيْهِمْ أَرْبَعَةَ عَشَرَ رَجُلاً مِنْ أَشْرَافِهِمْ ، وَفِي الأَرْبَعَةَ عَشَرَ ثلاَثَةٌ يَؤُولُ أَمْرُهُمْ إِلَيْهِمْ : الْعَاقِبُ أَمِيْرُ الْجَيْشِ وَصَاحِبُ مَشُورَتِهِمْ الَّذِيْ لاَ يَصْدُرُونَ إِلاّ عَنْ رَأْيِهِ وَاسْمُهُ عَبْدُ الْمَسِيْحِ ، وَالثَّانِي : اسْمُهُ الأَيْهَمُ صَاحِبُ رَحْلِهِمْ ، وَأَبُو حَارِثَةَ بْنُ عَلْقَمَةَ إِمَامُهُمْ وَصَاحِبُ مَدَارِسِهِمْ ، وَكَانَ قَدْ دَرَسَ كُتُبَهُمْ حَتَّى حَسُنَ عِلْمُهُ فِيْهِمْ فِي دِيْنِهِمْ.

فَدَخَلُواْ عَلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فِي مَسْجِدِهِ وَقْتَ صَلاَةِ الْعَصْرِ وَعَلَيْهِمْ ثِيَابُ الْحِبَرَاتِ ؛ جُبَبٌ وَأَرْدِيَةٌ ، فَقَامُواْ وَأَقْبَلُواْ فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَتَوَجَّهُواْ إلى نَاحِيَةِ الْمَشْرِقِ ، فَقَالَ صلى الله عليه وسلم لِلْعَاقِبِ وَالأَيْهَمِ : " أَسْلِمَا ". فَقَالاَ : قَدْ أَسْلَمْنَا قَبْلَكَ ، فَقَالَ : " كَذَبْتُمَا ، يَمْنَعُكُمَا عَنِ الإِسْلاَمِ دَعْوَاكُمَا للهِ وَلَداً وَعِبَادَتِكُمَا الصَّلِيْبَ وأَكْلِكُمَا الْخِنْزِيْرَ " قَالاَ : فَإِنْ لَمْ يَكُنْ وَلَداً للهِ فَمَنْ أَبُوهُ ؟ وَخَاصَمُوهُ جَمِيْعاً فِي عِيْسَى عليه السلام ، فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ لاَ يَكُونُ وَلَداً إِلاَّ وَهُوَ يُشْبِهُ أَبَاهُ ؟ " قَالُواْ : بَلَى ، قَالَ : " أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رَبَّنَا حَيٌّ لاَ يَمُوتُ ، وَأَنَّ عِيْسَى يَأْتِي عَلَيْهِ الْفَنَاءُ ؟ " قَالُواْ : بَلَى ، قال : " أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رَبَّنَا قَيِّمٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ يَحْفَظُهُ وَيَرْزُقُهُ ؟ " قَالُواْ : بَلَى ، قَالَ : " فَهَلْ يَمْلِكُ عِيْسَى مِنْ ذلِكَ شَيْئاً ؟ " قَالُواْ : لا ، قَالَ : " أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ ؟ " قَالُواْ : بَلَى ، قَالَ : " فَهَلْ يَعْلَمُ عِيْسَى مِنْ ذلِكَ شَيْئاً غَيْرَ مَا عَلَّمَهُ اللهُ ؟ " قَالُواْ : لاَ ، قَالَ : " فَإِنَّ رَبَّنَا صَوَّرَ عِيْسَى فِي الرَّحِمِ كَيْفَ شَاءَ ، وَرَبُّنَا لاَ يَأْكُلُ وَلاَ يَشْرَبُ وَلاَ يُحْدِثُ ، أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ ذلِكَ ؟ " قَالُواْ : بَلَى ، قَالَ : " أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ عِيْسَى حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كَمَا تَحْمِلُ النِّسَاءُ الْمَرْأَةُ ، ثُمَّ وَضَعَتْهُ كَمَا تَضَعُ الْمَرْأَةُ ، ثُمَّ غُذِّيَ كَمَا يُغَذى الصَّبِيُّ ، فَكَانَ يَطْعَمُ وَيَشْرَبُ وَيُحْدِثُ ؟ " قَالُواْ : بَلَى ، قَالَ : " فَكَيْفَ يَكونُ هذا كَمَا زَعَمْتُمْ ؟ " فَسَكَتُواْ. فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيْهِمْ أَوَّلَ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ إلى بضْعٍ وَثَمَانِيْنَ آيَةً فِيْهَا "

فقالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : { الم * اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ } الحيُّ : هو الدائمُ الذي لا ندَّ لهُ ، الذي لا يَموت ولا يزولُ ، والقيُّومُ : القائمُ على كلِّ نفسٍ بما كسبَت.

وأكثرُ القُرَّاء على فتحِ الميم من (الم) وللفتحِ وجهَانِ ؛ أحدُهما : أنهُ لَمَّا كانت الميمُ بعدَ ياء ساكنة استثقلوا فيها السكونَ فحرَّكوها إلى الفَتحِ ؛ لأنَّ ذلك أخفُّ نَحْوُ : أيْنَ وكَيْفَ. والثانِي : أنهُ أُلْقِيَ عليها فتحةُ الهمزةِ من ألفِ (الله) وهذا جائزٌ في الهجاء وإنْ كان لا يجوزُ مثله في الكلامِ الموصول من حيثُ

إنَّ حروفَ الهجاء مبنيةٌ على الوقفِ ، ومَن قرأ بتسكين الميمِ فعلى أصلِ حروف الهجاء أنَّها مبنيةٌ على الوقوفِ والسكون.

(٠/٠)

نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ (٣) مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (٤) إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (٥)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ } ، قرأ ابراهيمُ بن أبي عبلة : (نَزَل عَلَيْكَ الْكِتَابَ) بتخفيف الزاي ، وقرأ الباقون بالتشديد ، ونصبَ الياءَ لأنَّ القرآنَ كان ينْزل مُنَجَّماً شيئاً بعد شيء ، والتنْزِيل مرَّةً بعد مرَّةٍ. قال اللهُ تعالى : { وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ } ؛ لأنَّهما نَزَلَتَا دفعةً واحدة. ومعنى الآية : نزَّلَ عليكَ يا مُحَمَّدُ القرآنَ بالصدقِ لإقامةِ أمر الحقِّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ } ؛ أي مُوَافِقاً لِما تقدَّمَه من التوراة والانجيلِ وسائرِ كتب الله تعالى في الدُّعاء إلى توحيدِ الله ، وبيان أقَاصِيص الأنبياءِ والأمرِ بالعدل والإحسَان وسائرِ ما لا يجري فيه النَّسْخُ وبعض الشرائع. وانتصَبَ { مُصَدِّقاً } على الحالِ من الكتاب.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ } أي أنزلَ التوراة جملةً على موسى ، والإنجيل جملة على عيسى { مِن قَبْلُ } القرآنِ ، { هُدًى لِّلنَّاسِ } ؛ أي بياناً ونوراً وضياءً لمن تبعه. وموضع { هُدًى } نصب على الحال.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ } ؛ يعني القرآنَ ، وأمَّا ذِكْرُهُ لبيانِ أنهُ يُفَرِّقُ بين الحقِّ والباطل ، ومتى اختلفَ فوائدُ الصفاتِ على موصوفٍ واحد لم يكن ذِكْرُ الصفةِ الثانية تَكْراراً ، بل تكونُ الثانيةُ في حُكْمِ المبتدلات لكلِّ صفة فائدةٌ ليست للأخرى ، والصفةُ الأولى تفيدُ أنَّ من شأنِهِ أن يُكْتَبَ ، والصفةُ الثانية تفيدُ أنَّ من شأنه أن يُفَرِّقَ بين الحق والباطلِ. وقيل : إنَّ كلَّ كتاب لله فهو فرقانٌ.

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ } ، معناهُ : إنَّ في كُتُب اللهِ ما يدلُّ على صدق قولِكَ ؛ فَمَنْ جَحَدَ بآياتِ اللهِ وهي العلاماتُ الْهَادِيَةُ إليه الدَّالَّةُ على توحيدهِ فأولئِكَ لَهم عذابٌ شديدٌ ، { وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ } أي ذو نِقْمَةٍ يَنْتَقِمُ ممن عصاهُ.

ثم حذرَهم عن التلبُّس والاستتار عن المعصية ، فقالَ : { إِنَّ اللَّهَ لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَآءِ } ، أي لا يخفَى عليه قولُ الكفَّار وعملُهم ، يُحصي كلَّ ما يعملونَه فيجازيهم عليه في الآخرةِ.

وفائدةُ تخصيصِ الأرض والسماء وإنْ كان اللهُ لا يَخفى عليه شيءٌ بوجهٍ من الوجوه : أنَّ ذِكْرَ الأرضِ والسماء أكبرُ في النفسِ وأهولُ في الصدر ، فذكرَه على وجه الأهوالِ ، إذ كان الغرضُ به التحذير.

(٠/٠)

هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ } ؛ أي خلقكم في أرحامِ الأُمَّهات كيف يشاءَ من لَوْنٍ وطُولٍ وقِصَرٍ وعِظَمٍ وصُغْرٍ وذُكُورَةٍ وأنُوثَةٍ وَحُسنٍ وَقُبحٍ وسعيدٍ أو شَقِيٍّ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } ؛ أي لا مُصَوِّرَ ولا خالقَ إلاّ هو. ومعنى العزيزِ : الْمَنِيْعُ في سلطانهِ ، لا يغالَبُ ولا يُمانَعُ ، ومعنى الحكيمِ : الْمُحْكِمُ في تدبيرِهِ وقضائه في عبَاده ، وأفعالُ الله كلُّها شاهدةٌ بأنه الواحدُ القديْمُ العالِمُ القادرُ.

(٠/٠)

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٧)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ } ، قال ابنُ عبَّاس : (مَعْنَاهُ : هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ مِنْهُ آيَاتٌ وَاضِحَاتٌ مُبيِّنَاتٌ لِلْحَلاَلِ وَالْحَرَامِ هُنَّ أصْلُ الْكِتَاب الَّذِي أنْزِلَ عَلَيْكَ يُعْمَلُ عَلَيْهِ فِي الأَحْكَامِ ، وَهُنَّ أمٌّ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيْلِ وَالزَّبُور وَكُلِّ كِتَابٍ) نحوُ قولهِ تعالى : { قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ }[الأنعام : ١٥١].
وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ } أي ومنهُ آياتٌ أُخَرُ اشتبهَت على اليهودِ مثلُ { الم } و { المص }. وقيلَ : يشبهُ بعضُها بعضاً.
واختلفوا في الْمُحْكَمِ وَالْمُتَشَابهِ ، فقال قتادةُ والربيع والضحَّاك والسديُّ : (الْمُحْكَمُ هُوَ النَّاسِخُ الَّذِي يُعْمَلُ بِهِ ، وَالْمُتَشَابهُ هُوَ الْمَنْسُوخُ الَّذِي يُؤْمَنُ بِهِ وَلاَ يُعْمَلُ بِهِ). وعن ابنُ عباس قال : (مُحْكَمَاتُ الْقُرْآنِ : نَاسِخُهُ ، وَحَلاَلُهُ ؛ وَحَرَامُهُ ، وَحُدُودُهُ ؛ وَفَرَائِضُهُ ؛ وَأَوَامِرُهُ ، وَالْمُتَشَابهَاتُ : مَنْسُوخُهُ ، وَمُقَدَّمُهُ

وَمُؤَخَّرُهُ ، وَأَمْثَالُهُ وَأَقْسَامُهُ). وقال مجاهدُ وعكرمة : (الْمُحْكَمُ : مَا فِيْهِ الْحَلاَلُ وَالْحَرَامُ ، وَمَا سِوَى ذلِكَ مُتَشَابِهٌ) ، وقال بعضُهم : الْمُحْكَمُ هو الذي لا يحتملُ من التأويلِ إلاّ وَجْهاً وَاحِداً ، وَالْمُتَشَابِهُ مَا احْتَمَلَ وُجُوهاً.

وقال ابنُ زيد : (الْمُحْكَمُ مَا ذكَرَهُ اللهُ مِنْ قِصَصِ الأَنْبِيَاءِ مِثْلَ نُوحٍ وَهُودٍ وَصَالِحٍ وَإِبْرَاهِيْمَ وَلُوطٍ وَشُعَيْبَ وَمُوسَى عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ ، وَالْمُتَشَابِهُ هُوَ مَا اخْتَلَفَ فِيْهِ الأَلْفَاظُ مِنْ قِصَصِهِمْ عِنْدَ التِّكْرَارِ كَمَا فِي مَوْضِعٍ مِنْ قِصَّةِ نُوحٍ{ قُلْنَا احْمِلْ }[هود : ٤٠] وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ{ فَاسْلُكْ }[المؤمنون : ٢٧] ، وَقَالَ : تَعَالَى فِي الْعَصَا : { فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى }[طه : ٢٠] ، وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ{ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ }[الأعراف : ١٠٧] ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ }[الرحمن : ١٣] ونحو{ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ }[المرسلات : ١٥] وَنَحْوِ ذلِكَ).

وقال بعضُهم : الْمُحْكَمُ ما عرفَ العلماءُ تأويلَه وفهموا معانيه ، وَالْمُتَشَابِهُ ما ليسَ لأحدٍ إلى علمهِ سبيلٌ مما استأثرَ اللهُ بعلمه ، نحوُ : خروجِ الدجَّال ؛ ونزولِ عيسى ؛ وطلوعِ الشمس من مغربها ؛ وقيامِ الساعة ؛ وفناءِ الدنيا ونحوِها.

وقال ابنُ كيسان : (الْمُحْكَمَاتُ حُجَجُهَا وَاضِحَةٌ ؛ وَدَلاَئِلُهَا وَاضِحَةٌ ؛ لاَ حَاجَةَ لِمَنْ سَمِعَهَا إِلَى طَلَبِ مَعْنَاهَا ، وَالْمُتَشَابِهُ هُوَ الَّذِي يُدْرَكُ عِلْمُهُ بالنَّظَرِ ، وَلاَ تَعْرِفُ الْعَوَامُّ تَفْصِيْلَ الْحَقِّ فِيْهِ مِنَ الْبَاطِلِ).

وقال بعضُهم : الْمُحْكَمُ ما اجْتُمِعَ على تأويلِهِ ، والمتشابهُ ما ليس فيه بيانٌ قاطع.

وقال محمدُ بن الفضلِ : (هُوَ سُورَةُ الإِخْلاَصِ لأَنَّهُ لَيْسَ فِيْهَا إلاَّ التَّوْحِيْدُ فَقَطْ ، وَالْمُتَشَابِهُ نَحْوُ قَوْلِهِ{ الرَّحْمَانُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى }[طه : ٥] وَنَحْوُ قَوْلِهِ{ خَلَقْتُ بِيَدَيَّ }[ص : ٧٥] ، وَنَحْوُ ذلِكَ مِمَّا يَحْتَاجُ إِلَى تَأْوِيْلِهَا فِي الإِبَانَةِ عَنْهَا).

ويقال : الْمُحْكَمُ : نحوُ قولهِ تعالى : { وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ }[ق : ٣٨] والمتشابهُ : نحوُ قوله : { خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ }[فصلت : ٩] ثُمَّ قالَ{ وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ }[فصلت : ١٠] ثُم قال : { فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ }[فصلت : ١٢] فظَنَّ مَن لا معرفةَ له أن العددَ ثَمانية أيامٍ ولم يعلم أنَّ اليومين الأوَّلين داخلان في الأربعةِ التي ذَكَرَها اللهُ من بعد.

(٠/٠)

رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٨)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا } ؛ أي ويقولُ الراسخونَ في العلمِ ربنا لا تُمِلْ قلوبَنا عن الحقِّ والهدى كما أزغْتَ قلوبَ اليهود والنصارى ، { بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا } أي لا تُزِغْ قلوبَنا بعد إذْ

أرشدتَنا ونصرتنا ووفَّقتنا لدينِكَ الحقّ ، وقولهُ : { وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنْكَ رَحْمَةً } ؛ أي أعطِنا من عندك نعمةً ، وقيل : لُطفاً يثبتُ قلوبنا على الهدى. واسمُ الرحمةِ يقع على كلِّ خيرٍ ونعمة ، وقيل معناهُ : وَهَبْ لنا من لَدُنْكَ توفيقاً وتثبيتاً على الإيْمان والهدى. وقال الضحَّاك : (مَعْنَاهُ : وَهَبْ لَنَا تَجَاوُزاً وَمَغْفِرَةً). وقيل : هَبْ لنا لزومَ خدمتك على شرطِ السُّنة.

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ } ؛ أي أنتَ المعطي والوهَّاب الذي من عادتِه الإعطاءُ والهبة ، وإنَّما سمي القلب قَلباً لتقلُّبه ، وإنَّما مثل القلب مثل ريشةٍ بفلاة من الأرضِ ، وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهُ قالَ : " إنَّ قَلْبَ ابْنِ آدَمَ مِثْلَ الْعُصْفُور يَتَقَلَّبُ فِي الْيَوْمِ سَبْعَ مَرَّاتٍ "

(٠/٠)

رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٩)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ } ؛ أي يقولونَ ربَّنا إنكَ محيي الناسِ بأجمعهم بعدَ الموت جزاءً ؛ (لِ) جزاء { يَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ } أي لا شكَّ فيه يعني يومَ القيامة.

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { إِنَّ اللَّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ } ؛ أي لا يَخْلِفُ اللهُ ما وعدَ من البعث والحساب والجنَّة والنار.

(٠/٠)

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ (١٠)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئاً } ؛ أرادَ بالذين كفرُوا اليهودَ الذين تقدَّم ذِكرهم. وقيلَ : أراد بهم نصارى نجرانَ ، ويقالُ : عامَّة الكفار ، ومعنى : { لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئاً } أي لا يدفعُ عنهم كثرةُ أموالِهم وأولادِهم شيئاً من عذاب الله في الدُّنيا والآخرة ؛ لأنه لا يُقبل منهم فداءٌ ولا شفاعة. ويسمَّى المالُ غِنًى لأنه يدفعُ عن مالكِه الفقرَ والنوائب ، فأخبرَ اللهُ أن أموالَ هؤلاء الكفار وأولادَهم لا تَقِيهم من العذاب.

قرأ السلمي : (لَنْ يُغْنِي عَنْهُم) بالياءِ لتقدُّم الفعلِ ودخول الحائل بينَ الاسم والفعل ، وقرأ الحسنُ (لَنْ تُغْنِي) بالتَّاء وسكون الياء.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأُولَائِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ } ؛ أي حطبُ النار ، والوَقودُ بنصب الواو ما يُوقَدُ به النارُ ، وفي هذا بيانُ أنَّ أهلَ النار يحترقون في النار احتراقَ الحطب لا كما يحترقُ الإنسان بنار الدُّنيا ، فإنَّ نارَ الدنيا تُسِيْلُ الصَّديدَ من الإنسان ولا تأخذُه كما تأخذ الحطبَ ، ومن قرأ (وُقُودُ) بضمِّ الواو فهو مصدرُ وَقَدَتِ النَّارُ وُقُوداً ، كما يقال وَرَدَ وُرُوداً ؛ فيكون المعنى : أولئك هُم وقودُ النار.

(٠/٠)

كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١١)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ } ؛ الآيةُ ؛ المعنى أنَّ الذين كفروا لن تُغني عنهم أموالُهم ولا أولادُهم مِن الله شيئاً عند حلولِ النقمة والعقوبة مثلَ آلِ فرعونَ وكفَّار الأممِ الخالية أخذناهُم وعاقبناهم فلم تُغْنِ عنهُم أموالُهم ولا أولادهم. وقيل : معناهُ عَادَةُ هؤلاءِ الكفَّار في الكفرِ والتكذيب بالحقِّ كعادة آلِ فرعونَ وعادة الذين مِن قبلِهم قومُ نوحٍ وعَاد وثَمود ؛ { كَذَّبُواْ } بكتُبنا ورسُلنا فعاقبَهم اللهُ بكفرهم وشِركهم ، { وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ } إذا عاقبَ ، فعقابهُ شديدٌ على الدَّوام ، والتأبيدُ لا كعقوبةِ أهل الدُّنيا.
والدَّأبُ في اللغة : الْعَادَةُ ، كذا قال النَّضرُ بن شُميل والْمُبَرِّدُ ، فيكون معناهُ : كعادَةِ آل فرعونَ. وقال الزجَّاج : (الدَّأبُ : الاجْتِهَادُ ؛ أي كَاجْتِهَادِ آل فِرْعَوْنَ فِي كُفْرِهِمْ وَتَطَايُرِهِمْ عَلَى الْبَاطِلِ ، يُقَالُ : دَأَبَ فِي كَذا يَدْأَبُ دَأباً إذا أَدَامَ الْعَمَلَ فِيْهِ ، ثُمَّ نُقِلَ مَعْنَاهُ إلَى الشَّأْنِ وَالْحَالِ وَالْعَادَةِ).
وقال ابنُ عبَّاس وعكرمةُ ومجاهد والضحَّاك والسديُّ : (مَعْنَاهُ : كَفِعْلِ آلِ فِرْعَوْنَ وَصُنْعِهِمْ فِي الْكُفْرِ وَالتَّكْذِيْب) يَقُولُ : كَفَرَتِ الْيَهُودُ بمُحَمَّدٍ كَكُفْرِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِهِمْ. وقال الربيعُ والكسائيُّ : (مَعْنَاهُ : كَشَبَهِ آلِ فِرْعَوْنَ). وقال سيبويه : (الْكَافُ فِي (كَدَأَب) فِي مَوْضِعِ رَفْعٍ ، فَخَبَرُ الْمُبْتَدَأ تَقْدِيْرُهُ : دَأْبُهُمْ كَدَأبِ آلِ فِرْعَوْنَ).

(٠/٠)

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٢)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { قُلْ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ } ، أي قُلْ يا مُحَمَّدُ

للذين كفرُوا سَتُهْزَمُونَ وتُقتلون وتُحشرونَ بعد الموتِ إلى جهنَّم وبئس الفِرَاشِ. قرأ يحيى بنُ وثَّاب وحمزة والكسائيُّ وخَلَفُ بالياءِ فيهما ، والباقون بالتَّاء ، فمَنْ قرأهُما بالياءِ فعلى الإخبار عنهم أنَّهم يُغلبون ويُحشرون ، ومَن قرأها بالتَّاء فعلى الخطاب ؛ أي قُلْ لَهم إنَّكم ستُغلبون وتحشرون.

واختلفَ المفسِّرون في هؤلاءِ الكفَّار ؛ فقالَ مقاتلُ : (هُمْ كُفَّارُ مَكَّةَ ، وَمَعْنَاهُ : قُلْ لِكُفَّار مَكَّةَ سَتُغْلَبُونَ يَوْمَ بَدْرٍ وَتُحْشَرُونَ إلَى جَهَنَّمَ فِي الآخِرَةِ ، فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ " الآيَةُ " قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم لِلْكُفَّار يَوْمَ بَدْرٍ " إنَّ اللهَ غَالِبُكُمْ وَحَاشِرُكُمْ إلَى جَهَنَّمَ "

وقال الكلبيُّ عن أبي صالحٍ عنِ ابن عبَّاس : (إنَّ الْمُرَادَ بهِمْ يَهُودُ الْمَدِيْنَةِ ، وَذَلِكَ أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم لَمَّا هُزِمَ الْكُفَّارُ يَوْمَ بَدْرٍ ، قَالَتِ الْيَهُودُ : هَذا وَاللهِ النَّبيُّ الأُمِّيُّ الَّذِي بَشَّرَنَا بِهِ مُوسَى وَنَجِدُهُ فِي التَّوْرَاةِ بنَعْتِهِ وَصِفَتِهِ ، وَإنَّهُ لاَ تُرَدُّ لَهُ رَايَةٌ ، وَأَرَادُواْ تَصْدِيْقَهُ وَاتِّبَاعَهُ ؛ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : لاَ تَعْجَلُواْ حَتَّى تَنْظُرُواْ إلَى وَقْعَةٍ لَهُ أُخْرَى ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ أُحُدٍ وَغُلِبَ أصْحَابُ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالُواْ : وَاللهِ مَا هُوَ بهِ ، فَغَلَبَ عَلَيْهِمُ الشَّقَاءُ فَلَمْ يُسْلِمُواْ ، وَكَانَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم عَهْدٌ إلَى مُدَّةٍ فَنَقَضُواْ ذلِكَ الْعَهْدَ قَبْلَ أجَلِهِ ، وَانْطَلَقَ كَعْبُ بْنُ الأَشْرَفِ فِي سِتِّيْنَ رَاكِباً إلَى أبي سُفْيَانَ بمَكَّةَ وَوَافَقُوهُمْ عَلَى أنْ تَكُونَ كَلِمَتُهُمْ وَاحِدَةً ، ثُمَّ رَجَعُواْ إلَى الْمَدِيْنَةِ ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ).

وعن ابن عباس وقتادة أنَّهُمَا قَالاَ : (لَمَّا أهْلَكَ اللهُ قُرَيْشاً يَوْمَ بَدْرٍ ، جَمَعَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم الْيَهُودَ بسُوقِ بَنِي قَيْنُقَاعَ ، فَدَعَاهُمْ إلَى الإسْلاَمِ وَحَذرهُمْ مِثْلَمَا نَزَلَ بقُرَيْشٍ مِنَ الانْتِقَامِ ، فَأَبَوْاْ وَقَالُواْ : لَسْنَا كَقُرَيْشٍ الأغْمَارَ الَّذِيْنَ لَمْ يَعْرِفُواْ الْقِتَالَ وَلَمْ يُمَارِسُوهُ ، لَئِنْ حَارَبْتَنَا لَنَقْتُلَنَّ رجَالاً ، وَتَعْرِفَ الْبَأْسَ وَالشِّدَّةَ ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ). قَوْلُهُ تَعَالَى : { إلَى جَهَنَّمَ } اشتقاقُ جهنَّم من الْجِهْنَامِ وهي البئرُ البعيدةُ القعرِ.

(٠/٠)

قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ (١٣)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ } ؛ أي قد كانَ لكم أيها اليهودُ عبرةً ، ويقال : أيُّها الكفارُ على صدقِ ما أقولُ لكم في فرقتين الْتَقَتَا يومَ بدر ؛ فرقةٌ تقاتلُ في سبيلِ الله ؛ أي في طاعةِ الله وهُمْ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وأصحابُه ثلاثُمائة وثلاثةَ عَشَرَ رجُلاً ، سبعةٌ وسبعون رجلاً من المهاجرين ، ومائتان وستَّةٌ وثلاثون من

الأنصار ، وكان صاحبُ رايةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم والمهاجرينَ عليٌّ رضي الله عنه ، وصاحبُ راية الأنصار سعدُ بن عبادةَ ، وكان جملةُ الإبل التي في جيشِ رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذٍ سبعين بعيراً ، والخيلِ فرسَين ؛ فرسِ المقداد وفرس مَرْثَدَ بن أبي مرثدٍ ، وقيل : فرسُ عليٍّ ، وكان معهم من السِّلاح ستةَ أدرُع وثَمانيةَ سُيُوف ، وجميعُ من استشهدَ من المسلمين أربعةَ عشر رجُلاً ، ستَّة من المهاجرين ، وثَمانية من الأنصار.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأُخْرَى كَافِرَةٌ } أي فرقةٌ أخرى كافرةٌ ؛ وهم كفارُ مكةَ سبعمائة وخمسونَ رجُلاً مقاتلين ، ورئيسُهم يومئذ عُتْبَةُ بن ربيعةَ ، وكانت خَيْلُهُمْ مائةَ فرسٍ ، وكانت حربُ بدرٍ أوَّلَ مَشْهَدٍ شهدَهُ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَرَوْنَهُمْ مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ } مَن قرأ بالياءِ ؛ فالمعنى ترَى الفئةُ المؤمنة الفئةَ الكافرة مثليهم ظاهرَ العينِ ؛ أي ظَنَّ المسلمونَ أن المشركينَ ستمائة ونيِّف ، وإنَّهم يغلبوا المشركين كما وعدَهم اللهُ بقوله : { فَإِن يَكُنْ مِّنكُمْ مِّئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ }[الأنفال : ٦٦] قَلَّلَ اللهُ المسلمين في أعيُنِ المشركين ، والمشركينَ في أعين المسلمينَ حتى اقتَتَل الفريقان كما قالَ الله تعالى : { وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ }[الأنفال : ٤٤] ثم قذفَ الله الرُّعْبَ في قلوب الكَفَرَةِ حتى انْهزموا بكفٍّ من ترابٍ أخذه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فرماه في وجوههم وقال : [شَاهَتِ الْوُجُوهُ].

ومن قرأ (تَرَوْنَهُمْ) بالتاء فهو خطابٌ لليهودِ ، يعني يرَون كفارَ مكة قريشاً والمؤمنينَ رَأَيَ العينِ ، فإن قيل لِمَ قال (قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ) ولم يَقُلْ قد كانت والآية مؤنَّثة ؟ قيلَ : لأنَّهُ ردَّها إلى البيانِ ، أي قد كانَ بيانُ ، فذهبَ إلى المعنى وترك اللَّفظ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَرَوْنَهُمْ مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ } قرأ أبو رجاء والحسنُ وشيبةُ ونافع ويعقوب بالتَّاء ، وقرأ الباقون بالياءِ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَآءُ } ؛ أي يُقَوِّي ويُشْدِدُ بقوَّته من يشاءُ. وقَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ } ؛ أي في غلبَةِ المؤمنين للمشركين مع قلَّة المؤمنين وشوكةِ المشركين ، { لَعِبْرَةً } لذوي الأبصار في الدينِ ؛ أي لِذوي بصارةِ القلوب ، ويجوزُ أن يكون معناه : لعبرةً لمن أبصرَ الجيشَ الجمعين بعينهِ يومئذ ، وفي قوله تعالى : { فِئَةٌ } قِراءتان ، مَن قرأها بالرفعِ فعلى معنى : إحداهُما فئةٌ تُقَاتِلُ ، ومَن قرأها بالخفضِ فعلى البدلِ من فئتين ، كما قال الشَّاعرُ : وَكُنْتُ كَذِي رِجْلَيْنِ رِجْلٍ صَحِيْحَةٍ وَرِجْلٍ رَمَاهَا الدَّهْرُ بِالْحَدَثَانِ

زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ } ؛ بيَّنَ الله بهذه الآية إنَّ ما بُسِطَ للمشركين من زَهْرَةِ الدُّنيا وزينَتِها هو الذي يَمنعهم من تصديقِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم فيما يدعوهم إليه.

والمعنى : حُسِّنَ للناس حبُّ اللَّذات والشهواتِ والمشتهياتِ من النساء والبنين ، بدأ بالنساءِ لأنَّهن حبائلُ الشيطان وأقربُ إلى الإفتتان ويحملْنَ الرجالَ على قطعِ الأرحام والآباء والأمَّهات وجمعِ المال من الحلالِ والحرامِ. وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالْبَنِينَ } قال صلى الله عليه وسلم : " هُمْ ثَمَرَةُ الْقُلُوب وَقُرَّةُ الأَعْيُنِ ؛ وَإِنَّهُمْ مَعَ ذلِكَ لَمَجْبَنَةٌ مَبْخَلَةٌ "

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ } مِنَ القناطيرِ ، جمع قِنْطَارٍ ، واختلفوا فيه ، فقال الربيعُ : (الْقِنْطَارُ هُوَ الْمَالُ الْكَثِيْرُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ). وقال ابنُ كيسان : (هُوَ الْمَالُ الْعَظِيْمُ). وعن أبي هُريرة : قالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : " الْقِنْطَارُ اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ أُوقِيَّةٍ " ، وعن أنسٍ : " أنَّ الْقِنْطَارَ أَلْفُ مِثْقَالٍ " وعن مُعَاذ : " أَلْفٌ وَمِائَتَا أُوقِيَّةٍ " وعن أنس أيْضاً عَنْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " أَلْفَا مِثْقَالٍ " وعن عكرمةَ : " مِائَةُ أَلْفٍ وَمِائَةُ مَنٍّ وَمِائَةُ رَطْلٍ وَمِائَةُ مِثْقَالٍ وَمِائَةُ دِرْهَمٍ " وقيل القنطارُ : ما بينَ السماء والأرضِ من المال ، وَقِيْلَ : مِلْءُ مَسْكِ ثورٍ ذهباً وفضَّة ، وقال ابنُ المسيَّب وقتادةُ : [ثَمَانُونَ أَلْفاً]. وعن مجاهدٍ : [سَبْعُونَ أَلْفاً]. وعن الحسنِ أنه قالَ : (الْقِنْطَارُ مِثْلُ دِيَةِ أَحَدِكُمْ). وحاصلهُ أن القنطارَ : هو المالُ الكثير.

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { الْمُقَنْطَرَةِ } ؛ قال قتادةُ : (أي الْمُنَضَّدَةُ بَعْضُهَا علَى بَعْضٍ). وقال بعضُهم : المقنطرةُ : المدفونةُ. وقال السديُّ : (الْمَضْرُوبَةُ الْمَنْقُوشَةُ). قَوْلُهُ تَعَالَى : { مِنَ الذهَب وَالْفِضَّةِ } سُمي الذهبُ ذهباً لأنه يَذْهَبُ ولا يبقى ، والفضةُ لأنَّها تَنْفَضُّ أي تتفرَّقُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ } الخيلُ جمعٌ لا واحدَ له من لفظِهِ ، واحده فَرَسٌ ، والْمُسَوَّمَةِ هي الرواتعِ من السَّوْمِ وهو الرعيُ ، قال اللهُ : { شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ }[النحل : ١٠] أو تكون من السِّيْمَا ؛ وهي العلامةُ من الأوضَاحِ والغُرَّةُ التي تكون في الخيل. وقال السديُّ : [الْمُسَوَّمَةُ : هِيَ الْوَاقِفَةُ]. وقال مجاهدٌ : (الْحِسَانُ) وقال الأخفشُ : [هِيَ الْمُعَلَّمَةُ]. وقال ابنُ كيسان : [الْبُلْقُ].

روي عن عليٍّ رضي الله عنه قال : قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " لَمَّا أَرَادَ اللهُ أنْ يَخْلُقَ الْخَيْلَ قَالَ لِلرِّيْحِ الْجَنُوب : إنِّي خَالِقٌ مِنْكِ خَلْقاً فَأَجْعَلُهُ عِزّاً لأَوْلِيَائِي ؛ وَمَذلَّةً لأَعْدَائِي ؛ وَجَمَالاً لأَهْلِ طَاعَتِي ، ثُمَّ خَلَقَ مِنْهَا فَرَساً وَقَالَ لَهُ : خَلَقْتُكَ وَجَعَلْتُ الْخَيْرَ مَعْقُوداً بنَاصِيَتِكَ ؛ وَالْغَنَائِمَ مَجْمُوعَةً عَلَى ظَهْرِكَ

؛ وَعَطَّفْتُ عَلَيْكَ صَاحِبَكِ ؛ وَجَعَلْتُكَ تَطِيْرُ بلاَ جَنَاحٍ ؛ وَأَنْتَ لِلطَّلَب وَأَنْتَ لِلْهَرَب ، وَسَأَجْعَلُ عَلَى ظَهْرِكَ رجَالاً يُسَبحونَنِي وَيَحْمَدُونَنِي وَيُهَلِّلُونَنِي ويُكَبرُونَنِي "

(٠/٠)

قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٥)

وقال عَزَّ وَجَلَّ : { قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِّن ذالِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا } ؛ أي { قُلْ } يَا مُحَمَّدُ : أخبرُكم بخيرٍ من الذي زُيِّنَ للناسِ في الدنيا للذين اتقوا الشِّرْكَ والكبائرَ والفواحش ؛ فلا يشتغلون بالزينَةِ عن طاعةِ الله ، لَهم عند ربهم جناتٌ ؛ أي بساتينُ تجري من تحتِ شجرها ومساكِنها أنْهَارُ الماء والعسَل والخمرِ واللَّبن ، { خَالِدِينَ فِيهَا } أي مُقيمين دائمين ؛ أي ليست تلكَ المياهُ كمياه الدُّنيا تجري أحياناً وتنقطعُ أحياناً ، بل تكونُ جاريةً أبداً.
قَوْلُهُ تعالى : { وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ } ؛ أي ولَهم نساءٌ مهذبات في الْخَلْقِ وَالْخُلُقِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ } ؛ أي لَهم معَ ذلك رضا اللهِ عنهُم وهو من أعظمِ النِّعم ، قال اللهُ تعالى : { وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ }[التوبة : ٧٢] ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ } ؛ أي عالِمٌ بأعمالِهم وثوابهم.
واختلفُوا في منتهى الاستفهامِ في قولهِ تعالى : { أَؤُنَبِّئُكُمْ } ؛ قال بعضُهم : مُنْتَهَاهُ عند قولهِ : { بِخَيْرٍ مِّن ذالِكُمْ } وقَوْلُهُ تَعَالَى : { لِلَّذِينَ اتَّقَوْا } استئنافُ الكلامِ ، وقال بعضُهم : منتهاهُ : { عِندَ رَبِّهِمْ } وقَوْلُهُ تَعَالَى : { جَنَّاتٌ } استئنافُ كلامٍ.
قرأ أبو بكرٍ عن عاصم : (وَرُضْوَانٌ) بضمِّ الراء في جميعِ القرآن وهي لغةُ قيسٍ وعيلان وتَميم ؛ وهما لُغتان كالعُدْوَانِ والطمعان والطعنان ، وقرأ عامَّة القُرَّاء (وَرِضْوَانٌ) بكسر الراء.

(٠/٠)

الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ } ، { الَّذِينَ } في موضعِ خَفْضٍ رَدَاً على قولهِ { لِلَّذِينَ اتَّقَوْا } أي للمتَّقينَ { الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ آمَنَّا } وَصَدَّقْنَا بالله

وبالرسولِ فاغفِرْ لنا خطايَانا ، وادفَع عنَّا عذابَ النار ، ويجوز أن يكونَ موضع (الَّذِينَ) رفعاً على معنى هُم { الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ } كقولِهِ تعالى : { إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ }[التوبة : ١١١] ثم قال في صفتِهم مبتَدِئاً : { التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ }[التوبة : ١١٢].

(٠/٠)

الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ (١٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ } ؛ { الصَّابِرِينَ } في موضع خفض بدلٌ من { الَّذِينَ يَقُولُونَ }. وذهب بعضُهم إلى (١٦٤٩;لصَّابِرِينَ) نُصِبَ بالمدحِ. ومعنى الآية : { الصَّابِرِينَ } على طاعَة اللهِ وعلى الشدائدِ والمصائب وعلى ارتكَاب النَّهي وعلى البأسَاء والضرَّاء ، { وَالصَّادِقِينَ } في إيمانِهم وأقوالِهم وأفعالِهم ، فإنَّ الصدقَ قد يقعُ في القول كما يقعُ في الفعلِ ، يقالُ : صَدَقَ فلانٌ في القتالِ ، وصَدَقَ في الجملةِ أي حَقَّق. قال قتادةُ في تفسير الصَّادِقِينَ : (هُمْ قَوْمٌ صَدَقَتْ نِيَّاتُهُمْ وَاسْتَقَامَتْ قُلُوبُهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ فِي السِّرِّ وَالْعَلاَنِيَةِ). { وَالْقَانِتِينَ } أي القائمينَ بعبادةِ الله المطيعين ، { وَالْمُنْفِقِينَ } يعني في طاعَة اللهِ.

وقوله : { وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ } قال قتادةُ : (أَرَادَ بِهِ الْمُصَلِّيْنَ بالأَسْحَار) قال أنسُ بن مالك : (أَرَادَ بِهِ السَّائِلِيْنَ الْمَغْفِرَةَ بالأسْحَار) ، وقال الحسنُ : (انْتَهَتْ صَلاَتُهُمْ إِلَى وَقْتِ السَّحَرِ ؛ ثُمَّ كَانَ بَعْدَهَا الاسْتِغْفَارُ) ، وعن إبراهيمَ بنِ حاطبٍ عن أبيه قالَ : (سَمِعْتُ صَوْتاً فِي نَاحِيَةِ الْمَسْجِدِ سَحَراً يَقولُ : إِلَهِي دَعَوْتَنِي فَأَجَبْتُكَ ؛ وأَمَرْتَنِي فَأَطَعْتُكَ ؛ وَهَذا سَحَرٌ فَاغْفِرْ لِي. فَنَظَرْتُ فَإِذا هُوَ عَبْدُاللهِ بْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه).

روي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنهُ قالَ : " ثَلاَثَةٌ أَصْوَاتٍ يُحِبُّهُمُ اللهُ : أَصْوَاتُ الدِّيَكِ ، وَصَوْتُ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ ، وَصَوْتُ الْمُسْتَغْفِرِيْنَ بالأَسْحَارِ " وروي أنَّ داودَ رضي الله عنه سَأَلَ جِبْرِيْلَ : أيُّ اللَّيْلِ أَفْضَلُ ؟ فَقَالَ : لاَ أَدْرِي إلاَّ أَنَّ الْعَرْشَ يَهْتَزُّ فِي وَقْتِ السَّحَرِ. وقال سفيانُ الثوريُّ : (إِنَّ للهِ رِيْحاً يُقَالُ لَهَا الصُّبْحَةُ تَهُبُّ وَقْتَ السَّحَرِ ؛ تَحْمِلُ الأَذْكَارَ وَالاسْتِغْفَارَ إِلَى الْمَلِكِ الْجَبَّار) ، وقال : (بَلَغَنَا أَنَّهُ إِذا كَانَ أَوَّلُ اللَّيْلِ نَادَى مُنَادٍ : إلاَ لِيَقُمِ الْعَابِدُونَ ، فَيَقُومُونَ فَيُصَلُّونَ مَا شَاءَ اللهُ ، ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ فِي شَطْرِ اللَّيْلِ : ألاَّ لِيَقُمِ الْقَانِتُونَ ، فَيَقُومُونَ كَذلِكَ فَيُصَلُّونَ ، فَإِذا كَانَ السَّحَرُ نَادَى مُنادٍ : أَيْنَ الْمُسْتَغْفِرُونَ ؟ فِيَسْتَغْفِرُ أُوْلَئِكَ ؛ فَإِذا طَلَعَ الْفَجْرُ نَادَى مُنَادٍ : ألاَ لِيَقُمِ الْغَافِلُونَ ؛ فَيَقُومُونَ مِنْ فِرَاشِهِمْ كَالْمَوْتَى إِذا نُشِرُوا مِنْ قُبُورِهِمْ). وقال لُقمان لابنهِ : (يَا بُنَيَّ لاَ يَكُونَنَّ الدِّيْكُ أَكْيَسَ مِنْكَ ؛ يُنَادِي بالأَسْحَارِ وَأَنْتَ نَائِمٌ). والسَّحَرُ : هُوَ الْوَقْتُ الَّذِي قَبْلَ طُلُوعِ الْفَجْرِ.

شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ } ؛ روى أنسٌ رضي الله عنه قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " مَن قرأ شَهِدَ الله أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عِنْدَ مَنَامِهِ خَلَقَ اللهُ تَعَالَى مِنْهَا سَبْعِيْنَ أَلْفَ خَلْقٍ يَسْتَغْفِرُونَ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ " وعن سعيدِ بن جُبير قالَ : (كَانَ حَوْلَ الْكَعْبَةِ ثَلاَثُمِائَةٌ وَسِتُّونَ صَنَماً ؛ لِكُلِّ حَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَب صَنَمٌ أَوْ صَنَمَانِ ، فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ أَصْبَحَتْ تِلْكَ الأَصْنَامُ كُلُّهَا وَقَدْ خَرَّتْ سُجَّداً).

وعنِ ابن مسعودٍ أنهُ قالَ : [مَنْ قَرَأَ { شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ } إِلَى قَوْلِهِ : { إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلاَمُ } وَقَالَ : أَنَا أَشْهَدُ بِمَا شَهِدَ اللهُ بِهِ وَأَسْتَوْدِعُ اللهَ هَذِهِ الشَّهَادَةَ وَهِيَ لِي وَدِيْعَةٌ عِنْدَهُ ؛ يُجَاءُ صَاحِبُهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى : عَبْدِي عَهِدَ لِي وَأَنَا أَحَقُّ مَنْ وَفَّى بِالْعَهْدِ ، أَدْخِلُواْ عَبْدِي الْجَنَّةَ].

ومعنى الآيةِ : قال محمدُ بن السائب الكلبيُّ : " لَمَّا ظَهَرَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم بِالْمَدِيْنَةِ قَدِمَ عَلَيْهِ حَبْرَانِ مِنْ أَحْبَارِ الْيَهُودِ مِنَ الشَّامِ ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ حِيْنَ أَبْصَرَ الْمَدِيْنَةَ : مَا أَشْبَهَ هَذِهِ الْمَدِيْنَةَ بِمَدِيْنَةِ النَّبِيِّ الَّذِي يَخْرُجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ ، فَلَمَّا دَخَلاَ عَلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم عَرَفاهُ بِالصِّفَةِ وَالنَّعْتِ ، فَقَالاَ لَهُ : أَنْتَ مُحَمَّدٌ ؟ قَالَ : " نَعَمْ ". قَالاَ : أَنْتَ أَحْمَدُ ؟ قَالَ : " أَنَا مُحَمَّدٌ وَأَحْمَدُ ". قَالاَ : فَإِنَّا نَسْأَلُكَ عَنْ شَيْءٍ فَإِنْ أَخْبَرْتَنَا بِهِ آمَنَّا بِكَ وَصَدَّقْنَاكَ ، قَالَ : " اسْأَلُواْ ". قَالاَ : أَخْبِرْنَا عَنْ أَعْظَمِ شَهَادَةٍ فِي كِتَابِ اللهِ تَعَالَى ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى عَلَى نَبِيِّهِ هَذِهِ الآيَةَ { شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ } إِلَى آخِرِهَا ، فَأَسْلَمَ الرَّجُلاَنِ وَصَدَّقَا بِرَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم "

قرأ أبو نُهيك وأبو الشَّعث (شُهُدُ اللهِ) بالمدِّ والرفعِ على معنى : هُمْ شُهُدُ اللهِ الذين تقدَّم ذِكرهم. وقرأ المهلَّب : (شَهَدَ اللهُ) بالمدِّ والنصب على المدِّ. والآخرونَ (شَهِدَ اللهُ) على الفعلِ أي قَضَاءُ اللهِ ، ويقال : أَخْبَرَ اللهُ. وقال مجاهدُ : (حَكَمَ اللهُ). قرأ ابنُ السمؤل : (شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ). وقرأ ابنُ عباسٍ : (إِنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ) بكسرِ الألف جعلهُ خَبَراً مستأنفاً ، وقال بعضُهم بكسرِه لأنَّ الشهادة قولٌ وما بعدَ القولِ مكسورٌ على الحكايةِ ، تقديرهُ : قَالَ اللهُ إنهُ لا إِلَهَ إلاّ الله. قال المفضَّل : (مَعْنَى الشَّهَادَةِ (شَهِدَ اللهُ) : الإِخْبَارُ وَالإِعْلاَمُ ، وَمَعْنَى الْمَلاَئِكَةِ وَالْمُؤْمِنِيْنَ بِالإِقْرَارِ ؛ كَقَوْلِهِ{ شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا }[الأنعام : ١٣٠] أَيْ أَقْرَرْنَا).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ } ؛ معناه الأنبياءُ ، وقيلَ : المهاجرونَ والأنصَارُ ، وقيل : علماءُ المؤمنين

أهلُ الكتاب : عبدُالله بن سلام وأصحابَه ، وقال الكلبيُّ والسديُّ : (عُلَمَاءُ الْمُؤْمِنِيْنَ كُلُّهُمْ ، فَقَرَنَ اللهُ شَهَادَةَ الْعُلَمَاءِ بِشَهَادَتِهِ ، لأنَّ الْعِلْمَ صِفَةُ اللهِ تَعَالَى الْعُلْيَا وَنِعْمَتُهُ الْعُظْمَى ، وَالْعُلَمَاءُ أعْلاَمُ الإسْلاَمِ وَالسَّابِقُونَ إلَى دَار السَّلاَمِ وَشَرْحُ الأَمْكِنَةِ وَحُجَجُ الأَزْمِنَةِ].

(٠/٠)

إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ } ؛ معنى الدِّين المرتضَى ؛ نظيرهُ{ وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً }[المائدة : ٣] ، والإسلامُ : هو الدخولُ في السِّلْمِ والانقيادُ والطاعَة. وعن قتادةَ : (هُوَ شَهَادَةُ أنْ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ ؛ وَالإقْرَارُ بمَا جَاءَ مِنْ عَنْدِ اللهِ ؛ وَهُوَ دِيْنُ اللهِ الَّذِي شَرَعَ لِنَفْسِهِ ؛ وَبَعَثَ بهِ رُسُلَهُ ؛ وَدَلَّ عَلَيْهِ أوْلِيَاءَهُ ؛ وَلاَ يَقْبَلُ غَيْرَهُ).

وقرأ الكسائيُّ : (الدِّيْنَ عِنْدَ اللهِ) بالفتحِ على معنى : شَهِدَ اللهُ أنهُ لا إلهَ إلاَّ هُوَ ، وشهدَ أنَّ الدِّينَ عند اللهِ الإسلامُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ } ؛ أي لَمْ تقر اليهودُ والنصارى للإسلامِ ولم يتسَمَّوا باليهوديَّة والنصرانيَّة { إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ الْعِلْمُ } في كتابهم حَسَداً بينهم.

رويَ : أنَّ اليهودَ كانوا يُسمَّون مسلمينَ ؛ فلمَّا بُعث عيسى عليه السلام وسَمَّى أصحابَه مسلمينَ حسدَت اليهودُ مشاركتَهم في الاسمِ فسَمُّوا أنفسَهم يهوداً ؛ فكانوا يُسمَّون مسلمينَ ويهوداً ، فغيَّرتِ النصارى اسْمَهم وسَمَّوا أنفسَهم نصارى. والبَغْيُ : هو طلبُ الاستعلاءِ بغير حقٍّ.

وقال بعضُهم : معنى الآيةِ : ما اختلفَ الذينَ أُوتُوا الكتابَ في نبوَّة مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم إلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ بَيانُ نعتِه وصفته في كُتبهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ } ؛ أي مَن يجحَدُ بمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم والقرآنِ فإنَّ اللهَ سَرِيْعُ الْمُجَازَاةِ ، سريعُ التعريفِ للعامل عملَه لا يحتاجُ إلى إثباتٍ وتذكيرٍ.

(٠/٠)

فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٢٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ للَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ } ؛ أي فإنْ خاصمُوكَ يا مُحَمَّدُ في الدِّين ؛ فَقُلْ : انْقَدْتُ للهِ وحدَهُ بلساني وجميعِ جوارحِي ، وإنَّما خصَّ الوجهَ لأنه أكرمُ جوارحِ الإنسان وفيه بَهاؤُهُ وتعظيمُه ، فإذا خضعَ وجههُ لشي فقد خضعَ له سائرُ جوارحهِ التي دونَ الوجهِ. قال الفرَّاء : (مَعْنَاهُ : أخْلَصْتُ عَمَلِي للهِ ، وَالْوَجْهُ الْعَمَلُ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَنِ اتَّبَعَنِ } في موضعِ رفعٍ عطفاً على إنِّي أسْلَمْتُ ؛ أي أسلمتُ وَمَنِ اتَّبَعَنِي أسلمَ أيضاً كما أسلمتُ ، والأصلُ إثباتُ الياء في (تَبعَنِي) لكن حُذفت للتخفيفِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقُلْ لِّلَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ } ؛ الذينَ أُوتُوا الكِتَابَ همُ اليَهُودُ والنصارَى ؛ والأُمِّيُّونَ مشركو العرب ؛ أي قُلْ لَهُمْ أخْلَصْتُم كما أخلصنَا ، { فَإِنْ أَسْلَمُواْ } اخلصُوا ؛ { فَقَدِ اهْتَدَواْ } ؛ مِن الضلالِ ؛ { وَّإِن تَوَلَّوْاْ } ؛ عنِ الإسلامِ وقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ، وَقَالَتْ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ ؛ { فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ } ؛ بالرِّسَالةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ } ؛ أي عالِمٌ بمن يؤمنُ ومَن لا يؤمن ، لا يفوتُه شيءٌ من أعمالِهم التي يُجازيهم بها.

قال الكلبيُّ : " لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ ذكَرَ ذلِكَ لَهُمْ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم ؛ فَقَالَ أهْلُ الْكِتَاب : أسْلَمْنَا ، قَالَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم لِلْيَهُودِ : " تشْهَدُونَ أنَّ عِيْسَى كَلِمَةُ اللهِ وَعَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ؟ " قَالُواْ : مَعَاذ اللهِ ؛ وَلَكِنَّهُ ابْنُ اللهِ. فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ "). { وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ } أي عليمٌ بصير بمن يؤمنُ وبمَنْ لا يؤمنُ ؛ وبأهْلِ الثَّواب وبأهلِ العقَاب.

فإن قيلَ : قَوْلُهُ : (وَمَنِ اتَّبَعَنِي) عَطْفٌ على المضمرِ في قولهِ : (أسْلَمْتُ) والعربُ لا تعطفُ الظاهرَ على المضمرِ ؟ قيلَ : إنَّما لا تعطفُ إذا لم يكن بين الكلامَين فاصلٌ ، أمَّا إذا كان بينَهما فاصلٌ جازَ.

قَوْلُهُ (أسْلَمْتُ) لفظهُ استفهامٌ ومعناهُ أمْرٌ ؛ أي أسْلِمُوا كقولهِ تعالى : { فَهَلْ أَنْتُمْ مُّنتَهُونَ }[المائدة : ٩١] أي انْتَهُوا.

(٠/٠)

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } ؛ معناهُ : إنَّ الذينَ يجحَدونَ بآيَاتِ اللهِ وهمُ اليهودُ والنصارى. { وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ } قرأ الحسنُ (وَيُقْتِّلُونَ) بالتشديدِ فَهُما على التكثيرِ ، وقرأ حمزةُ (وَيُقَاتِلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ).

وفي إضافَتِهم قتلَ الأنبياءِ هؤلاءِ الَّذين كانوا على عَهْدِ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَوْلاَنِ ؛ أحدُهما : رضاهُم بقتلِ مَن سَلَفَ منهُم النبيينَ نحوُ قتلِهم زكريَّا ويحيى ، والثاني : أنَّ هؤلاء قاتَلُوا النبيَّ صلى الله عليه وسلم وهَمُّوا بقتلهِ كما قالَ اللهُ تعالى : { وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ }[الأنفال : ٣٠] ، وقرأ بعضُهم : (يُقَاتِلُونَ النَّبِيِّيْنَ بغَيْرِ حَقٍّ).

وعن أبي عبيدةَ بن الجرَّاحِ رضي الله عنه قالَ : " قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم ؛ أيُّ النَّاسِ أشَدُ عَذَاباً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ قَالَ : " رَجُلٌ قَتَلَ نَبيّاً أوْ رَجُلاً أمَرَ بالْمَعْرُوفِ وَنَهَى عَنِ الْمُنْكَرِ " ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ ؛ ثُمَّ قَالَ : " يَا أبَا عُبَيْدَةَ ؛ قَتَلَتْ بَنُو إسْرَائِيْلَ ثَلاَثَةً وَأرْبَعِيْنَ نَبيّاً مِنْ أوَّلِ النَّهَارِ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ ، فَقَامَ مَائَةُ رَجُلٍ وَاثْنَا عَشَرَ رَجُلاً مِنْ عُبَّادِ بَنِي اسْرَائِيْلَ ؛ فَأَمَرُواْ بالْمَعْرُوفِ وَنَهُواْ عَنِ الْمُنْكَرِ فَقَتَلُوهُمْ جَمِيْعاً فِي آخِرِ النَّهَارِ مِنْ ذلِكَ الْيَوْمِ " فَهُمْ الذينَ ذكرَهم اللهُ في كتابهِ وأنزلَ فيهم الآيةَ ".

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } أيْ أخبرْهُم بعذابٍ وجيعٍ يَخْلُصُ وَجَعُهُ إلى قلوبهم.

(٠/٠)

أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٢٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أُولَائِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ } ، أي أهلُ الصِّفة بطلَت حسناتُهم فلا يستحقُّون الثناءَ عليها في الدُّنيا ، ولا يستحقُّون الثوابَ عليها في الآخرة ؛ { وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ } ؛ أي من ناصِرٍ يَمْنعونَهم من العذاب إذا نزلَ بهم.

(٠/٠)

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ }. قالَ الكلبيُّ : " وَذلِكَ أنَّ رَجُلاً وَامْرَأَةً مِنْ أشْرَافِ أهْلِ خَيْبَرَ مِنَ الْيَهُودِ فَجَرَا وَكَانَ فِي كِتَابِهِمْ الرَّجْمُ ؛ فَكَرِهُواْ رَجْمَهُمَا لِشَرَفِهِمَا وَرَجَواْ أنْ يَكُونَ لَهُمَا عَنْدَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم رُخْصَةٌ فِي أمْرِهِمَا فِي الرّجْمِ فَيَأْخُذُوا بِهِ. فَرُفِعَ أمْرُهُمَا إلَى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم فَحَكَمَ عَلَيْهِمَا بالرَّجْمِ ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ : جُرْتَ عَلَيْنَا يَا مُحَمَّدُ! فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " بَيْنِي وَبَيْنَكُمُ التَّوْرَاةُ ، فَمَنْ أعْرَفُكُمْ بِهَا " قَالُواْ : ابْنُ صُوريَّا ، فَأَرْسَلُواْ إلَيْهِ ، فَلَمَّا قَدِمَ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " أنْتَ ابْنُ صُوريَّا ؟ " قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : " أنْتَ أعْلَمُ الْيَهُودِ ؟ " قَالَ : كَذلِكَ يَزْعُمُونَ. فَدَعَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم شَيْئاً مِنَ التَّوْرَاةِ فِيْهِ آيَةُ الرَّجْمِ – دَلَّهُ عَلَى ذلِكَ ابْنُ سَلاَمٍ – فَقَالَ لابْنِ صُوريَّا : إقْرَأ ؛ فَلَمَّا أتَى عَلَى آيَةِ الرَّجْمِ فَوَضَعَ كَفَّهُ عَلَيْهَا ؛ ثُمَّ قَامَ ابْنُ سَلاَمٍ وَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم ؛ قَدْ جَاوَزَهَا وَوَضَعَ كَفَّهُ عَلَيْهَا ، ثُمَّ قَامَ ابْنُ سَلاَمٍ فَرَفَعَ كَفَّهُ عَنْهَا ، وَقَرَأَ عَلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم : (الْمُحَصَنُ وَالْمُحْصَنَةُ إذا زَنَيَا وَقَامَتْ عَلَيْهِمَا الْبَيِّنَةُ ؛ فَيُسْأَلُ عَنِ الْبَيِّنَةِ ، فَإنْ كَانُوا عُدُولاً رَجَمَ ، وَإنْ كَانَتِ الْمَرْأَةُ حُبْلَى يُتَرَبَّصُ بِهَا حَتَّى تَضَعَ مَا فِي بَطْنِهَا). فَأَمَرَ بِهِمَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم برَجْمِهِمَا فَرُجِمَا ، فَغَضِبَتِ الْيَهُودُ لِذَلِكَ غَضَباً شَدِيْداً وَرَجَعُواْ كُفَّاراً " فذلك قوله تعالى : { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ } معناهُ : أَلَمْ تعلَمْ يا مُحَمَّدُ بالذينَ أعْطُوا حَظاً من التوراةِ.

وقَوْلُهُ : { يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ } قال ابنُ عبَّاس : (هُوَ التَّوْرَاةُ دُعِيَ إلَيْهَا الْيَهُودُ فَأَبَواْ لِعِلْمِهِمْ بلُزُومِ الْحُجَّةِ ، وَأَنَّ فِيْهِ الْبِشَارَةَ بالنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم). وقال الحسنُ وقتادة : (أرَادَ بِهِ الْقُرْآنَ ، فَإنَّهُمْ دُعُوا إلَى الْقُرْآنِ لِمُوافَقَتِهِ التَّوْرَاةَ فِي أصُولِ الدِّيَانَةِ). وعن الضحَّاك في هذهِ الآية : (أنَّ اللهَ تَعَالَى جَعَلَ الْقُرْآنَ حَكَماً بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ؛ فَحَكَمَ الْقُرْآنُ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى بأنَّهُمْ عَلَى غَيْرِ الْهُدَى فَأَعْرَضُوا). وقال قتادةُ : (هُمُ الْيَهُودُ دُعُوا إلَى حُكْمِ الْقُرْآنِ وَاتِّبَاعِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم ؛ فَأَعْرَضُواْ وَهُمْ يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي كُتُبِهِمْ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ } أي يُعْرِضُ ؛ جمعٌ كُثْرٌ منهم من الدَّاعي وهم مُعْرِضُونَ عن العمل بالمدعوِّ إليه ، وقيلَ : معناهُ : ثُمَّ يَتولَّى فَرِيْقٌ مِنْهُمْ بعد عِلمهم أنَّها في التوراةِ ، وإنَّما ذكرَ الإعراضَ بعد التولِّي ؛ لأن الإنسانَ قد يُعْرِضُ عن الدَّاعي ويتأمَّلُ ما دَعَاهُ إليه فينكرُ أنه حقٌّ أو باطل ، وهم لَمْ يتأمَّلوا ولم يتفكَّروا فيما دعوا إليه.

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ } ؛ أي (ذلِكَ) الإعراضُ والكذب { بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ } يعنونَ الأربعينَ يوماً التي عَبَدَ آباؤُهم فيها العجلَ. قوله تعالى : { وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ } ؛ أي غرَّهُم افتراؤُهم على اللهِ أنَّه لا يعذبُهم إلاَّ أيَّاماً معدودات ، ويقالُ : غرَّهم افتراؤهم أنَّهم قالُوا نحنُ أبناء اللهِ وأحبَّاؤه.

(٠/٠)

فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ } ؛ أي كيفَ يحتالون وكيف يصنعُون إذا جمعناهم بعد الموتِ لجزاء يومٍ لا شكَّ فيه. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ } ؛ أي أعطيت كلَّ نفس برَّةً وفاجرةً جزاءَ ما عملت من خيرٍ أو شرٍّ تامّاً وافياً ، { وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ } أي لا يُنقصون من حسنةٍ ولا يزادون على سيِّئة. قال الضحَّاك عنِ ابن عبَّاس : (أَوَّلُ رَايَةٍ تُرْفَعُ لأَهْلِ الْمَوْقِفَ ذلِكَ الْيَوْمِ مِنْ رَايَاتِ الْكُفَّار رَايَةُ الْيَهُودِ ؛ فَيَفْضَحُهُمْ عَلَى رُؤُوسِ الأَشْهَادِ ثُمَّ يَأْمُرُ بِهِمْ إِلَى النَّار).

(٠/٠)

قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ }. قال عليٌّ رضي الله عنه قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : " لَمَّا أَرَادَ اللهُ تَعَالَى أَنْ يُنَزِّلَ الْفَاتِحَةَ ؛ وَآيَةَ الْكُرْسِيِّ ؛ وَشَهِدَ اللهُ ؛ وَقُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ ، تَعَلَّقْنَ بالْعَرْشِ وَقُلْنَ : تُهْبطُنَا دَارَ الذُّنُوب وَإِلَى مَنْ يَعْصِيْكَ؟! فَقَالَ اللهُ تَعَالَى : وَعِزَّتِي وَجَلاَلِي ؛ مَا مِنْ عَبْدٍ قَرَأَكُنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلاَةٍ مَكْتُوبَةٍ إِلاَّ أَسْكَنْتُهُ حَضْرَةَ الْعَرْشِ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ ، وَإِلاَّ نَظَرْتُ إِلَيْهِ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعِيْنَ نَظْرَةً ، وَإِلاَّ قَضَيْتُ لَهُ

كُلَّ يَوْمٍ سَبْعِيْنَ حَاجَةً ، أدْنَاهَا الْمَغْفِرَةَ ، وَأعَذْتُهُ مِنْ كُلِّ عَدُوٍّ وَنَصَرْتُهُ عَلَيْهِ ، وَلاَ يَمْنَعُهُ مِنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ إلاَّ أنْ يَمُوتَ "

ومعنى الآيةِ : قال ابنُ عبَّاس : (لَمَّا فَتَحَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم مَكَّةَ وَوَعَدَ أمَّتَهُ مُلْكَ فَارسَ وَالرُّومَ ، قَالَ الْمُنَافِقُونَ وَالْيَهُودُ : هَيْهَاتَ ، مِنْ أيْنَ لِمُحَمَّدٍ مِلْكُ فَارسَ وَالرُّومَ ، هُمْ أعَزُّ وَأمْنَعُ مِنْ ذلِكَ ، أَلَمْ يَكْفِ مُحَمَّداً مَكَّةَ وَالْمَدِيْنَةَ حَتَّى أطْمَعَ نَفْسَهُ فِي مُلْكِ فَارسَ وَالرُّومِ).

ويقالُ في وجه اتِّصال هذه الآية بما قبلَها : إنَّ اليهودَ قالواُ : لا نتبعُكَ ؛ فإنَّ النبوَّة والملكَ لم يزل في أسلافِنا بني إسرائيل ، فَأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ. ومعناها : قُلْ يا مُحَمَّدُ : يا اللهُ يَا مَالِكَ الْمُلْكِ.

وإنَّما زيدت الميمُ لأنَّها بدلٌ عن (يَا) التي هي حرفُ النداءِ ، ألا تَرَى أنه لا يجوزُ في الإخبار إدخالُ الميم ؛ لا يقالُ : غَفَرَ اللَّهُمَّ لي كما يقالُ في النداء اللَّهُمَّ اغْفِرْ ((لي)) ؛ ولهذا لا يجوزُ الجمع بين ((ما كان)) الميم في آخرهِ والنداء في أوَّله ، لأنه لا يجوزُ الجمع بين العِوَضِ والمعوَّض ، وإنَّما شُدِّدت الميمُ لأنَّها عِوَضٌ عن حرفين ، فإنَّ النداءَ حرفان ، وهذا اختيارُ سيبويه. وقال الفرَّاء : (مَعْنَى قَوْلِ الْقَائِلِ : اللَّهُمَّ يَا اللهُ أمَّ بخَيْرٍ ؛ أي أقْصُدْ. طُرِحَتْ حَرَكَةُ الْهَمْزَةِ عَلَى الْهَاءِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { مَالِكَ الْمُلْكِ } أي مالِكَ كلِّ مَلِكٍ ، هذه صفةٌ لا يستحقُّها أحدٌ غيرُ الله ، وقيل : معناه : مالِكَ أمرِ الدنيا والآخرة. وقال مجاهدُ : (أرَادَ بالْمُلْكِ هُنَا النُّبُوَّةَ) ، وقيل : إنَّ هذا لا يصلُح لأنَّه قالَ : { وَتَنزِعُ الْمُلْكَ } واللهُ تعالى لا يَنْزِعُ النبوَّةَ من أحدٍ ؛ لأنه لا يريدُ لأداءِ الرسَالة إلاّ مَن يعلمُ أنه يؤدِّي الرسالةَ على الوجه ، وأنَّهُ لا يغيِّرُ ولا يبدِّلُ ، لأنه عالِمٌ بعواقب الأمور.

ومعنى : { تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَآءُ } أي تُعطي الملكَ من تشاء أنْ تعطيه. وقال الكلبيُّ : { تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ } يَعْنِي مُحَمَّداً وَأصْحَابَهُ ، { وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ } أيْ مِنْ أبي جَهْلٍ وَأصْحَابِهِ). وقيل معناه : { تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ } يعني العربَ ، { وَتَنْزِعَ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ } يعني الرُّوم والعجمَ وسائر الأممِ.

(٠/٠)

تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ } ، أي يُدخِلُ من الليلِ في النَّهار حتى يصيرَ النهارُ خمسَ عشرة ساعةً وهو أطولُ ما يكون ، وأقصرهُ تِسْعُ ساعاتٍ ، ويُدْخِلُ النَّهارَ في الليلِ حتى يصيرَ الليلُ خمسَ عشرة ساعةً وهو أطولُ ما يكون ، وأقصرهُ تِسْعُ ساعاتٍ ، فما نَقُصَ من أجزاءِ

أحدِهما دخلَ في الآخر ، وهذا قولُ أكثرِ المفسِّرين. وقال بعضُهم : معناهُ : تذهبُ بالليلِ وتجيء بالنهار ، وتذهبُ بالنَّهار وتجيء بالليل.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ } ، قال ابنُ عبَّاس وقتادةُ ومجاهد والضحَّاك وابن جُبير والسديُّ : (مَعْنَاهُ : تُخْرِجُ الْحَيْوَانَ مِنَ النُّطْفَةِ وَهِيَ مَيْتَةٌ ، وَتُخْرِجُ النُّطْفَةَ مِنَ الْحَيْوَانِ وَهُي حَيٌّ ، وَالدَّجَاجَةَ مِنَ الْبَيْضَةِ ، وَالْبَيْضَةَ مِنَ الدَّجَاجَةِ). وقال بعضُهم : يخرجُ النَّخلةَ من النواةِ ، والنواةَ من النخلةِ ، وتخرجُ السنبلةَ من الحبَّة ، والحبَّةَ من السنبلةِ.

وقال الحسنُ : (مَعْنَاهُ : يُخْرِجُ الْمُؤْمِنَ مِنَ الْكَافِرِ ، وَالْكَافِرَ مِنَ الْمُؤْمِنِ ، وَالْعَالِمَ مِنَ الْجَاهِلِ ؛ وَالْجَاهِلَ مِنَ الْعَالِمِ). دليلهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ }[الانعام : ١٢٢].

وحكايةُ عن الزهري : " أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم دَخَلَ عَلَى بَعْضِ نِسَائِهِ فَإِذا هُوَ بامْرَأَةٍ حَسَنَةِ الْهَيْئَةِ ، فَقَالَ : " مَنْ هَذِهِ ؟ " قَالَتْ : إحْدَى خَالاَتِكَ ، قَالَ : " أيُّ خَالاَتِي هَذِهِ ؟ " قَالَتْ : هَذِهِ خَالِدَةُ بنْتُ الأَسْوَدِ بْنِ عَبْدِ يَغُوثَ ، فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " سُبْحَانَ الَّذِي يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ " ، وكانتِ امرأةً صالِحة ، وكانَ ماتَ أبُوها كَافراً ".

قال أهلُ الإشارةِ : معناهُ : يُخرج الحكمةَ من قلب الفاجر حتى لا تسكُنَ فيه ، والمسقِطةُ مِن قلب العارف. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ } أي بغيرِ تقديرٍ ، وقد تقدَّم تفسيرُ ذلك.

(٠/٠)

لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٢٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي عَبْدِاللهِ بْنِ أبَيٍّ وَأصْحَابِهِ الْمُنَافِقِيْنَ ؛ كَانُواْ مَعَ إظْهَارِهِمُ الإيْمَانَ يَتَوَلَّوْنَ الْيَهُودَ وَيَأْتِيْهِمْ بأخْبَار الْمُؤْمِنِيْنَ ، وَيَرْجُونَ أنْ يَكُونَ لَهُمْ الظَّفْرُ عَلَى الْمُؤْمِنِيْنَ ؛ فَأَنْزَلَ هَذِهِ الآيَةَ يَنْهَى الْمُؤْمِنِيْنَ عَنْ مِثْلِ فِعْلِهِمْ ، وَيَنْهَى الْمُنَافِقِيْنَ أيْضاً ؛ أيْ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِيْنَ ، فَلاَ تَتَّخِذ الْكُفَّارَ أوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِيْنَ).

وقالَ الضحَّاك عنِ ابن عبَّاس : (نَزَلَتْ فِي عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ ؛ وَكَانَ بَدْرِيّاً نَقِيْباً ؛ وَكَانَ لَهُ حُلَفَاءَ مِنَ الْيَهُودِ ، فَلَمَّا خَرَجَ رَسُولُ اللهِ يَوْمَ الأحْزَاب ؛ قَالَ عُبَادَةُ : يَا رَسُولَ اللهِ ؛ إنَّ مَعِي خَمْسُمِائَةِ رَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ ؛ وَقَدْ رَأَيْتُ أنْ يَخْرُجُواْ مَعِي فَأَسْتَظْهِرُ بِهِمْ عَلَى الْعَدُوِّ ، فَأَنْزَلَ هَذِهِ الآيَةَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَن يَفْعَلْ ذلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ } ؛ أي مَن يوالِيهم في نقل الأخبار إليهم وإظهارهم على عَوْرَةِ المسلمين ، فليس مِن الله في شيء. قال السديُّ : (فَلَيْسَ مِنَ الْوِلاَيَةِ فِي شَيْءٍ ،

فَقَدْ بَرِئَ اللهُ مِنْهُمْ). كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي آيَةٍ أخْرَى : { وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ }[المائدة : ٥١] معنى أنَّ وَلِيَّ الكافرِ راضٍ بكفرِهِ ، والرِّضَى بالكفرِ كفرٌ ، قَالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : " أَنَا بَرِئٌ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ مَعَ مُشْرِكٍ "

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً } ؛ أي إلاَّ أن يُحصَرَ المؤمن في أيدي الكفَّار يخافُ على نفسِه فيداهِنُهم فيرضيهم بلسانهِ وقلبُهُ مطمئنٌّ بالإيْمان فهو مُرَخَّصٌ له في ذلكَ ، كما رُوِيَ : أنَّ مُسَيْلَمَةَ الْكَذابَ لَعَنَهُ اللهُ أخَذ رَجُلَيْنِ مِنْ أصْحَاب رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ؛ فَقَالَ لأحَدِهِمَا : أتَشْهَدُ أنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، وَقَالَ لِلآخَرِ : أتَشْهَدُ أنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : أتَشْهَدُ أنِّي رَسُولُ اللهِ ؟ قال : إنِّي أصَمُّ ، فَأَعَادَ عَلَيْهِ السُّؤَالَ ثَلاَثاً ، فَأَجَابَ فِي كُلِّ مَرَّةٍ هَذا الْجَوَاب ، فَضَرَبَ مُسَيْلَمَةُ عُنُقَهُ ، فَبَلَغَ ذلِكَ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ : " أمَّا الْمَقْتُولُ فَمَضَى عَلَى صِدْقِهِ وَيَقِيْنِهِ فَهَنِيْئاً لَهُ ، وَأَمَّا الآخَرُ فَقَبِلَ رُخْصَةَ اللهِ فَلاَ تَبِعَةَ عَلَيْهِ "

فمعنى الآيةِ : إلاَّ أن تَخافوا منهم مخافةً. قرأ الحسنُ والضحَّاك ومجاهد : (تَقِيَّةً). وقرأ حمزةُ والكسائيُّ بالإمالةِ. وقرأ الباقون بالتفخُّم ، فكلُّ ذلك لغاتٌ فيها ، ومعناهُ واحد.

قوله تعالى : { وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ } ؛ أي يخوِّفُكم عقوبتَه وبطشَهُ على موالاةِ الكفَّار وارتكاب المنهيِّ عنه. وقال الزجَّاج : (مَعْنَاهُ : وَيُحَذِّرُكُمْ اللهُ إيَّاهُ). وَخَاطَبَ اللهُ العبادَ على قدر عملهم وعقلِهم ، ومعنى قولِهِ تعالى : { تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي }[المائدة : ١١٦] أي تعلمُ حقيقةَ ما عندي ولا أعلمُ حقيقةَ ما عندكَ. قوله تعالى : { وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ } ، زيادةٌ في الإبعادِ وتذكيرٌ بالمعادِ ؛ أي إنْ فعلتُم ما نَهيتُكم عنه فمرجعكم إلَيَّ.

(٠/٠)

قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ } ؛ أي قُلْ إن تُسِرُّوا ما في قلوبكم من التكذيب بالنبيِّ صلى الله عليه وسلم والعداوَة للمؤمنين والمودَّة للكافرين أو تظهِرُوه بالشَّتم والطَّعن والحرب يعلمهُ الله فيجازيكم عليه ، وإنَّما ذكرَ الصَّدر مكانَ القلب ؛ لأنه مشتملٌ على القلب.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ } ؛ أي لا يخفَى عليه شيءٌ من عملِ أهل السموات وأهلِ الأرض ، فلا يغرنَّكم الإخفاءُ ، فإن الإخفاءَ والإبداء عنده سواءٌ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } ؛ أي على جزاءِ عمَل السرِّ والعلانيَة قادرٌ.

(٠/٠)

يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٣٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً } ؛ نصبَ { يَوْمَ } بنَزع الخافضِ لأن أوَّل هذه الآية منصرفٌ إلى قوله : { وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ } في : { يَوْمَ تَجِدُ } ، وقيل : بإضمار فعلٍ ؛ أي اذْكُرُوا { يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً } أي حَاضِراً مكتوباً في ديوانِهم لا يقصرُ فيه. وقرأ عبيدةُ بن عمر (مُحْضِراً) بكسر الضاد ، ويعني عملُه يحضره الجنة.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدَاً بَعِيداً } ؛ أي والذي عملَتْ من سوء يتمنَّى أن يكونَ بينه وبين ذلك أجلٌ طويل بُعد ما بينَ المشرقِ والمغرب ، لَيْتَهُ لم يعملْ ، جعل بعضُهم (ما) جزاءً في موضعِ النَّصب واعملَ فيه الوجود أي وتجدُ عملَها ، وجعل بعضُهم جزاءً مستأنفاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ } ؛ أي رحيمٌ بالمؤمنين خاصَّة ؛ هكذا قال ابنُ عبَّاس ، وقيلَ : إن أول هذه الآية عدلٌ ، وأوسطها تَهديد وتخويفٌ ، وآخرُها رأفةٌ ورحمةٌ.

(٠/٠)

قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٣٢) إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ } ؛ لَمَّا نزلت الآياتُ المتقدِّمة قالتِ اليهودُ : نحنُ أبناءُ اللهِ واحبَّاؤُه ، وإنَّما يقولُ الله مثلَ هذه الآياتِ في أعدائه ، وأرادوا بقولهِ أحبَّاؤُه : نُحِبُّهُ وَيُحِبُّنَا ؛ فأنزلَ اللهُ هذه الآية.

والْمَحَبَّةُ : في الحقيقةِ هي الإرادةُ ، وهو أن تريدَ نَفْعَ غيرك فيبلُغَ مرادَه في نفعك إيَّاهُ ، وأما الْعِشْقُ : وهو إفراطُ الْمَحَبَّةِ في هذا المعنى. وأما مَحَبَّةُ الطعامِ والملاذِ ؛ فهو شهوةٌ وتَوَقَانُ النفسِ. وأما مَحَبَّةُ العباد للهِ تعالى ، فاللهُ يستحيلُ عليه المنافع ، فلا يصحُّ أن يرادَ بمُحِبهِ هذه الطريقة لكي يراد بها

إعظامُه وإجلاله وطاعتهُ ومحبَّة رسلهِ وأوليائِه ، ومحبَّة الله إيَّاهم إثابتهُ إياهم على طاعتِهم ؛ وإنعامهُ عليهم ؛ وثناؤُه عليهم ؛ ومغفرَتُه لهم.

ومعنى الآيةِ : إنْ كُنتُم تحبُّون طاعةَ الله والرضا بشرائعهِ فاتَّبعوني على ديني يَزِدْكُمُ اللهُ حُبّاً ، { وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ } ؛ في اليهوديَّة ؛ { وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }.

وروى الضحَّاك عن ابنِ عبَّاس وقال : " وَقَفَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم عَلَى قُرَيْشٍ وَهُمْ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَقَدْ نَصَبُواْ أَصْنَامَهُمْ ، وَعَلَّقُوا عَلَيْهَا بَيْضَ النَّعَامِ ، وَجَعَلُواْ فِي آذَانِهَا الشُّنُوفَ وَهُمْ يَسْجُدُونَ لَهَا ، فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ؛ وَاللهِ لَقَدْ خَالَفْتُمْ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيْمَ " وَقَالَتْ قُرَيْشُ : إِنَّمَا نَعْبُدُ هَذِهِ حُبّاً للهِ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى ؛ فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ " أي قُلْ لَهُمْ يا مُحَمَّدُ صلى الله عليه وسلم إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ ، فَأَنَا رسولُ اللهِ إليكم ، وحجَّتُه عليكم ، وأنا أَوْلَى بالتعظيمِ من أَصْنَامِكُمْ. فلما نزلَتْ هذهِ الآيَةُ عرضَها عليهم فلم يقبَلُوا.

وقيل : لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ عَرَضَهَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم عَلَى الْيَهُودِيِّ ، فَقَالَ عَبْدُاللهِ بْنُ أبي سَلُولٍ : إِنَّ مُحَمَّداً صلى الله عليه وسلم يَجْعَلُ طَاعَتَهُ كَطَاعَةِ اللهِ ، وَيَأْمُرُنَا أَنْ نُحِبَّهُ كَمَا أَحَبَّتِ النَّصَارَى عِيْسَى عليه السلام ؛ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { قُلْ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ } ؛ أي فإنْ لَم يفعلوا ما تدعوهُم إليه من إتِّباعِك وطاعةِ أمرِكَ فإنَّ اللهَ تعالى لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِيْنَ ؛ أي لا يغفرُ لَهم ولا يُثني عليهم.

فلما نزلتْ هذه الآيةُ قالتِ اليَهُودُ : نحنُ أبناءُ إبراهيمَ وإسحاق ويعقوبَ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ ونحنُ على دينهم ، فأنزلَ الله قولَه تعالى : { إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى ءَادَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ } ؛ معناهُ : أنَّ اللهَ اصطفاهُم بالإسلام ، وإنَّ آدمَ كما لم ينفع أولادَه المشركين كذلك سائرَ الأنبياءِ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ لا ينفعونهم. وصَفْوةُ الله : هم الذين لا دَنَسَ فيهم بوجهٍ من الوجوهِ ؛ لا في اعتقادٍ ولا في الفعلِ ، والاصْطِفَاءُ : هو الاختيارُ ، والصَّفْوَةُ : هو الخالِصُ من كلِّ شيءٍ ، فمعناهُ : { اصْطَفَى ءَادَمَ } أي اختارهُ واستخلَصه.

واختلفُوا في آلِ عمران في هذهِ الآية ؛ قيلَ : أراد بهم موسى وهارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ ، وقيلَ : أرادَ مَرْيَمَ عَلَيْهَا السَّلاَمُ.

(٠/٠)

ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ } ؛ إنتصبُ على البَدَلِ ، وقيل : على التَّكرار ، واصطفَى ذريَّةً

بعضُها من بعضٍ ، وقيل : على الحالِ ؛ أي اصطفاهُم حالَ كونِ بعضِهم من بعضٍ ، { وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } ؛ أي سَميعٌ لقولِهم ؛ عَلِيْمٌ وبمجازاتِهم.

(٠/٠)

إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } ؛ قال أبو عُبيد : ((إذْ) زَائِدَةٌ فِي الْكَلاَمِ وَكَذلِكَ فِي سَائِرِ الآيِ). وقال جَمَاعةٌ من النحويِّين : معناهُ : واذْكُرْ إذ قالَت ، وكانَ اسمُ امرأة عِمران (حِنَّةٌ) وهي أمُّ مريَم ، وكان لَها إبنانِ احداهما انشاع ؛ وعِمران بنُ مَاثَانَ ؛ بينهُ وبين عِمران أبي مُوسى عليه السلام ألفٌ وثَمانُمائة سنةٍ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً } أي أوجبتُ لكَ على نفسي أن أجعلَه عتيقاً لِخدمة بيتِ المقدس ، وكانوا يحرِّرُون أولادَهم أي يعتقونَها عن أسباب الدُّنيا ، يجعلون الولدَ خالصاً للهِ ، لا يستعملونَها في منافعِهم ، ولم يكونوا يحرِّرون إلاّ الذُّكرانَ ، وكان المحرَّرون سكانُ بيتِ الله يتعهَّدونَهُ ويَكْسُونَهُ ، فإذا بلغُوا خُيِّرُوا ؛ فإن أحبُّوا أقامُوا في البيتِ ، وإن أحبُّوا ذهبوا. و { مُحَرَّراً } نُصِبَ على الحالِ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَتَقَبَّلْ مِنِّي } أي تقبَّل منِّي نَذْري { إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ } لدُعائي ، { الْعَلِيمُ } بنيَّتِي وإخلاصي.

(٠/٠)

فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنْثَى } ؛ وذلك أنَّها كانت تظُنُّ وقتَ النَّذر أنَّ ما في بطنِها ذكراً ؛ فلما ولدَت أنثى توهمَّت أن لا تُقْبَلَ منها ؛ ف { قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنْثَى } ، وكان هذا القولُ منها على وجهِ الاعتذار ؛ لأنَّ سَعْيَ الأُنثى أضعفُ وعقلَها أنقصُ ، { وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا

وَضَعَتْ } ، وكانوا لا يحرِّرون النساءَ لِخدمة البيتِ لِمَا يلحقهُنَّ من الحيْضِ والنِّفاسِ.
قوله عَزَّ وَجَلَّ : { وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى } ؛ هو من قولِ المرأةِ ؛ معناهُ : ليسَ الذكرُ كالأنثى في خدمةِ البيتِ ؛ لأن الأُنثى عورةٌ فلا تصلُح لِما يصلحُ له الذكرُ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ } ؛ أي خَادِمَ الرَّب بلُغتهم.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ } ؛ أي إنِّي أمنعُها وولدَها بكَ إنْ كان لَها ولدٌ من الشيطانِ الرَّجيمِ. الرَّجيمُ : المرجُوم وهو المطرودُ من رحمةِ الله تعالى. وعن رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم أنَّهُ قَالَ : " مَا مِنْ مَوْلُودٍ إلاَّ وَلِلشَّيْطَانِ طَعْنَةٌ فِي جَنْبِهِ حِيْنَ يُوْلَدُ فَيَسْتَهِلُّ صَارِخاً مِنَ الشَّيطَانِ الرَّجِيْمِ ، إلاَّ مَرْيَمَ وَابْنهَا عليه السلام ، إقْرَؤُا إنْ شِئْتُمْ : وَإنِّي أعِيْذُهَا بكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ " قرأ عليٌّ والنخعي وابنُ عامرٍ : (وَضَعْتُ) بضم التاء.

(٠/٠)

فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧) هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٨)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً } ؛ أي استجابَ اللهُ دعاءَ (حِنَّةَ) ، وقَبِلَ نَذْرَهَا ، وجعل مريَم صوَّامةً وقوَّامةً ، ربَّاها اللهُ تربيةً حسنة. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا } ؛ أي ضمَّها للقيامِ بأمرِها ، قال صلى الله عليه وسلم : " أنَا وَكَافِلُ الْيَتِيْمِ كَهَاتَيْنِ ، وَأَشَارَ بإصْبَعَيْهِ " وكان عِمرانُ قد ماتَ و(حِنَّةُ) حاملةٌ بمريَمَ. قرأ الحسنُ ومجاهد وابنُ كثير وشيبةُ ونافع وعاصمُ وأبو بكرٍ وابنُ عامر : (وَكَفَلَهَا زَكَرِيَّا) مخفَّفاً ، وزَكَرِيَّا في موضعِ رفعٍ ؛ أي ضمَّها إلى نفسهِ ، وتصديقُ هذه القراءةِ قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ }[آل عمران : ٤٤]. وروي عن ابنِ كثير : (وَكَفِلَهَا زَكَرِيَّا) بكسر الفاءِ ؛ أي ضمَّها ، وقرأ الباقون : (وَكَفَّلَهَا) بالتشديدِ وزَكَرِيَّا بالنصب ؛ أي ضمَّها اللهُ زكريَّا فضمَّها إليه بالقُرعةِ ، وفي مُصحف أبَيٍّ : (وَأَكْفَلَهَا) بالألفِ.
وكان زَكريَّا وعِمران تزوَّجا أختين ؛ فكانت إشياعُ بنتُ فاقودَ أختَ حِنَّةَ عندَ زَكريَّا ، وكانت حِنَّةُ بنتُ فاقُودَ أمُّ مريَم عند عِمران.
قال المفسِّرون : فلما وضعَت حنَّةُ مريَمَ لَفَّتْها في خِرْقَةٍ وحَمَلَتْهَا إلى المسجدِ فوضعَتها عند الأحبار أبنَاء هارون عليه السلام وهم يومئذ يَلُونَ من بيتِ المقدِسِ مَا يلي الْحَجَبَةُ من الكعبة ، فقالَت لَهُم : دُونَكُمْ هذه النَّذِيْرَةِ ؛ فَتَنافَسَ فيها الأحبارُ لأنَّها كانت بنتَ إمامِهم ، فقال لَهم زَكريَّا عليه السلام : أنَا

أحقُّ بها لأنَّ خالَتَها عندِي ، فقالت لهُ الأحبارُ : لا تفعل ؛ فإنَّها لو تُركت لأحَقِّ الناسِ بها لتُركت لأُمِّها ، ولكنَّا نُقْرِعُ عليها فتكونُ عند مَن خرجَ سهمُه.

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يامَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَاذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ * هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَآءِ } ؛ أي عندَما رأى زكريَّا أمرَ اللهِ في مريَم طَمِعَ أنَّ الذي يأتِي مريَم بالفاكهةِ في الشِّتاء يُصْلِحُ له عُقْرَ زوجتِهِ ، فدعَا عند ذلكَ وقال : { رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً } أي وَلَداً صالِحاً ، والذُّرِّيَّةُ تكونُ واحداً وجَمعاً ؛ ذكراً أو أنثى ، وهو هَا هُنا واحدٌ ، ويدلُّ عليهِ قولهُ : { فَهَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ وَلِيّاً } ولَم يقل أولِياءَ ، وإنَّما أتت { طَيِّبَةً } لأنه على لفظِ ذُرية كما قالَ الشاعرُ : أبُوكَ خَلِيْفَةٌ وَلَدَتْهُ أخْرَى وَأنْتَ خَلِيْفَةٌ ذاكَ الْكَمَالِفأنَّث (وَلَدَتْهُ) لتأنيثِ الخليفة.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَآءِ } أي سامِعُ الدعاءِ ومُجيِّبُهُ ، وقولُهم : (سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ) أي أجابَ ، وأنشدَ : دَعَوْتُ اللهَ حَتَّى خِفْتُ أنْ لاَ يَكُونَ اللهُ يَسْمَعُ مَا أقُولُ

(٠/٠)

فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (٣٩)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى } ؛ قرأ الأعمشُ وحمزة والكسائيُّ وخَلَفُ وقتادةُ : (فَنَادَاهُ) ، وقرأ الباقون : (فَنَادَتْهُ) ، وإذا تقدَّمَ الفعلُ فأنتَ فيه بالخيار ؛ إنْ شِئْتَ أنَّثْتَ ؛ وإنْ شئتَ ذكَّرْتَ.

ومعنى الآيةِ : فناداهُ جبريلُ عليه السلام وهو قائمٌ يُصَلِّي في المسجدِ بأنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بولدٍ اسْمُهُ يَحْيَى.

والمرادُ بالملائكةِ هنا جِبْرِيْلَ وحدَه ؛ ونظيرهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يامَرْيَمُ }[آل عمران : ٤٢] يعني جبريلَ وحدَهُ ، وقَوْلُهُ : { يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالْرُّوحِ }[النحل : ٢] يعني جبريلَ وحدَه ، { بِالْرُّوحِ } أي بالوَحْي ، يدلُّ عليه قراءةُ ابنِ مسعود : (فَنَادَاهُ جِبْرِيْلُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَاب).

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ } قرأ ابنُ عامرٍ والأعمشُ وحمزة : (إنَّ اللهَ) بكسر الألفِ على إضمار القول ؛ تقديرهُ : فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ فقالَتْ : إنَّ اللهَ ، لأنَّ النداءَ قولٌ ، وقرأ الباقون بالفتح بوقوعِ النِّداء عليه كأنَّهُ قالَ : فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ بأنَّ اللهَ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { يُبَشِّرُكَ } قرأ حمزةُ والكسائي (يُبَشُرُكَ) بفتح الياء وجزمِ الباء وضمِّ الشين ، وقرأ الباقون بضمِّ الياءِ وفتح البَاء وتشديدِ الشِّين وكسرِها.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً } ؛ انتصبَ على الحالِ في قوله : { بِكَلِمَةٍ مِّنَ

اللَّهِ } يعني عيسَى عليه السلام ؛ أنَّ يَحيى مصدِّقاً بعيسى ، وكانَ يَحيى أوَّلَ مَن صدَّق بعيسَى وشَهِدَ أنَّه كلمةُ اللهِ وروحُه ، وكان يحيى أكبرَ من عيسى بثلاثِ سنين ، وقيلَ : بستَّة أشهرٍ.

واختلفُوا في تسمية يَحيى بهذا الاسمِ ؛ فقالَ ابنُ عبَّاس : (لأنَّ اللهَ تَعَالَى حَيَى بِهِ عُقْرَ أمِّهِ). وقالَ قتادةُ : (لأنَّ اللهَ أحْيَا قَلْبَهُ بالإيْمَانِ). وقيل : بالنبوَّة.

وقيل : إنَّ الله تعالى أحيَى قلبَه بالطاعةِ حتى لَم يَعْصِ ولَم يَهُمَّ بمعصيةٍ. قالَ صلى الله عليه وسلم : " مَا مِنْ أحَدٍ يَلْقَى اللهَ عَزَّ وَجَلَّ إلاَّ وَقَدْ هَمَّ بخَطِيَّةٍ أوْ عَمِلَهَا إلاَّ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا فَإنَّهُ لَمْ يَهُمَّ بهَا ولَمْ يَعْمَلْهَا " وقال بعضُهم : سُمِّي بذلكَ لأنه اسْتُشْهِدَ ، والشهداءُ أحياءٌ عند ربهم يرزقون. قال صلى الله عليه وسلم : " مِنْ هَوَانِ الدُّنْيَا عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ أنَّ عِيْسَى قَتَلَتْهُ امْرَأةٌ ، وَقُتِلَ يَحْيَى قَبْلَ رَفْعِ عِيْسَى عليه السلام "

قوله تعالى : { بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ } إنَّما سُمي عيسَى كَلِمَةً ؛ لأنَّ اللهَ تعالى قالَ لهُ كُنْ مِن غيرِ أبٍ فكانَ ، فوقعَ عليه اسمُ الكلمة. قولُه تعالى : { وَسَيِّداً } السيِّدُ في اللغة وفي الحقيقةِ : مَنْ تَلْزَمُ طَاعَتُهُ وَيَجِبُ عَلَى النَّاسِ الاقْتِدَاءُ وَالْقَفَا بهِ فِي الْعِلْمِ وَالْحِلْمِ وَالْعِبَادَةِ. وقال الضحَّاكُ : (السَّيِّدُ : الْحَسَنُ الْخُلُقِ).

وقال ابنُ جبير : (السَّيِّدُ : الَّذِي يُطِيْعُ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ). وقال ابنُ المسيَّب : (السَّيِّدُ : الْفَقِيْهُ الْعَالِمُ). وقال سفيان : (هُوَ الَّذِي لاَ يَحْسِدُ) ، وقال عكرمةُ : (هُوَ الّذِي لاَ يَغْضَبُ) ، وقال ذُو النُّونِ : (الْحَسُودُ لاَ يَسُودُ) ، وقال الخليلُ : (سَيِّداً أيْ مُطَاعاً) ، وقيل : السيِّدُ : القانعُ بما قَسَمَ اللهُ ، وقيل : هو الرَّاضِي بقضاءِ الله ، وقيل : المتوكِّلُ على اللهِ.

(٠/٠)

قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (٤٠)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ } ؛ معناهُ : قال زكريَّا لجبريلَ حين سَمع البشارة يا سيِّدي كيفَ يكونُ لي غلامٌ وقد أدركَنِي الْهَرَمُ وامرأتِي ذاتُ عقْرٍ لا تلدُ ، قَالَ له جبريلُ مثلَ ذلك (يفعلُ اللهُ مَا يَشاءُ) ؛ أي الذي شَاءَهُ. وقال بعضُهم : أرَادَ زكريَّا بالرب اللهَ عَزَّ وَجَلَّ ؛ أي قَالَ يا رب كيفَ يكونُ لي غلامٌ.

قال الكلبيُّ : (كَانَ زَكَرِيَّا يَوْمَ بُشِّرَ بالْوَلَدِ ابْنَ تِسْعِيْنَ سَنَةً). وقيلَ : ابنَ تسعٍ وتسعينَ سنةً. وروى الضحَّاك عنِ ابن عبَّاس : (أنَّهُ كَانَ ابْنَ مِائَةٍ وَعِشْرِيْنَ سَنَةً). وكانتِ امرأتُه بنتَ ثَمانِي وتسعينَ سنةً ، فذلكَ قَوْلُهُ تَعَالَى حاكياً عنه : { وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ } أي عقيمٌ لا تَلِدُ.

يقال : رجلٌ عَاقِرٌ وامرأةٌ عَاقِرٌ ، وقد عَقُرَ بضَمِّ القافِ يَعْقُرُ عُقْراً ، ويقالُ : تكلَّمَ فلانٌ حتى عُقِرَ بكسرِ

القافِ ؛ إذا بَقِيَ لا يقدرُ على الكلامِ ، وإنَّما حذفَ (الهاءَ) من عَاقِرٍ لاختصاصِ الآياتِ بهذه الصِّفة كما يُقالُ امرأةٌ مُرْضِعٌ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى حاكياً عن زكريَّا : { وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ } هذا المقلوبُ ؛ أي وقد بَلَغْتُ الْكِبَرَ وَشِخْتُ ، فإن قيلَ : هل يجوزُ أن يقولَ الإنسانُ بَلَغَنَا الْبَلَدُ كما يقولُ بَلَغْتُ الْبَلَدَ ؟ قيلَ : لا يجوزُ ذلك بخلافِ قولهِ : { بَلَغَنِي الْكِبَرُ } بمعنى بلغتُ الكبرَ ، والفرقُ بينهما أنَّ الكِبَرَ طالبٌ للإنسانِ لإتيانه عليه بحدوثِهِ فيه ، والإنسانُ كالطالب للكِبَرِ لبلوغهِ إيَّاه بمرور السنينِ والأعوامِ عليه ، وأمَّا البلدُ فلا يكونُ طالباً للإنسانِ ، كما يكونُ الإنسانُ طالبا للبلد.

فإن قِيْلَ : كيفَ قال زكريَّا { أَنَّى يَكُونُ لِي غُلاَمٌ } فاستبعدَ أن يعطيَه اللهُ ولداً على كِبَرِ السِّنِّ من امرأةٍ عاقرٍ بعدمَا بشَّرتْهُ الملائكةُ بذلك ؟ قيل : لَم يكن هذا القولُ منه على جهةِ الاستبعاد ولكنْ من شأنِ من بُشِّرَ بما يتمنَّاهُ أن يحملَه فَرْطُ سُرُورهِ به على الزيادةِ في الاستكشافِ والاستثبَات ، كما يقولُ الإنسانُ إذا رأى شيئاً مِن الأمور العظيمة : كيفَ كان هذا؟! على جهةِ الاستعظامِ لقدرةِ الله تعالى لا لِشَكٍّ في القدرة.

وقيل : معناه : على أيِّ حال يكون الولدُ أيَرُدُّنِي اللهُ وامرأتِي إلى حالِ الشَّباب ، أم على هذهِ الحالةِ؟!

وقيلَ : معناهُ : أيَرْزُقُنِي اللهُ الولدَ من امرأتِي هذهِ أو من امرأةٍ غيرها شابَّة ؟ فقيلَ لهُ { كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ } ؛ أي كإثْمار السَّعفة اليابسةِ ؛ يفعلُ الله ما يشاءُ.

(٠/٠)

قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (٤١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزاً } ؛ أي قالَ زكريَّا يا رَب اجعل لِي علامةً إذا حملَتِ امرأتِي عرفتُ ذلك منها ، أرادَ بهذا القولِ تعجيلَ السُّرور قبل ظُهور الولدِ بالولادة. قال : علامةُ ذلكَ أن لا تُطِيْقَ الكلامَ مع أحدٍ من الناس منذُ ثلاثةِ أيَّام من غير خَرَسٍ { إِلاَّ رَمْزاً } أي الاَّ إشارَةً بالعينين والحاجِبين واليدَين ، وقيل : الرَّمْزُ : تَحْرِيْكُ الشَّفتين باللفظ من غير إبانةِ صَوْتٍ ، فذلك علامةُ حَبَلِ امرأتِكَ.

قَوْلُهُ تعَالَى : { وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ } ؛ أي اذكُر ربَّكَ كثيراً في هذهِ الأيَّام الثلاثة ؛ { وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ } أي صَلِّ غُدُوّاً وعَشِيّاً كما كنتَ تصلِّي من قَبْلُ ، يقالُ : فرِغْتُ من سُبْحَتِي

؛ أي من صلاتِي ، وسُمِّيت الصلواتُ سُبَحاً لِمَا فيها من التوحيدِ والتَّحميد والتَّنْزِيْهِ من كلِّ سوءٍ. وقيل : أرادَ بالتسبيحِ التسبيحَ المعروفَ فيما بين الناس ، وقرأ الأخفشُ (رَمَزاً) بفتحِ الميم مصدراً مثل طَلَباً.

(٠/٠)

وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يامَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَآءِ الْعَالَمِينَ } ، معطوفٌ على { إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ } ، والمرادُ بالملائكة جبريل عليه السلام على ما تقدَّم. ومعنى { إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ } أي اختارَكِ لطاعتهِ وعبادته ، { وَطَهَّرَكِ } من الكُفْرِ بالإيْمان والطاعاتِ ، كما قالَ : { لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً }[الأحزاب : ٣٣] أرادَ طهارةَ الإيْمَانِ والطاعَات ، وقيل : معناهُ : وطهَّرَكِ من الأدنَاسِ كلِّها ؛ مِن الحيضِ والنِّفاسِ وغير ذلكَ.
وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَآءِ الْعَالَمِينَ } أي اختارَكِ على أهلِ زمانِك بولادة عيسَى من غيرِ أبٍ. وقيل : معنَى الآيةِ : وَطَهَّرَكِ مِنْ مَسِيْسِ الرَّجُلِ.
فإن قِيْلَ : كيف يجوزُ ظُهُورُ الملائكةِ لِمَرْيَمَ وذلك معجزةٌ لا يجوزُ ظهورُها على غير نَبيٍّ ، ومريَم لم تكن نبيّاً ؟ قيلَ : لأنَّها وإن لَم تكن نبياً ؛ فإنَّ ذلكَ كان في وقتِ زكريَّا عليه السلام ، ويجوزُ ظهور المعجزاتِ في زمنِ الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ لغيرِهم ، ويكونُ ذلك معجزةً له. وقيل : كان ذلك إلْهَاماً لنبوَّة عيسى ، كما كانتِ الشُّهب وتظليلُ الغمَامِ وكلامُ الذِّئب إلْهَاماً لنبوَّة نبيِّنا صلى الله عليه وسلم.

(٠/٠)

يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { يامَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي } ؛ أي اخْلِصي لعبادةِ ربكِ ، وقيل : أدِيْمِي الطاعةَ لذلك ، وقيل : أطِيْلِي القيامَ في الصلاة. وقيل : معنَى قولهِ تعالى : { وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ } ؛ أي صَلِّي معَ الجماعةِ في بيت المقدسِ ؛ لأنَّها كانت تخدِمُ المسجدَ.
وفي الآيةِ دليلٌ على أن الوَاوَ لا تُوجِبُ الترتيبَ ؛ لأن الركوعَ مقدَّمٌ على السجودِ في المعنَى ؛ وقد تقدَّم السجودُ في هذه الآية في اللغة.

(٠/٠)

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٤٤)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { ذلِكَ مِنْ أَنَبَآءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُون أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ } ؛ أي ذلك ما قَصَصْنَاهُ عليكَ يا مُحَمَّدُ من أمرِ زَكريَّا ويحيَى ومريَم وعيسَى من أخبار ما غابَ عنك نرسلُ جبريلَ به ، وما كُنْتُ عندَهم يا مُحَمَّدُ إذ يطرحون أقلامَهم في نَهْرٍ أيُّهُم يَضُمُّ مريَم للقيامِ بأمرها وَمَا كُنْتَ عِنْدَهُمْ إذ يَخْتَصِمُونَ في أمرِها للتربية.

(٠/٠)

إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { إِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يامَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ } ؛ أي إعْلَمْ واذْكُرْ { إِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ } يعني جبريلُ { يامَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ } يعني عيسى عليه السلام سَمَّاه كلمةً ؛ لأنه كان بكَلِمَةٍ مِن اللهِ ألقَاها إلى مريَم ؛ ولم يكن بوَالِدٍ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { اسْمُهُ الْمَسِيحُ } إنَّما ذكرَ بلفظِ التذكيرِ ؛ لأنَّ معنى الكلمةِ الولدُ فلذلك لَم يقل اسْمُها.
واختلفوا في تسميتِه مَسِيْحاً ، قال ابنُ عبَّاس : (الْمَسِيْحُ : الْمَمْسُوحُ بالْبَرَكَةِ) فالمسيحُ فَعِيْلٌ بمعنى مَفْعُولٌ ، وقال بعضُهم : سُمِّي مَسِيْحاً بمَعْنَى الْمَاسِحِ ، كان يَمْسَحُ على ذوي العِلَلِ فَيَبْرَؤنَ. وقيل : إنه كان يَمسحُ الأرضَ مَسْحاً ولا يطوفها ؛ أي يسيحُ فيها ، وقيل : إنه خرجَ من بطنِ أمِّهِ مَمسوحاً بالدُّهن. وقيل : مَسَحَهُ جبريلُ بجناحيهِ من الشَّيطان حتى لا يكونَ للشيطانِ عليه سبيلٌ.
وقال الكلبيُّ : (الْمَسِيْحُ : الْمَلِكُ الَّذِي لاَ حَاجَةَ لَهُ إِلَى أَحَدٍ مِنَ الْمَخْلُوقِيْنَ). رُوي عن ابنِ عبَّاس أنه عليه السلام كانَ يقولُ : " الشَّمْسُ ضِيَاءٌ وَالْقَمَرُ سِرَاجٌ " وإنَّهُ كَانَ يَقُولُ : " الشَّمْسُ سِرَاجِي وَالْقَمَرُ ضِيَائِي " ، وَيَقُولُ : " الْبَرِّيَّةُ طَعَامِي ، أَبِيْتُ حَيْثُ يُدْرِكُنِي اللَّيْلُ ، لَيْسَ لِي وَلَدٌ يَمُوتُ وَلاَ دَارٌ تَخْرَبُ وَلاَ مَالٌ يُسْرَقُ ، أَصْبَحُ وَلاَ غَدَاءَ لِي ، وأُمْسِي وَلاَ عَشَاءَ لِي ، وَأَنَا مِنْ أَغْنَى النَّاسِ "

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ } ؛ أي ذا قَدْرٍ ومنْزِلة في الدنيا عندَ أهلِها ، وفي الآخرةِ عندَ ربهِ ، والوجيهُ الذي لا يُرَدُّ قولُه ، ولا مسألتُه. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ } ، أي مِنَ الْمُقَرَّبِيْنَ إلَى ثواب الله في جنَّةِ عدنٍ وهي الدرجةُ العُليا ، والتقرُّب إلى اللهِ تقرُّبٌ إلى ثوابهِ.

(٠/٠)

وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ (٤٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ } ؛ أي في مضجعِ الرِّضاع. قال مجاهدُ : (قَالَتْ مَرْيَمُ : كنْتُ إذا خَلَوْتُ أنَا وَعِيْسَى حَدَّثْتُهُ وحَدَّثَنِي ، فَإذا شَغَلَنِي إنْسَانٌ ؛ يُسَبحُ فِي بَطْنِي وَأَنَا أسْمَعُ(.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَكَهْلاً } ؛ أي يُكَلِّمُ الناسَ بعدما دخلَ في السنِّ ؛ يعني قبلَ أن يرفعَ إلى السماءِ. وقال الحسنُ : (وَكَهْلاً أيْ بَعْدَ نُزُولِهِ مِنَ السَّمَاءِ). قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمِنَ الصَّالِحِينَ } ؛ أي ومِن المرسلينَ.
وقالَ الكلبيُّ : (أرَادَ بالْمَهْدِ : الْحِجْرَ). روي أنَّهم لَمَّا قالُوا لَها : { يامَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً }[مريم : ٢٧] كلَّمَهم وهو في حِجرها فقالَ : { إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً * وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ }[مريم : ٣٠-٣١] ، وكان يومئذٍ ابنَ أربعين يوماً.
فإن قيلَ : الكلامُ في حالِ كونه في المهدِ يَعجَبُ الناسُ منه ، وأمَّا الكلامُ في الكهولَة فليسَ بعجبٍ ، فكيفَ ذكَرَهُ اللهُ ؟ قيلَ : في ذلكَ الكلامِ وفي الكهولَةِ بشارةٌ لِمَرْيَمَ في أنَّ عيسى يعيشُ إلى وقتِ الكُهولة.
وقيل : تكلَّمَ في المهدِ ببَرَاءَةِ أمِّهِ مِمَّا رماها بهِ اليهودُ ، وتكلَّم بالكهولةِ بإبطَال ما ادعَّاه النصارَى من كونهِ إلَهاً ؛ لأنه كانَ طِفلاً ثم صارَ كَهْلاً ، ومن يكونُ بهذه الصِّفة لا يكون إلَهاً.
والكَهْلُ في اللُّغَةِ : مَنْ جَاوَزَ حَدَّ الشَّبَاب ولَمْ يَبْلُغْ حَدَّ الشَّيْخُوخَةِ ، يقالُ : اكْتَهَلَ النَّبَاتُ إذا قَوِيَ وَاشْتَدَّ. وقيل : الكَهْلُ : هو الذي يكونُ ابنَ أرْبَعٍ وثَلاَثِيْنَ سنةً.

(٠/٠)

قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٧)

وقوله عَزَّ وَجَلَّ : { قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ } ؛ أي ولَم يُصِبْنِي رَجُلٌ بالنِّكاحِ ولا بالسِّفاحِ ، وكان هذا القولُ منها على جهةِ الاستعظامِ لقدرَة الله تعالى ، لاَ على وجهِ الاستبعاد كما تقدَّم ذكرُه.

قالَ اللهُ تعالى : { قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ } ؛ أي يكونُ لكِ ولدٌ من غيرِ بَشَرٍ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } ؛ أي إذا أرادَ أن يخلُقَ ما يشاءُ وحَكَمَ بتكوينِ شيءٍ فإنَّما يقولُ لهُ كُنْ فَيَكُونُ كما أرادَهُ الله تعالى. وهذا إخبارٌ عن سرعة كون مُرَادِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ؛ لأنه لا يكونُ في وَهْمِ العبادِ شيء أسرعُ مِن كُنْ ، وإنَّما ذكرَهُ بلفظِ الأمر لأنهُ أدَلُّ على القدرةِ ، ونصبَ بعضُ القُرَّاءِ فَيَكُونُ على جواب الأمرِ بالألف ، ورفعَهُ الباقون على إضمار هو يَكُونُ.

(٠/٠)

وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ (٤٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ } ؛ قرأ نافعُ ومجاهدُ والحسن وعاصم بالياءِ ؛ كقولهِ تعالى : { كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ }[آل عمران : ٤٧]. وقال المبرِّدُ : (رَدُّوهُ عَلَى قَوْلِهِ { إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ }. وقرأ الباقونَ بالنون على التعظِيم ، ورَدُّوهُ على قوله : { نُوحِيهِ إِلَيكَ }.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ } ؛ أي الخطَّ ، وقيلَ الزبور وغيره من الكتب سوَى التوراةِ والإنجيلِ. وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالْحِكْمَةَ } أي الْفِقْهَ ؛ وهو فَهْمُ الْمَعَانِي.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ } ؛ قيلَ : علَّمَه اللهُ تعالى التوراةَ في بطنِ أمِّهِ ، والإنجيلَ بعدَ خروجه.

(٠/٠)

وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٤٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ } ؛ أي وَيَجْعَلَهُ بعدَ ثلاثين سنةً رسولاً إلى بني إسرائيلَ ؛ { أَنِّي

قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ } ؛ بعلامةٍ ؛ { مِّن رَّبِّكُمْ } ؛ لِنُبُوَّتِي ، وقيلَ : { وَرَسُولاً } عطفاً على (وَجِيْهاً). وكان أولُ أنبياءِ بني إسرائيلَ يوسُف عليه السلام وآخرَهم عيسى عليه السلام.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَنِي أَخْلُقُ لَكُمْ مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ } ؛ قرأ نافعُ (إنِّي) بالكسرِ على الاستئناف وإضمار القولِ ، وقرأ الباقون بالفتحِ.

ومعنى الآيةِ : أنِّي أقدرُ لكم من الطينِ صورةً كهيئة الطيرِ فأنفخُ في الطينِ كنفخِ النائم فيصيرُ طيراً يطيرُ بينَ السماء والأرضِ بأمرِ الله عَزَّ وَجَلَّ ، ويقرأ (طَائِراً) إلاَّ أنَّ هذا أحسنَ ؛ لأن الطائرَ يرادُ به الحالُ. قرأ الزهريُّ وأبو جعفرَ (كَهَيَّةِ الطَّيْرِ) بالتشديدِ ، وقرأ الآخرون بالهمزِ. وَالْهَيْئَةُ : الصورةُ الْمُهَيَّئَةُ من قولِهم : هَيَّأْتُ الشَّيْءَ إذا أصلحتُه. وقرأ أبو جعفر : (كَهَيْئَةِ الطَّائِرِ) بالألف.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ } ؛ قرأ عامَّة القرَّاء (طَيْراً) على الجمع لأنه يَخْلُقُ طيراً كثيرةً ، وقرأ أهلُ المدينة (طَائِراً) بالألفِ على الواحدِ ذهبوا إلى نوعٍ واحد من الطَّير لأنه لم يخلق إلاَّ الْخُفَّاشَ ، وإنَّما خَصَّ الْخُفَّاشَ لأنَّه أكملُ الطيرِ خَلْقاً ليكون أبلغَ في القدرةِ لأنَّ لها ثَدْياً وأسْنَاناً ؛ وهي تحيضُ وتطهرُ ، قال وهب : (وَهِيَ تَطِيرُ مَا دَامَ النَّاسُ يَنْظُرُونَ إلَيْهَا ، فَإذا غَابَت عَنْ أعْيُنِهِمْ سَقَطَتْ ، ولأنَّهَا تَطِيرُ بغَيْرِ رِيْشٍ وتَلِدُ وَلاَ تَبيضُ).

وروي أنَّهم ما قالوا لعيسى أخْلُقْ لَنَا خُفَّاشاً إلا مُتعنِّتين له ؛ لأجلِ مخالفته الطيورَ بهذه الأخبار التي ذكرنَاها. فلمَّا قالوا لهُ أخْلُقْ لنا خُفَّاشاً ؛ أخذ طيناً ونفخَ فيه فإذا هو خُفَّاشٌ يطيرُ بين السماء والأرض ، فقالوا : هذا سِحْرٌ ؛ فقال : أنا ؛ { وَأُبْرِىءُ الأَكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ } ؛ فقالوا : إنَّ إبراءَ الأكمَهَ والأبرَصَ يفعلهُ أطبَّاؤُنا ، فذهبوا إلى جَالِينُوسَ فأخبروهُ بذلكَ ، فقالَ : إنَّ الَّذِي وُلد أعمى لا يبصرُ بالعلاجِ ، والأبرصُ الذي لو غَرِزَتْ إبرةٌ لا يخرج منه الدمُ لا يبرأ بالعلاجِ ، وإنْ كانَ يُحيي الموتَى فهو نبيٌّ. فجاؤُا بأكْمَهٍ وأبرَصٍ فمسحَ عليهما فَبَرَءا ، فقالُوا : هذا سحرٌ ؛ فإنْ كنتَ صادقاً فأحيي الموتَى ، فأحيَا أربعةً من الموتى : الْعَازَرُ وكان صَدِيقاً له ، فأرسلَت أختُه إلى عيسى : أنَّ أخاكَ العازَرَ مَاتَ فأتاهُ ، وكان بينَهما مسيرةُ ثلاثةِ أيام ، فأتى هو وأصحابُه فوجدوه قد دُفِنَ منذُ ثلاثةِ أيَّام ؛ فقامَ على قبرِهِ وقالَ : اللَّهُمَّ ربُّ السمواتِ السَّبع والأرضين السَّبع أحيِي العازَرَ مِن قبرِهِ وودكه يقطر ، فخرجَ وبقيَ مدَّة طويلةً وَوُلِدَ لهُ. وأحيَا ابنَ العجوز ، مرَّ بهِ وهو على سريرٍ يُحمل على أعناقِ الرِّجال إلى المقابرِ ، ودعا اللهَ تعالى أن يحييَه ، فجلسَ على سريرِهِ وأنْزِلَ عن أعناق القوم ، ولبسَ ثيابَهُ وحَمَلَ السريرَ على عنقِهِ ، ورجعَ إلى أهلِهِ فبقيَ مدَّة ووُلِدَ له.

(٠/٠)

وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٥٠) إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٥١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ } ؛ معناهُ : وجِئتُكُمْ { مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ } أي أتيتُ بالتوراةِ وأحكامِها وصَدَّقْتُهَا ، وقيل : يعني بالتصديقِ أنَّ في التوراةِ البشارةَ بي ، فإذا خرجتُ فقد صُدِّقْتُ ذلكَ ، ولا يجوزُ أن يكون (ومُصَدِّقاً) عطفاً على (وَرَسُولاً) لأنه لو كان ذلكَ لقالَ ومصدِّقاً لِما بينَ يديهِ.

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ } ؛ لأنه كانَ في التوراةِ أشياءٌ مُحرَّمة حَلَّلَ عيسى بعضَها وهو العملُ في يومِ السبت ؛ وشحومُ البقرِ والغنمِ وسائرِ ما حُرِّمَ عليهم بظُلْمِهِمْ. وقيل : معناها : ولأحلَّ لكم كلَّ الذي حَرَّمَ عليكُم أحبارُكم لا ما حرَّمَ أنبياؤُكم ، ويكونُ البعضُ بمعنى الكلِّ ، واستدلَّ صاحبُ هذا القولِ بقول لَبيْدٍ : تَرَّاكُ أمْكِنَةٌ إذا لَمْ أرْضَهَا أوْ يَعْتَلِقْ بَعْضَ النُّفُوسِ حِمَامُهَاقيلَ : معناهُ : كلُّ النفوسِ. وقال الزجَّاج : (لاَ يَجُوزُ أنْ يَكُونَ الْبَعْضُ عِبَارَةً عَنِ الْكُلِّ ؛ لأَنَّ بَعْضَ الشَّيْءِ جُزْءٌ مِنْهُ). قال : (وَمَعْنَى قَوْلِ لَبِيْدٍ : أوْ مَا يَعْتَلِقُ نَفْسِي حِمَامُهَا ؛ لأنَّ نَفْسَهُ بَعْضُ النُّفوسِ). وقرأ النخعيُّ : (وَلاَ حِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حَرُمَ عَلَيْكُمْ) أي صَارَ حَرَاماً.

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ } ؛ أي أحلُّ لكم شيئاً مِما حُرِّم عليكم من غير برهان ، بل أتيتُكم بعلامةِ نُبُوَّتِي. قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُونِ } ؛ أي اتَّقُوا اللهَ فيما أمرَكم ونَهاكم وأطيعونِ فيما أبيِّنُه لكم ؛ { إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ } ؛ أي قالَ لَهم عيسَى إنَّ اللهَ خالِقي وخالقكم فوحِّدُوه ؛ { هَاذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ } ؛ أي هذا الذي أدعُوكُم إليهِ طريقِي فِي الدِّين فلا عِوَجَ لَهُ ، مَن سَلَكَهُ أدَّاهُ إلى الحقِّ.

(٠/٠)

فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ } ؛ أي لَمَّا وجدَ عيسى ، وقيل : لَمَّا عَلِمَ منهم الكفرَ والقصدَ إلى قتلِه ؛ { قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ } ؛ أي مَن أعْوَانِي معَ اللهِ ، وقيل : معناهُ : مَن أنصَاري إلى سبيلِ اللهِ ، وقيل : مَن أنصاري للهِ ، { قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ } ؛ أي قال المُخْلِصُونَ في

النُّصرةِ والتَّصديقِ : نَحْنُ أعوانُ دِيْنِ اللهِ معكَ ؛ { آمَنَّا بِاللَّهِ } ؛ أي صَدَّقْنَا بتوحيدِ الله ؛ { وَاشْهَدْ } ؛ يَا عيسى ؛ { بِأَنَّا مُسْلِمُونَ } ؛ والإحساسُ هو العلم من خَلجَاتِهم.

واختلفَ المفسِّرونَ في الحواريِّين ، قال بعضُهم : هم المخلصونَ الخواصُّ كما قالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " الزُّبَيرُ ابْنُ عَمَّتِي وَحَوارِيِّ مِنْ أُمَّتي " أي هو مِنْ أمَّتِي ، وكان الحواريونَ لعيسى اثْنَى عشرَ رَجُلاً مِن أصحابِهِ ، مكانَ العشرةِ من النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، سُمُّوا الحواريينَ مِن الْحَوَر وَهُوَ الْخُلُوصُ. يقالُ : عَيْنٌ حَوراءُ إذا اشْتَدَّ بَيَاضُ بَيَاضِهَا وَقَلُصَ ؛ وَاشْتَدَّ سَوَادُ سَوَادِهَا وَخَلُصَ ، ومنهُ وفيهِ يقال : دَقِيْقٌ حَوَارِيٌّ للَّذِي لم يبق منه إلاَّ لُبَابُهُ. وقال بعضُهم : سُمُّوا حواريين من الْحَوَار وهو البياضُ ، إلاَّ أنَّهم اختلفُوا في بياضهم. قيلَ : كانوا قصَّارِيْنَ يُبَيِّضُونَ الثيابَ فمرَّ بهم عيسى عليه السلام فقالَ : ألاَ أدُلُّكُمْ عَلَى تَطْهِيْرٍ أنْفَعُ مِنْ هَذَا ؟ قالوا : نَعَمْ ، قالَ : تَعَالَوْا حَتَّى نُطَهِّرَ أنْفُسَنَا مِنَ الذُّنوب ، فَبَايَعُوهُ على ذلكَ. وقيل : كانوا بيْضَ الثياب ، وقيل : كانوا بيْضَ القلوب من الفسَاد.

وقال بعضُهم : كانوا صَيَّادِيْنَ ، قال لَهم عيسى عليه السلام : ألاَ أدُلُّكم على اصطيادٍ أنفعُ مِن هذا ؟ قالوا : بَلَى ، قال : تعالَوا حتى نصطادَ أنفسَنا من شِرْكِ إبليسَ ؛ فبايَعُوه.

كأنَّهم ذهبوا في هذا إلى اشتقاقهِ مِنَ الْحَوَر الذي هو الرُّجوع ، ومنه سُمِّي الْمِحْوَرُ لأنه راجعٌ إلى المكانِ الذي زالَ منه ، وقيل : لأنه بدورانهِ يَنْصَقِلُ حتى يَبْيَضَّ. والْمِحْوَرُ عودُ الْخَبَّاز ، وقيل : الْمِحْوَرُ الذي تدورُ عليه البَكْرَةُ ، وربَّما كان من حديدٍ.

وأمّا ما رُوي في الحديثِ : " نَعُوذُ باللهِ مِنَ الْحَوَرِ بَعْدَ الْكَوْر " فمعناهُ : مِن الرجوعِ والخروج من الجماعَة بعدَ أنْ كُنَّا فيها ، يقال ، كَارَ عِمَامَتَهُ إذا لفَّها على رأسهِ ؛ وحَارَهَا : إذا نَقَضهَا.

قال مُصْعَبُ : (لَمَّا اتَّبَعَ الْحَوَارِيُّونَ عِيْسَى عليه السلام وَهُمُ اثْنَا عَشَرَ رَجُلاً ، وَكَانُواْ إذا جَاعُواْ قَالُواْ : يَا رُوحَ اللهِ جُعْنَا ، فَيَضْرِبُ بيَدِهِ الأَرْضَ سَهْلاً كَانَ أوْ جَبَلاً ، فَيَخْرُجُ لِكُلِّ إنْسَانٍ رَغِيْفَيْنِ فَيَأكُلُهُمَا. فَإذا عَطِشُوا قَالُواْ : يَا رُوحَ اللهِ عَطِشْنَا ، فَيَضْرِبُ بيَدِهِ الأَرْضَ فَيَخْرُجُ الْمَاءُ فَيَشْرَبُونَ ، قَالُواْ : يَا رُوحَ اللهِ ؛ مَنْ أفْضَلُ مِنَّا إذا شِئْنَا أَطْعِمْنَا وَإنْ شِئْنَا أسْقِيْنَا ، وَآمَنَّا بكَ وَاتَّبَعْنَاكَ ؟ قال : أفْضَلُ مِنْكُمْ مَنْ يَعْمَلُ بيدِهِ ، وَيَأكُلُ مِنْ كَسْبِهِ ، قَالَ : فَصَارُواْ يَغْسِلُونَ الثِّيَابَ بالْكَرْيِ).

وقال ابنُ المبارك : (سُمُّوا حَوَارِيِّيْنَ لأنَّهُ كَانَ يُرَى بَيْنَ أعْيُنِهِمْ أثَرُ الْعِبَادَةِ وَنُورُهَا وَحُسْنُهَا). قال النضرُ بن شُمَيل : (الْحَوَاريُّ خَاصَّةُ الرَّجُلِ الَّذِي يَسْتَعِيْنُ بِهِ فِيْمَا يَنُوبُهُ). وعن قتادةَ قال : (الْحَوَاريُّ : الْوَزِيْرُ).

(٠/٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { رَبَّنَآ آمَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ } ؛ أي قَالُوا : رَبَّنَا آمَنَّا بمَا أنْزَلْتَ فِي كِتَابكَ ؛ يعني : الإنجيلَ على عيسى ، واتَّبعنَا عيسى { فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ } أي مع الْمُصَدِّقِيْنَ لأنبيائِكَ الذين يشهدون بصدق الأنبياء مِن قبلنا ، وقال عطاءُ : (مَعْنَاهُ : فَاكْتُبْنَا مَعَ النَّبيِّيْنَ). وقال ابنُ عبَّاس : (مَعْنَاهُ : مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم وَأُمَّتَهُ).

(٠/٠)

وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ } ؛ يعني مَكَرَ الكفارُ الذين لم يؤمنوا بقصدهم قَتْلَ عيسى عليه السلام ، وَالْمَكْرُ : هُوَ الاحْتِيَالُ فِي تَدْبيْرِ الشَّرِّ. وقَوْلُهُ : { وَمَكَرَ اللَّهُ } أي جَازَاهُمُ اللهُ على ما تقدَّم أنَّ الجزاءَ على المكرِ يُسمى مَكراً ، كما في الاعتداءِ والسيِّئة والاستهزَاء.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ } أي هو أفضلُ الصانعين حين يجازي الكفارَ على صُنعهم ؛ وَخَلَّصَ الممكورَ بهِ ؛ وذلك أنَّ عيسى عليه السلام بعد إخراجِ قومه إياهُ وأمَّهُ مِن بين أظهرِهم عادَ إليهم مع الحواريِّين ، ودعاهُم إلى الإسلام فَهَمُّوا بقتلهِ وتواطَأُوا عليه ، وذلك مكرهُم ، فلمَّا أجْمَعوا على قَتْلِهِ هَرَبَ منهُم إلى بيتٍ فدخلَهُ فرفعَه جبريلُ من الْكُوَّةِ إلى السَّماء. فقال مَلِكُ اليهودِ واسْمُه يَهُودا ، لِرَجُلٍ خَبيْثٍ منهم يقال لهُ طِيْطَانُوسَ : أدْخُلْ عليه البيتَ ، فدخلَ فألقَى اللهُ عليه شَبَهَ عيسَى عليه السلام ، فلمَّا لَم يجدْ عيسى خرجَ ؛ فَرَأوْهُ على شَبَهِ عيسى فظنُّوا أنهُ عيسى ؛ فَقَتَلُوهُ وَصَلَبُوهُ ، ثُمَّ قالوا : وَجْهُهُ يشبهُ وجهَ عيسى ، وبدنهُ يشبهُ بدنَ صاحبنا ، فإن كانَ هذا صاحبُنا فأينَ عيسى ؟ وإن كان هذا عيسَى فأين صاحبُنا ؟ فوقعَ بينهم قتالٌ ، فقتلَ بعضُهم بعضاً.

وقال وَهَبُ : (لَمَّا طَرَقُواْ عِيْسَى فِي بَعْضِ اللَّيْلِ وَنَصَبُواْ لَهُ خَشَبَةً لِيَقْتُلُوهُ ؛ أظْلَمَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ فَصَلَبُواْ رَجُلاً مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ يَهُودَا ظَنُّواْ أنَّهُ عِيْسَى عليه السلام ، وَهُوَ الَّذِي دَلَّهُمْ عَلَيْهِ ، وَذلِكَ أنَّ عِيْسَى جَمَعَ الْحَوَارِيِّيْنَ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ ثُمَّ قَالَ : لَيَمْكُرَنَّ بي أحَدُكُمْ قَبْلَ أنْ يَصِيْحَ الدِّيْكُ ، وَيَبِيْعُنِي بدَرَاهِمَ يَسِيْرَةٍ. فَخَرَجُواْ وَتَفَرَّقُواْ ، وَكَانَتِ الْيَهُودُ تَطْلُبُهُ ؛ فَأَتَى أحَدُ الْحَوَارِيِّيْنَ وَقَالَ لِلْيَهُودِ : مَا تَجْعَلُونَ لِمَنْ يَدُلُّكُمْ عَلَى عِيْسَى ؟ فَجَعَلُواْ لَهُ ثَلاَثِيْنَ دِرْهَماً ، فَأَخَذهَا وَدَلَّهُمْ عَلَيْهِ ، فَلَمَّا دَخَلُواْ الْبَيْتَ وَرُفِعَ عِيْسَى ، أَلْقَى اللهُ شَبَهَ عِيْسَى عَلَى الَّذِي دَلَّهُمْ عَلَيْهِ ؛ فَقَتَلُوهُ وَصَلَبُوهُ ، فَرُوِيَ أنَّهُ لَمَّا أخَذُوهُ لِيَقْتُلُوهُ قَالَ لَهُمْ : أنَا الَّذِي دَلَلْتُكُمْ عَلَيْهِ, فَلَمْ يَقْبَلُواْ مِنْهُ وَلَمْ يَلْتَفِتُواْ إلَيْهِ وَصَلَبُوهُ وَهُمْ يَظُنُّونَهُ عَيْسَى).

قالَ أهلُ التواريخِ : (حملَتْ مريَم بعيسى ولَها ثلاثَ عشرةَ سنةً ، وولدَتْ عيسى لِمُضِيِّ خمسٍ وستِّين

سنةً من غَلَبَةِ الاسكندر على أرضِ بَابلَ ، وأوحَى اللهُ إليه على رأسِ ثلاثين ، ورفعَهُ اللهُ من بيتِ المقدسِ ليلةَ القدر من شهر رَمَضَانَ وهو ابنُ ثلاثٍ وثلاثين سنةً ، وعاشَتْ أمُّهُ بعدَ رفعهِ ستَّ سنين).

وَالْمَكْرُ : هُوَ السَّعْيُ بالْفَسَادِ فِي سَتْرٍ وَمُنَاجَاةٍ ، وأصلهُ مِنْ قَوْلِ الْعَرَب : مَكَرَ اللَّيْلُ وَأَمْكَرَ ؛ إذا أظْلَمَ.

والمكرُ من المخلوقين : الْخَبُّ والخديعةُ والغِيْلَةُ ، وهو مِن الله استدراجُهُ العبادَ ، قال اللهُ تعالى : { سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ }[الأعراف : ١٨٢] قال ابنُ عباس : (كُلَّمَا أحْدَثُواْ خَطِيْئَةً تَجَدَّدَتْ لَهُمْ نِعْمَةٌ). وقال الزجَّاجُ : (مَكْرُ اللهِ مُجَازَاتُهُمْ عَلَى مَكْرِهِمْ ، فَسُمِّيَ الْجَزَاءُ باسْمِ الابْتِدَاءِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى :

(٠/٠)

إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٥٥)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { إِذْ قَالَ اللَّهُ ياعِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ } ؛ أوَّلُ هذه الآيةِ مُتَّصِلٌ بقولهِ : { خَيْرُ الْمَاكِرِينَ }. وقيلَ : معناهُ : واذكروا { إِذْ قَالَ اللَّهُ ياعِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ }. قال الضحَّاك : (كَسَا اللهُ عِيْسَى الرِّيْشَ وَأَلْبَسَهُ النُّورَ ؛ وَقَطَعَ عَنْهُ لَذةَ الْمَطْعَمِ وَالْمَشْرَب فَطَارَ فِي الْمَلاَئِكَةِ).

واختلفَ المفسرون في معنى التَّوَفِّي في هذه الآيةِ ؛ فقال الحسنُ والكلبي والضحَّاك وابن جُريج : (مَعْنَاهُ : إنِّي قَابِضُكَ وَرَافِعُكَ مِنَ الدُّنْيَا مِنْ غَيْرِ مَوْتٍ). فعلى هذا القولِ لِلتَّوَفِّي ثلاثُ تأويلاتٍ : أحدُها : إنِّي رافعُكَ إِلَيَّ وَافِياً لَنْ ينالوُا منكَ شيئاً ؛ من قولِهم : تَوَفَّيْتُ كَذا وَاسْتَوْفَيْتُهُ ؛ إذا أخذتُه تامّاً ، والأخذُ معناهُ : إنِّي مُسَلِّمُكَ ؛ مِن قولهم : تَوَفَّيْتُ كَذا إذا سَلَّمْتَهُ. وقال الحسنُ : (مَعْنَاهُ : إنِّي مُنَيِّمُكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ مِنْ نَوْمِكَ). يدلُّ عليهِ قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيلِ }[الأنعام : ٦٠] أي يُنِيْمُكُمْ ؛ لأن النومَ أخُو الموتِ.

ورويَ عن ابن عبَّاس أنَّ معنى الآيةِ : (إنِّي مُمِيتُكَ) يدلُّ عليه قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ }[السجدة : ١١] ولهُ على هذا القولِ تأويلانِ ؛ أحدُها : قال وَهَبُ بن مُنَبهٍ : (تَوَفَّاهُ اللهُ ثَلاَثَ سَاعَاتٍ مِنَ النَّهَار ثُمَّ أحْيَاهُ وَرَفَعَهُ إلَيْهِ). والآخَرُ : قال الضحَّاك : (إنَّ فِي الْكَلاَمِ تَقْدِيْماً وَتَأْخِيْراً ؛ مَعْنَاهُ : إنِّي رَافِعُكَ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِيْنَ كَفَرُواْ ؛ وَمُتَوَفِّيْكَ بَعْدَ إنْزَالِكَ مِنَ السَّمَاءِ) قال الشاعرُ : ألاَ يَا نَخْلَةً مِنْ ذاتِ عِرْقٍ عَلَيْكِ وَرَحْمَةُ اللهِ السَّلاَمُأي عليكِ السلامُ ورحمةُ اللهِ.

قال صلى الله عليه وسلم : " أنَا أوْلَى النَّاسِ بعِيْسَى عليه السلام ؛ لأنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبيٌّ ، وَإنَّهُ نَازِلٌ عَلَى أُمَّتِي وَخَلِيْفَتِي فِيْهِمْ. فَإذا رَأَيْتُمُوهُ فَاعْرِفُوهُ ؛ وَإنَّهُ رَجُلٌ مَرْبُوعُ الْخَلْقِ إلَى الْحُمْرَةِ وَالْبَيَاضِ ،

سَبْطُ الشَّعْرِ كَأَنَّ شَعْرَهُ يَقْطُرُ وَإِنْ لَمْ يُصِبْهُ بَلَلٌ ، يَدُقُّ الصَّلِيْبَ وَيَقْتُلُ الْخِنْزِيْرَ ، وَيُقَاتِلُ النَّاسَ عَلَى الإِسْلاَمِ ، وَيُهْلِكُ اللهُ فِي زَمَانِهِ الْمِلَلَ كُلَّهَا ، ويُهْلِكُ اللهُ فِي زَمَانِهِ الدَّجَّالَ ، وَيَقَعُ أَمْنُهُ فِي الأَرْضِ حَتَّى تَرْتَعِي الأُسُودُ مَعَ الإِبلِ ، وَالنُّمُورُ مَعَ الْبَقَرِ ، وَالذِّئَابُ مَعَ الْغَنَمِ ، وَيَلْعَبُ الصِّبْيَانُ بالْحَيَّاتِ لاَ يَضُرُّ بَعْضُهُمْ بَعْضاً ، وَيَلْبَثُ فِي الأَرْضِ أَرْبَعِيْنَ سَنَةً "

وفي رواية كَعْبٍ : " أَرْبَعَةٍ وَعِشْرِيْنَ سَنَةً ، ثُمَّ يَتَزَوَّجُ وَيُوْلَدُ لَهُ ثُمَّ يَمُوتُ ، وَيُصَلِّي عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ وَيَدْفِنُوهُ فِي بَيْتِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم ".

وقيل للحسن بْنِ الفَضْلِ : هَلْ تَجِدُ نُزُولَ عِيْسَى مِنَ السَّمَاءِ فِي الْقُرْآنِ ؟ قَالَ : (نَعَمْ ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً }[آل عمران : ٤٦] وَهُوَ لَمْ يَكْتَهِلْ فِي الدُّنْيَا ، وَإِنَّمَا رُفِعَ وَهُوَ شَابٌّ ، وَإِنَّمَا مَعْنَاهُ وَكَهْلاً بَعْدَ نُزُولِهِ مِنَ السَّمَاءِ).

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : قَالَ : رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : "كَيْفَ تَهْلَكُ أُمَّةٌ أَنَا فِي أَوَّلِهَا ؛ وَعِيْسَى فِي آخِرِهَا ؛ وَالْمَهْدِيُّ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي فِي وَسَطِهَا؟! "

(٠/٠)

فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٥٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ } ؛ أي أعاقِبُهم عقوبةً شديدة في الدُّنيا بالقتلِ والسَّبي والجزيةِ ، وفي الآخرةِ بالنار ، { وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ } ؛ أي مانِعين يَمنعونَهم من عذاب اللهِ.

(٠/٠)

وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٥٧)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ } ؛ قرأ الحسنُ وحَفْصٌ (فَيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ) بالياء ، ومعناهُ : الذينَ صدقوا وعمِلوا الصالحاتِ نُكمِلُ لَهم ثوابَ أعمالِهم بالطاعةِ ؛ { وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ } ؛ أي لا يرحَمُهم ولا يغفِرُ لَهم.

(٠/٠)

ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ (٥٨)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { ذلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ } ؛ أي ما جَرَى من القِصَصِ نُنْزِلُ بِهِ عليكَ يا مُحَمَّدُ فَيَتْلُوهُ عليكَ جبريلُ بأمرِنا. وإنَّما أضافَ التلاوةَ إلى نفسهِ ؛ لأنه حَصَلَ بأمرِهِ ، { وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ } أي ومِن القرآنِ ومِن الحكمَةِ بالتَّأليفِ والنَّظْمِ ، وَسَمَّاه حَكِيماً لأنه بما فيه من الحكمةِ كأنهُ ينطِقُ بالحكمةِ. ويقالُ : معنَى الحكيمِ الْمُحْكَمُ وهو فَعِيْلٌ بمعنى مَفْعُولٍ.

(٠/٠)

إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٥٩)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ } ؛ قال ابنُ عباس : " وَذلِكَ أنَّ وَفْدَ نَصَارَى نَجْرَانَ : أسَيْدُ وَالْعَاقِبُ وَغَيْرُهُمْ مِنْ عُلَمَائِهِمْ جَاؤوا إلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم : " أسْلِمُوا " فَقَالُواْ : أسْلَمْنَا قَبْلَكَ ، فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " يَمْنَعُكُمْ مِنَ الإسْلاَمِ ثَلاَثٌ : أكْلُكُمُ الْخِنْزِيْرَ ؛ وَعِبَادَتُكُمُ الصَّلِيْبَ ، وَقَوْلُكُمْ للهِ عَزَّ وَجَلَّ وَلَدٌ " فَقَالُواْ لَهُ : مَا لَكَ تَشْتُمُ صَاحِبَنَا ؟ قَالَ صلى الله عليه وسلم : " وَمَا أقُولُ ؟ " قَالُوا : تَقُولُ إنَّهُ عَبْدُ اللهِ ، قَالَ : " أجَلْ ؛ هُوَ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إلَى مَرْيَمَ الْعَذْرَاءِ الْبَتُولِ " فَغَضِبُواْ وَقَالُواْ : هَلْ رَأَيْتَ إنْسَاناً قَطّ مِنْ غَيْرِ أبٍ؟! " فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : { إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ } أي صفةُ خَلْقِ عيسى بلاَ أبٍ كصفةِ خلقِ آدمَ ، خلقَهُ من ترابٍ مِن غير أبٍ ولا أمٍّ ثُم قالَ لآدمَ : كُنْ ؛ فَكَانَ. وأرادَ اللهُ تعالى بهذه الآيةِ أنَّ كون الولدِ مِن غير أبٍ ليسَ بأعجبَ مِنْ كونِ الإنسانِ لغير أبٍ وأمٍّ ، وَقَد خلقَ اللهُ آدمَ من غير أبٍ وأمٍّ.

وفي هذه الآيةِ دلالةٌ على صحَّة القياسِ ؛ لأنه لو لَم يَصِحْ القياسُ لم يكنِ اللهُ يجيبُ به ، وفيها دليلٌ على جواز قياسِ الشيء بالشَّيء من وجهٍ دون وجهٍ ؛ لأن اللهَ عَزَّ وَجَلَّ إنَّما شَبَّهَ عيسى بآدَمَ في كونهِ من غيرِ أبٍ ؛ لا في كونه من غير أمٍّ ؛ ولا في خَلْقِهِ من التُّراب.

فإنْ قيل : هَلاَّ قالَ اللهُ تعالى : (كُنْ فَكَانَ) فإنَّ آدمَ قد انقضَى كونُه وقد أخبرَ عنهُ بالمستقبلِ ؟ قيل :

إنَّ الفعلَ الماضي منقطعٌ والمضارعَ متَّصلٌ ؛ وذلك يقالُ : يروى عن النبيُّ صلى الله عليه وسلم أنهُ فَعَلَ كذا فكان فعل كُن لأنه لا يقتضِي التَّكرار ، وما رويَ أنه كَانَ يَفْعَلُ كذا فإنهُ على التِّكرار دونَ الانقطاعِ. ثُمَّ فِعْلُ اللهِ يُبنى على الْمُهْلَةِ ويَحْدُثُ على التَّدريج ، ألا ترَى أنه خَلَقَ السموات والأرضَ في ستَّة أيامٍ ، وكذلك بَدَتِ الحياةُ في آدمَ على التدريجِ ، وكذلك أمرُ عيسى على التدريجِ كان يبدأ شيئاً فشيئاً ؛ فأخبرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عن ذلكَ بفعلٍ دائم.

(٠/٠)

الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٦٠)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُنْ مِّن الْمُمْتَرِينَ } ؛ قال الفرّاء : (رُفِعَ بخَبَرِ ابْتِدَاءٍ مَحْذُوفٍ تَقْدِيْرُهُ : هُوَ الْحَقُّ أوْ هَذا الحَقُّ). وقيل : تقديرهُ : هَذا الَّذِي أنْبَأْتُكَ بِهِ هُوَ الْحَقُّ وَالصِّدْقُ فِي أمْرِ عِيْسَى ، { فَلاَ تَكُنْ مِّن الْمُمْتَرِينَ } أي من الشَّاكِّينَ ؛ فالخطابُ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم والمرادُ به أمَّتُهُ ، لأنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم لَمْ يكن شَاكّاً في أمرِ عيسى عليه السلام قَطُّ ، وهذا كما قالَ تعالى : { ياأيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَآءَ }[الطلاق : ١]. وقال بعضُهم : معناهُ : لا تَكُنْ أيها السَّامِعُ لِهذا النَّبأ من الشَّاكِّينَ.

(٠/٠)

فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (٦١)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ الْعِلْمِ } ؛ أي فمن خاصَمَك وجادلَكَ يا مُحَمَّدُ في أمرِ عيسى من بعدِ ما جاءَكَ من البيانِ بأنهُ عَبْدُ اللهِ ورسولُه ، ولم يكن ابنَ اللهِ ولا شريكَهُ ؛ { فَقُلْ تَعَالَوْاْ } ؛ يَا مَعْشَرَ النَّصَارَى ؛ { نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وأَنْفُسَكُمْ } ؛ لنخرجَ إلى فَضَاءٍ من الأرضِ ؛ { ثُمَّ نَبْتَهِلْ } ؛ أي نَلْتَعِنْ ، وَالْبُهْلَةُ : اللَّعْنَةُ ؛ يقالُ : بَهَلَهُ اللهُ ؛ أي لَعَنَهُ اللهُ وَبَاعَدَهُ. ويقال : معنى { نَبْتَهِلْ } : نَجْتَهِدُ وَنَتَضَرَّعُ في الدُّعاءِ على الكاذب. ثم فَسَّرَ الابتهالَ فقالَ تعالى : { فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ } ؛ أي نقولُ : لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ في أمرِ عيسى.

قرأ الحسنُ وأبو واقدٍ وأبو السمَّال العدويُّ : (تَعالُوا) بضمِّ اللام. وقرأ الباقونَ : (تَعالَواْ) بفتحِ اللاَّم ، والأصلُ فيه : تَعَالَيُوا ؛ لأنهُ تَفَاعَلُوا من العُلُوِّ ، فَاسْتُثْقِلَتِ الضمَّة على الياءِ فَسُكِّنَتْ ثم حذفَتْ وبقيتِ اللامُ على فتحِها ، ومَن ضمَّ فقد نقلَ حركةَ الياء المحذوفةِ إلى اللاَّم. قال الفرَّاء : (مَعْنَى تَعَالَ : ارْتَفِعْ).

فَلَمَّا قَرَأَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم هَذِهِ الآيَةَ عَلَى نَصَارَى نَجْرَانَ وَقَالَ لَهُمْ : " إنَّ اللهَ أمَرَنِي أنْ أبَاهِلَكُمْ إنْ لَمْ تَقْبَلُواْ " قَالُواْ لَهُ : يَا أبَا الْقَاسِمِ ؛ بَلْ نَرْجِعُ فَنَنْظُرُ فِي أمْرِنَا ثُمَّ نَأْتِيكَ فَنُعْلِمُكَ ، فَرَجَعُواْ وَخَلاَ بَعْضُهُمْ ببَعْضٍ ، وَقَالَ السَّيِّدُ لِلْعَاقِب : قَدْ وَاللهِ عَلِمْتَ أنَّ الرَّجُلَ نَبيٌّ مُرْسَلٌ ، وَلَئِنْ لاَعَنْتُمُوهُ يَا مَعْشَرَ النَّصَارَى لَيَسْتَأصِلَنَّكُمْ ، وَمَا لاَعَنَ نَبيٌّ قَوْماً قَطُّ فَعَاشَ كَثِيْرُهُمْ وَلاَ ثَبَتَ صَغِيْرُهُمْ ، وَإنْ أنْتُمْ أبَيْتُمْ إلاَّ دِيْنَكُمْ فَوَاعِدُوهُ وَارْجَعُواْ إلَى بِلاَدِكُمْ. فَأَتَواْ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم مِنَ الْغُدُوِّ وَقَدْ خَرَجَ بنَفَرٍ مِنْ أهْلِهِ مُحْتَضِناً الْحُسَيْنَ آخِذاً بيَدِ الْحَسَنِ ؛ وَفَاطِمَةُ تَمْشِي عَلَى إثْرِهِمْ وَعَلِيٌّ بَعْدَهَا وَهُوَ يَقُولُ لَهُمْ : " إذا أنَا دَعَوْتُ فَأَمِّنُواْ ". فَقَالَ وَاحِدٌ مِنَ النَّصَارَى : وَاللهِ إنِّي لأَرَى وُجُوهاً لَوْ سَأَلُوا اللهَ أنْ يُزِيْلَ جَبَلاً مِنْ مَكَانِهِ لأَزَالَهُ ، فَلاَ تَبْتَهِلُواْ فَتَهْلَكُواْ وَلاَ يَبْقَى عَلَى الأَرْضِ نَصْرَانِيٌّ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. فَقَالُواْ : يَا أبَا الْقَاسِمِ ؛ قَدْ رَأَيْنَا أنْ لاَ نُلاَعِنَكَ وَنَتْرُكَكَ عَلَى دِيْنِكَ وَنَثْبُتَ عَلَى دِيْنِنَا ، فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " فَإنْ أبَيْتُمْ الْمُبَاهَلَةَ فَأَسْلِمُوا يَكُنْ لَكُمْ مَا لِلْمُسْلِمِيْنَ وَعَلَيْكُمْ مَا عَلَيْهِمْ ". فَأَبَواْ ؛ فَقَالَ : " إنِّي أنَا بذُكُمْ " فَقَالُواْ : مَا لَنَا بحَرْب الْعَرَب مِنْ طَاقَةٍ ، وَلَكِنَّا نُصَالِحُكَ عَلَى أنْ لاَ تَغْزُونَا وَلاَ تُخِيْفُنَا وَلاَ تَرُدَّنا عَنْ دِيْنِنَا ؛ عَلَى أنْ نُؤَدِّيَ إلَيْكَ كُلَّ عَامٍ أَلْفَي حُلَّةٍ ؛ أَلْفٌ فِي صَفَرَ وَأَلْفٌ فِي رَجَبَ. فَصَالَحَهُمْ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم عَلَى ذلِكَ وَقَالَ لَهُمْ : " وَإنْ كَانَ كَيْدٌ باليَمَنِ أعَنْتُمُونَا بثلاَثِيْنَ دِرْعاً وَثَلاَثِيْنَ فَرَساً وَثَلاَثِيْنَ بَعِيْراً ، وَالْمُسْلِمُونَ ضَامِنُونَ لَهَا حَتَّى يَرُدُّوهَا عَلَيْكُمْ ".

وَكَتَبَ لَهُمْ كِتَابَ الأَمَانِ وَالصُّلْحِ : " بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيْمِ ، هَذا مَا كَتَبَ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ لِنَجْرَانَ فِي كُلِّ صَفْرَاءَ وَبَيْضَاءَ وَسَوْدَاءَ أوْ رَقِيْقٍ فَاضِلاً عَنْهُمْ ؛ تُرِكَ ذلِكَ كُلُّهُ عَلَى أَلْفَي حُلَّةٍ ، فِي كُلِّ صَفَرَ أَلْفُ حُلَّةٍ ، وَفِي كُلِّ رَجَبَ أَلْفُ حُلَّةٍ يُمْنُ كُلِّ حُلَّةٍ وَقِيَّةٌ ، وَمَا زَادَتِ الْحُلَلُ عَلَى الأَوَاقِ فَبِحِسَابِهَا ، وَمَا نَقُصَ مِنْ دِرْعٍ وَخَيْلٍ أوْ رِكَابٍ فَبِحِسَابِهِ. وَعَلَيْهِمْ عَارِيَةٌ ثَلاَثُونَ دِرْعاً وَثَلاَثُونَ فَرَساً وَثَلاَثُونَ بَعِيْراً إنْ كَانَ كَيْداً باليَمَنِ ، وَلِنَجْرَانَ وَحَاشِيَتِهَا جِوَارُ اللهِ تَعَالَى وَذِمَّةُ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم عَلَى أنْفُسِهِمْ وَمَالِهِمْ. وَكُلُّ مَا تَحْتَ أيْدِيْهِمْ مِنْ قَلِيْلٍ وَكَثِيْرٍ لاَ يُغَيَّرُ مَا كَانُواْ عَلَيْهِ ، وَلاَ يُغَيَّرُ أسْقُفٌ مِنْ أسْقُفِهِ ، وَلاَ رَاهِبٌ مِنْ رَهْبَانِيَّتِهِ ، وَلاَ يُحْشَرُونَ مِنْ بِلاَدِهِمْ ، وَلاَ يُعْشَرُونَ ، وَلاَ يَطَأُ أرْضَهُمْ جَيْشٌ. وَمَا سَأَلَ مِنْهُمْ حَقّاً فَلَهُ النِّصْفُ غَيْرَ ظَالِمِيْنَ وَلاَ مَظْلُومِيْنَ ، وَمَنْ أكَلَ الرِّبَا مِنْ ذِي قَبْلٍ فَذِمَّتِي مِنْهُ بَرِيَّةٌ ، لاَ يُؤْخَذُ مِنْهُمْ رَجُلٌ بِظُلْمِ آخَرَ ، لَهُمْ جِوَارُ اللهِ وَذِمَّةُ رَسُولِهِ أبَداً حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بأَمْرِهِ مَا نَصَحُواْ وَأَصْلَحُواْ فِيْهَا عَلَيْهِمْ غَيْرَ مُثْقَلِيْنَ بظُلْمٍ ".

شَهِدَ الشُّهُودُ أبُو سُلَيْمَانَ بْنِ حَرْبٍ ، وَغَيْلاَنُ بْنُ عَمْرٍو ، وَمَالِكُ بْنُ عَوْفٍ وَغَيْرُهُمْ. ثُمَّ بَعَثَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم مَعَهُمْ مُعَاذ بْنَ جَبَلٍ لِيَقْضِيَ بالْحَقِّ فِيْمَا بَيْنَهُمْ ، وَرَجَعُواْ إلَى بلاَدِهِمْ. فَقَالَ صلى

الله عليه وسلم : " لَوْ بَاهَلُونِي لاضْطَرَمَ الْوَادِي عَلَيْهِمْ نَاراً ، وَلَمْ يُرَ نَصْرَانِيٌّ وَلاَ نَصْرَانِيَّةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ "

(٠/٠)

إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٢)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { إِنَّ هَاذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ } ؛ أي هذا الذي أوحينَا إليكَ من الْحُجَجِ والآيَاتِ لَهُوَ الخبرُ الحقُّ بأنَّ عيسى لم يكن إلَهاً ولا ولدَ اللهِ ولا شريكَهُ. والقَصَصُ : هو الخبرُ الذي يتلُوا بعضُه بعضاً. قوله تعالى : { وَمَا مِنْ إِلَـاهٍ إِلاَّ اللَّهُ } ؛ أي ما إلهٌ إلاَّ اللهُ واحدٌ بلا ولدٍ ولا شريك. ودخولُ (مِنْ) في قولِهِ { وَمَا مِنْ إِلَـاهٍ إِلاَّ اللَّهُ } لتوكيدِ النَّفي في جميعِ ما ادَّعاهُ المشركونَ أنَّهم آلِهةٌ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } ؛ أي العزيزُ بالنقمَة لِمن لا يؤمنُ به ، ذو الحكمةِ في خَلْقِ عيسى عليه السلام من غيرِ أبٍ ؛ وفي أمرِهِ ألاّ تعبدُوا إلاَّ اللهَ تعالى.

(٠/٠)

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ (٦٣) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ } ؛ أي إنْ أعرضُوا عمَّا أتيتَ به من البيانِ ؛ فإنَّ اللهَ عالِمٌ بالمفسدينَ الذين يعبدون غيرَ اللهِ ويدعُون الناسَ إلى عبادةِ غيرِ الله يُجازيهم على ذلكَ.
ثم دعاهُم اللهُ إلى التوحيدِ فقالَ عَزَّ وَجَلَّ : { قُلْ ياأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً } ؛ أي قُلْ لَهم يا مُحَمَّدُ : يَا أَهْلَ الْكِتَاب هَلُمُّوا إلى كَلِمَةِ عَدْلٍ بَيْنَنَا وبَيْنَكُمْ.
وفي { سَوَآءٍ } ثلاثُ لغات : سَواءً وسِوى وسُوَا ، ولا يُمَدُّ فيها إلاَّ المفتوحُ ، قال اللهُ تعالى : { مَكَاناً سُوًى }[طه : ٥٨]. ثم فسَّرَ الكلمةَ فقال تعالى : { ألاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ } أحداً مِن المخلوقينَ ، وموضع (أنْ) رفع على إضمار (هي). وقيلَ : موضُعها نُصب بنَزعِ الخافضِ ، وقيل :

موضعها خُفِضَ بدلاً من الكلمةِ ؛ أي تَعالُوا إلى أنْ لاَ نَعْبُدَ إلاَّ اللهَ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ } ؛ أي نرجِعُ إلى معبودِنا وهو اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لا شريكَ لهُ ؛ وأنَّ عيسى بَشَرٌ كما أنَّنا بَشَرٌ فلا تتخذُوه رَبّاً ، وسَمَّى اللهُ هذه الثلاثةَ الألفاظ كَلِمَةً لأنَّ معناها : نَرْجِعُ إلَى وَاحِدٍ ، وهي كلمةُ العدلِ : لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ.
قال بعضُ المفسِّرين : ولا يتَّخذَ بعضُنا بعضاً أربَاباً من دونِ الله كما فعلَتِ اليهودُ والنَّصارى ؛ فإنَّهم اتَّخذوا أحبارَهم ورهبانَهم أرباباً من دونِ اللهِ ؛ أي أطاعُوهم في معصيةِ الله. قال عكرمةُ : (هُوَ سُجُودُ بَعضِهِمْ لِبَعْضٍ) ، وقيل : معناهُ : لا نطيعُ أحداً في المعاصِي ، وفي الخبرِ : (مَنْ أطَاعَ مَخْلُوقاً فِي مَعْصِيَةِ اللهِ فَكَأنَّمَا سَجَدَ سَجْدَةً لِغَيْرِ اللهِ).
قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ } ؛ أي فإن أبَوا التوحيدَ فقولوا اشهدُوا بأنَّا مُقِرُّونَ بالتوحيدِ مُسْلِمُونَ لِما أتانَا به الأنبياءُ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ من اللهِ تعالى.

(٠/٠)

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ياأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ التَّورَاةُ وَالإِنْجِيلُ إِلاَّ مِن بَعْدِهِ } ، قال الكلبيُّ : (وَذَلِكَ أنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارى اجْتَمَعُواْ فِي بَيْتِ مَدْرَسَةِ الْيَهُودِ ، وَكُلُّ فَرِيْقٍ يَقُولُ : إنَّ إبْرَاهِيْمَ مِنَّا وَعَلَى دِيْنِنَا ، فَأَتَاهُمْ رَسُولُ اللهِ عليه السلام فَقَالُواْ : اقْضِ بَيْنَنَا أيُّنَا أوْلَى بِإبْرَاهِيْمَ وَدِيْنِهِ ، فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " كُلُّ الْفَرِيْقَيْنِ مِنْكُمْ بَرِيْءٌ مِنْ إبْرَاهِيْمَ وَدِيْنِهِ ، إنَّ إبْرَاهِيْمَ كَانَ حَنِيْفاً مُسْلِماً وَأَنَا عَلَى دِيْنِهِ ، فَاتَّبِعُواْ دِيْنَهُ الإِسْلاَمَ " فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ). ومعناها : يا أيُّهَا اليهودُ والنصارى لِمَ تتخاصَموا في ابراهيمَ ودينهِ { وَمَآ أُنزِلَتِ التَّورَاةُ وَالإِنْجِيلُ إِلاَّ مِن بَعْدِهِ } { أَفَلاَ تَعْقِلُونَ } ، أي أفَلَيْسَ لكم ذِهْنُ الإنسانيَّة فتعلمُوا أن اليهوديَّة ملَّةٌ مُحَرَّفَةٌ عن شريعةِ مُوسى عليه السلام ، وأنَّ اليهودَ سُمُّوا بهذا الاسم لأنَّهم من ولدِ يَهُودَا ، والنصرانيَّةَ ملَّةٌ مُحَرَّفَةٌ عن شريعةِ عيسى عليه السلام ، سُمُّوا نصارَى لأنَّهم من قريةٍ بالشام يقال لها : نَاصِرَةٌ. ويقالُ : معناهُ : أفَلاَ تَعْقِلُونَ وتنظرون أنه ليسَ في التوراةِ والانجيل أنَّ إبراهيمَ عليه السلام كان يهودياً أو نصرانيّاً.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَآ أُنزِلَتِ التَّورَاةُ وَالإِنْجِيلُ إِلاَّ مِن بَعْدِهِ } أي مِن بعد مَهْلَكِ إبراهيمَ عليه السلام بزمان طويل ، وكان بينَ إبراهيم وموسَى ألفَ سنةٍ ، وبين موسى وعيسَى ألفَ سنةٍ. أفَلاَ تَعْقِلُونَ دُحُوضَ حُجَّتِكُمْ وبطلانَ قولكم.

(٠/٠)

هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٦٦)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { هاأَنْتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ } ، معناه : وأنتُم يا هؤلاءِ يَا معشرَ اليهودِ والنصارى حاجَجْتُم فيما لكم به علمٌ مِن بَعْثِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم وصفتِه في كتابكم ، فَلِمَ تخاصمونَ فيما ليس لكم به علمٌ وهو أمرُ إبراهيمَ عليه السلام ، { وَاللَّهُ يَعْلَمُ } ، دينَ إبراهيمَ وشأْنَهُ ، { وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ }.
و (الهاء) في { هاأَنْتُمْ } تنبيهٌ ، و { أَنْتُمْ } اسمٌ للمخاطَبين ، و { هَؤُلاَءِ } إشارةٌ إليهم ، كَأَنَّهُ يقول : انْتَبِهُواْ أنتمُ الذينَ حاجَجْتم. قرأ أهلُ المدينةِ والبصرةِ بغيرِ همز ولا مدٍّ إلاَّ بقدر خروجِ الألف السَّاكنة ، وقرأ أهلُ مكة مهموزٌ مقصور على وزن هَعَيْتُمْ ، وقرأ أهلُ الكوفةِ وابنُ عامرٍ بالمدِّ والهمزِ ، وقرأ الباقون بالمدِّ دونَ الهمزِ.

(٠/٠)

مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً } ؛ هذا تكذيبٌ من اللهِ للفريقين في قولِهم : إنَّ إبْرَاهِيْمَ كَانَ يَهُودِيّاً أوْ نَصْرَانِيّاً. وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً } ؛ أي مَائلاً عن اليهوديَّةِ والنصرانيَّة مُخْلِصاً مُستَسلِماً لأمرِ الله عَزَّ وَجَلَّ ؛ { وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } ؛ على دِينهم.
والحنيفُ : هو الْمَائِلُ عن كلِّ دِيْنٍ سِوَى الإسلامِ ، يُشَبَّهُ بالأَحْنَفِ الذي تكونُ صُدُورُ قَدَمَيْهِ مَائِلَةً عن جهةِ الْخِلْقَةِ. وقيل : الْحَنِيْفُ : الذي يُوَحِّدُ اللهَ ويَحُجُّ ويضَحِّي ويَخْتَتِنُ ويستقبلُ القِبلةَ ، وهو أسهلُ الأديان وأحبُّها إلى اللهِ تعالى ، وأهلهُ أكرَمُ الخلقِ على اللهِ.

(٠/٠)

إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (٦٨)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَاذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ } ؛ قال ابنُ عبَّاس والكلبيُّ : (وَذَلِكَ أنَّ رُؤَسَاءَ الْيَهُودِ قَالُواْ لِلنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم : لَقَدْ عَلِمْتَ يَا مُحَمَّدُ أنَّا أوْلَى بدِيْنِ إبْرَاهِيْمَ مِنْكَ وَمِنْ غَيْرِكَ ، وَأَنَّهُ كَانَ يَهُودِيّاً ، وَمَا بكَ إلاَّ الْحَسَدَ لَنَا ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الآيَةَ). ومعناها : إنَّ أحقَّ الناسِ بموالاة إبراهيمَ لَلَّذِيْنَ اتَّبَعُوهُ في دينهِ في زمانه ، ولم يغيِّرُوا ولم يُبَدِّلُوا ، { وَهَاذَا النَّبِيُّ } يعني مُحَمَّداً صلى الله عليه وسلم { وَالَّذِينَ آمَنُواْ } يعني أصحابَه الذي اتَّبعوهُ. قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ } ؛ أي في النَّصْرِ والمعرفةِ.

(٠/٠)

وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٦٩)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ } ؛ يعني كعبَ بن الأشرف وأصحابَهُ دَعَوا أصحابَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم : مُعَاذ وحذيفةَ وعمَّارَ بن ياسرٍ الى دِينِهم اليهوديَّة ، وقد مَضَتْ قضيَّتُهم في سورةِ البقرةِ. ومعناه : تَمَنَّتْ جماعةٌ من أهلِ الكتاب أنْ يَهْلِكُوكُمْ بإدخالِكُم في الضَّلاَلِ ، { وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ } ؛ أي وما يرجعُ وَبَالُ إضْلالِهم إلاَّ على أنفسِهم ، { وَمَا يَشْعُرُونَ } ؛ وما يعلمونَ أنَّ وَبَالَ ذلِكَ يعودُ عليهم ، وقيل : ما يعلمونَ أنَّ الله يُطْلِعُ نَبيَّهُ صلى الله عليه وسلم على فِعْلِهِمْ.

(٠/٠)

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٧٠)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { ياأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ } ؛ أي لِمَ تَجْحَدُونَ بمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم والقرآنِ وأنتم تعلمونَ في كتابكم أنهُ نَبيٌّ مُرْسَلٌ ، يعني أنَّ نَعْتَهُ مذكورٌ في التوراةِ والإنجيل. والأصلُ فِي { لِمَ تَكْفُرُونَ } : لِما تَكفُرون ؛ أي لأيِّ شيءٍ تكفرونَ ، حذفت الألفُ

للتخفيف وفُتحت الميمُ دليلاً على سقوطِ الألف ، وعلى هذا{ لِمَ تَقُولُونَ }[الصف : ٢] وَ{ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ }[الحجر : ٥٤] وَ{ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ }[النبأ : ١].

(٠/٠)

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٧١)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { ياأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ } ؛ معناهُ : لِمَ تَخْلُطُونَ الإسلامَ باليهوديَّة والنصرانيَّة ، وقيل : إنَّهم أقرُّوا ببعضِ أمْرِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وكتمُوا بعضَهُ ، وقيل : معناهُ : لم تُغَطُّونَ الحقَّ بباطِلكم ، وتغطيتُهم الحقَّ بالباطلِ تحريفُهم للتوارةَ والإنجيلَ وتأويلُهم على غيرِ وجههِ.
وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ } يعني صِفَةَ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم كَتَمُوهَا وهم يعلمون أنهُ رَسُولُ اللهِ ودينُه حقٌّ.
قرأ أبو مُخَلَّدٍ (تُلَبِّسُونَ) بالتشديدِ ، وقرأ عُبيد بن عمر : (لِمَ تُلَبسُوا) بغير نونٍ ولا وجهَ لهُ.

(٠/٠)

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٧٢)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { وَقَالَتْ طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُواْ بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُواْ آخِرَهُ } ؛ قال مجاهدُ ومقاتل والكلبيُّ : (هَذا فِي شَأْنِ الْقِبْلَةِ لَمَّا صُرِفَتِ الْقِبْلَةُ إِلَى الْكَعْبَةِ ، شُقَّ ذلِكَ عَلَى الْيَهُودِ ، فَقَالَ كَعْبُ بْنُ الأَشْرَفِ لأَصْحَابِهِ : آمِنُواْ بالَّذِي أنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ فِي شَأْنِ الْكَعْبَةِ وَصَلُّواْ إِلَيْهَا أَوَّلَ النَّهَارِ ثُمَّ اكْفُرُواْ بالْكَعْبَةِ آخِرَ النَّهَارِ ، وَارْجِعُوا إِلَى قِبْلَتِكُمْ صَخْرَةَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ). { لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } ؛ أي لعلَّهم يقولون هؤلاءِ أصحابُ كتابٍ ، وهم أعْلَمُ منَّا ، فربَّما يرجعون إلى قِبلتنا ، فَحَذرَ اللهُ نَبيَّهُ مُحَمَّداً صلى الله عليه وسلم مَكْرَ هؤلاءِ القومِ وأطْلَعَهُ على سرِّهم.
وقال بعضُهم : إنَّ علماءَ اليهود قالوا فيما بينَهم : كنَّا نخبرُ أصحابَنا بأشياءَ قد أتى بها مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم ، فإن نحنُ كفرْنَا بها كلَّها اتَّهَمَنَا أصحابُنا ، ولكن نؤمنُ ببعضٍ ونكفرُ ببعضٍ لنوهِمَهم أنَّا

نصدِّقه فيما نصدِّقه ، ونريهم أنَّا نكذِّبه فيما ليسَ عندنا. ويقال : إنَّهم أتَوا النبيَّ صلى الله عليه وسلم في صدر النَّهار ، فقالُوا : أنْتَ الذي أخبرنا في التوراةِ إنكَ مبعوثٌ ، ولكن أنْظِرْنَا إلى العَشِيِّ لِنَنْظُرَ في أمْرِنا.

فلمَّا كان العَشِيُّ أتَوا الأنصارَ فَقَالُوا لَهم : كنَّا أعلمنَاكُم أنَّ مُحَمَّداً هو النبيُّ الذي هو مكتوبٌ في التوراة ، إلاَّ أنَّا نظرنَا في التوراةِ فإذا هو مِن ولدِ هارون عليه السلام ومحمدٌ صلى الله عليه وسلم من ولد إسْمَاعِيْلَ بنِ إبراهيمَ ، فليس هو النبيُّ الذي هو عندَنا. وإنَّما فعلُوا ذلك لعلَّ مَن آمنَ به منهم يَرْجِعُ ، لأنَّ هذا يكونُ أقربَ عندهم إلى تشكيكِ المسلمين.

ووجهُ الشَّيء أوَّلُهُ ، يقالُ لأَوَّلِ الثوب وَجْهُ الثوب ، ويسمَّى أوَّلُ النهار وَجْهَهُ لأنهُ أحْسَنُهُ.

(٠/٠)

وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٧٣)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { وَلاَ تُؤْمِنُواْ إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ } ؛ حكايةُ قولِ كعب بن الأشرَف وأصحابه قالوا لليهودِ : لا تصدِّقوا إلاَّ لِمن تَبِعَ دينَكم اليهوديَّة ، وصلَّى إلى قِبلتكم نحوَ بيتِ المقدس.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ } ؛ قال بعضُهم : هذا كلامُ مُعْتَرِضٌ بين كَلاَمَي اليهودِ ، ويجوزُ دخولُ العارضِ بين الكلامين اذا احتيجَ إليه كما دخلَ على قولهِ تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً }[الكهف : ٣٠] ثم عَادَ إلى أوَّل الكلامِ فقالَ تعالى : { أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ }[الكهف : ٣١] كذا قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ } عارضَ ثم عادَ إلى كلامِ اليهود ، فقالَ تعالى : { أَن يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ } ؛ أي قالُوا لا تصدِّقوا أن يعطَى أحدٌ من الكتاب والعلم مثلَ ما أعطيتُم ؛ { أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ } ؛ أي يحاجكم أحدٌ ، { قُلْ } ؛ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ إنَّ الْهُدَى هُدَى اللهِ و ؛ { إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ } ؛ فلا تُنْكِروا أن يُؤْتِهِ غيرَكم.

وقال بعضُهم : ليسَ في الآيةِ تقديمٌ وتأخير ، ومعناهُ : قالَت اليهودُ : ولا تؤمِنُوا إلاَّ لِمن تَبِعَ دينَكم ، قلْ يَا مُحَمَّدُ إنَّ الْهُدَى هُدَى اللهِ ؛ فَلاَ تَجحدوا أن يُؤْتَى أحدٌ مثلَ ما أوتيتم ، أو يُحَاجُّكُمْ أحدٌ عند ربِّكم ، (قُلْ) : إنَّ الْفَضْلَ بيَدِ اللهِ ، { يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ } ؛ أي النبوة والكتاب والهدى بقدرة الله تعالى يعطيه من يشاء ، { وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } ؛ أي واسعُ الفضلِ والقدرةِ ، عَلِيْمٌ بمن هوَ من أهلِ الفضلِ.

وقيل معنى الآيةِ : ولاَ تؤمنُوا إلاَّ لِمن تَبِعَ دينَكم أي ملَّتَكم ، ولا تؤمنُوا إلاَّ أنْ يؤتى أحدٌ مثلَ ما أوتيتم من العلمِ والحكمَةِ ؛ والكتاب والحجة ؛ والْمَنِّ وَالسَّلوى ؛ وفَلْقِ البحرِ وغيرِها من الكرامَات ، ولا

تؤمنُوا إلاَّ أنْ يجادلُوكم عند ربكم لأنكم أصحُّ ديناً منهم ، وهذا قولُ مجاهدٍ.
وقال ابن جُريج : (مَعْنَاهُ : أنَّ الْيَهُودَ قَالَتْ لِسَفَلَتِهِمْ : لاَ تُؤْمِنُواْ إلاَّ لِمَنْ تَبِعَ دِيْنَكُمْ كَرَاهَةَ أنْ يُؤْتَى أحَدٌ مِثْلَ مَا أُوْتِيْتُمْ ؛ فَأيُّ فَضْلٍ يَكُونُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ حَيْثُ عَمِلُواْ مَا عَمِلْتُمْ ، وَحِيْنَئذٍ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبكُمْ فَيَقُولُونَ : عَرَفْتُمْ أنَّ دِيْنَنَا حَقٌّ ؛ فَلاَ تُصَدِّقُوهُمْ لِئَلاَّ يَعْلَمُواْ مِثْلَ مَا عَلِمْتُمْ فَلاَ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبكُمْ).
ويجوزُ أن تكونَ (إلاَّ) على هذا القول مضمرةً لقولهِ تعالى : { يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ }[النساء : ١٧٦] ويكونُ تقديرُه : ولاَ تؤمنوا إلاَّ لِمَنْ تَبِعَ دينَكم ؛ لئلاَّ يؤتَى أحدٌ مِثْلَ ما أوتيتم ؛ لئلا يحاجُّوكم به عند ربكم.
وقرأ الحسنُ والأعمش (إنْ يُؤْتَى) بكسرِ الألف ، وجهُ هذه القراءةِ : أنَّ هذا مِن قول الله عَزَّ وَجَلَّ بلا اعتراضٍ ، وأن يكونَ كلامُ اليهود منتهياً عندَ قوله { إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ }. ومعنى الآية : قُلْ يَا مُحَمَّدُ إنَّ الْهُدَى هُدَى اللهِ أنْ يؤتَى أحدٌ مثلَ ما أوتيتم يا أمَّةَ مُحَمَّدٍ أو يُحَاجُّوكُمْ ؛ يعني : إلاَّ أنْ يحاجُّوكم أي يجادِلوكُم اليهودُ بالباطلِ فيقولوا نحنُ أفضلُ مِنكم.

(٠/٠)

يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٧٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَآءُ } ؛ أي يَختصُّ بدينهِ الإسلام مَن يشاءُ ، وقيل : يَخْتَصُّ بالنبوَّة مَن يشاءُ ؛ { وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ } ، على مَن اختصَّهُ بالإسلام والنبوَّة.

(٠/٠)

وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِماً } ؛ فِي الآية دليلٌ وبيان أنَّ أهلَ الكتاب فيهم أمانةٌ وفيهم خِيَانَةٌ ، فمنهم مَن إنْ تَأمَنْهُ تُبَايعْهُ بِملْءِ مِشْكِ ثورٍ تُؤَدِّهِ ذهَباً ، يُؤَدِّهِ إليكَ بلا عناءٍ ولا تعب ، وَمِنْهُمْ مَنْ إنْ تَأْمَنْهُ بِدِيْنَارٍ لاَ يُؤَدِّهِ إلَيْكَ إلاّ بعد عَناء وتعبٍ. وقال الضحَّاك : (هُوَ فِنْحَاصُ بْنُ عَازُورَاء الْيَهُودِيّ ؛ أوْدَعَهُ

رَجُلٌ دِيْنَاراً فَخَانَهُ). والقِنْطَارُ عبارةٌ عن المالِ الكثير ، والدِّيْنَارُ عبارةٌ عن المال القليلِ.

وقال الضحَّاك عنِ ابن عبَّاس : (مَعْنَى الآيَةِ : وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَاب مَنْ إنْ تَأَمَنْهُ بقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إلَيْكَ ؛ وَهُوَ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلاَمٍ ؛ أَوْدَعَهُ رَجُلٌ أَلْفاً وَمِائَتَي أُوْقِيَّةٍ مِنْ ذهَبٍ فَأَدَّاهُ إلَيْهِ ؛ فَمَدَحَهُ اللهُ تَعَالَى ، وَمِنْهُمْ مَنْ إنْ تَأْمَنْهُ بِدِيْنَارٍ لاَ يُؤَدِّهِ إلَيْكَ ؛ وَهُوَ فِنْحَاصُ ابْنُ عَازُورَاء الْيَهُودِيُّ ؛ أَوْدَعَهُ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ دِيْنَاراً فَخَانَهُ). وفي بعضِ التفاسير : أنَّ الذي يؤدِّي الأمانةَ في هذهِ الآية هم النَّصَارَى ؛ والذينَ لا يؤدُّونَها هم اليهودُ.

قرأ الأشهبُ العقيلي (تِيْمَنْهُ بقِنْطَارٍ) بكسرِ التَّاء وهي لغةُ بكرٍ وتَميم ، وفي حرفِ ابن مسعودٍ : (مَا لَكَ لاَ تِيْمَنَّا) ، وقراءةُ العامَّة (تَأْمَنْهُ) بالألِف.

وقَوْلُهُ تَعَالَى { يُؤَدِّهِ } فيه خمسُ قِراءَات ، فقرأها كلَّها أبو عمرٍو وعاصمُ والأعمش وحمزةُ سَاكِنَةَ الْهَاءِ ، وقرأ أبو جعفرٍ ويعقوبَ مُخْتَلَسَةً مكسورةً مشبَعةً ، وقرأ سلامُ مَضْمُومَةً مُخْتَلَسَةً ، وقرأ الزهريُّ مضمومةً مُشبعةً ، وقرأ الآخرونَ مكسورةً مشبعةً.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِماً } قرأ الأعمشُ ويحيى بن وثَّاب وطلحةُ بكسرِ الدَّال ، ومعنى الآيةِ : { إلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِماً } أي مُلِحّاً ، كذا قالَ ابنُ عباس ، وقال مجاهدُ : (إلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً) مُلاَزماً. وقال ابنُ جُبير : (مُرَابطاً). وقال الضحَّاك : (مُوَاظِباً). وقال قتادةُ : (مَعْنَاهُ : إلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً : بقَبْضِهِ). وقال السديُّ : (قَائِماً عَلَى رَأسِهِ ، فَإنْ سَأَلْتَهُ إيَّاهُ حِيْنَ دَفَعْتَهُ إلَيْهِ رَدَّهُ عَلَيْكَ ، وَإنْ أَخَّرْتَهُ أَنْكَرَ). وذهبَ به ذلك إلى الاستحلالِ والخيانةِ ، { ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ } ؛ أي فإنَّهم قالوا : { لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ } ؛ أي وقال العربُ نظيرُه قَوْلُهُ تَعَالَى : { هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ }[الجمعة : ٢]. والسبيلُ هو الإثْمُ والحرجُ ؛ دليلهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : { مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ }[التوبة : ٩١] وذلكَ أنَّ اليهودَ قالُوا : لاَ حرجَ علينا في حبسِ أموالِ العرب قد أحلَّها اللهُ لنا ؛ لأنَّهم ليسوا على دِيننا ، وكانوا يستحِلُّون ظُلْمَ مَن خالَفَهم في دينهم.

وقال الكلبيُّ : (قَالَتِ الْيَهُودُ : إنَّ الأَمْوَالَ كُلَّهَا لَنَا ؛ وَمَا كَانَ فِي أَيْدِي الْعَرَب مِنْهَا فَهُوَ لَنَا ، وَإنَّمَا ظَلَمُونَا وَغَصَبُونَا عَلَيْهَا وَلاَ سَبِيلَ عَلَيْنَا فِي أَخْذِنَا إيَّاهَا مِنْهُمْ). فَأَكْذبَهُمْ اللهُ بقَوْلِهِ : { وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ } ؛ فلمَّا نزلَتْ هذه الآيةُ قَالَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم : "كَذبَ أَعْدَاءُ اللهِ ، مَا مِنْ شَيْءٍ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ إلاَّ وَهُوَ تَحْتَ قَدَمِي إلاَّ الأَمَانَةُ ؛ فَإنَّهَا مُؤَدَّاةٌ إلَى الْبَرِّ وَالْفَاجِرِ "

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ } أي ذلك الاستحلالُ والخيانةُ منهم بقولِهم : ليس علينا في مال العرَب والذين لا كتابَ لَهم حجةٌ ولا مأثَم. وقولهُ تعالى : { وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ } أي يقولون لَمْ يجعل لَهم علينا في كتابنا حُرْمَةً كحُرْمَتِنَا ، { وَهُمْ يَعْلَمُونَ } أنَّ الله تعالى قد أنزلَ عليهم في كتابهم الوفاءَ وأداءَ الأمانة لِمن ائْتَمَنَهُمْ وخالَطَهم.

بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧٦)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ } ؛ أي ليس الأمرُ كما يزعمون ، لكن من أتَمَّ عهدَ الله الذي عاهدَهُ الله تعالى في التوراةِ واتَّقَى ظلمَ الناسِ في ترك الوفاء ونقضِ العهد ، فَإِنَّ الله يُحِبُّ الْمُتَّقِيْنَ لنَقضِ العهد وتركِ الوفاء. قال صلى الله عليه وسلم : " ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيْهِ فَهُوَ مُنَافِقٌ وَإِنْ صَلَّى وَصَامَ : مَنْ إذا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإذا أوْعَدَ أخْلَفَ ، وَإذا ائْتُمِنَ خَانَ " وقال صلى الله عليه وسلم : " مَنِ ائْتُمِنَ عَلَى أمَانَةٍ فَأَدَّاهَا وَلَوْ شَاءَ لَمْ يُؤَدِّهَا ؛ زَوَّجَهُ اللهُ مِنَ الْحُور الْعِيْنِ مَا شاءَ "

(٠/٠)

إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِيْمَا كَانَ بَيْنَ امْرِئ الْقَيْسِ وَعَبَدَانِ بْنِ الأَشْوَعِ مِنَ الْخُصُومَةِ فِي أرْضٍ غَلَبَهُ عَلَيْهَا امْرُؤ الْقَيْسِ ؛ فَاسْتَحْلَفَهُ عَبَدَانُ فَهَمَّ بالْحَلْفِ ؛ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فَامْتَنَعَ أنْ يَحْلِفَ ، وَأقَرَّ لِعَبَدَانَ بحَقِّهِ وَدَفَعَهُ إلَيْهِ ، فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " لَكَ عَلَيْهَا الْجَنَّةَ " (. وقيل : نزلت هذه الآيةُ في اليهودِ لكتمانِهم مَبْعَثَ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم. ومعنى الآيةِ : إنَّ الذين يجتازون على عهدِي الذي عهدتُ به في الدنيا ، أولئكَ لا نصيبَ لَهم في الآخرةِ ؛ { وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ } ؛ بكلامِ خيرٍ ولا رحمةٍ ، وقيل : لا يُسْمِعُهُمْ كلامَه كما يكلِّمُ أولياءَهُ بغير سفيرٍ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ } ؛ أي لا يرحَمُهم ولا يعطِفُ عليهم ولا يقولُ لَهم خيراً ؛ { وَلاَ يُزَكِّيهِمْ } ؛ أي لا يُثْنِي عليهم خَيراً ؛ { وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } ، في أنَّها هذه الأحوالُ { عَذَابٌ أَلِيمٌ } أي مُوجِعٌ. رويَ عن رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " مَنِ اقْتَطَعَ شَيْئاً مِنْ مَالِ مُسْلِمٍ بيَمِيْنِهِ فَقَدْ أوْجَبَ اللهُ لَهُ النَّارَ وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ " قالَ رَجُلٌ : وَلَوْ كَانَ شَيْئاً يَسِيراً ؟ قَالَ : " وَلَوْ كَانَ قَضِيباً مِنْ أرَاكٍ " وقَالَ صلى الله عليه وسلم : " أكْبَرُ الْكَبَائِرِ الشِّرْكُ باللهِ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ وَالْيَمِيْنُ الْغَمُوسُ ".
وقال صلى الله عليه وسلم : " إيَّاكُمْ وَالْيَمِيْنَ الْفَاجِرَةَ ، فَإنَّهَا تَدَعُ الدِّيَارَ بَلاَقِعَ " وقال صلى الله عليه وسلم : " الْيَمِيْنُ الْفَاجِرَةُ تُسْقِمُ الرَّحِمَ " ، وَهِيَ " مَنْفَقَةٌ لِلسِّلْعَةِ مَمْحَقَةٌ لِلْكَسْب "

(٠/٠)

وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٨)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ } ؛ رويَ : أنَّ جَمَاعَةً مِنَ الْيَهُودِ أَوْلِي فَاقَةٍ وفَقْرٍ قَدِمُواْ الْمَدِيْنَةَ مِنَ الشَّامِ لِيُسْلِمُواْ ، فَلَقِيَهُمْ كَعْبُ بْنُ الأَشْرَفِ فَقَالَ لَهُمْ : أتَعْلَمُونَ أنَّ مُحَمَّداً نَبيٌّ ؟ قَالُواْ : نَعَمْ ، وَمَا تَعْلَمُهُ أنْتَ ؟ قَالَ : لاَ ، قَالُوا : فَإنَّهُ يَشْهَدُ أنَّهُ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ ، فَقَالَ كَعْبُ بْنُ الأَشْرَفِ : لَقَدْ مَنَعَكُمُ اللهُ خَيْراً كَثِيْراً ، كُنْتُ أريدُ أنْ أميرَ لَكُمْ وَأَكْسُوا عِيَالَكُمْ فَحَرَمَكُمُ اللهُ ، فَقَالُواْ : رُوَيْدَكَ حَتَّى نَلْقَاهُ ، فَانْطَلَقُواْ وَكَتَبُواْ صِفَةً سِوَى صِفَتِهِ وَنَعْتاً سِوَى نَعْتِهِ ، ثُمَّ انْتَهُواْ إلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، فَكَلَّمُوهُ وَسَأَلُوهُ ، ثُمَّ رَجَعُوا إلَى كَعْبٍ فَقَالُوا : كُنَّا نَرَى أنَّهُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، فَإذا هُوَ لَيْسَ بالْنَّعْتِ الَّذِي نُعِتَ لَنَا ؛ وَجَدْنَا نَعْتَهُ مُخَالِفاً لِلَّذِي عِنْدَنَا ؛ وَأخْرَجُواْ الَّذِي كَتَبُوهُ فَنَظَرَ إلَيْهِ كَعْبُ فَفَرِحَ وَأَخَذ إقْرَارَهُمْ وَخُطُوطَهُمْ ثُمَّ بَعَثَ إلى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ ثَمَانِيَة قُمُصٍ مِنَ الْكِرْبَاسِ وَخَمْسَةَ آصُعٍ مِنَ الشَّعِيْرِ ، فَنَزَلَتِ الآيَةُ.

ومعناها : وإنَّ مِنْ أهْلِ الكتاب طائفةٌ يُحَرِّفُونَ الكتابَ ثم يَقْرَأونَ ما حَرَّفُوهُ ليظُنَّ المسلمون أنَّ ذلكَ من التوراةِ ؛ وَمَا هُوَ مِنْهَا ، ويقولونَ هو مِن عند اللهِ نَزَلَ وما هُو مِن عِنْدِ اللهِ نَزَلَ ؛ { وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ } ؛ بادِّعائِهم أنَّ ذلك الْمُحَرَّفَ مِن التوراةِ ؛ { وَهُمْ يَعْلَمُونَ } ؛ أنَّهُمْ يكذبونَ ، وَلَيُّ اللِّسَانِ هو العدولُ عن الصدقِ والصواب.

(٠/٠)

مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩)

وقوله عَزَّ وَجَلَّ : { مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَاداً لِّي مِن دُونِ اللَّهِ } ؛ وذلكَ أنَّهُ لَمَّا كَثُرَتْ دعوةُ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم إيَّاهم إلى الإسلامِ وقامَت عليهم

الْحُجَجُ ؛ قالوا : إنَّ هذا الرجلَ يريدُ أن نَتَّبعَهُ ونَعْبُدَهُ كما كان عيسى مِن قومه حتى عَبَدُوهُ ، فَكَذا كَلَّمَ الله عَزَّ وَجَلَّ بهذه الآيةِ ، ومعناها : ما كان بَشَرٌ من الأنبياءِ مثلَ عيسى وعُزَيْرٍ وغيرِهم أن يعطيَهُ اللهُ الكتابَ وعِلْمَ الحلالِ والحرامِ والنبوَّة ؛ { ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَاداً لِّي مِن دُونِ اللَّهِ } أي لا يَجْمَعُ لأحدٍ النبوَّة والقولَ للناسِ : كونوا عِباداً لِي ، وليس هذا على وجهِ النَّهي ، ولكنه على وجه التَّنْزِيْهِ للهِ عَزَّ وَجَلَّ ؛ لأنه لا يَخْتَارُ نبيّاً يقولُ مثلَ هذا القول للناسِ. ويجوزُ أن يكونَ هذا على وجهِ تَعْظِيْمِ الأنبياءِ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ.

وقال الضحَّاك ومقاتلُ : (مَعْنَاهُ : { مَا كَانَ لِبَشَرٍ } يَعْنِي عَيْسَى عليه السلام { أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ } يَعْنِي الإنْجِيْلَ ؛ نَزَلَتْ فِي نَصَارَى نَجْرَانَ). وقال ابنُ عبَّاس وعطاءٌ : ({ مَا كَانَ لِبَشَرٍ } يَعْنِي مُحَمَّداً صلى الله عليه وسلم { أَن يُؤْتِيهُ اللَّهُ الْكِتَابَ } يَعْنِي الْقُرْآنَ. وَذلِكَ أنَّ أبَا رَافِعٍ الْقُرَظِيِّ مِنَ الْيَهُودِ ، وَالرَّيِّسَ مِنْ نَصَارَى نَجْرَانَ ، قَالُواْ : يَا مُحَمَّدُ ؛ نُرِيْدُ أنْ نُصَيِّرَكَ وَنَتَّخِذكَ رَبّاً؟! فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " مَعَاذ اللهِ أنْ يُعْبَدَ غَيْرُ اللهِ أوْ نَأْمُرَ بِعِبَادَةِ غَيْرِ اللهِ ، مَا بذلِكَ بَعَثَنِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَلاَ بذلِكَ أمَرَنِي " فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ). والبَشَرُ جمعُ بَنِي آدَمَ لا واحدَ لهُ من لفظهِ ، كالْقَوْمِ وَالْجَيْشِ ، ويوضَعُ موضِعَ الواحدِ والجمعِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى { وَالْحُكْمَ } يعني الفَهْمَ والعِلْمَ ، وقيل : الأحكامَ. قوله عَزَّ وَجَلَّ : { وَلَاكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ } ، أي ولكن يقولُ : { كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ } أي عُلَمَاءَ عَامِلِيْنَ ، وقيل : فُقَهَاءَ مُعَلِّمِيْنَ. قفال مُرَّةُ بن شِرَحْبِيْلَ : (كَانَ عَلْقَمَةُ مِنَ الرَّبَّانِيِّيْنَ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ الْقُرْآنَ). وعن سعيدِ بن جُبير : (مَعْنَاهُ : حُكَمَاءَ أتْقِيَاءَ). وقيل : متعبدين مخلصِين. وقيل : علماءَ نُصَحَاءَ للهِ عَزَّ وَجَلَّ في خلقِه.

وقيل : (الرَّبَّانِيُّ : هُوَ الْعَالِمُ بالْحَلاَلِ وَالْحَرَامِ وَالأَمْرِ وَالنَّهْيِ ؛ وَالْعَارِفُ بأَنْبَاءِ الأُمَّةِ وَمَا كَانَ وَمَا يَكُونُ). وقال عليٌّ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ : (هُوَ الَّذِي يَرُبُّ عِلْمَهُ بعَمَلِهِ) أي يُصْلِحُ علمَهُ وعملُهُ بعلمِهِ. وقال محمَّد بنُ الحنفية يوم ماتَ ابنُ عبَّاس : (مَاتَ رَبَّانِيُّ هَذِهِ الأُمَّةِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ } معناهُ : بما أنتُم تُعَلِّمُونَ كقولهِ : { وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً }[مريم : ٥] أي وامرأتِي عَاقِرٌ. وقوله : { مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ }[مريم : ٢٩] أي مَن هو في الْمَهْدِ صبيّاً. وقَوْلُهُ تَعَالَى : { تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ } ، قرأ السَّلمي والنخعيُّ وابن جُبير والضحَّاك وابن عامر والكوفيُّون : (بمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ) بالتشديد من التَّعْلِيْمِ ، وقرأ الباقون بالتخفيف : مِنَ الْعِلْمِ.

(٠/٠)

وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (٨٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ الْمَلاَئِكَةَ وَالنَّبِيِّيْنَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ } ، قرأ الحسنُ وعاصم وحمزة وابنُ عامر : (وَلاَ يَأْمُرُكُمْ) بنصب الراء عطفاً على (ثُمَّ يَقُولُ) مردودٌ على البشرِ ، وقرأ الباقون بالرفعِ والاستئناف والانقطاعِ مِن الكلام الأوَّل. واختلفوا فيهِ على هذهِ القراءَة. فقال الزجَّاج : (مَعْنَاهُ : وَلاَ يَأْمُرُكُمُ اللهُ). وقال ابن جُريج وجَماعةٌ : (وَلاَ يَأْمُرُكُمْ مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم) ، وقيل : ولا يأمرُكم البشرُ أن تتخِذُوا الملائكةَ والنبيِّين أرباباً كفعلِ قُرَيْشٍ وخُزَاعَةَ ؛ حيثُ قالوا : الملائكةُ بناتُ اللهِ. واليهودِ والنَّصارى حيثُ قالوا : عُزَيرُ والمسيحُ ابن اللهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ } استفهامٌ بمعنى الإنكار ؛ أي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بعثَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم ليدعُوَ الناسَ إلى الإسلامِ ؛ فكيفَ يدعُو إلى الكفرِ بعد أنْ كانت فطرَتُكم على الإسلام؟. ويقالُ : إنْ كنتُم مُقِرِّيْنَ بالتوحيدِ.

(٠/٠)

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٨٢)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَآ آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ } ؛ قرأ سعيدُ بن جبير (لَمَّا) بتشديد الميمِ ، وقرأ حمزةُ (لِمَا) بكسر اللامِ والتخفيف ، وقرأ الباقون بالفتحِ والتخفيفِ. فمن فَتَحَ وخفَّف فهي لامُ الابتداءِ أدخلت على (مَا) ، كقولِ القائلِ : لَزَيدٌ أفضلُ من عمرٍو ، و (مَا آتَيتُكُمْ) اسمٌ ، والذي بعده صلةٌ. وجوابه : { لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ } ، وإن شئتَ جعلتَ خبر (مَا) من كتابٍ ، وتكون (مِنْ) زائدة معناه : لِمَا آتيتُكم كتاباً وحكمةً. ثم ابتدأ فقال : (ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ) أي ثم إن جاءكم رسولٌ مصدِّق لِمَا معكُم لتُؤْمِنُنَّ بِهِ ، اللامُ لامُ القسَم ؛ تقديرهُ : وَاللهِ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ ، فوكَّده في أول الكلام بلام التوكيدِ وفي أجزاءِ الكلام بلاَمِ القسَم كأنه استحلَفَهم : وَاللهِ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ. وأخذُ الميثاقِ في معنى التَّحليفِ ؛ لأن الْحِلْفَ وَثِيْقَةٌ ، وموضع (مَا) في قولهِ (لِمَا) نُصِبَ بقوله (آتَيْتُكُمْ) ، كأنهُ قالَ : لِلَّذي اتَيْتُكُمُوهُ مِنْ كِتَابٍ. وقال الزجَّاج : (هَذِهِ لاَمُ التَّخْفِيْفِ دَخَلَتْ عَلَى (مَا) لِلْجَزَاءِ ؛ وَمَعْنَاهُ : لَهُمَا آتَيْتُكُمْ). ودخولُ اللاَّم في الشَّرطِ والجواب للتوكيدِ كما في قولهِ تعالى : { وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي والجواب للتوكيدِ كما في قولهِ تعالى : { وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ }[الإسراء : ٨٦] وكما يقولُ : لَئِنْ جئتَني لأكرمتُكَ.

ومن قرأ (لِمَا) بالكسر والتخفيف فهي لاَمُ الإضافةِ دخلت على (مَا) التي هي بمعنى الَّذي ؛ ومعناه : للَّذي أتيتُكم ؛ يعني : الذي أخذ ميثاقَ النبيين لأجْلِ الذي آتينَاهُم من كتابٍ وحكمةٍ ؛ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَمَآ آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ } : قرأ نافعُ بالألف والنُّون على التَّعْظِيْمِ ؛ لأنَّ عِظَمَ الشَّأْنِ قد يُعَبرُ عن نفسِه بلفظِ الجمعِ. وقرأ الآخرونَ (آتَيْتُكُمْ). واختلفَ المفسِّرون في المعنِيِّ بهذه الآية ، فقال قومٌ : إنَّما أخذ الميثاقَ على الأنبياءِ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ : أن يُصَدِّقَ بعضُهم بعضاً ، ويأمُرَ بعضُهم بالإيْمان ببعضٍ ، فذلك معنَى النُّصْرَةِ بالتصديقِ ، وهذا قولُ ابن جُبير وطاؤوس وقتادةَ والحسنِ والسديِّ ، يدلُّ عليه ظاهرُ الآية. قالَ عَلِيٌّ رضي الله عنه : (لَمْ يَبْعَثِ اللهُ نَبيّاً إلاَّ أخَذ عَلَيْهِ الْعَهْدَ مِنْ مُحَمَّدٍ وَأُمَّتِهِ ، وَأخَذ الْعَهْدَ عَلَى قَوْمِهِ لَيُؤمِنُنَّ بِهِ ؛ وَلَئِنْ بُعِثَ وَهُمْ أحْيَاءٌ لَيَنْصُرُنَّهُ).

وقال بعضُهم : إنَّما أخذ الميثاق على أهلِ الكتاب ؛ وهو قولُ مجاهدٍ والربيعِ قَالُواْ : (ألاَ تَرَى إلَى قولهِ : { ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ } إنَّمَا كَانَ مُحَمَّدٌ مَبْعُوثاً إلَى أهْلِ الْكِتَاب دُونَ النَّبيِّيْنَ). وقال بعضُهم : إنَّما أخذ العهدَ على النبيِّين وأُمَمِهم ؛ واكتفَى بذِكْرِ الأنبياءِ عن ذكرِ الأُمم ؛ لأنَّ أخذ الميثاقِ على المتبُوعِ دلالةٌ على أخذهِ على الأتْبَاعِ ، وهذا قولُ ابنِ عباس وهو أوْلَى بالصواب.

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذالِكُمْ إِصْرِي } ؛ أي قالَ اللهُ تعالى لأنبيائهِ : أقْرَرْتُمْ بما أمرتُكُم به على ما قُلْتُ لكم وقَبلْتُمْ على ذلكم عَهْدِي.

(٠/٠)

أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٨٣)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ } ؛ قرأ أبو عمرٍو : (يَبْغُونَ) بالياء ، و (تُرْجَعُونَ) بالتاء ، قالَ : (لأنَّ الثَّاني أعَمُّ ، وَالأوَّلُ خَاصٌّ ، فَفَرَّقَ بَيْنَهُمَا لافْتِرَاقِهِمَا فِي الْمَعْنَى). وقرأ الحسنُ ويعقوبُ وسلام وحَفْصُ : (يَبْغُونَ) بالياء ، و (يُرْجَعُونَ) بالياء أيضاً. وقرأ الباقونَ بالتاءِ فيهما على الخطاب.

ومعنى الآيةِ : أبَعْدَ هذه الوثائقِ الجارية بينَهم وبينَ اللهِ في أمرِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم يطلبُون دِيناً سوى ما عَهِدَهُ اللهُ إليهم. قال الكلبيُّ : (وَذلِكَ أنَّهُ لَمَّا قَالَ لَهُمُ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم حِيْنَ اخْتَلَفُواْ فِي دِيْنِ إبْرَاهِيْمَ عَلَيْهِ ؛ كُلُّ فِرْقَةٍ قَدْ زَعَمَتْ أنَّهَا أوْلَى بدِيْنِهِ ، فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " كِلاَ الْفَرِيْقَيْنِ بَرِيْءٌ مِنْ دِيْنِ إبْرَاهِيْمَ " فَغَضِبُواْ وَقَالُواْ : وَاللهِ مَا نَرْضَى بقَضَائِكَ وَلاَ نَأْخُذُ بدِيْنِكَ ؛ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الآيَةَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً } أي له أخلصَ وَخَضَعَ. قال الكلبيُّ : (أمَّا أَهْلُ السَّمَوَاتِ وَمَنْ وُلِدَ فِي الإسْلاَمِ مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ أسْلَمُواْ طَائِعِيْنَ ، وَمَنْ أبَى قُوتِلَ حَتَّى يَدْخُلَ فِي الإسْلاَمِ كَرْهاً ؛ يُجَاءُ بِهِمْ أسَارَى فِي السَّلاَسِلِ وَيُكْرَهُونَ عَلَى الإسْلاَمِ). وَفِي الْخَبَرِ عَنْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم أنَّهُ قَالَ : " عَجِبَ رَبُّكُمْ مِنْ قَوْمٍ يُقَادُونَ إِلَى الْجَنَّةِ بالسَّلاَسِلِ "

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ } أي إلى جَزَائِهِ تُرْجَعُونَ في الآخرةِ ، فَبَادِرُوا إلى دِينه ولا تطلبُوا غيرَ ذلك ، وقيل معنى : (وَلَهُ أسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالاَرْضِ) أي أقَرُّواْ لَهُ بالأُلُوهيَّة كما قالَ اللهُ تعالى : { وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ }[الزخرف : ٨٧]. وقال الزجَّاج : (مَعْنَاهُ : أنَّ كُلَّهُمْ خَضَعُواْ للهِ مِنْ جِهَةِ مَا فَطَرَهُمُ اللهُ عَلَيْهِ). قال الضحَّاك : (هَذا حِيْنَ أخِذ مِنْهُ الْمِيثَاقُ وَأقَرَّ بِهِ).

وقال الكلبيُّ : [مَعْنَاهُ : الَّذِي أسْلَمَ طَوْعاً أي الَّذِي وُلِدَ فِي الإسْلاَمِ ، وَبالَذِي أسْلَمَ كَرْهاً يَعْنِي الّذِي أجْبرَ عَلَى الإسْلاَمِ ، فَيُؤْتَى بِهِمْ فِي السَّلاَسِلِ فَيُكْرَهُونَ عَلَى الإسْلاَمِ). قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " كُلُّ الْمَلاَئِكَةِ أطَاعُواْ فِي السَّمَاءِ ؛ وَالأَنْصَارُ فِي الأَرْضِ " وقال صلى الله عليه وسلم : " وَلاَ تَسُبُّواْ أصْحَابِي فَإِنَّهُمْ أسْلَمُواْ مِنْ خَوْفِ اللهِ ، وَأَسْلَمَ النَّاسُ مِنْ خَوْفِ سُيُوفِهِمْ "

وقال الحسنُ : (الطَّوْعُ : لأَهْلِ السَّمَوَاتِ خَاصَّةً ، وَأَهْلُ الأَرْضِ مِنْهُمْ مَنْ أسْلَمَ طَوْعاً ؛ وَمِنْهُمْ مَنْ أسْلَمَ كَرْهاً).

وقرأ الأعمش : (كُرْهاً) بضمِّ الكافِ. وأما انتصابُ (طَوْعاً) و (كَرْهاً) فلأنَّهما مصدران وُضِعَا موضعَ الحالِ كما يقالُ : جِئْتُ رَكْضاً وَعَدْواً ؛ أي راكضاً وماشِياً بسرعةٍ ؛ كأنَّهُ قَالَ : ولهُ أسْلَمَ مَن في السمواتِ والأرض طائِعِيْنَ وَكَارِهِيْنَ. وعن ابنِ عبَّاس أنهُ قال : (إذا اسْتصْعَبَتْ دَابَّةُ أحَدِكُمْ أوْ كَانَتْ شَمُوساً فَلْيَقْرَأ فِي أذُنِهَا هَذِهِ الآيَةَ : { أفَغَيْرَ دِيْنِ اللهِ يَبْغُونَ } إلَى آخِرِهَا).

(٠/٠)

قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٨٤)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ } ؛ الآيةُ خطابٌ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم وأمرٌ له أن يقولَ عن نفسِه وعن أمَّتِهِ { آمَنَّا بِاللَّهِ }. قولهُ عَزَّ وَجَلَّ : { لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ } ؛ أي مِن الرُّسُل ، لا نؤمنُ ببعضِهم ونكفرُ ببعضهم كما فعلَتِ اليهودُ ، بل نؤمنُ بهم جميعاً. قوله عَزَّ وَجَلَّ : { وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ } ؛ أي مُخْلِصُونَ للهِ في التوحيدِ والطَّاعةِ.

(٠/٠)

وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٨٥)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ } الآية ، قال ابنُ عبَّاس : (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ إِلَى قَوْلِهِ : { لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ }[آل عمران : ٩٢] فِي عَشْرَةِ رَهْطٍ ارْتَدُّواْ عَنِ الإِسْلاَمِ وَلَحِقُواْ بمَكَّةَ ، مِنْهُمْ طُعْمَةُ بْنُ أَبَيْرِقَ ووَحْوَحُ بْنِ الأَسْلَتِ وَالْحَارِثُ بْنُ سُوَيْدٍ وَغَيْرُهُمْ ، وَنَدِمَ الْحَارِثُ وَأَرْسَلَ إِلَى أَخِيْهِ الْحَلاَّسِ ابْنِ سُوَيْدِ الْمُسْلِمِ : أَنِّي قَدْ نَدِمْتُ عَلَى مَا صَنَعْتُ ، فَسَلْ لِي رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم : هَلْ مِنْ تَوْبَةٍ وَإِلاَّ أَذْهَبُ فِي الأَرْضِ. فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَاتِ).

ومعناهَا : مَن يطلبُ دِيناً غيرَ دِين الإسلام فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ مَا أقامَ عليهِ ؛ أي لن يُثاب ولن يُثنَى عليهِ.

ويقالُ : هذه الآيةُ نزلَت في المرتدِّين. وقولهُ تعالى : { وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ } ؛ أي مِن الْمَغْبُونِيْنَ حيث تركَ مَنْزِلَهُ في الجنَّة ، واختار مَنْزِلَهُ في النار.

(٠/٠)

كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٨٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْماً كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ } ؛ أي كيفَ يهديهم وقد كفرُوا بعدَ إذْ آمنُوا ؛ و ؛ بعدَ أن ؛ { وَشَهِدُواْ أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ } يعني مُحَمَّداً صلى الله عليه وسلم ؛ { وَجَآءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ } ؛ أي دلالاتُ صِدْقِهِ ونبوَّته ، فكيفَ يستحقُّون هدايةَ اللهِ تعالى. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَشَهِدُواْ أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ } عطفٌ على قولهِ { إِيمَانِهِمْ } دون قولهِ { كَفَرُواْ } ، وقد يعطفُ الفعلُ على المصدر ، كما يقالُ : أعجبَنِي ضربَ زيدٍ وإنْ غَضِبَ ، وتقديرُ الآية : بعدَ أنْ آمنوا وبعدَ أن شَهِدُوا أنَّ الرسولَ حقٌّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } ؛ أي لا يُرْشِدُ المشركينَ ومَن لم يكن أهْلاً لذلكَ ، فإنَّ ظاهرَ الآية يقتضي أنَّ مَن كفرَ بعد إسلامهِ لا يهديَهُ اللهُ ، وأنَّ الظالمين لا يهديهم الله. وكثيرٌ من المرتدِّين أسلمُوا ومِن الظالمين تَابُوا. وقيل : معناهُ : لا يهديَهم اللهُ ما داموا مُقيمين على كفرِهم ، فإذا

جاهدُوا وقصَدُوا الرجوعَ إلى الحقِّ وَفَّقَهُمُ اللهُ كما قالَ تعالى : { وَالَّذِينَ جَاهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا }[العنكبوت : ٦٩]. وقيل : معنى الآيةِ : كيفَ يرحَمُهم اللهُ وينجِّيهم من العقوبةِ.

(٠/٠)

أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٨٧) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٨٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أُوْلَئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ } ؛ أي أهلُ هذه الصِّفَةِ { جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ } أي عذابَه ، واللَّعْنَةُ من اللهِ الإبْعَادُ ، وَأمَّا لعنةُ الملائكةِ والناس فدعاؤُهم على الكفَّار بأنْ يبعِدَهم اللهُ من رحمتِهِ. فإن قيلَ : كيفَ قال الله : { وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ } ومِن الناسِ من يُوالِي الكافرَ ويوافِقَه ولا يَلْعَنُهُ ؟ قيل : إنَّهم في الآخرةِ يَلْعَنُ بعضُهم بعضاً. وقَوْلُهُ تَعَالَى : { خَالِدِينَ فِيهَا } ؛ أي مُقيمينَ في اللَّعنةِ ، وقيل : في العذاب ؛ { لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ } ؛ حين يَنْزِلُ بهم.

(٠/٠)

إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٨٩) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ (٩٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذلِكَ وَأَصْلَحُواْ } ؛ استثناءٌ من قولِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ { أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ الله } ؛ ومعناهُ : { إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ } الكفرِ والشِّرك بعدَ ارتدادِهم ؛ { وَأَصْلَحُواْ } أي لَم يكتفُوا بمجرَّد الإيْمانِ. ويقال : أصْلَحُوا أعمالَهم بالتوبةِ ، وقيل : أصْلَحُوا ما أفسدُوه من الناسِ مِمَّن تَبِعَهُمْ ، { فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ } ؛ أي يتجاوزُ عنهم ، رَحِيْمٌ بهم بعدَ التوبةِ.
قال ابنُ عبَّاس : (لَمَّا نَزَلَتْ قَالَ لِلْحَارِثِ بْنِ سُوَيْدٍ : [الرُّخْصَةُ فِي التَّوْبَةِ] أرْسَلَ أخُوهُ الْجَلاَّسُ إلَيْهِ : أنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ فَرَضَ عَلَيْكُمُ التَّوْبَةَ ؛ فَارْجِعْ إلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَاعْتَذِرْ إلَيْهِ. فَرَجَعَ وَتَابَ ، وَقَبِلَ ذلِكَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم ، فَبَلَغَ ذلِكَ أصْحَابَهُ الَّذِيْنَ بمَكَّةَ ؛ فَقَالُواْ : نَتَرَبَّصُ بمُحَمَّدٍ رَيْبَ الْمَنُونِ ؛ فَإنْ بَدَا لَنَا الرَّجْعَةُ إلَيْهِ ذَهَبْنَا كَمَا ذَهَبَ الْحَارِثُ فَيَقْبَلُ تَوْبَتَنَا) فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى : { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْراً لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ } ؛ إنَّ الذينَ كفروا باللهِ وبالرسولِ بعدَ

تصديقِهم ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً بقولهم : نُقِيْمُ بِمَكَّةَ مَا بَدَا لَنَا ، لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ ، { وَأُوْلَائِكَ هُمُ الضَّآلُّونَ } ؛ أي عنِ الإسلامِ.

وفي هذه الآيةِ دليلٌ على أنَّ هؤلاء لم يكونُوا مُحَقِّقِيْنَ ؛ لأنه قالَ : { وَأُوْلَائِكَ هُمُ الضَّآلُّونَ }. وكانت هذهِ الآيةُ خاصَّة في قومٍ عَلِمَ اللهُ أنَّهم لا يَتُوبُونَ إلاّ عند حُضور الموتِ ، وماتَ طُعْمَةُ كَافِراً ، ولو كانوا يُحَقِّقُونَ التوبةَ قبلَ الْمُعَايَنَةِ لَقُبلَتْ توبتُهم. ويجوزُ أن يكونَ بمعنى : (لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ) أي التوبةُ التي يتوبُونَها عندَ الموتِ. قوله عَزَّ وجَلَّ : { ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْراً }. قال الحسنُ وقتادة وعطاءُ : (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي الْيَهُودِ الَّذِيْنَ كَفَرُواْ بعِيْسَى عليه السلام وَالإِنْجِيْلِ بَعْدَ إِيْمَانِهِمْ بأَنْبِيَائِهِم وَكُتُبِهِمْ ؛ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً بمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم وَالْقُرْآنِ).

(٠/٠)

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٩١)

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأَرْضِ ذَهَباً وَلَوِ افْتَدَى بِهِ } ؛ أي إنَّ الذينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا على كُفْرِهِمْ لو كانَ لأحدِهم في الآخرة مِلْءُ الأرضِ ذهباً فافتدَى به لن يُقْبَلَ منهُ ، كما رُوي : أنه يقالُ للكافرِ يومَ القيامة : لو كانَ لكَ مِلْءُ الأرضِ ذهباً أكُنْتَ تفتدي بهِ مِن العذاب ؟ فيقولُ : نَعَمْ ، فيقالُ له : قد سُئلتَ ما هو أيسرُ عليكَ من هذا فلم تَفْعَلْ؟

وقولهُ تعالى : { ذَهَباً } نُصِبَ على التفسيرِ في قول الفرَّاء ، ومعنى التفسِير : أن يكون الكلامُ تامّاً وهو مُبْهَمٌ كقولهِ : عندِي عُشْرُونَ فالعددُ معلومٌ والمعدودُ مُبْهَمٌ ، فإذا قلتَ : عُشْرونَ دِرْهَماً ؛ فسَّرْتَ العددَ ؛ ولذلكَ إذا قلتَ : هو أحْسَنُ الناسِ ؛ فقد أخبرتَ عن حُسْنِهِ ولم تُبَيِّنْ في أيِّ شيءٍ. فاذا قلتَ : وَجْهاً أو فِعْلاً ؛ فَقَدْ بَيَّنْتَهُ ونصبتَ على التَّفسيرِ ، وإنَّما نصبتَهُ لأنَّهُ ليسَ له ما يخفِضُه ولا ما يرفعُه ، فلمَّا خلاَ من هَذين نُصِبَ ؛ لأن النصبَ أخفُّ الحركاتِ ؛ فجُعِلَ لكلِّ ما لا عَامِلَ لهُ.

وقال الكسائيُّ : (نُصِبَ عَلَى إضْمَار (مِنْ ذهَبٍ) كَقَوْلِهِ تَعَالَى : { أَو عَدْلُ ذلِكَ صِيَاماً }[المائدة : ٩٥] أيْ مِنْ صِيَامٍ). وقد يقالُ : نُصبَ على التمييزِ ثلاثةُ أشياءٍ : تَمييزُ جملةٍ مبهمَةٍ كما في قولهِ : { أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً }[الكهف : ٣٤] ، وتَمييزُ عددٍ مُبْهَمٍ كقولِكَ : عُشْرُونَ دِرْهَماً ، وتَمييزُ مِقدارٍ مُبْهَمٍ كما يقالُ : عِنْدِي مِلْءُ زِقٍّ عَسَلاً.

وأمَّا دخولُ الواو في قولهِ : { وَلَوِ افْتَدَى بِهِ } ؛ فقال بعضُهم : هي زائدةٌ. وقال الزجَّاج : (لَيْسَتْ بزِائِدَةٍ ؛ وإنَّمَا هِيَ لِتَعْمِيْمِ النَّفْيِ لِوُجُوهِ الْقَبُولِ ، ولَوْ لَمْ تَكُنْ وَاواً لأَوْهَمَ الْكَلاَمُ ؛ لأَنَّ ذلِكَ لاَ يُقْبَلُ فِي

الإفْتِدَاءِ ، وَيُقْبَلُ عَلَى غَيْرِ وَجْهِ الإفْتِدَاءِ).
قَوْلُهُ تَعَالَى : { أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } ؛ أي أهلُ هذه الصِّفةِ لَهم عذابٌ وَجِيْعٌ في الآخرةِ ، { وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ } ؛ أي من مَانِعٍ يَمْنَعُهُمْ مِن العذاب.

(٠/٠)

لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٩٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (مَعْنَاهُ : لَنْ تَنَالُواْ الْجَنَّة) ، وقال عطاءُ : (لَنْ تَنَالُواْ الطَّاعَةَ). وقال أبو روق : (مَعْنَاهُ : لَنْ تَنَالُواْ الْخَيْرَ) ، وقال مقاتلُ : (لَنْ تَنَالُواْ التَّقْوَى) ، وقال الحسنُ : (لَنْ تَكُونُواْ أبْرَاراً حَتَّى تَتَصَدَّقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ مِنَ الأَمْوَالِ ؛ أيْ مِنْ كَرَائِمِ أمْوَالِكُمْ وَأَحَبهَا إلَيْكُمْ ، طَيِّبَةً بهَا أنْفُسُكُمْ ؛ صَغِيْرَةً فِي أعْيُنِكُمْ) ، وقال مجاهدُ والكلبيُّ : (هَذِهِ الآيَةُ مَنْسُوخَةٌ ؛ نَسَخَتْهَا الزَّكَاةُ). وروَى الضحَّاك عن ابن عبَّاس : (أرَادَ بهَذِهِ الآيَةِ : حَتَّى تُخْرِجُوا زَكَاةَ أَمْوَالِكُمْ) ، وقال عطاءُ : (مَعْنَاهُ : لَنْ تَنَالُواْ شَرَفَ الدِّيْنِ وَالتَّقْوَى حَتَّى تَتَصَدَّقُواْ وَأنْتُمْ أصِحَّاءُ تَأْمَلُونَ الْغِنَى وَتَخْشَوْنَ الْفَقْرَ). ويقالُ : معناهُ : لن تبلغُوا حقيقةَ التوكُّل والتقوَى حتى تُخرجوا زكاةَ أموالِكم طيبةً بها أنفسُكم.
وذهبَ أكثرُ المفسِّرين إلى أنَّ المقصودَ من هذه الآيةِ : الحثُّ على صدقةِ النَّفل والفرضِ بأبلغِ وجُوهِ القُرَب ؛ لأن قولَهُ : { مِمَّا تُحِبُّونَ } يدلُّ على المبالغةِ فيه. رويَ عن عبدِالله بنِ عمرَ : أنَّهُ اشْتَرَى جَارِيَةً كَانَ يَهْوَاهَا ، فَلَمَّا مَلَكَهَا أعْتَقَهَا وَلَمْ يُصِبْ مِنْهَا ، فَقِيْلَ لَهُ فِي ذلِكَ ، فَقَالَ : (لَنْ تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ). وعن عمرَ بنِ عبدِالعزيز أنهُ كان يشتري أعدَالَ السُّكَّرِ فيتصدَّقُ بها ، فقيلَ لهُ : هلاَّ تصدَّقْتَ بثمنهِ ؟ فقالَ : (لاَ ، لأَنَّ السُّكَّرَ أحَبُّ إلَيَّ ؛ فَأَرَدْتُ أنْ أُنْفِقَ مِمَّا أُحِبُّ).
وروي : أنَّ سائلاً وقفَ على باب الرَّبيع بنِ خَيْثَمَ ؛ فقال : أطْعِمُوهُ سُكَّراً ، فقيلَ لهُ : ما يصنعُ بالسُّكَّرِ ؟ هَلاَّ تطعمهُ خبزاً أنفعُ له ؟ قَالَ : وَيْحَكُمْ! أطعموه سُكَّراً فإنَّ الربيعَ يحبُّ السُّكَّرَ. ووقفَ سائلٌ على باب الربيعِ في ليلةٍ باردة ؛ فخرجَ إليه فرآهُ كأنه مَقْرُورٌ ، فقال : لَنْ تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ، فَنَزَعَ بُرْنُساً فأعطاهُ إيَّاه.
قوله عَزَّ وَجَلَّ : { وَمَا تُنْفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ } ؛ أي ما تتصدَّقوا من صدقةٍ فإنَّ اللهَ بها ويزيادتِكم عَلِيْمٌ يُجزيكم على ذلكَ في الآخرةِ.

(٠/٠)

كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٣) فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩٤) قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٩٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ } ؛ قال ابنُ عباسٍ : (مَعْنَاهُ : كُلُّ الطَّعَامِ الْحَلاَلِ الْيَوْمَ وَهُوَ مَا سِوَى الْمَيْتَةِ وَالدَّمِ وَلَحْمِ الْخِنْزِيْرِ كَانَ حِلاًّ لَبنِي يَعْقُوبَ عليه السلام ، مِنْ قَبْلِ أنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ عَلَى مُوسَى عليه السلام ؛ إلاَّ الطَّعَامَ الَّذِي حَرَّمَهُ يَعْقُوبَ عَلَى نَفْسِهِ ؛ وَهُوَ لَحْمُ الإبلِ وألْبَانُهَا).

وذلك أنَّ يعقوبَ عليه السلام كان يَمشي إلى بيتِ المقدسِ فَلَقِيَهُ مَلَكٌ مِن الملائكة وهو خَلْفَ الأثقالِ ، فظنَّ يعقوبُ أنه لِصٌّ ؛ فعالَجه ليصارعَه فكان كذلكَ حتى أضاءَ الفجرُ ، فضمَّر الملَكُ فَخِذ يعقوبَ فهاج به عِرْقُ النَّسَا ، فصعدَ الملَكُ إلى السَّماء ، وجاء يعقوبُ يعرجُ حتى لَحِقَ الأثقالَ ؛ فكانَ يَبِيْتُ الليلَ ساهراً مِن وَجَعِهِ ويَنْصَبُ نَهاره ، فأقسَمَ لَئِنْ شفاهُ اللهُ لَيُحَرِّمَنَّ أحَبَّ الطعامِ والشراب على نفسهِ ؛ فشفاهُ الله من ذلكَ ، فحرَّم أحبَّ الطعامِ والشراب إليه ، وكان ذلك لُحُومَ الإبلِ وألبانَها ، ثم استَنَّ وَلَدُهُ سبيلَهُ. فذلك قولهُ : { إلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ }.

فلمَّا نزلَتْ هذهِ الآيةُ ؛ قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم لليهودِ : " مَا الَّذِي حَرَّمَ إِسْرَائِيْلُ عَلَى نَفْسِهِ ؟ " قَالُواْ : كُلَّ شَيْءٍ حَرَّمْنَاهُ الْيَوْمَ عَلَى أنْفُسِنَا ؛ فَإِنَّهُ كَانَ مُحَرَّماً عَلَى نُوحٍ عليه السلام فَهَلُمَّ جَرّاً حَتَّى انْتَهَى إِلَيْنَا ، وَأَنْتَ يَا مُحَمَّدُ وَأصْحَابُكَ تَسْتَحِلُّونَهُ ، وَادَّعَواْ أنَّ ذلِكَ مَسْطُورٌ في التَّوْرَاةِ ".

وقال الكلبيُّ : (كَانَ هَذا حِيْنَ قالَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم : " أنَا عَلَى مِلَّةِ إبْرَاهِيْمَ عليه السلام " قَالَ الْيَهُودُ : كَيْفَ وَأَنْتَ تَأكُلُ الإبلَ وَأَلْبَانَهَا؟! فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " كَانَ ذلِكَ حَلاَلاً لإبْرَاهِيْمَ فَنَحْنُ نُحِلُّهُ ". قَالَتِ الْيَهُودُ : كُلُّ شَيْءٍ أصْبَحْنَا الْيَوْمَ نُحَرِّمُهُ ؛ فَإِنَّهُ كَانَ حَرَاماً عَلَى إبْرَاهِيْمَ وَنُوحٍ ، وَهَلُمَّ جَرّاً حَتَّى انْتَهَى إلَيْنَا. " فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الآيَةَ تَكْذِيْباً لَهُمْ : { كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ }

. قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ فَأْتُواْ بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ } ، وذلك أنَّ الْيَهُودَ قَالَ لَهُمُ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم : " مَا الَّذِي حَرَّمَ إِسْرَائِيْلُ عَلَى نَفْسِهِ ؟ " قَالُواْ : كُلُّ شَيْءٍ نُحَرِّمُهُ الْيَوْمَ عَلَى أنْفُسِنَا. قَالَ اللهُ تَعَالَى لِلنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم : { قُلْ فَأْتُواْ بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ " أي فاقرأوها ؛ هل تَجدون فيها تَحريْمَ كلِّ ذِي نابٍ وَظُفُرٍ وتحريْمَ شُحُومِ البقرِ والغنمِ وغيرِ ذلك مِمَّا حرَّمَ اللهُ عليكم من الطيِّبات بعدَ نزولِ التوراة بظلمِكُم وبَغْيِكُمْ ، كما قالَ تعالى : { فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ }[النساء : ١٦٠].

فَأَبَوا أن يأتُوا بالتوراةِ خوفاً من الفضيحةِ لِعِلْمِهِمْ بصِدْقِ النَّبِي صلى الله عليه وسلم فأنزلَ اللهُ تعالى قولَه تعالى : { فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ فَأُوْلَائِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } ؛ أي مَن اخْتَلَقَ على اللهِ الكذبَ بأن يُنَزِّلَ عليه ما لَم يُنْزِلْهُ في كتابٍ مِن بعد ذلك ، يقالُ من بعدَ قيامِ الحجَّة عليهِ : فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ لأنفُسِهِمْ.

(٠/٠)

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ (٩٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ } ؛ قال مجاهدُ : (تَفَاخَرَ الْمُسْلِمُونَ وَالْيَهُودُ ؛ فَقَالَتِ الْيَهُودُ : بَيْتُ الْمَقْدِسِ أفْضَلُ وَأَعْظَمُ مِنَ الْكَعْبَةِ ؛ لأَنَّهَا مَهَاجِرُ الأَنْبِيَاءِ وَهِيَ الأَرْضُ الْمُقَدَّسَةُ ، وَقَالَ الْمُسْلِمُونَ : بَلِ الْكَعْبَةُ أفْضَلُ ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ : { إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ }. وقرأ ابنُ السميقع : (وَضَعَ) بفتح الواو والضَّاد بمعنى وَضَعَهُ اللهُ. { لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ }{ فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ }[آل عمران : ٩٧] ؛ وليس ذلكَ بيتُ المقدس ، وكتبَ على الناسِ حجُّ البيتِ وليس ذلكَ بيتُ المقدسِ.

واختلفُوا في قولهِ تعالى : { إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ } ؛ قال بعضُهم : هو أوَّلُ بيتٍ وُضِعَ على وجهِ الماءِ عندَ خَلْقِ اللهِ السَّموات والأرضَ ، خَلَقَهُ اللهُ تعالى قبلَ الأرضِ بألفَي عامٍ ، وكان رَبْوَةً بيضاءَ على الماءِ فَدُحِيَتِ الأرضُ من تحتهِ ، وهذا قولُ ابنِ عمرَ ومجاهدُ وقتادة والسديُّ. وقيل : معناهُ : أوَّلُ بيتٍ بناهُ آدمُ في الأرضِ ، قالهُ ابن عبَّاس. وقال الضحَّاك : (مَعْنَاهُ : أَوَّلُ بَيْتٍ وُضِعَ فِيْهِ الْبَرَكَةُ وَاخْتِيْرَ مِنَ الْفِرْدَوْسِ الأَعْلَى).

وقيلَ : هو أوَّلُ بيتٍ جُعِلَ قِبلةً للمسلمين. وعن أبي ذرٍّ قَالَ : " سُئِلَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم عَنْ أوَّلِ بيتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ ، فَقَالَ : " الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ ؛ ثُمَّ بَيْتُ الْمَقْدِسِ " فَقِيْلَ لَهُ : كَمْ بَيْنَهُمَا ؟ قال : " أرْبَعُونَ عَاماً ".

وقال الحسنُ : (مَعْنَاهُ : إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِعِبَادَةِ النَّاسِ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ الْكَعْبَةُ ؛ بَنَاهَا إِبْرَاهِيْمُ عليه السلام كَمَا قَالَ تَعَالَى : { وَإِذْ بَوَّأْنَا لإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ }[الحج : ٢٦]. وَأَمَّا بِنَاءُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ فَقَدْ كَانَ بَعْدَ الْكَعْبَةِ بِدَهْرٍ طَوِيْلٍ ؛ بَنَاهُ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ).

قال الكلبيُّ : (كَانَ آدَمُ عليه السلام حِيْنَ أُخْرِجَ مِنَ الْجَنَّةِ بَنَى الْكَعْبَةَ فَطَافَ بِهَا ، فَلَمَّا كَانَ فِي زَمَنِ طُوفَانِ نُوحٍ عليه السلام رَفَعَهَا اللهُ إلى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ بِحِيَالِ مَوْضِعِ الْكَعْبَةِ ؛ وَهِيَ الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ يُقَالُ لَهُ الضِّرَاحُ ؛ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ). ورويَ أنَّ اللهَ تعالى أنزلَ الكعبةَ من السَّماء وهي

مِن ياقوتةٍ حَمراءَ ، وكانتِ الملائكةُ تَحُجُّهَا قبلَ آدمَ عليه السلام ، فلمَّا كَثُرَتِ الخطايَا رفعَها اللهُ تعالى. وعن رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم أنَّهُ قَالَ : " إنَّ الْكَعْبَةَ كَانَتْ خُشْعَةً عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ فَدُحِيَتِ الأَرْضُ مِنْ تَحْتِهَا " وَالْخُشْعَةُ : مثلُ الصُّبْرَةِ متواضعةٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { بِبَكَّةَ } ، قال الضحَّاك : (هِيَ مَكَّةُ ، وَالْعَرَبُ تُعَاقِبُ بَيْنَ الْبَاءِ وَالْمِيْمِ فَتَقُولُ : ضَرْبَةُ لأزبٍ ، وضَرْبَةُ لاَزِمٍ). وقال ابنُ شِهاب : (بَكَّةُ الْمَسْجِدُ وَالْبَيْتُ ، وَمَكَّةُ الْحَرَمُ كُلُّهُ) ومثلُه قال الزهريُّ. وسُمِّي المسجدُ بَكَّةً ؛ لأنَّ الْبَكَّ هُوَ الرَّحْمَةُ ، في اللغةِ يقالُ : بَكَّهُ إذا رَحِمَهُ. وسُمِّي المسجدُ بَكّاً لأن الناسَ يتبَاكُّون فيهِ ؛ أي يزدحِمون للطوافِ. وقال أبو عُبيد : (بَكَّةُ اسْمٌ لِبَطْنِ مَكَّةَ ، وَمَكَّةُ لِمَا بَقِيَ).

(٠/٠)

فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٩٧)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ } ؛ أي فيه علاماتٌ واضحات ، وهُنَّ ما تقدَّم ذكرُه ومقامُ إبراهيم أيضاً ، والآيةُ في مقامِ إبراهيمَ : أن قدمَيه دخلتَا في حَجَرٍ صَلْدٍ بقدرةِ اللهِ تعالى صارَ الحجرُ كالطينِ حتى غَاصَتْ قدماهُ فيه ثم عادَ حَجَراً صَلْداً ليكونَ ذلكَ دلالةً على صِدْقِ نبوَّته عليه السلام. قرأ ابنُ عبَّاس : (فِيْهِ آيَةٌ بَيِّنَةٌ) على الواحدِ وأرادَ مقامَ إبراهيم وحدَهُ. وقرأ الباقون بالجمعِ أرادُوا مقامَ إبراهيم والحجرَ الأسود وَالْحَطِيْمَ وزَمْزَمَ والْمَشَاعِرَ كلَّها.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً } ؛ قال الحسنُ : (عَطَفَ اللهُ قُلُوبَ الْعَرَب فِي الْجَاهِلِيَّةِ عَلَى أنَّ كُلَّ مَنْ لاَذ بالْحَرَمِ وَإِنْ كَانَ جَانِياً لاَ يُهَاجُ فِيْهِ ، وَذلِكَ بدُعَاءِ إبْرَاهِيْمَ عليه السلام حَيْثُ قَالَ : { رَبِّ اجْعَلْ هَاذَا بَلَداً آمِناً }[البقرة : ١٢٦] وَكَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَنْ دَخَلَهُ أمِنَ مِنَ الْقَتْلِ ؛ وَلَمْ يَزِدْهُ الإِسْلاَمُ إلاَّ شِدَّةً. وقيل : إن أوَّل من لاذ بالْحَرَمِ : الحيتانُ الصغارُ من الكبار في الطُّوفان ، وقيل : من دخلَهُ عامَ عُمرة القضاء مع النبيِّ صلى الله عليه وسلم كان آمِناً ، بيانهُ : قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَآءَ اللَّهُ آمِنِينَ }[الفتح : ٢٧].

قال أهلُ المعاني : صورةُ الآية خبرٌ ؛ ومعناها : أمرٌ ؛ تقديرُها : ومَن دَخَلَهُ فَأَمِّنُوهُ ، لقولهِ : { فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ }[البقرة : ١٩٧] أي لا تَرْفُثُواْ ولا تفسُقوا ولا تُجادِلوا. وقيل : معناهُ : مَن دخلَهُ لقضاءِ النُّسُكِ مُعَظِّماً للهِ عارفاً بحقوقه متقرِّباً إلى اللهِ تعالى كان آمِناً يومَ القيامة. وقال الضحَّاك : (مَعْنَاهُ : مَنْ حَجَّهُ فَدَخَلَهُ كَانَ آمِناً مِنَ الذُّنُوب الَّتِي اكْتَسَبَهَا قَبْلَ ذلِكَ). وقال جعفرُ الصَّادق : (مَنْ دَخَلَهُ عَلَى الصَّفَاءِ كَمَا دَخَلَهُ الأَنْبِيَاءُ وَالأَوْلِيَاءُ كَانَ آمِناً مِنْ عَذابِهِ).

قال أبو النَّجم القرشيُّ : كنتُ أطوف بالبيتِ ؛ فقلتُ : (يَا سيِّدي قد قُلْتَ : (وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً) مِنْ أيِّ شيءٍ ؟ فسمعتُ قائلاً مِن ورائِي يقولُ : آمِناً مِن النار ؛ فالتفَتُّ فلم أرَ شيئاً). يدلُّ على هذا ما رَوى أنسُ بن مالكٍ قال : قالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : " مَنْ مَاتَ فِي أحَدِ الْحَرَمَيْنِ بَعَثَهُ اللهُ مِنَ الآمِنِيْنَ " وقال صلى الله عليه وسلم : " الحُجُونُ وَالبَقِيْعُ يُؤْخَذُ بأَطْرَافِهِمَا وَيَنْتَشِرَانِ فِي الجَنَّةِ " وهُما مَقْبَرَتَا مكَّةَ والمدينةِ. وقال صلى الله عليه وسلم : " مَنْ صَبَرَ عَلَى حَرِّ مَكَّةَ وَلَوْ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ تَبَاعَدَتْ عَنْهُ جَهَنَّمُ مَسِيْرَةَ مِائَتَي عَامٍ ؛ وَتَقَرَّبَتْ مِنْهُ الْجَنَّةُ مَسِيْرَةَ مِائَةِ عَامٍ "

وقال وَهَبُ بْنُ مُنَبِهٍ : (مَكْتُوبٌ فِي التَّوْرَاةِ : أنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ بَعَثَ سَبْعَمِائَةَ أَلْفٍ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ الْمُقَرَّبِيْنَ إلَى الْبَيْتِ ، بيَدِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ سِلْسِلَةٌ مِنْ ذهَبٍ ، فَيَقُولُ لَهُم : اذْهَبُواْ إلَى الْبَيْتِ الْحَرَامِ ، قَرِّمُوهُ بهَذِهِ السَّلاَسِلِ ثُمَّ قُودُوهُ إلَى الْمَحْشَرِ ؛ فَيَأْتُون بهِ بسَبْعَمِائَةِ سِلْسِلَةٍ مِنْ ذهَبٍ ؛ ثُمَّ يَقُودُونَهُ وَمَلَكٌ يُنَادِي : يَا كَعْبَةَ اللهِ سِيْرِي ، فَتَقُولُ : لَسْتُ سَائِرَةً حَتَّى أعْطَى سُؤْلِي ، فَيُنَادِي مَلَكٌ مِنْ جَوِّ السَّمَاءِ سَلِي ، فَتَقُولُ : يَا رَبِّ شَفِّعْنِي فِي جِيْرَتِي الَّذِيْنَ دُفِنُواْ حَوْلِي مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ ، فَيَقُولُ اللهُ : قَدْ أعْطَيْتُكِ سُؤْلَكِ ، فَيُحْشَرُ مَوْتَى مَكَّةَ مِنْ قُبُورِهِمْ بيْضَ الْوُجُوهِ كُلُّهُمْ مُحْرِمُونَ ؛ فَيَجْتَمِعُونَ حَوْلَ الْكَعْبَةِ ثُمَّ يُلَبُّونَ ، ثُمَّ تَقُولُ الْمَلاَئِكَةُ : سِيْرِي يَا كَعْبَةَ اللهِ ؛ فَتَقُولُ : لَسْتُ سَائِرَةً حَتَّى أعْطَى سُؤْلِي ، فَيُنَادِي مَلَكٌ مِنْ جَوِّ السَّمَاءِ : سَلِي ، فَتَقُولُ : يَا رَبِّ ؛ عِبَادُكَ الْمُذْنِبِيْنَ الَّذِيْنَ وَفَدُواْ إلَيَّ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيْقٍ شُعْثاً غُبْراً ؛ قَدْ تَرَكُواْ الأَهْلِيْنَ وَالأَوْلاَدَ وَالأَحْبَابَ ، وَخَرَجُواْ شَوْقاً زَائِرِيْنَ مُسَلِّمِيْنَ طَائِعِيْنَ حَتَّى قَضَوا مَنَاسِكَهُمْ كَمَا أمَرْتَهُمْ ، فَأَسْأَلُكَ أنْ تُؤْمِّنَهُمْ مِنَ الْفَزَعِ الأَكْبَرِ وَشَفِّعْنِي فِيْهِمْ وَتُجَمِّعَهُمْ حَوْلِي ، فَيُنَادِي مُنَادٍ : إنَّ مِنْهُمْ مَنِ ارْتَكَبَ الذُّنُوبَ بَعْدَكِ وَأَصَرَّ عَلَى الْكَبَائِرِ حَتَّى وَجَبَتْ لَهُ النَّارُ ، فَتَقُولُ الْكَعْبَةُ : إنَّمَا أَسْأَلُكَ الشَّفَاعَةَ لأَهْلِ الذُّنُوب الْعِظَامِ ، فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى : قَدْ شَفَّعْتُكِ فِيْهِمْ وَأعْطَيْتُكِ سُؤْلَكِ.

(٠/٠)

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ (٩٨)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { قُلْ ياأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ } ؛ أي قُلْ يا مُحَمَّدُ لليهودِ والنصارى : لِمَ تكفرونَ بالحجِّ وَمُحَمَّدُ والقرآنُ واللهُ عالِمٌ بما تعملونَ ، وإنَّما قال فِي هذا الموضعِ : { قُلْ ياأَهْلَ الْكِتَابِ } ، وقال من قَبْلُ : { ياأَهْلَ الْكِتَابِ }[آل عمران : ٦٥] أنهُ تعالى خاطَبهم أوَّلاً على جهة التَّلَطُّفِ في استدعائِهم إلى الإيْمَانِ ثم أعرضَ عن خطابهم إذْلاَلاً وإهَانَةً لَهُمْ ، وأمرَ غيرهُ بمخاطبَتِهم.

(٠/٠)

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٩)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { قُلْ ياأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجاً وَأَنْتُمْ شُهَدَآءُ } ؛ نزلت يومَ بَدْرٍ في اليهودِ كانوا يَدْعُونَ عمَّاراً وأصحابَه رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ إلى اليهوديَّة ، وكانوا يَسْعَوْنَ في إحياءِ الضَّغَائِنِ التي كانت بين الأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ في الجاهليَّة وكانت قد مَاتَتْ في الإسلامِ. ومعنى الآيةِ : قُلْ يَا مُحَمَّدُ : لِمَ تَصْرِفُونَ مَن آمَنَ عن دينِ اللهِ وعن الطريقِ التي هي الْمُوصِلَةُ إلى رضَا الله من الإسلام والحجِّ وغيرِ ذلك ، { تَبْغُونَهَا عِوَجاً } أي تطلبونَ لَهَا مَيْلاً. قال أبو عُبيد : (الْعِوَجُ بالْكَسْرِ فِي الدِّيْنِ وَالْقَوْلِ وَالْعَمَلِ ، وَالْعَوَجُ بالْفَتْحِ فِي الْجِدَار وَالْحَائِطِ وَالْعَصَا).
قوله تعالى : { وَأَنْتُمْ شُهَدَآءُ } أي وأنتم شهداءُ تقديْمَ البشَارَةِ بمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم في كتبكُم ، وقيل : معناهُ : وأنتم عُقَلاَءُ كما في قولِهِ تعالى : { أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ }[ق : ٣٧]. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ } ؛ تَهْدِيْدٌ لَهُمْ عَلَى الكفرِ أي لا يَخفَى على اللهِ شيءٌ مِمَّا تعملونَ من الْجَحْدِ والكتمانِ.

(٠/٠)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { ياأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقاً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ } ؛ قال زيدُ بن أسلم : (أنَّ شَاسَ بْنَ قَيْسٍ الْيَهُودِيِّ وَكَانَ شَيْخاً كَبِيْراً عَظِيْمَ الْكُفْرِ ؛ شَدِيْدَ الطَّعْنِ عَلَى الْمُسْلِمِيْنَ ؛ شَدِيْدَ الْحَسَدِ لَهُمْ ؛ مَرَّ عَلَى نَفَرٍ مِنْ أصْحَاب رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم مِنَ الأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ فِي مَجْلِسٍ قَدْ جَمَعَهُمْ يَتَحَدَّثُونَ فِيْهِ ، فَغَاظَهُ مَا رَأى مِنْ جَمَاعَتِهِمْ وَأُلْفَتِهِمْ وَصَلاَحِ ذاتَ بَيْنِهِمْ فِي الإسْلاَمِ بَعْدَ الَّذِي كَانَ بَيْنَهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مِنَ الْعَدَاوَةِ ، فَقَالَ : وَاللهِ مَا لَنَا مَعَهُمْ إذا اجْتَمَعُواْ بهَا مِنْ قَرَارٍ ، فَأَمَرَ شَابّاً مِنَ الْيَهُودِ كَانَ مَعَهُمْ ؛ فَقَالَ : اعْمَدْ إلَيْهِمْ وَاجْلُسْ إلَيْهِمْ ؛ ثُمَّ ذَكِّرْهُمْ يَوْمَ بُعَاث وَمَا كَانَ قَبْلَهُ ؛ وَأَنْشِدْهُمْ بَعْضَ مَا كَانُواْ تَقَاوَلُواْ فِيْهِ مِنَ الأشْعَارِ ؛ وَمَا كَانَ يُعْلَنُ – بالْعَيْنِ المهملة – يَوْمَ

اقْتَتَلَتْ فِيْهِ الأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ وَكَانَ الظَّفَرُ فِيْهِ لِلأَوْسِ عَلَى الْخَزْرَجِ ؛ فَفَعَلَ. فَتَكَلَّمَ الْقَوْمُ عِنْدَ ذلِكَ وَتَنَازَعُواْ وَتَفَاخَرُواْ حَتَّى تَوَاثَبَ رَجُلاَنِ مِنَ الْحَيِّ ؛ أَحَدُهُمَا مِنَ الأَوْسِ وَالآخَرُ مِنَ الْخَزْرَجِ ، وَتَقَوَّلاَ ثُمَّ قَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ : إِنْ شِئْتُمْ وَاللهِ رَدَدْنَاهَا جَذعَةً الآنَ ، وَغَضِبَ الْفَرِيْقَانِ جَمِيْعاً وَقَالاَ : مَوْعِدُكُمْ الْحِرَّةُ ، فَخَرَجُواْ إِلَيْهَا بالسِّلاَحِ ، وَانْضَمَّتِ الأَوْسُ إِلَى الأَوْسِ ، وَالْخَزْرَجُ إِلَى الْخَزْرَجِ ، فَبَلَغَ ذلِكَ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم ؛ فَخَرَجَ بِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُهَاجِرِيْنَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ : " يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِيْنَ أَتَدْعُونَ إِلَى الْجَاهِلِيَّةِ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ بَعْدَ إِذْ أَكْرَمَكُمُ اللهُ بالإِسْلاَمِ ، وَقَطَعَ عَنْكُمْ أَمْرَ الْجَاهِلِيَّةِ ، وَأَلَّفَ بَيْنَكُمْ " فَعَلِمُواْ أَنَّهَا نَزْغَةٌ مِنَ الشَّيْطَانِ ، وَكَيْدٌ مِنْ عَدُوِّهِمْ ، وَأَلْقَوا السِّلاَحَ مِنْ أَيْدِيْهِمْ وَبَكَواْ وَتَعَانَقَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً ، ثُمَّ رَجَعُواْ مَعَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم سَامِعِيْنَ مُطِيْعِيْنَ. فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ). ومعناها : { ياأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ } يعني الأوسَ والخزرجَ ، (إِنْ تُطِيعُوا فَرِيْقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ) يعني شَاساً وأصحابَه ؛ إن تطيعوهُم في إحياءِ الضَّغائنِ التي كانت بينَكُمْ بالعصبية وجهالةِ وَحَمِيَّةِ الجاهليَّة يردُّوكم الى الشِّرْكِ والكفرِ بعد تصديقِكم بمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم والقرآنِ. قال جابرُ بن عبدِالله : (مَا كَانَ مِنْ طَالِعٍ أَكْرَمَ إِلَيْنَا مِنْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ؛ فَمَا رَأَيْتُ يَوْماً قَطُّ أَقْبَحَ أَوَّلاً وَلاَ أَحْسَنَ آخِراً مِنْ ذلِكَ الْيَوْمِ).

(٠/٠)

وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٠١)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ } ؛ هذا على طريقِ التعجُّب والاستبعَاد أن يقعَ منهم الكفرُ مع معرفِتهم بدلالاَتِ اللهِ ؛ أي كيفَ تكفرونَ وأنتُم يتلَى عليكُم القرآنُ ومعكم رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم بَيَّنَ لكمُ الآيَاتِ؟! قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ } ؛ أي يَسْتَمْسِكْ بدينِهِ وطاعته ويَمْتَنِعْ به مِن غيره ؛ { فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ } ؛ أي أرْشِدَ إلى طريقٍ ؛ { مُّسْتَقِيمٍ } ؛ قائِمٍ يرضاهُ اللهُ وهو الإسلامُ ، وَالْعِصْمَةُ : الْمَنْعُ ، فكلُّ مانعٍ شيئاً فهو عَاصِمُ ، قال الفرزدقُ : أَنَا ابْنُ الْعَاصِمِيْنَ بَنِي تَمِيْمٍ إِذا مَا أَعْظَمَ الْحَدَثَانِ نَابَا

(٠/٠)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢)

قال عَزَّ وَجَلَّ : { ياأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ } ؛ معناهُ : يَا أيُّهَا الَّذِيْنَ صدَّقُوا بمُحَمَدٍ صلى الله عليه وسلم والقُرآنِ أطيعُوا اللهَ حقَّ طاعتهِ ، واثبُتوا على الإسلامِ حتَّى لا يُدْرِكُكُمُ الموتُ إلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ. قال الكلبيُّ : (حَقَّ تُقَاتِهِ : أنْ يُطَاعَ فَلاَ يُعْصَى ، وَأَنْ يُذْكَرَ فَلاَ يُنْسَى ، وَأَنْ يُشْكَرَ فَلاَ يُكْفَرَ). وقال ابنُ عبَّاس : (هُوَ أنْ لاَ يُعْصَى طَرْفَةَ عَيْنٍ). وقال مجاهدُ : (مَعْنَاهُ : جَاهِدُواْ فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ ؛ وَلاَ يَأْخُذْكُمْ فِي اللهِ لَوْمَةَ لاَئِمٍ ؛ وَقُومُوا للهِ بالْقِسْطِ وَلَوْ عَلَى أنْفُسِكُمْ وَأَبْنَائِكُمْ).

فلما نزلَتْ هذه الآيةُ قالوا : يَا رَسُولَ اللهِ مَنْ يَقْوَى عَلَى تَقْوَى اللهِ حَقَّ تُقَاتِهِ ، وَشَقَّ ذلِكَ عَلَيْهِمْ ، فأنزلَ اللهُ تعالى : { فَاتَّقُواْ اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ }[التغابن : ١٦].

فصارَ ابتداءُ هذهِ الآية منسوخاً به ، وإلى هذا ذهبَ قتادةُ ومقاتل وجماعةٌ من المفسِّرين. قال قتادةُ : (وَلَيْسَ فِي آلِ عِمْرَانَ مِنَ الْمَنْسُوخِ إلاَّ هَذِهِ الآيَةُ). وقال بعضُهم : لا يجوزُ أن يكلِّفَ اللهُ عبادَه ما لا يطيقون ، وليست هذه الآيةُ منسوخةً ، وإنَّما معناهُ : اتَّقُوا اللهَ فيما يحقُّ عليكم أن تَتَّقُوهُ فيهِ ؛ وهو ما فسَّرَه اللهُ تعالى في كتابهِ في مواضِعَ شتَّى.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ } أي مُؤْمِنُونَ ، وقيل : مُخْلِصُونَ مُفَوِّضُونَ أمرَكم إلى اللهِ تعالى. وقال الفُضَيْلُ : (مُحْسِنُونَ الظَّنَّ باللهِ). وعن أنسٍ رضي الله عنه قالَ : (لاَ يَتَّقِي اللهَ عَبْدٌ حَقَّ تُقَاتِهِ حَتَّى يَخْزُنَ لِسَانَهُ).

(٠/٠)

وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً } الآية. قال مقاتلُ : (كَانَ بَيْنَ الأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ عَدَاوَةٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَقِتَالٌ ؛ حَتَّى هَاجَرَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم إلَى الْمَدِيْنَةِ فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ ، فَافْتَخَرَ بَعْدَ ذلِكَ رَجُلاَنِ : ثَعْلَبَةُ بْنُ غَنَمٍ الأَوْسِيُّ ؛ وَسَعْدُ بْنُ زُرَارَةَ الْخَزْرَجِيُّ ، فَقَالَ الأَوْسِيُّ : مِنَّا خُزَيْمَةُ ذُو

الشَّهَادَتَيْنِ ؛ وَمِنَّا حَنْظَلَةُ غَسَلَتْهُ الْمَلاَئِكَةُ ؛ وَمِنَّا عَاصِمُ بْنُ ثَابِتٍ حَمَى الدِّيْنَ ؛ وَمِنَّا سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ الَّذِي اهْتَزَّ الْعَرْشُ لِمَوْتِهِ وَرَضِيَ بحُكْمِهِ فِي بَنِي قُرَيْظَةَ. وَقَالَ الْخَزْرَجِيُّ : مِنَّا أَرْبَعَةٌ أَحْكَمُواْ الْقُرْآنَ : أَبَيُّ بْنُ كَعْبٍ ؛ وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ ؛ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ ؛ وَأَبُو زَيْدٍ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ خَطِيْبُ الأَنْصَارِ وَرَئِيْسُهُمْ. فَجَرَى الْحَدِيْثُ بَيْنَهُمْ ؛ فَغَضِبُواْ ، فَقَالَ الْخَزْرَجُ : أَمَا وَاللهِ لَوْ تَأَخَّرَ الإِسْلاَمُ قَلِيْلاً وَقُدُومُ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم لَقَتَلْنَا سَادَتَكُمْ وَاسْتَعْبَدْنَا أَبْنَاءَكُمْ وَنَكَحْنَا نِسَاءَكُمْ بغَيْرِ مَهْرٍ ، فَقَالَ الأَوْسُ : قَدْ كَانَ وَاللهِ الإِسْلاَمُ مُتَأَخِّراً كَثِيْراً ، فَهَلاَّ فَعَلْتُمْ ذلِكَ حِيْنَ ضَرَبْنَاكُمْ حَتَّى أَدْخَلْنَاكُمُ الْبُيُوتَ ، وَتَكَاثَرَا وَتَشَاتَمَا ثُمَّ تَبَادَءا وَاقْتَتَلاَ حَتَّى اجْتَمَعَ الأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ وَمَعَهُمُ السِّلاَحُ ، فَبَلَغَ ذلِكَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ فِي أُناسٍ مِنَ الْمُهَاجِرِيْنَ وَقَدْ نَهَضَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ. قَالَ جَابِرُ : فَمَا كَانَ طَالِعٌ يَوْمَئِذٍ أَكْرَمَ عَلَيْنَا مَنْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَأَوْمَأَ إِلَيْنَا فَكَفَفْنَا فَوَقَفَ بَيْنَنَا ، فَقَرَأَ : { يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ * وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ }[آل عمران : ١٠٢-١٠٣] إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : { وَأُوْلَائِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ }[آل عمران : ١٠٥] فَأَلْقَى الْفَرِيْقَانِ السِّلاَحَ وَأَطْفَأُوا الْحَرْبَ ، فَلَمْ يَكُنْ فِي الأَرْضِ شَخْصٌ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم بَعْدَ نُزُولِ الآيَةِ ، وَمَشَى بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَعَانَقَ بَعْضُهُمْ بَعضاً يَبْكُونَ ، فَمَا رَأَيْتُ بَاكِياً أَكْثَرَ مِنْ يَوْمَئِذٍ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { بِحَبْلِ اللَّهِ } أي تمسَّكوا بدينِ الله ، وقيلَ : بالْجَمَاعَةِ. وقال مجاهدُ وعطاءُ : (بعَهْدِ اللهِ). وقال قتادةُ والسديُّ والضحَّاك : (مَعْنَاهُ : وَاعْتَصِمُواْ بالْقُرْآنِ). وقَالَ عليٌّ رضي الله عنه : قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : "كِتَابُ اللهِ هُوَ الْحَبْلُ الْمَتِيْنُ ؛ وَالذِّكْرُ الْحَكِيْمُ ؛ وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ " وقال ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه : قالَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " إِنَّ هَذا الْقُرْآنَ هُوَ حَبلُ اللهِ الْمَتِيْنُ ؛ وَهُوَ النُّورُ الْمُبِيْنُ ؛ وَالشِّفَاءُ النَّافِعُ ؛ وَعِصْمَةُ مَنْ تَمَسَّكَ بِهِ ؛ وَنَجَاةُ مَنْ تَبِعَهُ " وقال مقاتلُ : (مَعْنَى الآيَةِ : وَاعْتَصِمُواْ بأمرِ اللهِ وَطَاعَتِهِ). وقال أبو العاليَة : (بإِخْلاَصِ التَّوْحِيْدِ للهِ). وقال ابنُ زيد : (بالإِسْلاَمِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ تَفَرَّقُواْ } أي تَنَاصَرُوا في دينِ الله ولا تَتَفَرَّقُواْ فيه كما تَفَرَّقَتِ اليهودُ والنصارى.

(٠/٠)

وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { وَلْتَكُن مِّنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ } ؛ أي لِيَكُنْ منكم جَمَاعَةٌ

يدعونَ إلى الصُّلح والإحسان ، ويأمرونَ بالتوحيد واتِّباع مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم وسائرِ الطَّاعات الواجبةِ ؛ { وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ } ؛ والشِّرْكِ وسائرِ ما لا يُعْرَفُ في شريعةٍ ولا سُنَّةٍ ، { وَأُوْلَائِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } ، أي النَّاجُونَ من السَّخَطِ والعذاب ، وإنَّما قال : { وَلْتَكُن مِّنْكُمْ } ولم يقُلْ : وليَكُن مِنْكُمْ جَمِيْعُكُمْ ؛ لأنَّ الأمرَ بالمعروف والنهيَ عنِ المنكر فَرْضٌ على الْكِفَايَةِ ، إذا قَامَ به البعضُ سَقَطَ عن الباقين ، ويجوزُ أن يكون المرادُ بالأُمَّةِ العلماءَ في هذه الآية الذين يُحْسِنُونَ ما يَدْعُونَ إليه.

وذهب بعضُ المفسِّرين الى أنَّ المعنى : ولتكونوا كُلُّكُمْ ، لكنْ (مِنْ) هُنا دخلت للتوكيدِ وتخصيصِ المخاطَبين من سائرِ الأجناسِ كما في قولهِ تعالى : { فَاجْتَنِبُواْ الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ }[الحج : ٣٠] أي فاجتنبوا الأوثانَ فإنَّها رجسٌ ؛ لا أنَّ المرادَ : فاجتنبوا بَعْضَ الأوثانِ دون بعضٍ ، واللامُ في { وَلْتَكُن } لامُ الأمرِ.

وقولهُ : { يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ } أي إلى الإسلامِ ، ثم النهيُ عن المنكرِ على مراتبٍ ؛ أوَّلُها : الوعظُ والتَّخويفُ ، فإن زالَ بذلكَ لم يَجُزْ للناهي أن يَتَعَدَّى عنهُ إلى غيره ما فوقَه ، ثم بالإيذاءِ والنِّعال ، ثم بالسَّوْطِ ، ثم بالسِّلاح والقتالِ ؛ لأن المقصودَ زوالُ المنكرِ.

فَأمَّا إذا كان النَّاهي عن المنكرِ خائفاً على نفسِه ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : " مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَراً فَلْيُغَيِّرْهُ بيَدِهِ ، فَإنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ ، فَإنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبقَلْبِهِ ؛ وَذَلِكَ أضْعَفُ الإيْمَانِ " وقالَ صلى الله عليه وسلم : " مَنْ أمَرَ بالْمَعْرُوفِ وَنَهَى عَنِ الْمُنْكَرِ فَهُوَ خَلِيْفَةُ اللهِ فِي أرَضِهِ ؛ وَخَلِيْفَةُ رَسُولِهِ ؛ وَخَلِيْفَةُ كِتَابِهِ " وقَالَ صلى الله عليه وسلم : " أُؤْمُرُوْا بالْمَعْرُوفِ وَإنْ لَمْ تَعْمَلُواْ بِهِ كُلِّهِ ، وَانْهَواْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَإنْ لَمْ تَنْتَهُواْ عَنْهُ كُلِّهُ "

وقال عليٌّ رضي الله عنه : (أفْضَلُ الْجِهَادِ الأَمْرُ بالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَشَنْأَنُ الْفَاسِقِيْنَ). وَقَالَ أبُو الدَّرْدَاءِ : (لَتَأْمُرُنَّ بالْمَعْرُوفِ وَتَنْهُوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ ؛ وإلاَّ لَيُسَلِّطَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً ظَالِماً لاَ يُجِلُّ كَبِيْرَكُمْ وَلاَ يَرْحَمُ صَغِيْرَكُمْ ، وَيَدْعُو أخْيَارُكُمْ فَلاَ يُسْتجَابُ لَهَمْ ؛ يَسْتَنْصِرُونَ فَلاَ يُنْصَرُونَ ؛ وَيَسْتَغْفِرُونَ فَلاَ يُغفَرُ لَكُمْ). وقال حذيفة : (يَأتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لأَنْ يَكُونَ فِيْهِمْ جِيْفَةُ حِمَار أحَبُّ إلَيْهِمْ مِنْ مُؤْمِنٍ يَأْمُرُهُمْ بالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ) ، وقال الثوريُّ : (إذا كَانَ الرَّجُلُ مَحْبُوباً فِي جِيْرَانِهِ مَحْمُوداً عِنْدَ إخْوَانِهِ ، فَاعْلَمْ أنَّهُ مُدَاهِنٌ).

(٠/٠)

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ } ؛ أي ولا تكونُوا كاليهودِ والنصارى الذين اختلفُوا فيما بينَهم وصارُوا فِرَقاً وشِيَعاً ، { مِن بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ } الكتابُ في أمرِ مُحمَّدٍ صلى الله عليه وسلم ؛ { وَأُوْلَائِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } ؛ على تفريقِهم واختلافِهم. قالَ بعضُهم : لاَ تَكُونُوا كالَّذِيْنَ تفرَّقوا واختلفُوا ، قال : وهُمُ الْمُبْتَدِعَةُ من هذه الأُمَّة.

ثم بَيَّنَ اللهُ تعالى وقتَ العذاب العظيم الذي يصيبُهم ؛ فقالَ تعالى : { يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ } ؛ معناهُ : (وَأُوْلَائِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ) وهو يومُ القيامةِ ، وانتصبَ على الظَّرف أي فِي يومِ. قرأ يحيى بن وثَّاب : (تِبْيَضُّ) (وَتِسْوَدُّ) بكسرِ التَّاء على لُغة تَميم. وقرأ الزهريُّ (تَبْيَاضُّ) و (تَسْوَادُّ).

ومعنى الآيةِ : تَبْيَضُّ وجوهُ المخلصينَ للهِ بالتوحيدِ ؛ أي تُشْرِقُ فتصيرُ كالثَّلج بَيَاضاً والشَّمس ضياءً ، وَتَسْوَدُّ وجوهُ الكفَّار والمنافقين من الْحُزْنِ حين يُدْعَوْنَ إلى السُّجودِ فلا يستطيعونَ. وعن ابنِ عبَّاس قال : (مَعْنَاهُ : يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهُ أهْلِ الْعِلْمِ وَالسُّنَّةِ ، وَتَسْوَدُّ وُجُوهُ أهْلِ الْبدْعَةِ). وقال بعضُهم : البياضُ مِنَ الوجوهِ إشْرَاقُهَا وَاسْتِبْشَارُهَا وسُرُورُهَا بعمَلِها وبثواب الله ، وَاسْودَادُهَا لِحُزْنِهَا وَكَآبَتِهَا وكُسُوفِهَا بعمَلِهَا وبعقاب ربها.

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ } ؛ جوابهُ محذوفٌ ؛ أي يقالُ لَهُم : { أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيْمَانِكُمْ } قيلَ : هم قومٌ من أهلِ الكتاب كانوا مصدِّقين بأنبيائِهم مصدِّقينَ بمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم قبلَ أن يُبعث ، فلما بُعِثَ كَفَرُوا به ، فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ }. وقيلَ : هم مَن كفرَ باللهِ يومَ الميثاقِ حين أُخْرِجُواْ من صُلْب آدَمَ عليه السلام. وقيل : هُمُ الخوارجُ وأهلُ البدَعِ كلِّها ، وقيل : هم أهْلُ الرِّدَّةِ.

(٠/٠)

وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٧)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } ؛ وهم المؤمنونَ الذين ابْيَضَّتْ وجوهُهم في الآخرةِ في جَنَّةِ اللهِ تعالى ، صارُوا إليها برحمتِه هم فيها مقيمون دائمون. وفي الآيةِ بيانُ أنَّ الجنَّةَ لا تُنَالُ إلاَّ برحمةِ الله وإنِ اجتهدَ الْمُجْتَهِدُ في طاعتهِ.

(٠/٠)

تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ (١٠٨)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ } ؛ أي هذه حُجَجُ اللهِ يَنْزِلُ بها جبريلُ عليه السلام فيقرأها عليكَ بالصدقِ ؛ { وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعَالَمِينَ } ؛ أي للجِنِّ والإنسِ.

(٠/٠)

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (١٠٩)

قوله عَزَّ وجَلَّ : { وَللَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ } ؛ مَعْنَاهُ : جميعُ ما في السَّموات والأرضِ من الخلقِ عبيدُ الله ومخلوقُه فلا يريدُ ظلمَهم ، فإنَّ مَن بَلَغَ غِنَاهُ هذا المبلغَ لا يحتاجُ إلى الظُّلم. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ } أي عواقبُ الأمور في الآخرةِ.

(٠/٠)

كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠)

قوله عزَّ وَجَلَّ : { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ } ؛ خطابٌ لأصحاب رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، وهوَ يَعُمُّ سَائِرَ أُمَّتِهِ. قال الحسنُ : (نَحْنُ آخِرُ الأُمَمِ وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللهِ). وقيل معنى { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ } أي كنتم في اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ ، وقيل : كنتم مُذْ كُنْتُمْ ، وقيلَ : الكافُ زائدةٌ ؛ أي أنْتُمْ خَيْرُ أمَّةٍ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ } أي بالتَّوحيدِ واتِّباعِ الشَّريعةِ ، { وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ } أي عن الشِّرْكِ والظُّلمِ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ } أي تُوَحِّدُونَ اللهَ تعالى بالإيْمان باللهِ وتصديقِ رُسُلِهِ وَرَسُولِهِ صلى الله عليه وسلم ؛ لأنَّ مَن كَفَرَ بالنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم لَمْ يُوَحِّدِ اللهَ تعالى ، ودليلُ هذا التأويلِ قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ } ؛ أي لو صَدَقَ اليهودُ والنصارى مع إيْمانِهم بالله

تعالى إيْمَانَهم بنَبيِّهِ صلى الله عليه وسلم لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ مِن الإقامةِ على دِينهم.
وعن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّهُ قَالَ : " أنْتُمْ تُتِمُّونَ عَلَى سَبْعِيْنَ أمَّةٍ ؛ أنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ " وقال صلى الله عليه وسلم : " أهْلُ الْجَنَّةِ عُشْرُونَ ومِائَةُ صَفٍّ ، ثَمَانُونَ مِنْهَا مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ " وقالَ صلى الله عليه وسلم : إنَّ الْجَنَّةَ مُحَرَّمَةٌ عَلَى الأُمَمِ حَتَّى تَدْخُلَهَا أُمَّتِيوقال صلى الله عليه وسلم : " أُمَّتِي أمَّةٌ مَرْحُومَةٌ ؛ إذا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أُعطِيَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ رَجُلاً مِنَ الْكُفَّارِ ؛ فَيُقَالُ لَهُ : هَذا فِدَاؤُكَ مِنَ النَّارِ "
وقيل لعيسَى عليه السلام : يَا رُوحَ اللهِ ؛ هَلْ بَعْدَ هَذِهِ الأُمَّةِ أُمَّةٌ ؟ قَالَ : نَعَمْ ؛ أُمَّةُ أحْمَدَ صلى الله عليه وسلم عُلَمَاءُ حُكَمَاءُ حُلَمَاءُ ؛ أبْرَار أتْقِيَاءُ كَأَنَّهُمْ مِنَ الْعِفَّةِ أنْبِيَاءُ ؛ يَرْضَوْنَ مِنَ اللهِ بالْيَسِيْرِ مِنَ الرِّزْقِ ؛ وَيَرْضَى اللهُ تَعَالَى مِنْهُمْ بالْيَسِيْرِ مِنَ الْعَمَلِ ؛ يُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ بِشَهَادَةِ أنْ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ.
قولُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ } ؛ يعني أهلَ الكتاب منهمُ المؤمنونَ عَبْدُاللهِ بْنُ سَلاَمَ وأَصحابُه ، وسائرُ من أسلمَ مِن أهلِ الكتاب. { وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ } ؛ أي الكافرونَ الخارجونَ عن أمرِ الله ، وهم الذين لَمْ يُسْلِمُواْ منهُم.

(٠/٠)

لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (١١١)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى } ؛ أي لن يَصِلُوا إلى ضَرَرِكُمْ أيُّهَا المسلمونَ إلاَّ أنْ يُؤذوكُم باللِّسان بقولِهم : عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ ؛ وَالْمَسِيْحُ ابْنُ اللهِ ؛ وَثَالِثُ ثَلاَثَةٍ ؛ وَالْبَهْتُ وَالتَّحْرِيْفُ. وقال مقاتلُ : (إنَّ رُؤَسَاءَ الْيَهُودِ : كَعْبُ بْنَ الأَشْرَفِ ؛ وَأَبُو رِافِعٍ ، وَأَبُو يَاسِرٍ ؛ وَابْنُ صُوريّا وَغَيْرُهُمْ عَمَدُواْ إلَى مُؤْمِنِيْهِمْ كَعَبْدِاللهِ ابْنِ سَلاَمٍ وَأَصْحَابِهِ فآذوْهُمْ لإسْلاَمِهِمْ ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ { لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى } أي باللِّسَانِ ؛ يَعْنِي وَعِيْداً وطَعْناً بأَلْسِنَتِهِمْ وَدُعَاءً إلَى الضَّلاَلَةِ وَكَلِمَةَ كُفْرٍ تَسْمَعُونَهَا مِنْهُمْ فَتَتَأَذوْنَ بهَا).
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ } ؛ أي يعطوكُم الأدبَارَ مُنْهَزِمِيْنَ ؛ يعني لا يَمْنعُكم أحدٌ من سَبْيكُمْ إيَّاهم وقتلِكُم نفوسَهم ، وقوله تعالى : { ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ } جوابُ الشرطِ ، إلاَّ أنهُ استئنافٌ لأجلِ رأسِ الآيِ ؛ لأنَّها على النونِ كقولهِ تعالى : { وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ }[المرسلات : ٣٦] وتقديره : ثُمَّ هُمْ لا يُنْصَرُونَ ، وقالَ في موضعٍ آخرَ : { لاَ يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ }[فاطر : ٣٦] إذ لم يكن رأسَ آيةٍ. قال الشاعرُ : أَلَمْ تَسْأَلِ الرَّبْعَ الْقَدِيمَ فَيَنْطِقُ .....أي فهو ينطق.

(٠/٠)

ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (١١٢)

قوله عزّ وَجَلَّ : { ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُواْ إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ } ؛ معناهُ : جُعِلَتْ عليهم مَذَلَّةُ القتلِ والسَّبي أينما وُجِدُوا أخِذُوا. قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ } أي إلاَّ أن يعتَصِمُوا بعهدِ اللهِ وهو الإسلامُ. وقوله : { وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ } أي عهدٍ وأمَانٍ وعقدِ ذِمَّةِ المسلمينَ عليهم ؛ يؤدُّون إليهم الخراجَ ليؤَمِّنوهُم. وفي الآيةِ اختصارٌ ؛ تقديرهُ : إلاَّ أنْ يَعْتَصِمُوا بحَبْلٍ مِن اللهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَبَآءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ } ؛ أي انصرَفُوا بغضبٍ ؛ أي اسْتَوْجَبُوهُ مِن اللهِ عَزَّ وَجَلَّ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ } ؛ أي جُعِلَ عليهم زيُّ الفقرِ والبُؤْسِ حتَّى صاروا من الذِّلَّةِ إلى ما لا يبلغُه أهلُ مِلَّةٍ بعدَ أن كانوا ذوي عِزٍّ ويَسَارٍ ومَنَعَةٍ ، فترى الرجلَ منهم عليه البُؤْسُ والمسكنةُ وأنه لَغَنِيٌّ ، ولم يبقَ لليهودِ منعةٌ في موضعٍ من المواضع.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنْبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذلِكَ بِمَا عَصَوْاْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ } ؛ أي ذلك الذُّلُّ والغضبُ عليهم من اللهِ بكفرِهم بُمَحمَّدٍ صلى الله عليه وسلم والقرآنِ ورضاهُم بقتلِ الأنبياء بغير حقٍّ وعصيانِهم ومجاوزاتِهم الحدَّ.

(٠/٠)

لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣)

قوله عزّ وَجَلَّ : { لَيْسُواْ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَآءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ } ؛ قال ابنُ عبَّاس ومقاتلُ : (لَمَّا أسْلَمَ عَبْدُاللهِ ابْنُ سَلاَمٍ ؛ وَثَعْلَبَةُ بْنُ سَعْيَةَ ؛ وَأُسَيْدُ بْنُ سَعْيَةَ ؛ وأسَدُ بْنُ عُبيدٍ وَمَنْ أسْلَمَ مِنَ الْيَهُودِ ؛ قَالَتْ أحْبَارُ الْيَهُودِ : مَا آمَنَ بُمحَمَّدٍ إلاَّ أشْرَارُنا ، لَوْ كَانُواْ مِنْ أخْيَارنَا مَا تَرَكُواْ دِيْنَ آبَائِهِمْ ، ثُمَّ قَالُواْ لَهُمْ : قَدْ خَسِرْتُمْ حِيْنَ اسْتَبدَلْتُمْ دِيْنَكُمْ بدِيْنٍ غَيْرِهِ. فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ).
وقيل : لَمَّا ذكرَ اللهُ في الآياتِ المتقدِّمة مَن آمَنَ مِن أهلِ الكتاب ، ومَن لَمْ يُؤْمِنْ. قال عَزَّ وَجَلَّ : {

لَيْسُواْ سَوَآءً } أي ليسَ الفريقانِ سواءً ، وهذا وَقْفٌ تَامٌّ ، ثم استأنفَ قولَهُ تعالى : { مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ } أي عادلةٌ مستقيمةٌ مهتديةٌ. وقال الأخفشُ : (ذُو أمَّةٍ قَائِمَةٍ ؛ أيْ ذِي طَرِيْقَةٍ قَائِمَةٍ) ، قال : (وَالأُمَّةُ الطَّرِيْقَةُ).

ومعنى قولهِ : { يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَآءَ اللَّيْلِ } يعني يَقْرَأونَ القرآنَ في ساعاتِ اللَّيْلِ ، { وَهُمْ يَسْجُدُونَ } أي وهُمْ يُصَلُّونَ ؛ لأنَّ القرآنَ لا يكونُ في السجودِ ، نظيرهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَهُ يَسْجُدُونَ }[الأعراف : ٢٠٦] أي يُصَلُّونَ ، وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُواْ لِلرَّحْمَانِ }[الفرقان : ٦٠] أي صَلُّواْ.

وإنَّما ذُكرت الصلواتُ باسمِ السجودِ ، لأن السجودَ نِهايةُ ما فيها من التواضُعِ. قال ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه : (أرَادَ بِهِ صَلاَةَ العَتْمَةِ). وقيل : أرادَ به ما بينَ المغرب والعشاءِ. واختلفَ النُّحاة في واحدِ الأنَا ؛ قال بعضهُم : أنَاءُ مِثْلُ مَعَاءُ وَأمْعَاء. وقال بعضهُم : إنِّي مثل نَحَى وأنْحَى.

وقال بعضُ المفسِّرين : في الآيةِ اختصارٌ وحَذْفٌ ؛ تقديرهُ : مِن أهلِ الكتاب أمةٌ قائمةٌ وأخرَى غيرُ قائمةٍ ، وتركَ الأخرى اكتفاءً بذكرِ أحدِ الفريقين ؛ قالوا : وهذا فعلٌ مجموع مقدَّمٌ كقولِهم : أكَلُوني الْبَرَاغِيْثُ ، وَذهَبُوا أصْحَابُكَ. وقال آخرونَ : تَمامُ الكلامِ عند قولِه { لَيْسُوا سَوَاءً } يعني المؤمنين والفاسقينَ ؛ لأن ذِكر الفريقين قد جرَى في قولِه : { مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ }[آل عمران : ١١٠]. ثم وَصَفَ الفاسقينَ فقال : { لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى }[آل عمران : ١١١] ، ووصفَ المؤمنين فقالَ { أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ } الآيةُ.

(٠/٠)

يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤)

قوله عزّ وَجَلَّ : { يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ } ؛ قال ابنُ عباس : (لَمَّا أسْلَمَ عَبْدُاللهِ بْنُ سَلاَمٍ وَمَنْ مَعَهُ ؛ قَالَتِ الْيَهُودُ : مَا آمَنَ بِمُحَمَّدٍ إلاَّ أشْرَارُنَا ، فَأنزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ ، إلاَّ أنَّها وَإنْ نَزَلَتْ فِيْهِمْ فَمِنْ حَقِّ كُلِّ مُسْلِمٍ أنْ يَكُونَ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ). ومعنى الآية : يُصدِّقُونَ باللهِ وبالبَعثِ بعدَ الموتِ. { وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ } ؛ أي باتِّباعِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم ، { وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ } ؛ أي عن اتِّباع الْجِبْتِ والطَّاغُوتِ ومخالفةِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ } ؛ أي يُبَادِرُونَ إلى الطاعاتِ والأعمَال الصالِحة ، { وَأُوْلَائِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ } ؛ أي مِن المؤمنين المخلصينَ وهم أبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وسائرُ الصحابةِ.

(٠/٠)

وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (١١٥)

قوله عزّ وَجَلَّ : { وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَروهُ } ؛ أي فلن تُجْحَدُوهُ ، يعني تُجْزَوْنَ به وتُثَابُونَ عليهِ. قرأ الأعمش ويحيى وحمزةُ والكسائيُّ وحفص وخلفُ : { وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَروهُ } بالياء فيهما إخباراً عن الأمَّة القائمةِ. وقيل : راجعٌ إلى قولهِ { الصَّالِحِينَ }. وقرأ الباقون بالتَّاء فيهما على الخطاب كقولهِ{ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ }[آل عمران : ١١٠]. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ } ؛ أي عالِمٌ بأعمالِهم وثواب أعمالِهم.

(٠/٠)

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١٦)

قوله عزّ وَجَلَّ : { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ مِّنَ اللَّهِ شَيْئاً } ؛ معناهُ : إنَّ الذين جَحَدُوا بمُحَمَّدٍ والقرآن لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أمْوَالُهُمْ وَلاَ أوْلاَدُهُمْ مِنْ عَذاب اللهِ شَيئاً ، { وَأُوْلَائِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } ؛ أي مُقِيْمُونَ دائمونَ.

(٠/٠)

مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٧)

قوله عزّ وَجَلَّ : { مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَاذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ } ؛ معناهُ : مَثَلُ ما ينفقُ اليهودُ في اليهوديَّة على رؤسائِهم وعلمَائهم ، وما ينفقُ أهلُ

الأوثانِ على أصنامِهم في تظاهُرهم على النبيِّ صلى الله عليه وسلم وإهلاكِهم مالَ أنفسِهم { كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا } بَرْدٌ شَدِيْدٌ. ويقال : الصِّرُّ : صَوْتُ لَهَب النَّار الَّتِي تُحْرِقُ الزَّرْعَ ، وقيل : الصَّرُّ : ريحٌ فيها صوتٌ ونارٌ.

قوله تعالى : { أصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ } أي زرعَ قومٍ ظَلَمُوا { أَنْفُسَهُمْ } بالكفرِ والمعصيةِ. ومنعِ حقِّ اللهِ عليهم { فَأَهْلَكَتْهُ } أي أحْرَقَتْهُ الريحُ فلم ينتفعوا منهُ بشيءٍ في الدُّنيا ، كذلك مَن ينفقُ في غيرِ طاعَة الله لا ينتفعُ بنفقتِهِ في الآخرَة ، كما لا ينتفعُ صاحبُ هذا الزَّرعِ مِن زَرْعِهِ في الدُّنيا. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ } ؛ بإهلاكِ زَرْعِهِمْ ؛ { وَلَـاكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } ؛ بمَنْعِ حقِّ الله فيه وكفرِهم ومعصيتهم.

(٠/٠)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨)

قوله عزّ وَجَلَّ : { ياأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً } ؛ نزلتِ الآيةُ في الأنصار ؛ كانوا قد ظَاهَرُوا اليهودَ حتى صارَ كأنَّ بينَهم نَسَباً ، وكانوا يواصلونَهم ويُعاطِفونَهم حتى كان الرجلُ من الأنصار يتزوَّج فيهم فيختارُهم على قومهِ ، فلما جَاءَ اللهُ بمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم والإسلامُ وآمَنَ الأنصارُ بغَضَهُمْ اليهودُ ، وكان الأنصارُ يُخالطونَهم ويُشاورونَهم ، كما كانوا يفعلونَ قبلَ الإسلام للرِّضاعة والمصاهرةِ التي كانت بينهم ، فنهَى اللهُ الأنصارَ بهذه الآيةِ وما بعدَها.

ومعناهَا : لا تتَّخِذُوا دَخَلاً من غيرِكم يعني اليهودَ. وبطَانَةُ الرَّجُلِ : خَاصَّتُهُ وأهلُ سِرِّهِ الذينَ يَسْتَبْطِنُونَ أمْرَهُ ، سُمُّوا بذلك على جهةِ التَّشَبُّهِ ببطانةِ الثَّوب التي تَلِي جِلْدَ الإنسان. وحرفُ (مِنْ) في قوله : { مِّن دُونِكُمْ } لِلتَّبْيِيْنِ ؛ أي لا تتَّخذوا الذينَ هم أسافلُ وأراذلُ بطَانَةً. قَوْلُهُ تَعَالَى : { لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً } أي لا يُبْقُونَ غايةً ، ولا يتركُونَ الجهدَ في إلقائِكم في الفسادِ ، يقالُ : مَا أَلَوْتُ فِي الْحَاجَةِ جُهْداً ؛ أي ما قَصَّرْتُ ، ونصبَ (خَبَالاً) على المفعول الثاني ؛ لأنه يتعدَّى إلى مفعولين ، وإن شئتَ على المصدر ، وإن شئتَ بنَزع الخافضِ ؛ أي بالْخَبَالِ. وَالْخَبَالُ : الْفَسَادُ ، ومثلهُ الْخَبَلُ أيضاً ؛ يقالُ : رَجُلٌ خَبَلُ الرَّأيِ ؛ فَاسِدُ الرَّأي ؛ والانْخِبَالُ : أي الْجُنُونُ. وقال مجاهدُ : (نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ مُؤْمِنِيْنَ كَانُوا يُصَافِحُونَ الْمُنَافِقِيْنَ ويُخَالِطُوهُمْ ؛ فَنَهَاهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ ذلِكَ).

قوله عزّ وَجَلَّ : { وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ } ؛ أي تَمَنُّوا إثْمَكُمْ وَضُرَّكُمْ وَهَلاَكَكُمْ ، والعَنَتُ في اللُّغة : الْمَشَقَّةُ ، يقالُ : أكَمَةٌ عَنُوتٌ ؛ أي طويلةٌ شاقَّةُ المسلَكِ. وقرأ عبدُالله : (قَدْ بَدَأ الْبَغْضَاءُ مِنْ أفْوَاهِهِمْ) بالتذكير ؛ لتقدُّم الفعلِ ؛ ولأن معنى الْبَغْضَاءِ : الْبُغْضَ. قوله تعالى : { قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ } ؛ أي قد

ظَهَرَتِ العداوةُ من ألسنَتِهم بالشَّتم والطَّعنِ ، { وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ } ؛ أي وما يُضْمِرُونَ في قلوبهم من القتلِ لو ظَفَّرُوا بكم أعْظَمُ مِمَّا أظهرُوا لكم. قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ } ؛ أي أخبرنَاكم بما أخْفَوا وأبْدَوا بالدلالاتِ والعلاَماتِ ، { إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ } ؛ الْعَدُوَّ مِنَ الْوَلِيِّ.

(٠/٠)

هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { هَآأَنْتُمْ أُوْلاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ } ؛ أي أنتُمْ يا هؤلاءِ المؤمنين تُحِبُّونَ اليهودَ الذين نَهَيْتُكُمْ عن مُبَاطَنَتِهِمْ للأسباب التي بينَكم من المصاهرةِ والرَّضاع والقرابَة والجِوار ، { وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ } لِمَا بينكم وبينَهم من مُخالفةِ الدينِ ، هذا قولُ أكثرِ المفسِّرين. وقَالَ بعضُهم : معناهُ : تُحِبُّونَهُمْ ؛ أي تريدون لَهُمُ الإسلامَ وهو خيرُ الأشياء ، ولا يُحِبُّونَكُمْ لأنَّهم يَدْعُونَكُمْ إلى الكُفْرِ وهو الْهَلاكُ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ } ؛ أي تؤمنونَ بالتَّوراةِ والانْجيل وسائرِ كُتُب اللهِ ، ولا يؤمنون هُم بذلك كُلِّهِ ، يعني لا يؤمنونَ بكتَابكُمْ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُواْ آمَنَّا } ؛ يعني مُنَافِقِي أهلِ الكتاب ، إذا لَقُوهُمْ قالُوا آمَنَّا بمُحَمَّدٍ أنهُ رَسُولٌ صَادِقٌ فيما يقولُ ، { وَإِذَا خَلَوْاْ } ؛ فِيْمَا بَيْنَهُمْ ؛ { عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ } ؛ أي أطرافَ الأصابعِ مِن الْحَنْقِ عليكُم لِمَا يرونَ من ائْتِلاَفِكُمْ وإصلاحِ ذاتِ بينِكم ، وهذا مثلٌ ضَرَبَهُ اللهُ لِشِدَّةِ عداوةِ اليهود للمؤمنينَ. وواحد الأنَامِلِ : أنْمُلَةٌ بفتحِ الميم وضمِّها. قَوْلُهُ تَعَالَى { قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ } ؛ ليسَ على طريقِ الإيجاب ؛ لأنه لو كانَ على طريق الإيجاب لَمَاتُواْ كُلُّهُمْ مِن ساعتِهم ، لكنَّ معناهُ : تَمُوتُونَ بغيظِكم ولا تبلغونَ أمَانِيَّكُمْ من قَهْرِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم وأصحابِهِ. قوله تعالى : { إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ } ؛ أي عالِمٌ بما في القلوب من البُغْضِ والعداوةِ وغير ذلك.
وفي الحديثِ عنِ النّبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّهُ قَالَ : " لاَ تَسْتَضِيْئُوا بنَار الْمُشْرِكِيْنَ " أي لا تَسْتَشِيْرُوا المشركينَ في شيءٍ من أمورِكُم.

(٠/٠)

إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا } ؛ قرأ السلمي : بالياءِ ، ومعنى الآيةِ : إنْ تُصِبْكُمْ أيُّها المؤمنون حَسَنَةٌ بظهُوركُم على عدوِّكم وغَلَبَتِكُمْ لَهُمْ أو الغنيمةِ والخصَب تَسُؤْهُمْ تِلْكَ الحسنةُ ؛ أي تُحْزِنُهُمْ ؛ يعني اليهودَ ، وإن تُصِبْكُمْ مِحْنَةٌ من جهةِ أعدَائكم ونَكْبَةٌ أو جَدْبٌ يُعْجَبُوا بها.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ } ؛ أي وإن تصبرُوا على أذى اليهود والمنافقين وتَتَّقُوا معصيةَ اللهِ وتَخافوا ربَّكم ، { لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً } ؛ أي لا يضرُّكم احتيالُهم لإيقاعِكم في الهلاكِ ، { إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ } ؛ أي أحاطَ عِلْمُهُ وقدرتُه بأعمالِكم وبأعمالِهم.

قرأ أبو عمرٍو وابنُ كثير : (لاَ يَضِرْكُمْ) بكسرِ الضَّاد والتخفيفِ ، وهو جَزْمٌ على جواب الجزاء. وقرأ الضحَّاك : (لاَ يَضُرْكُمْ) بالضمِّ وجزمِ الراء ؛ مِن ضَارَ يُضَارُ يَضُورُ. وذكرَ القُرَّاءُ عنِ الكَسَائِيِّ : أنَّهُ سَمِعَ بَعْضَ أهْلِ الْعَالِيَةِ يَقُولُ : لاَ يَنْفَعُنِي وَلاَ يَضُورُنِي. وقرأ الباقونَ بضمِّ الضادِ وتشديد الرَّاء : من ضَرَّ يَضِرُّ ضَرّاً. وفي رفعِ (يَضُرُّكُمْ) وجهان ؛ أحدُهما : أنهُ أرادَ الجزمَ ؛ وأصلهُ (يَضْرُرْكُمْ) فأُدغمتِ الراءُ في الراءِ ، ونُقلت ضمَّةُ الراء الأُولى إلى الضَّادِ ، وضُمَّت الراءُ الأخيرةُ اتِّباعاً لأقرب الحركات إليها وهي الضَّادُ طلباً للمشاكَلَةِ ، والوجهُ الثاني : أنَّ (لاَ) بمعنى (لَيْسَ) ، ويُضمر الفاءَ فيه ؛ تقديرهُ : وإنْ تَصْبرُوا فليسَ يَضُرُّكُمْ ، وَالضَّيْرُ وَالضَّرُّ وَالضَّرَرُ بمعنىً واحدٍ ؛ قال اللهُ تعالى : { قَالُواْ لاَ ضَيْرَ }[الشعراء : ٥٠] وقال : { وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ }[الاسراء : ٦٧]. وقَوْلُهُ تَعَالَى (إنَّ الله بمَا تعْمَلُونَ مُحِيطٌ) أي عالِمٌ. قرأ الحسنُ والأعمش بالتَّاء. وقرأ الباقون بالياءِ.

(٠/٠)

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٢١)

قوله عزَّ وَجَلَّ : { وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّىءُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } ؛ قال مجاهدُ والكلبيُّ : " غَدَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم مِنْ مَنْزِلِ عَائِشَةَ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْهِ إلَى أحُدٍ ، وَصَفَّ أصْحَابَهُ لِلْقِتَالِ كَمَا يَصُفُّهُمْ لِلصَّلاَةِ ، وَذَلِكَ أنَّ الْمُشْرِكِيْنَ نَزَلُواْ بِأُحُدٍ يَوْمَ الأَرْبِعَاءِ ، فَلَمَّا سَمِعَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم بنُزُولِهِمْ اسْتَشَارَ أصْحَابَهُ ؛ فَقَالَ أكْثَرُهُمْ : يَا رَسُولَ اللهِ ؛ أقِمْ بالْمَدِيْنَةِ

لاَ تَخْرُجْ إِلَيْهِمْ ، فَإِنْ أَقَامُواْ هُنَاكَ أَقَامُواْ فِي شَرِّ مَجْلِسٍ ، وَإِنْ دَخَلُواْ إِلَيْنَا قَاتَلَهُمُ الرِّجَالُ فِي وُجُوهِهِمْ وَرَمَاهُمُ النِّسَاءَ وَالصِّبْيَانُ بالْحِجَارَةِ مِنْ فَوْقِهِمْ وَرَجَعُواْ كَمَا جَاءُواْ ، فَأَعْجَبَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم هَذا الرَّأيَ. وَقَالَ : بَعْضُ الصَّحَابَةِ : يَا رَسُولَ اللهِ ؛ أَخْرُجْ بنَا إِلَى هَؤُلاَءِ الأَكْلَب لاَ يَرَوْنَ أَنَّهُ جَبُنَّا عَنْهُمْ وَضَعُفاً. وأَتَاهُ النُّعْمَانُ بْنُ مَالِكٍ الأَنْصَارِيُّ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ؛ لاَ تَحْرِمْنِي الْجَنَّةَ ، فَوَالَّذِي بَعَثَكَ بالْحَقِّ نَبيّاً لأَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ ، فَقَالَ لَهُ : " بِمَ ؟ " قَالَ : بأَنِّي أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنِّي لاَ أَفِرُّ مِنَ الزَّحْفِ ، فَقَالَ : " صَدَقْتَ " فَقُتِلَ يَوْمَئِذٍ شَهِيْداً ".

فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ فِي مَنَامِي أَنَّ فِي ذُبَابَةَ سَيْفِي ثَلَماً فأَوَّلْتُهَا هَزِيْمَةً ، ورأَيْتُ أَنِّي أَدْخُلُ يَدِي فِي دِرْعٍ حَصِيْنَةٍ فَأَوَّلْتُهَا الْمَدِيْنَةَ ، فَكَرِهْتُ الْخُرُوجَ إِلَيْهِمْ ، فَإِنْ رَأَيْتُمْ أَنْ تُقِيْمُوا بالْمَدِيْنَةِ وَتَدْعُوهُمْ ، فَإِنْ أَقَامُوا أَقَامُوا عَلَى شَرِّ مُقَامٍ ، وَإِنْ دَخَلُواْ المَدِيْنَةَ قَاتَلْنَاهُمْ فِيْهَا " وَكَانَ صلى الله عليه وسلم يُعْجِبُهُ أَنْ يَدْخُلُواْ الْمَدِيْنَةَ فَيُقَاتَلُواْ فِي الأَزِقَّةِ ، فَقَالَ رِجَالٌ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ مِمَّنْ فَاتَهُمْ يَوْمُ بَدْرٍ وَأَرادَ اللهُ لَهُمْ الشَّهَادَةَ يَوْمَ أُحُدٍ : أُخْرُجْ بنَا إِلَى أَعْدَائِنَا يَا رَسُولَ اللهِ ، فَكَرِهَ الْخُرُوجَ إِلَيْهِمْ وَأَمَرَ بتَبْوِئَةِ الْمَقَاعِدِ لِلْقِتَالِ إِلَى أَنْ يُوافِيَهُمُ الْمُشْرِكُونَ – وَالْمَقَاعِدُ هِيَ الْمَوَاطِنُ وَالأَمَاكِنُ – فَلَمْ يَزَالُواْ برَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَحُثُّونَهُ عَلَى لِقَائِهِمْ حَتَّى دَخَلَ بَيْتَهُ ، فَلَبسَ لأَمَتَهُ وَعَزَمَ عَلَى الْخُرُوجِ ، فَنَدِمَ الْمُسْلِمُونَ وَقَالُواْ : بئْسَمَا صَنَعْنَا ؛ نُشِيْرُ عَلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَالْوَحْيُ يَأْتِيْهِ ، فَقَامُواْ وَاعْتَذرُواْ إِلَيْهِ وَقَالُواْ : اصْنَعْ مَا رَأَيْتَ يَا رَسُولَ اللهِ ، فَقَالَ : " لاَ يَنْبَغِي لِنَبيٍّ أَنْ يَلْبَسَ لأَمَتَهُ فَيَضَعَهَا حَتَّى يُقَاتِلَ "

وكان قد أقامَ المشركون بأُحُدٍ يومَ الأربعاء والخميسِ ، فخرجَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يومَ الجمُعة بعدما صلَّى بأصحابِهِ الجمعةَ ، فأصبحَ بالشِّعَب مِن أُحُدٍ يومَ السبتِ من النِّصف من شَوَّالَ سنةَ ثلاثٍ من الهجرةِ ، وكان مِنْ أمرِ حرب أُحُدٍ ما كانَ ؛ فذلك قولهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّىءُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ } أي واذكُر إذ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ ؛ مِنْ عِنْدِ أَهْلِكَ من المدينةِ تُهَيِّئُ للمؤمنينَ مواضعَ للحربِ لقتالِ المشركين يومَ أُحُدٍ. وقال الحسنُ : (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي يَوْمِ الأَحْزَاب ؛ الأَكْلَبُ : مَوْضِعٌ مِنْهَا قَرِيْبٌ مِنَ الْمَدِيْنَةِ).

(٠/٠)

إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٢٢)

قوله عزَّ وَجَلَّ : { إِذْ هَمَّتْ طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلاَ وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا } ؛ أي أن تَجْبَنَا وَتَضْعَفَا وَيَتَخَلَّفَا عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وهم : بَنُو سَلَمَةَ من الخزرَجِ ؛ وبَنُو حارثةَ من الأوسِ ، وكانوا جَنَاحَي

العسكَرِ ، وذلكَ أنَّ رَسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم خرجَ إلى أحُدٍ في ألفِ رجلٍ ، وقيل : في تسعَمائةٍ وخمسينَ رجُلاً ، وقد وَعَدَ أصحابَهُ بالنصرِ والفتحِ إنْ صبرُوا ، فلمَّا بلغُوا إلى بعضِ الطريق اعتزلَ عبدُالله بنُ أبي سَلولٍ بثُلُثِ الناسِ ورجعَ بهم ، فرجعَ في ثلاثِمائةٍ ؛ وقال : عَلاَمَ نَقْتُلُ أولادَنا وأنفسَنا ، فَتَبعَهُمْ أبو جابرُ وقالَ : أنْشُدُكُمْ اللهَ في نبيِّكم وأنفسِكم ، فقال عبدُالله : لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاتَّبَعنَاكُمْ ، وَهَمَّتْ بَنُو سَلَمَةَ وَبَنُو حَارثَةَ بالإنصرافِ معهُ ، فَعَصَمَهُمْ اللهُ تعالى ولم ينصرفُوا ، ومَضَوا مع رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وَثَبَّتَ اللهُ قلوبَهما فلم يرجِعَا ، فذكَّرَهم اللهُ تعالى عظيمَ نِعمَتِهِ فقالَ : { إِذْ هَمَّتْ طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلاَ وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا } أي حافِظُهما وناصرُهما.

وقرأ ابن مسعود : (وَلِيُّهُمْ) ؛ لأنَّ الطائفةَ جمعٌ كقولهِ تعالى : { هَاذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمْ }[الحج : ١٩] ، { وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ } ؛ في أمورهم. قال جابرُ بن عبدِالله : (وَاللهِ مَا سَرَّنَا أنَّا لَمْ نَهُمَّ بالّذِي هَمَمْنَا بهِ ؛ وَلَقَدْ أخْبَرَنَا اللهُ تَعَالَى أنَّهُ وَلِيُّنَا).

(٠/٠)

وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣)

قوله عزَّ وَجَلَّ : { وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ }. بَدْرٌ : اسمُ موضعٍ بين مكَّةَ والمدينةِ وهو من بلاَدِ غَفَار ، كان وقعةُ بدر أوَّلَ قِتَالٍ قاتلَهُ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم بنفسِه ، وجملةُ مغازي رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ستةٌ وعشرونَ غَزْوَةٍ ، وكان غزوةُ بدر الخامسةَ منهُنَّ ؛ قاتلَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في أحدَ عشرَ غزوةٍ منهُنَّ بَدْرٌ الكبرَى ؛ وأحُدُ ؛ والخندقُ ، وغزوةُ بني قُرِيظَةَ ؛ وغزوةُ بني الْمُصْطَلِقِ ؛ وغزوةُ بني لَحْيَانَ ؛ وخيبرُ والفتحُ ؛ وحُنَيْنُ ؛ والطائفُ ؛ وتَبُوكُ.

فأمَّا بدرٌ الكبرى فكانت يومَ الجمُعة السابعَ عشرَ من رمضانَ سنة اثنتين مِن الهجرةِ على رأسِ تسعةَ عشرَ شهراً من هجرةِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم. وغزوةُ أُحدٍ في شوَّالَ سنةَ ثلاثٍ ، والخندقُ وبني قُرِيظةَ في شوَّال سنةَ أربعٍ ، وبني الْمَصْطَلِقِ وبني لَحْيَانَ في شعبانَ سنةَ خمسٍ ، وخيبرُ سنةَ سِتٍّ ، والفتحُ في رمضانَ سنة ثَمانٍ ، وحُنين والطائفُ في شوَّال سنة ثَمانٍ. فأوَّلُ غزوةٍ غزَاها بنفسهِ وقاتلَ فيها بدرٌ الكبرى ، وآخِرُها تبوكُ ، وكانت سَرَايَاهُ سِتّاً وثلاثينَ سَرِيَّةً.

ومعنى الآيةِ : { وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ } وأنتم قليلٌ في العددِ ، وذلكَ أنَّ المسلمين كانوا ثلاثَمائةٍ وثلاثةَ عشرَ رجُلاً ، كان المهاجرون منهم سبعةً وسبعين ، ومن الأنصار مائتين وستَّة وثلاثين ، وكان عليٌّ رضي الله عنه صاحبَ رايةِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، وسعدُ بن معاذٍ صاحبَ راية

الأنصار ، وكان عددُ الكفَّار تسعَمائة ونيِّفاً. قوله عَزَّ وَجَلَّ : { فَاتَّقُواْ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } ؛ أي أطيعوهُ فيما يأمرُكم لتقوموا بشُكرِ النِّعَمِ التي أنعمَها اللهُ عليكم.

(٠/٠)

إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ (١٢٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاَثَةِ ءَالاَفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُنزَلِينَ } ؛ وذلك أنَّ أصحابَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم كانوا يومَ أحُدٍ بعدَ انصرافِ عبدِالله بن أبي سلولٍ بثُلُثِ الناسِ : سَبْعَمِائَةٍ ؛ وكان المشركونَ ثلاثةَ آلافٍ ، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : " أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بثَلاَثَةِ آلاَفٍ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ مُنْزَلِيْنَ مِنَ السَّمَاءِ " قرأ الحسنُ ومجاهد وابنُ عامر (مُنَزَّلِيْنَ) بالتشديدِ ، وقرأ الباقونَ بالتخفيفِ.

(٠/٠)

بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَاذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ ءَالاَفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ } ؛ معنى قولهِ : (بَلَى) تصديقٌ لوعدِ اللهِ تعالى ، وقولِ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، { تَصْبِرُواْ } لعدوِّكم مع نبيِّكم { وَتَتَّقُواْ } مخالفَتَهُ { وَيَأْتُوكُمْ } أهلُ مكَّة مِن وجههم هذا ؛ { يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ ءَالاَفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ } أي مُعَلَّمِين بالصوفِ الأبيَضِ ، وقيل : بالأحمرِ في نواصِي الخيلِ وأذنابها ؛ أي بيّن لَهُمْ مِنَ السَّماء مُعَلَّمِيْنَ بهذه العلامةِ. ويجوزُ أن يكون معنى (مُسَوَّمِينَ) مُرْسَلِيْنَ من الإسَامَةِ وهيَ الإرسالُ. ومن قرأ (مُسَوِّمِيْنَ) بكسر الواو فلأنَّهم سَوَّمُوا خيولَهم. وقد رويَ عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أنهُ قالَ لأصحابهِ يومَ أحُدٍ : " تَسَوَّمُواْ ؛ فَإنَّ الْمَلاَئِكَةَ قَدْ تَسَوَّمَتْ بالصُّوفِ الأَبْيَضِ فِي قَلاَنِسِهِمْ وَمَغَافِرِهِمْ " وقال قتادةُ : (كَانَ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ يَوْمَ بَدْر سِيْمَاءُ الْقِتَالِ ، وَكَانُواْ عَلَى خَيْلٍ بُلْقٍ). وقال ابنُ عبَّاس : (كَانَتْ يَوْمَ بَدْر سِيْمَاءُ الْمَلاَئِكَةِ عَمَائِمَ بيْضٍ مَرْخِيَّةٍ عَلَى أكْتَافِهِمْ) ، قالَ : (وَلَمْ يَصْبرِ الْمُؤْمِنُونَ يَوْمَ أحُدٍ لِلْقِتَالِ إلاَّ قَلِيْلٌ مِنْهُمْ ، وَلَوْ صَبَرُواْ لَنَزَلَتْ عَلَيْهِمُ

الْمَلاَئِكَةُ وَأَتَاهُمْ مَا وَعَدَهُمُ اللهُ ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَصْبِرُواْ ، فَلَمْ تَنْزِلْ عَلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةُ). قرأ ابنُ كثير وأبو عمرٍو وعاصمُ : (مُسَوِّمِيْنَ) بكسر الواو ، وقرأ الباقونَ بالفتحِ.

(٠/٠)

وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ } ؛ أي ما جعلَ اللهُ إمدادَكم بالملائكةِ إلاّ بشارةً لكم ؛ ولتطمئِنَّ قلوبُكم بهِ ، فلا تَجْزَعْ من كثرةِ عددِهم وقلَّة عددِكم حتى تَثْبُتُوا لأعدائِكم.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ } ؛ أي وإنْ أمدَّكم بالملائكةِ وقوَّى قلوبَكم ، فليسَ النصرُ لكثرةِ العدد وقِلَّتِهِ ، ولكنَّهُ { مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ } أي الْمَنِيْعِ في سُلْطَانِهِ ، الْحَكِيمِ في أمْرِهِ.
وفي الآيةِ بيانُ أنَّ الإنسانَ لا يستغني في حالٍ من الأحوالِ عن الله وإنْ كَثُرَ عددُه واجتمعَ مالُه. قال ابنُ عبَّاس : (إِنَّ الْمَلاَئِكَةَ لَمْ يُبَاشِرُواْ الْقِتَالَ إِلاَّ يَوْمَ بَدْرٍ ، فَأَمَّا مَا سِوَى ذلِكَ فَإِنَّهَا تَحْضُرُ الصَّفَّ وَتُكَثِّرُهُ وَلاَ تُقَاتِلُ). وقال بعضُ المفسِّرين : إنَّ الملائكةَ لم تقاتلْ أصلاً وَلَمْ يُبْعَثُوا إلاّ بالبشَارَةِ ، فلو بَعَثُوا للقتالِ لكانَ ملكٌ واحدٌ يكفيهم ، كما فَعَلَ جبريلُ عليه السلام يومَ لُوطٍ. وقال بعضُهم : إنَّ الملائكةَ كانت تقاتلُ وكان علامةُ ضربهم اشتعالُ النَّار في موضعِ ضربهم ، واللهُ أعلمُ.

(٠/٠)

لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ (١٢٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ } ؛ معناهُ : ينصرَكم ليقتلَ ويستأسِرَ جماعةً من الذينَ كفرُوا بنقضِهم ذلكَ أو بهَزْمِهِمْ ، { فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ } ؛ أي فيرجعوا مُنْقَلِبِيْنَ مُنْقَطِعِيْنَ عن آمالِهم.
وَالْكَبْتُ : هو الْوَهَنُ في القلب ، ويُصْرَعُ المرءُ على وجههِ لأجله. ونظمُ الآيةِ : ولقد نصرَكُم اللهُ ببدرٍ { لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ } أي لكي يُهْلِكَ طائفةً من الذين كفرُوا. وقال السُّدِّيُّ : معناهُ : (لِيَهْدِمَ رُكْناً مِنْ أرْكَانِ الْمُشْرِكِيْنَ بالْقَتْلِ وَالأَسْرِ ، فَقُتِلَ مِنْ سَادَاتِهِمْ يَوْمَ بَدْرٍ سَبْعُونَ وَأُسِرَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ).
وقَوْلُهُ تَعَالَى : { فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ } أي لَمْ ينالُوا شيئاً مِمَّا كانوا يرجُون من الظَّفَرِ بكم. وقَوْلُهُ تَعَالَى { أَوْ

يَكْبِتَهُمْ } قال الكلبيُّ : (أوْ يَهْزِمَهُمْ) ، وقال النَّضِرُ بن شُميل : (يُغِيْظَهُمْ). وقال السديُّ : (يَلْعَنَهُمْ). وقال أبو عُبيدة : (يُهْلِكَهُمْ). وقُرئ في الشَّاذِّ : (أوْ يَكْبدَهُمْ) ، يقال : كَبَدَهُ ؛ إذا رَمَاهُ فأصاب كَبدَهُ ، والْمَكْبُودُ : الْمُتَلَهِّفُ.

(٠/٠)

لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (١٢٨)

قوله عزَّ وَجَلَّ : { لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ } ؛ وذلك أنهُ لَمَّا شُجَّ النبي صلى الله عليه وسلم يَوْمَ أُحُدٍ وكُسِرَتْ رَبَاعِيَّتُهُ ، وَقُتِلَ سبعونَ من أصحابهِ ، جعلَ يَمْسَحُ الدَّمَ عن وجههِ وهو يقول : "كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ فَعَلُواْ هَذا بنَبيِّهِمْ ، وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى رَبِهِمْ " وَهَمَّ أن يلعنَهم ويلعنَ الذين انصرفُوا مع عبدِالله بن أبي سَلولٍ ، فأنزلَ اللهُ هذه الآيةِ ينهَاهُ عن اللَّعْنِ ، وبَيَّنَ أنَّ فَلاحهُم ليسَ إليه وأنه ليسَ له من الأمرِ شيءٌ إلاّ أن يُبَلِّغَ الرسالةَ ويُجاهدَ حتى يظهرَ الدينُ.

قال عكرمةُ وقتادة : " أدْمَى رَجُلٌ مِنْ هُذيْلٍ يُقَالُ لَهُ عَبْدُاللهِ بْنُ قَمِئَةَ وَجْهَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَوْمَ أُحُدٍ ؛ فَدَعَا عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَسَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِ تَيْساً فَنَطَحَهُ حَتَّى قَتَلَهُ.

وَشَجَّ عُتْبَةُ بْنُ أبي وَقَّاصٍ وَجْهَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَكَسَرَ رُبَاعِيَّتَهُ ؛ فَدَعَا رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم عَلَيْهِ فَقَالَ : " اللَّهُمَّ لاَ يَحُولُ عَلَيْهِ الْحَوْلُ حَتَّى يَمُوتَ كَافِراً " قَالَ : فَمَا حَالَ عَلَيْهِ الْحَوْلُ حَتَّى مَاتَ كَافِراً " ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ.

وقال الكلبيُّ : (لَمَّا شُجَّ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَوْمَ أحُدٍ وَأصِيْبَتْ رُبَاعِيَّتُهُ ؛ هَمَّ أنْ يَلْعَنَ الْمُشْرِكِيْنَ وَيَدْعُو عَلَيْهِمْ ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ لِعِلْمِهِ أنَّ كَثِيْراً مِنْهُمْ سَيَتُوبُونَ). يدلُّ عليهِ ما روَى أنسُ أنه قالَ : لَمَّا كَانَ يَوْمَ أحُدٍ شُجَّ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم فِي قَرْنِ حَاجِبِهِ ، وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَّتُهُ ، وَجُرِحَ فِي وَجْهِهِ ، فَجَعَلَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ ، وَسَالِمُ مَوْلَى أبي حُذَيْفَةَ يَغْسِلُ عَنْ وَجْهِهِ الدَّمَ وَرَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ : "كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ خَضَّبُواْ وَجْهَ نَبيِّهِمْ بالدَّمِ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى رَبِهِمْ " فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ.

وقال سعيدُ بن المسيَّب : لَمَّا قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَى مَنْ أدْمَى وَجْهَ نَبيِّهِ وَعَلَتْ عَالِيَةٌ مِنْ قُرَيْشٍ عَلَى الْجَبَلِ ، فَقَالَ عليه السلام : " لاَ يَنْبَغِي لَهُمْ أنْ يَعْلُونَا " فَأَقْبَلَ عُمَرُ رضي الله عنه وَرَهْطٌ مِنَ الأَنْصَار حَتَّى أهْبَطُوهُمْ مِنَ الْجَبَلِ ، وَنَهَضَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم إِلَى صَخْرَةٍ لِيَعْلُوهَا وَقَدْ ظَاهَرَ بَيْنَ دِرْعَيْنِ فَلَمْ يَسْتَطِعْ ، فَجَلَسَ تَحْتَهُ طَلْحَةُ ، فَنَهَضَ حَتَّى اسْتَوَى عَلَيْهَا ، فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " أوْجَبَ طَلْحَةُ ".

وَوَقَفَتْ هِنْدُ وَالنِّسْوَةُ اللاَّتِي مَعَهَا يُمَثِّلْنَ بالْقَتْلَى مِنْ أصْحَاب رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَجْدَعْنَ الآذانَ وَالأُنُوفَ حَتَّى اتَّخَذتْ هِنْدُ مِنْ ذلِكَ قَلاَئِدَ وَأعْطَتْهَا وَحْشِيّاً ، وَبَقَرَتْ عَنْ كَبِدِ حَمْزَةَ رضي الله عنه فَلاَكَتْهَا ؛ فَلَمْ تَسْتَطِعْ فَلَفَظَتْهَا ثُمَّ عَلَتْ صَخْرَةً مُشْرِفَةً ؛ فَصَرَخَتْ ثُمَّ قَالَتْ :

(٠/٠)

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢٩)

قوله عزَّ وَجَلَّ : { وَللَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ } ؛ أي لهُ جميعُ ما فيهم من الخلائقِ ؛ كلُّهم عبادُ الله وفي مُلْكِهِ ، { يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ } ؛ على الذنب الصغير إذا أصرَّ على ذلكَ ، { وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ } ؛ في قَبولِ توبَتهم ، وتأخيرِ العذاب عنهم ، وإنَّما ختمَ الله هذه الصفةَ بالمغفرةِ والرحمةِ ؛ لأنه وإنْ كان على التعذيب قادراً ، لكن الغالبُ على أمرهِ ما يريدُ بخَلْقِهِ الرحمةُ والمغفرةُ.

(٠/٠)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٣٠)

قوله عزَّ وَجَلَّ : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ الرِّبَاواْ أَضْعَافاً مُّضَاعَفَةً } قال ابنُ عبَّاس : (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي أَهْلِ الطَّائِفِ ، كَانَتْ بَنُو الْمُغِيْرَةِ يَرْبُونَ لَهُمْ ، فإذا حَلَّ الأجَلُ وَعَجَزُواْ عَنْ ذلِكَ ، زَادُواْ فِي الْمَالِ ، وَازْدَادُواْ فِي الأَجَلِ ؛ فَنَهَاهُمْ اللهُ عَنْ ذلِكَ). ومعنى { مُّضَاعَفَةً } : هو أنَّ الرجلَ إذا كان لهُ على آخَرَ مالٌ ، فإذا حلَّ الأجلُ طالبَه به فيعجزُ عنه ، فيقولُ المطلوبُ : أخِّرْ عنِّي وأزيدُكَ في مالِكَ ، فيفعلانِ ذلكَ ؛ فنهاهُم اللهُ عنه. ومعنى { أَضْعَافاً } : لا تأْكُلُوا أضعافَ ما أوْتِيتُمُوهُ ؛ أي لا تأخذُوا إلاّ الْمِثْلَ. ومعنى { مُّضَاعَفَةً } : لا تُضَعِّفُوا المالَ بالزيادةِ في الأجلِ.

وقولهُ : { وَاتَّقُواْ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } ؛ أي اتقُوا اللهَ في الرِّبا ، ولا تستحلُّوه لكي تَنْجُوا من العذاب في الآخرةِ ، ثم صارَت هذه الآيةُ عامَّةً في جميعِ الناسِ ، وإنَّما أعادَ اللهُ تحريْمَ الرِّبا بعدَ ما ذكرهُ في سورةِ البقرة لتأكيدِ التحريْمِ بتصريحِ النَّهي عنهُ ، ويجوزُ أن يكونَ المرادُ في سورةِ البقرة : ربَا النَّسِيْئَةِ ؛ وهنا ربا الْفَضْلِ.

(٠/٠)

وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (١٣١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ } ؛ أي اخْشَوا النارَ في أكلِ الرِّبا التي خُلِقَتْ للكافرينَ باللهِ ، وبتحريم الربا. فإنْ قيلَ : إذا كانَتِ النارُ معدَّةً للكافرينَ ؛ فكيفَ يُعَذِّبُ بها غيرِ الكافرين ؟ قيل : فائدةُ تخصيصِ الكافرينَ بالذِّكر ؛ لأنَّهم همُ العمدةُ في إعدادِ النار لَهم وقد يدخلُها غيرُ الكافرينَ على طريقِ التَّبَعِ ، كما قال في الجنَّة{ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ }[آل عمران : ١٣٣] وإن كانَ الأطفالُ والمجانينُ يدخلونَها تَبَعاً للمتقينَ. وقيل : معناهُ : واتَّقوا النارَ في استحلالِ الرِّبا ، فإنَّ مَن استحلَّهُ فهو كافرٌ.

(٠/٠)

وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢) وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } ؛ أي أطيعُوا اللهَ ورسولَهُ في تحريْمِ الرِّبا لكي تُرحموا فلا تُعذبوا. قوله عزَّ وَجَلَّ : { وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ } ؛ معناهُ بادِرُوا إلى ما يوجبُ لكم مغفرةً من ربكم وهو التوبةُ. وقال ابنُ عبَّاس : (الإسْلاَمُ). وقال أبو العاليةِ : (مَعْنَاهُ : سَارِعُواْ إِلَى الْهِجْرَةِ). وقال عليٌّ رضي الله عنه : (إِلَى أَدَاءِ الْفَرَائِضِ). وقال عثمانُ بن عفَّان رضي الله عنه : (إِلَى الإِخْلاَصِ) وقال أنسُ : (إِلَى التَّكْبِيْرَةِ الأُوْلَى). وقال سعيدُ بن جبير : (إِلَى أَدَاءِ الطَّاعَةِ). وقال الضحَّاك : (إِلَى الْجِهَادِ). وقال عكرمةُ : (إِلَى التَّوْبَةِ). وقال الورَّاق : (إِلَى ائْتِمَار الأَوَامِرِ وَالإِنْتِهَاءِ عَنِ الزَّوَاجِرِ). وقال سهلُ بن عبدِالله : (إِلَى السُّنَّةِ). وقال بعضُهم : إلى الصلواتِ الْخَمْسِ. وقال بعضُهم : إلى الجمعةِ والجماعَات. قرأ نافعُ وابن عامرٍ : (سَارِعُواْ) بحذفِ الواو على سبيل الابتداءِ لا على سبيلِ العطف.

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (الْجِنَانُ أَرْبَعٌ : جَنَّةُ عَدْنٍ وَهِيَ الْعُلْيَا ، وَجَنَّةُ الْمَأْوَى ، وَجَنَّةُ الْفِرْدَوْسِ ، وَجَنَّةُ النَّعِيْمِ ، ثُمَّ فِي كُلِّ جَنَّةٍ مِنْهَا جَنَّاتٌ عَدَدُ نُجُومِ السَّمَاءِ ،

قَطْرُ الْمَطَرِ كُلُّ جَنَّةٍ مِنْهَا فِي الْعَرْضِ وَالسِّعَةِ لَوْ أُلْصِقَتِ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُونَ السَّبْعُ بَعْضُهُنَّ بَبْعضٍ لَكَانَتِ الْجَنَّةُ الْوَاحِدَةُ أعْرَضَ مِنْهَا).

وإنَّما خصَّ العَرْضَ على المبالغة لأنَّ طولَ كلِّ شيء في الغالب أكثرُ من عرضهِ ، يقول : هذه صفةُ عرضِها فكيفَ طولُها! يدلُّ عليه قولُ الزهريِّ : (إنَّمَا وَصَفَ عَرْضَهَا ، فَأَمَّا طُولُهَا فَلاَ يَعْلَمُهُ إلاَّ اللهُ).

وهذا مثلُ قولهِ تعالى : { عَلَى فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ }[الرحمن : ٥٤] فوصفَ البطَانَةَ بأحسنَ ما يُعْلَمُ من الزينةِ ، إذِ معلومٌ أن الظواهرَ تكون أحسنَ وأنفَسَ مِنَ البطائنِ.

وقال بعضُ المفسِّرين : ليسَ المرادُ بهذه الآيةِ التقديرُ ، لكنَّ المرادَ بها أوسعَ شيءٍ رأيتمُوه. قال إسماعيلُ السُّدِّيُّ : (لَوْ كُسِّرَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَصِرْنَ خَرْدَلاً كَانَ بِكُلِّ خَرْدَلَةٍ للهِ تَعَالَى عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ } ؛ أي خُلِقَتْ للمتقينَ الشِّرْكَ والمعاصِي ، فإن قيلَ : إذا كانتِ الجنَّةُ عرضُها السَّمواتُ والأرضُ ، فأينَ النارُ ؟ قيل : إن اللهَ خلقَ الجنة عاليَةً ، والنارَ سَافِلَةً ، والشيئانِ إذا كان أحدُهما عالياً والآخرُ سَافِلاً لا يَمتنعان ؛ لأنَّهما يوجدان في مكانَين متغايرَين. وروي أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم سُئِلَ عَنْ هَذا السُّؤَالِ فَقَالَ : " سُبْحَانَ اللهِ! إذا جَاءَ النَّهَارُ فَأَيْنَ اللَّيْلُ "

(٠/٠)

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّآءِ وَالضَّرَّآءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ } ؛ أول هذه الآيةِ نعتٌ للمتقينَ ، ومعناها : الذين يتصدَّقون في حال اليُسْرِ والعُسْرِ والضرَّاءِ والشدَّة والرخَاءِ ، يعني أنَّهم يُنْفِقُونَ على الدَّوام لا يَمْنَعُهُمْ قلةُ المالِ ولا كَثْرَتُهُ عن الإنفاقِ ، فأولُ ما ذَكَرَ اللهُ من أخلاقِ المتقينَ الموجبةِ لَهم الجنةَ : السَّخَاءُ ؛ قال صلى الله عليه وسلم : " الْجَنَّةُ دَارُ الأَسْخِيَاءِ ، وَالسَّخِيُّ قَرِيْبٌ مِنَ اللهِ ؛ قَرِيْبٌ مِنَ الْجَنَّةِ ؛ بَعِيْدٌ مِنَ النَّار ، وَالْبَخِيْلُ بَعِيْدٌ مِنَ اللهِ ؛ بَعِيْدٌ مِنَ الْجَنَّةِ ؛ قَرِيْبٌ مِنَ النَّار. وَالْجَاهِلُ السَّخِيُّ أحَبُّ إلَى اللهِ مِنَ الْعَالِمِ الْبَخِيْلِ "

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ } أي الكافينَ غَيْظَهُمْ عن إمضائهِ ، يردُّون غيظَهم في أجوافِهم ويصبرون ، وَالْكَظْمُ : الْحَبْسُ وَالشَّدُّ ، يقالُ : كَظَمْتُ الْقِرْبَةَ ؛ إذا مَلأْتُهَا ثُمَّ شَدَدْتُ رَأْسَهَا عَلَى الإمْتِلاَءِ. وَالْغَيْظُ : هُوَ انْتِفَاضُ الطَّبْعِ مَا يَكْرَهُهُ ، ولِهذا لا يجوزُ الغيظُ على اللهِ وإن كان يجوزُ عليه الغضبُ ؛ لأنَّ الغضبَ هو إرادةُ العقاب.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ } معناهُ : الذين يَعْفُونَ عنِ المذنبينَ من الأحرار والمملوكين. وقد

رُوِيَ عن رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم أنهُ قالَ : " مَنْ كَظَمَ غَيْظاً وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى أنْ يُنْفِذهُ فَلَمْ يُنْفِذْهُ ؛ زَوَّجَهُ اللهُ مِنْ الْحُور الْعِيْنِ حَيْثُ شَاءَ ، وَمَا عَفَا رَجُلٌ عَنْ مَظْلَمَةٍ إلاَّ زَادَهُ اللهُ بهَا عِزّاً ، وَلاَ نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مَالاً قَطُّ ؛ فَتَصَدَّقُواْ ، وَلاَ فَتَحَ رَجُلٌ عَلَى نَفْسِهِ بَابَ مَسْأَلَةٍ إلاَّ فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ بَابَ فَقْرٍ ، وأَعْظَمُ النَّاسِ عَفْواً مَنْ عَفَا عَنْ قُدْرَةٍ "

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } ؛ أي يُثْنِي على المحسنينَ إلى الناسِ ، ويرضَى عملَهم. قال عِيْسَى عليه السلام : لَيْسَ الأَحْسَنُ أنْ تُحْسِنَ إلَى مَنْ أحْسَنَ إلَيْكَ ، ذاكَ مُكَافَأَةٌ! إنَّمَا الأَحْسَنُ أنْ تُحْسِنَ إلَى مَنْ أَسَاءَ إلَيْكَ. وعن أبي هُريرة رضي الله عنه : " أنَّ أبَا بَكْرٍ رضي الله عنه كَانَ مَعَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فِي مَجْلِسٍ ، فَجَاءَ رَجُلٌ ؛ فَكَانَ يَشْتِمُ أبَا بَكْرٍ وَهُوَ سَاكِتٌ وَالنَّبيُّ صلى الله عليه وسلم يَتَبَسَّمُ ، ثُمَّ رَدَّ أَبُو بَكْرٍ عَلَى الرَّجُلِ بَعْضَ الَّذِي قَالَ ، فَغَضِبَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَقَامَ ، فَلَحِقَهُ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ؛ شَتَمَنِي وَأَنْتَ تَبْتَسِمُ ، فَلَمَّا رَدَدْتُ عَلَيْهِ بَعْضَ قَوْلِهِ غَضِبْتَ وَقُمْتَ؟! فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " إنَّكَ حِيْنَ كُنْتَ سَاكِتاً كَانَ مَعَكَ مَلَكٌ يَرُدُّ عَلَيْهِ ، فَلَمَّا تَكَلَّمْتَ وَقَعَ الشَّيْطَانُ ، فَلَمْ أَكُنْ لأَقْعُدَ فِي مَقْعَدٍ فِيهِ الشَّيْطَانُ " وعن أنسٍ رضي الله عنه قالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " رَأَيْتُ قُصُوراً مُشْرِفَةً عَلَى الجَنَّةِ ، فَقُلْتُ : يَا جِبْرِيْلُ لِمَنْ هَذِهِ! ؟ قَالَ : لِلْكَاظِمِيْنَ الْغَيْظَ وَالْعَافِيْنَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِيْن "

(٠/٠)

وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥)

قوله عزَّ وَجَلَّ : { وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ } ؛ متصلٌ بقوله{ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ }[آل عمران : ١٣٤]. قال ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه : " قَالَ الْمُسْلِمُونَ : يَا رَسُولَ اللهِ ؛ كَانَتْ بَنُو إسْرَائِيْلَ أكْرَمَ عَلَى اللهِ مِنَّا ، كَانَ أحَدُهُمْ إذا أذْنَبَ ذنْباً أصْبَحَتْ كَفَّارَةُ ذنْبِهِ مَكْتُوبَةً عَلَى بَابِهِ : إجْدَعْ أنْفَكَ ؛ إجْدَعْ أُذُنَكَ ؛ إفْعَلْ كَذَا إفْعَلْ كَذا. فَسَكَتَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ؛ فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " ألاَ أخْبِرُكُمْ بخَيْرٍ مِنْ ذلِكَ " وَقَرَأَ عَلَيْهِمُ هَذِهِ الآيَاتِ " (. وقال عطاءُ : (نَزَلَتْ فِي أبي مُقْبِلِ التَّمَّار ؛ أتَتْهُ امْرَأَةٌ حَسْنَاءُ تَبْتَاعُ مِنْهُ تَمْراً ، فَقَالَ : إنَّ هَذا التَّمْرَ لَيْسَ بجَيِّدٍ وَفِي الْبَيْتِ أجْوَدُ مِنْهُ ، فَهَلْ لَكِ فِيْهِ ؟ فَقَالَتْ : نَعَمْ ، فَذَهَبَ بهَا إلَى بَيْتِهِ وَضَمَّهَا وَقَبَّلَهَا ، فَقَالَتْ لَهُ : اتَّقِ اللهَ سُبْحَانَهُ ، فَتَرَكَهَا وَنَدِمَ عَلَى ذلِكَ ، فَأَتَى رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَذَكَرَ لَهُ ذلِكَ ؛ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ).

وقال ابنُ عبَّاسٍ ومقاتلُ والكلبيُّ : (آخَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم بَيْنَ رَجُلَيْنِ ؛ أحَدُهُمَا مِنَ الأنْصَار ؛ وَالآخَرُ مِنْ ثَقِيْفٍ ، فَخَرَجَ الثَّقَفِيُّ فِي غُزَاةٍ مَعَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَاسْتَخْلَفَ الأَنْصَارِيَّ عَلَى أهْلِهِ ، فَاشْتَرَى لَهُمْ لَحْماً ذاتَ يَوْمٍ ، فَلَمَّا أرَادَتِ الْمَرْأةُ أنْ تَأخُذ مِنْهُ ؛ دَخَلَ عَلَى إثْرِهَا ؛ فَدَخَلَتْ بَيْتاً فَتبعَهَا ، فَاتَّقَتْهُ بيَدِيْهَا ، فَقَبَّلَ ظَاهِرَ كَفِّهَا ، ثُمَّ نَدِمَ وَاسْتَحْيَا ؛ فَانْصَرَفَ ، فَقَالَتْ لَهُ : وَاللهِ مَا حَفِظْتَ غَيْبَةَ أخِيْكَ ؛ وَلاَ وَاللهِ تَنَالُ حَاجَتَكَ. فَخَرَجَ الأَنْصَارِيُّ وَوَضَعَ التُّرَابَ عَلَى رَأسِهِ ، وَهَامَ عَلَى وَجْهِهِ يَسِيْحُ فِي الْجِبَالِ وَيَتَعَبَّدُ ، فَلَمَّا رَجَعَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ غُزَاهُمْ لَمْ يَرَ الثَّقَفِيُّ أخَاهُ ، فَسَأَلَ امْرَأَتَهُ فَقَالَتْ : لاَ كَثَّرَ اللهُ فِي الإخْوَانِ مِثْلَهُ ، وَأَخْبَرَتْهُ فِعْلَهُ ، فَخَرَجَ الثَّقَفِيُّ فِي طَلَبِهِ ، فَسَأَلَ عَنْهُ الرُّعَاءَ فِي الْجِبَالِ وَالْفَيَافِي حَتَّى دُلَّ عَلَيْهِ ، فَوَافَاهُ سَاجِداً وَهُوَ يَقُولُ : رَب ذنْبي ذنْبي ، فَقَالَ : يَا فُلاَنُ ؛ قُمْ فَانْطَلِقْ إلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم لَعَلَّ اللهَ أنْ يَجْعَلَ لَكَ مَخْرَجاً. فَأَقْبَلَ مَعَهُ حَتَّى قَدِمَ الْمَدِيْنَةَ ، فَسَأَلَ أصْحَابَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالُواْ : لاَ تَوْبَةَ لَكَ ، أمَا تَعْلَمُ أنَّ اللهَ يَغَارُ لِلْغَازي فِي سَبِيْلِهِ مَا لاَ يَغَارُ لِلْمُقِيْمِ ، فَقَامَ عَلَى بَاب رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَقَالَ لَهُ : يَا رَسُولَ اللهِ ؛ الذنْبُ الذنْبُ ، فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ الصَّحَابَةُ ، فَخَرَجَ يَسِيْحُ فِي الْجِبَالِ ؛ لاَ يَمُرُّ عَلَى حَجَرٍ وَلاَ مَدَرٍ وَلاَ سَهْلَةٍ حَارَّةٍ إلاَّ تَجَرَّدَ وَتَمَرَّغَ فِيْهَا ، حَتَّى كَانَ ذاتَ يَوْمٍ عِنْدَ الْعَصْرِ نَزَلَ جِبْرِيْلُ بِتَوْبَتِهِ بِهَذِهِ الآيَةِ).

ومعناها : { وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ } كبيرةً { أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ } بفعلِ الصَّغيرةِ مثلَ النَّظرةِ واللَّمْسِ والغَمْزِ والتقبيلِ ، ذكَرُواْ مقامَهم بين يديِّ الله وعقابه.

(٠/٠)

أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (١٣٦)

قوله عزَّ وَجَلَّ : { أُوْلَئِكَ جَزَآؤُهُمْ مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ } ؛ أي أهلُ هذه الصِّفةِ ثوابُهم سَتْرٌ من ربهم لذنوبهم ؛ وحطُّ العقاب عنهُم ، وبساتينُ تجري من تحتِ شجرِها وغُرَفِها الأنْهارُ مقيمينَ دائمين فيها ، ونِعْمَ أجرُ التَّائبين في التوبةِ ، فَوَضَعَ عنهم ما كان مَكتوباً على بَنِي إسرائيلَ ؛ فإنَّهُ كان إذا أذنبَ أحدُهم يرى توبتَه مكتوبةً على بابِهِ : إجْدَعْ أنْفَكَ ؛ إجْدَعْ أذُنَكَ ، فَوَضَعَ ذلك عن هذه الأمَّة واكتفَى منهم بالنَّدَمِ والاستغفار.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ } أي ثوابُ المطيعين. قيلَ : أوحَى اللهُ تعالى إلى موسَى عليه السلام : (يَا مُوسَى ؛ مَا أقَلُّ حَيَاءِ مَنْ يَطْمَعُ فِي جَنَّتِي بغَيْرِ عَمَلٍ ، يَا مُوسَى ؛ كَيْفَ أجُودُ برَحْمَتِي عَلَى مَنْ يَبْخَلُ بطَاعَتِي. وقال شَهْرُ بن حَوْشَبٍ : (طَلَبُ الْجَنَّةِ بلاَ عَمَلٍ ذنْبٌ مِنَ الذُّنُوب).

(٠/٠)

قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧)

قوله عزَّ وَجَلَّ : { قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ } ؛ معناهُ : { قَدْ خَلَتْ } مَضَتْ { مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ } وهي الطرائقُ في الخيرِ والشرِّ. وقيل : معناهُ : { قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ } بإهلاكِ المكذِّبينَ لِرُسُلِنَا ، فسَافِرُواْ في الأَرْضِ ، فانظُرُوا كيفَ صَارَ آخرُ المكذِّبينَ بالرُّسُلِ والكُتُب ؛ أي اتَّعِظُوا بالآثار التي بَقِيَتْ منهم في الأرضِ مثلَ ديار قَوْمِ لُوطٍ وَعَادٍ وغيرِهم.

(٠/٠)

هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٨)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { هَاذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ } ؛ أي هذا القرآنُ بيانٌ للناسِ من الضَّلالةِ وهُدًى من العَمَى ونَهْيٌ للمتقينَ من الفواحِش. والبَيَانُ : كُلُّ مَا يَظْهَرُ بِهِ الْمَعْنَى ، وَالْهُدَى : بَيَانُ طَرِيْقِ الرُّشْدِ دُونَ طَرِيْقِ الْغَيِّ ، وَالْمَوْعِظَةُ : مَا يَدْعُو إِلَى فِعْلِ الْحَسَنَةِ مِنْ تَرْغِيْبٍ أَوْ تَرْهِيْبٍ.

(٠/٠)

وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ } ؛ هذا عائدٌ إلى ما تقدَّم ذكرُه من حديثِ حَرْب أحُدٍ ، معناهُ : لا تَضْعُفُوا ولا تَجْبُنُوا يا أصحابَ مُحَمَّدٍ عن قتالِ عدوِّكم لِمَا نالَكم يومَ أحُدٍ من القَتْلِ والجرحِ والْهَزِيْمَةِ ، وكان قُتِلَ يؤمئذٍ خمسةٌ من المهاجرينَ : حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِب ؛ وَمُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ ؛ وَعَبْدُاللهِ بْنُ جَحْشٍ ابنُ عمَّةِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم ؛ وعُثْمَانُ بْنُ شَمَّاسٍ ؛ وسَعْدٌ مولَى عُتْبَةَ ،

والأنصار سبعونَ رجُلاً.
وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ } أي في الحجَّة ، وقيل : وأنتمُ الغالبُونَ في العاقبةِ ؛ أي تكونُ لكم العاقبةُ بالنَّصرِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ } ؛ أي مُصَدِّقِيْنَ بوعدِ الله بالنَّصرِ.

(٠/٠)

إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ } ؛ أي إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحُ يومِ أُحُد فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ يَوْمَ بَدْر ، وذلكَ أنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم وأصحابَه كانوا قَتَلُواْ من المشركين يَوْمَ بدر سبعونَ رجُلاً وأسَرُوا سبعينَ ، وقُتِلَ يومَ أُحُدٍ مِن أصحاب النبيِّ صلى الله عليه وسلم سبعونَ وجُرِحَ سبعونَ.
وقرأ مُحَمَّدُ بن السُّمَيْقَعِ (قَرَحٌ) بفتحِ القاف والراءِ على المصدر. وقرأ الأعمشُ وعاصم وحمزةُ والكسائيُّ وخلفُ : بضمِّ القاف فيهما ؛ وهي قراءةُ ابنِ مسعودٍ. وقرأ الباقون بفتحِ القاف وهي قراءةُ عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ، وهما لُغَتَانِ مثلُ الْجَهْدِ وَالْجُهْدِ ، وقال بعضهم : (الْقَرْحُ) بفتحِ القاف : الجِرَاحَاتُ واحدتُها قَرْحَةٌ ، و(الْقُرْحُ) بالضمِّ وجعٌ ، يقالُ قُرِحَ الرجلُ إذا وُجِعَ.
قوله عَزَّ وَجَلَّ : { وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ } ؛ أي تارةً لَهم وتارةً عليهم ، وأدَالَ المسلمونَ على المشركينَ يومَ بدر ، حتى قَتَلُوا منهم سبعينَ وأسَرُوا سبعين ، وأدَالَ المشركون يوم أحُدٍ ، حتى جَرَحُوا سبعين وقَتَلُوا خمسةً وسبعين. قال أنسُ بن مالكٍ رضي الله عنه : (أتِيَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم بِعَلِيٍّ رضي الله عنه يَوْمَئِذٍ ، وَعَلَيْهِ نيِّفٌ وَسِتُّونَ جِرَاحَةً مِنْ طَعْنَةٍ وضَرْبَةٍ وَرَمْيَةٍ ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَمْسَحُهَا بيَدِهِ وَهِيَ تَلْتَئِمُ بإِذْنِ اللهِ فَكَأَنَّهَا لَمْ تَكُنْ).
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ } ؛ بَيَّنَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ المعنَى الذي لأجلِهِ يُدَاولُ الأيَّامَ بين المؤمنين والكفَّار ، فقالَ { وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ } معناهُ : لِيَرَى من يُقِيْمُ على الإيْمانِ مِمَّن لا يقيمُ ؛ فيظهرُ المؤمنُ المخلِصُ ؛ والذي في قَلْبِهِ مَرَضٌ. وقال الزجَّاج : (مَعْنَاهُ : لِيَعْلَمَ اللهُ عِلْمَ مُشَاهَدَةٍ بَعْدَ مَا كَانَ عِلْمُهُ عِلْمَ الْغَيْب ؛ لأنَّ الْعِلْمَ الَّذِي عَلِمَهُ اللهُ قَبْلَ وُقُوعِ الشّيْءِ لاَ يَجِبُ بِهِ الْمُجَازَاةُ مَا لَمْ يَقَعْ).
وأما الواوُ في قولِهِ : { وَلِيَعْلَمَ } : واوُ العطفِ على خبرٍ محذوف ؛ تقديرهُ : { وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ } بضروبٍ من التَّدبيرِ ، { وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ } المؤمنينَ مُتَمَيِّزِيْنَ من المنافِقينَ.
وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ } ؛ أي يُكْرِمُهُمْ بالشَّهادةِ ، وقال بعضُهم : معناهُ : ويجعلَكُم

شهداءَ على الناسِ على معاصِيهم لإجلالِكُم وتعظِيمكُم ، ثم قالَ تعالى : { وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ } ؛ أي لا يفعلُ اللهُ ذلك لِحُب الظالمين ، فإنهُ لا يُحِبُّ الظالمينَ ، وفي هذا بيانُ أنَّ اللهَ لا ينصرُ الكافرين على المسلمين ، إذِ النُّصْرَةُ تدلُّ على الْمَحَبَّةِ ، واللهُ لا يحبُّ الكُفَّارَ ، ولكنْ قد ينصرُ المسلمينَ في بعض الأوقاتِ على الكفَّار ، وفي بعضِ الأوقات يَكِلُ المسلمينَ إلى حَوْلِهِمْ وَقُوَّتِهِمْ لذنبٍ كان حصلَ منهم ، وإنَّما جعلَ اللهُ الدُّنيا مُتَقَلِبَةً لِئلاَّ يَطْمَئِنَّ المسلمون إليها لِتَقَلُّبِهَا ، ولكنهم يسعونَ للآخرة الَّتي يكونُ نعيمُها إلى الأبدِ.

(٠/٠)

وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ } ؛ معطوفٌ على قوله{ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ }[آل عمران : ١٤٠] ؛ ومعناهُ : ويُطَهِّرَ الذين آمنُوا من ذنوبهم ، يقالُ : مَحَّصْتُ الشَّيْءَ أمْحِّصُهُ مَحْصاً ؛ إذا أخْلَصْتُهُ مِنَ الْعَيْب ، وَمَحِصَ الجمَلُ يَمْحَصُ مَحْصاً إذا ذهبَ عنهُ الوبَرُ لكَدِّ العملِ فصار أملسَ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ } ؛ أي يُعَنِّيَهُمْ وَيُهْلِكَهُمْ وَيُنْقِصَهُمْ ؛ لأنَّهم يَحْتَرِبُونَ فيخرجُوا للحرب مرَّة أخرى فَيَسْتَأْصِلُهُمْ ، وهذا تأويلُ مُدَاوَلَةِ الأيَّامِ.

(٠/٠)

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ } ؛ معناهُ : أظننتُم يا معشرَ المؤمنين { أنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ } جِهَادَ الْمُجَاهدينَ ولا صَبْرَ الصابرينَ وَاقِعاً فيهم مُشَاهَدَةً ، وهذا استفهامٌ بمعنَى الإنكار لِظَنِّهِمْ وَحُسْبَانِهِمْ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ } أي وَلَمْ يعلَمِ اللهُ ، يقولُ الرجلُ لِمَا يفعلُ مَعْنَاهُ : لَمْ يَفْعَلْ ؛ انضمَّ إليهِ حرفُ (مَا) ، وقرأ الحسنُ (وَيَعْلَمِ الصَّابِرِينَ) بالكسرِ عطفاً على قولهِ { وَلَمَّا يَعْلَمِ }. وأما قراءةُ النَّصب فهو نصبٌ على الظرفِ ؛ يعني على صَرْفِ آخرِ الكلامِ عن أوَّلِه على تقدير : وأن يَعْلَمَ الصابرينَ ، وهو قولُ الكوفيِّين. وأمَّا البصريُّون فَيُسَمُّونَهُ نَصْباً على الجمعِ. قال الشاعرُ : لاَ تَنْهَ عَنْ خُلُق وَتَأتِى مِثْلَهُ عَارٌ عَلَيْكَ إذا

فَعَلْتَ عَظِيْمُأي لا يكن منكَ النَّهْيُ عن خُلُقٍ معَ إتيانِ مثلِه ، ويقالُ : لا تأكلِ السَّمكَ وتشربَ اللَّبنَ ؛ أي لا يكونُ منكَ الجمعُ بينَهما.

(٠/٠)

وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (١٤٣)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (ذَلِكَ لَمَّا أَخْبَرَهُمُ اللهُ عَلَى لِسَانِ نَبيِّهِ صلى الله عليه وسلم مَا فَعَلَ شُهَدَاؤُهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ مِنَ الْكَرَامَةِ وَالثَّوَابِ فِي الْجَنَّةِ رَغِبُوا فِي ذلِكَ وَقَالُواْ : اللَّهُمَّ أرنَا قِتَالاً لَعَلَّنَا نَسْتَشْهِدُ بِهِ فَنَلْحَقُ بِإخْوَانِنَا فِي الْجَنَّةِ ، فَأَرَاهُمُ اللهُ تَعَالَى يَوْمَ أحُدٍ فَلَمْ يَثْبُتُواْ مَعَ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وَانْهَزَمُواْ إلاَّ مَنْ شَاءَ اللهُ مِنْهُمْ مِمَّنْ ثَبَتَ مَعَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ؛ فَقُتِلَ بَعْضُهُمْ وَجُرِحَ بَعْضُهُمْ ؛ فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ).
ومعناها : وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ بعد وَقْعَةِ بدر مِنْ قَبْلِ أنْ تنظرُوا إليه يَوْمَ أحُدٍ ؛ { فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ } إلى السُّيُوفِ فيها الْمَوْتُ ، وهذا تَعْيِيْرٌ لَهم لفشَلِهم عندَ الحرب مع صدقِ رغبتِهم في الشَّهادةِ. ومعنى { فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ } رأيتُم أسبَابَهُ.

(٠/٠)

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ } ؛ الآيةُ ، قال المفسِّرون : خرجَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم إلى أحُدٍ حتى نزلَ بالشِّعْب من أحُدٍ في سبعمائة رجلٍ ، وأمَّرَ عبدَالله بن جُبير من بني عمرِو بن عَوفٍ على الرُّماة وهم خمسونَ رجُلاً ، وقالَ : (أقِيْمُواْ بأصْلِ الْجَبَلِ وَانْضَحُوا عَنَّا بالنَّبْلِ لاَ يَأْتُونَ مِنْ خَلْفِنَا ، وَإنْ كَانَتْ لَنَا أوْ عَلَيْنَا فَلاَ تَبْرَحُواْ مِنْ مَكَانِكُمْ ، فَإنَّا لاَ نَزَالُ غَالِبِيْنَ مَا ثَبَتُّمْ مَكَانَكُمْ) فجاءَتْ قريشُ وعلى مَيْمَنَتِهِمْ خالدُ بن الوليدِ وعلى ميسرتِهم عكرمةُ بنُ أبي جهلٍ ومعهم النساءُ يضربنَ بالدُّفوفِ وَيَقُلْنَ الأشعارَ ، وكانت هندُ تقول : نَحْنُ بَنَاتُ طَارِقْ نَمْشِي عَلَى النَّمَارِقْإنْ

تَغْلِبُواْ نُعَانِقْ أوْ تُدْبِرُواْ نُفَارِقْفَرَاقَ غَيْرِ وَامِقْ فحملَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وأصحابُه على المشركين فهزمُوهم ، وقَتَلَ عَلِيُّ بْنُ أبي طَالِبٍ طَلحةَ بْنَ أبي طلحةَ وهو يحملُ لواءَ المشركين ، وأنزلَ اللهُ نصرَهُ على المؤمنين.

قال الزُّبَيْرُ : فرأيتُ هِنْداً وصواحباتِها هارباتٍ مُصْعَدَاتٍ في الجبلِ ، فلما نَظَرَتِ الرُّماةُ إلى القومِ قد انكشفُوا ورَأوا أصحابَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم ينتهبونَ الغنيمةَ ؛ أقبلُوا يريدون النَّهْبَ واختلفُوا فيما بينَهم ، فقالَ بعضُهم : لا نتركُ أمرَ رسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، وقال بعضُهم : ما بقيَ في الأمرِ شيءٌ. ثم انطلقَ عامَّتهم ولَحِقُوا بالعسكرِ ، فلما رأى خالدُ بن الوليدِ قلَّةَ الرُّماةِ واشتغالَ المسلمين بالغنيمةِ ؛ صاحَ في المشركين ثم حَمَلَ على أصحاب النبيِّ صلى الله عليه وسلم مِن خَلْفِهِمْ فهزمُوهم وقتلُوهم ، ورمَى عبدُالله بن قَمِيئَةَ الحارثيُّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم بحَجَرٍ فكسرَ أنفَهُ ورُبَاعِيَّتَهُ فشجَّهُ في وجههِ وأنفِه ، وتفرَّقَ عنه أصحابُه صلى الله عليه وسلم.

" وكان مصعبُ بن عُمير يَذُبُّ عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم فَقُتِلَ ، فَظَنَّ قاتلُه أنهُ قَتَلَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم ؛ فنادَى : قتلتُ مُحَمَّداً ، وأقبلَ عبدُالله بن قَمِيئَةَ يريدُ قَتْلَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ؛ وقال : إنِّي قتلتُ مُحَمَّداً ؛ وصرخَ إبليسُ لَعَنَهُ اللهُ : ألاَ إنَّ مُحَمَّداً قد قُتِلَ. وانْكَفَأَ الناسُ عنه ، وجعلَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يدعُو الناسَ : " إلَيَّ عِبَادَ اللهِ ؛ إلَيَّ عِبَادَ اللهِ " فاجتمعَ إليه ثلاثونَ رجُلاً فَحَمَوْهُ وكشَفُوا المشركينَ عنه ، وأصيبَت يدُ طلحةَ بنِ عبدِالله فَيَبسَتْ وبها كان يَقِي رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، وأصيبَت عَيْنَيّ قتادةَ بن النُّعمان حتى وَقَعَتْ على وَجْنَتِهِ ؛ فردَّها رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم مكانَها فعادت أحسنَ ما كانت.

فلما انصرفَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم أدركَهُ أبَيُّ بنُ خَلَفٍ الجمحيِّ وهو يقولُ : لا نَجوتُ إنْ نَجَا ، فقال القومُ : ألاَ يعطفُ عليه رجلٌ منَّا يا رسولَ اللهِ؟! فقالَ : " دَعُوهُ ". حتى إذا دَنَا منهُ تناوَلَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم الْحَرْبَةَ من الْحَارِثِ بن الصِّمَّةِ ؛ ثم اسْتَقْبَلَهُ فَطَعَنَهُ فِي عُنُقِهِ وخَدَشَهُ خَدْشَةً فَتَدَهْدَهَ عَنْ نَفْسِهِ وَهُوَ يَخُورُ كَمَا يَخُورُ الثَّوْرُ ، وَهُوَ يَقُولُ : قَتَلَنِي مُحَمَّدٌ ، وحملَهُ أصحابُه وقالوا لَهُ : ليسَ عليك بأْسٌ ، قَالَ : لو كانت هذه الطعنةُ برَبِيْعَةَ وَمُضَرَ لَقَتَلَتْهُمْ ، أليسَ قالَ : " أقْتُلُكَ " : فلو بَزَقَ عَلَيَّ بَعْدَ تِلْكَ الْمَقَالَةِ قَتَلَنِي ، فَلَمْ يَلْبَثْ إلاَّ يَوْماً حَتَّى مَاتَ ".

(٠/٠)

وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (١٤٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ الله كِتَاباً مُّؤَجَّلاً } ؛ قال الأخفشُ : (اللاَّمُ فِي النَّفْسِ مَنْقُولَةٌ) ، تقديرهُ : وما كانَتْ نفسٌ لِتَمُوتَ إلاَّ بإذْنِ اللهِ ، كتبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ { كِتَاباً مُّؤَجَّلاً } أي إلى أجَلٍ لِرِزْقِهِ وَعُمْرِهِ ، فكلُّ نفسٍ لَهَا أجَلٌ تَبْلُغُهُ ورزْقٌ تستوفِيهُ ؛ لا يقدرُ أحدٌ على تقديْمهِ وتأخيرِه. في هذهِ تحريضٌ للمؤمنين على القِتَالِ ؛ أي لا تتركُوا الجهادَ خِشْيَةَ الموتِ والقَتْلِ ؛ فإنَّهم لم يَملكُوا قتلَكم. وانتصبَ قولهُ { كِتَاباً مُّؤَجَّلاً } على المصدر كقولهِ تعالى : { وَعْدَ اللَّهِ حَقّاً }[النساء : ١٢٢] و{ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ }[الكهف : ٨٢ ، والقصص : ٤٦ ، والدخان : ٦ ، وغيرها] و{ صُنْعَ اللَّهِ }[النمل : ٨٨] و{ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ }[النساء : ٢٤]. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا } ؛ يعني مَن يُرِدْ بعملهِ وطاعته الْمَدْحَةَ والرِّياءَ لا يُحْرَمُ حظَّه المقسومَ له في الدُّنيا مِن غيرِ أن يكونَ لَهُ حَظٌّ في الآخرةِ ، يعني نُؤْتِهِ من الدُّنيا ما شاء مِمَّا قدَّرنا له ، نَزَلَ ذلك في الذينَ تَرَكُوا الْمَرْكَزَ يومَ أحُد طَلَباً للغنيمةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا } ؛ أي مَن يُرِدْ بعملهِ الآخرةَ نُعْطِهِ منها ما نَقْسُمُ لَهُ في الدُّنيا من الرِّزقِ ، نَزَلَ في الذينَ ثَبَتُوا مع أمِيْرِهِمْ عبدُالله بن جُبير حتى قُتِلُوا. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ } ؛ أي المطيعينَ ، يَجزيهِم الجنَّةَ في الآخرةِ. وقرأ الأعمشُ : (وَسَيَجْزِي الشَّاكِرِيْنَ) بالياء ، يعني اللهَ عَزَّ وَجَلَّ.

(٠/٠)

وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ } ؛ قرأ الحسنُ وأبو جعفرٍ : (وَكَايِنْ) مقصوراً من غيرِ هَمْزٍ ولا تشديدٍ حيثُ وقعَ. وقرأ مجاهدُ وابنُ كثير مَمدوداً مهموزاً خفيفاً على وزن فاعِلٍ. وقرأ الباقونَ مشدَّداً مهموزاً على وزن كَعَيِّنْ ، وكلُّها لغاتٌ صحيحةٌ بمعنى واحدٍ. ومعناهُ : وَكَمْ مِنْ نَبيٍّ قَاتَلَ معهُ جماعاتٌ كثيرة ، { فَمَا وَهَنُواْ } ؛ أي فما فَرُّوا فيما بينَهم { لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ } ؛ في طاعةِ الله ، { وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ } ؛ أي ما جَبُنُوا عن قِتَالِ عدوِّهم وما خضعوا لعدوِّهم ؛ { وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ } ؛ على قِتَالِ عدوِّهم لدينِ الإسلام.

وقرأ ابنُ كثيرٍ ونافع وأبو عمرٍو : (قُتِلَ مَعَهُ). وقرأ الباقون : (قَاتَلَ مَعَهُ) ، لقولهِ { فَمَا وَهَنُواْ } ويستحيلُ وصفُهم بقلَّة الوهنِ بعد ما قُتلوا.

وأمَّا تأويلُ قَتْلِهِ فلهُ ثلاثة أوجُهٍ ؛ أحدُها : أن يكونَ القتلُ واقعاً على النبيِّ صلى الله عليه وسلم وحدَه ؛ وحينئذ يكون تَمامُ الكلام عند قولِهِ (قُتِلَ) ، ويكون هناكَ إضمارٌ ، وتقديره : وَ { مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ }. والثَّاني : أن يكونَ القَتْلُ بالنبيِّ ومَن معهُ من الرِّبِّيْينَ ، ويكونُ معناهُ : قُتِلَ بعضُ مَن كان معهُ. يقولُ العربُ : قَتَلْنَا بَنِي تَميمٍ ؛ وإنَّما قُتِلَ بعضُهم. وقوله { فَمَا وَهَنُواْ } راجع إلى الباقينَ. والثالثُ : أن يكونَ القَتْلُ لِلرِّبِّيْينَ لا غيرَ.

وقولهُ تعالى : { رِبِّيُّونَ } : قرأ ابنُ مسعودٍ والحسن وعكرمةُ : (رُبِّيُّونَ) بضمِّ الراء ، وقرأ الباقون بالكسرِ وهي لغةٌ فَاشِيَةٌ ، وهي جمعُ الرِّبَّةِ وهي الفرقةُ. قال ابنُ عبَّاس ومجاهدُ وقتادة والسُّدي : (جُمُوعٌ كَثِيْرَةٌ). وقال ابنُ مسعود : (الرِّبِيُّونَ : الأُلُوفُ). وقال الضحَّاك : (الرِّبِيَّةُ الواحِدَةُ أَلْفٌ). وقال الكلبيُّ : (الرِّبِيَّةُ الْوَاحِدَةُ عَشْرَةُ آلاَفٍ). وقال الحسنُ : (الرِّبِيُّونَ هُمُ الْعُلَمَاءُ الْفُقَهَاءُ الصُّبَرَاءُ). وقال ابنُ زيدٍ : (الرَّبَّانِيُّونَ الْوُلاَّةُ ، وَالرِّبِيُّونَ الرَّعِيَّةُ). وقال بعضُهم : الرِّبِيُّونَ الذينَ يعبدُون الرَّبَّ ، كما ينسبُ البصرُيون إلى البصرةِ. وقيل : الرِّبِيُّونَ الْمُنِيبُونَ إِلَى اللهِ تعالى.

(٠/٠)

وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ ربَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا } ؛ حكايةُ قول الرِّبِّيِّينَ ؛ أي ما كان قولُهم عند قتالِهم (إِلاَّ أَنْ قَالُوا : رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا) الصغائِرَ والكبائرَ. والإسرافُ في اللغة : مُجَاوَزَةُ الْحَدِّ بارْتِكَاب الذُّنُوب الْعِظَامِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا } ؛ أي ثَبِّتْهَا للقتالِ بتَقْوِيَةِ قلوبنا. { وانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ } ؛ أي أعِنَّا عليهم بإلقاءِ الرُّعْب في قلوبهم أي هَلاَّ قُلْتُمْ أيُّها المؤمنون كما قالَ الرِّبِيُّونَ ؛ وهَلاَّ قَاتَلْتُمْ كما قاتَلوا.

قرأ الأعمشُ : (وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ) بالرفعِ على أنه اسمُ (كَانَ) والخبرُ ما بعدَ (إلاَّ). وقرأ الباقون بالنصب على خبر (كَانَ) ، والاسمُ ما بعدَ (إلاَّ) كما في قوله : { وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ }[الأعراف : ٨٢] و{ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ }[الجاثية : ٢٥] ونحوِهما.

(٠/٠)

فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٤٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ } ؛ أي أعطاهم اللهُ النصرَ والغنيمةَ والفتحَ والثناءَ الْحَسَنَ في الدُنيا ؛ والجنَّةَ في الآخرةِ. { وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } ؛ أي الْمُجَاهِدِيْنَ. وفي الآيةِ دلالةٌ : أنهُ قد يجوزُ اجتماع الدُّنيا والآخرةِ لِوَاحِدٍ ، وعن عَلِيٍّ رضي الله عنه أنهُ قالَ : (مَنْ عَمِلَ لِدُنْيَاهُ أضَرَّ بآخِرَتِهِ ، وَمَنْ عَمِلَ لآخِرَتِهِ أضَرَّ بدُنْيَاهُ ، وَقَدْ يَجْمَعُهُمَا اللهُ تَعَالَى لأقْوَامٍ).

(٠/٠)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (١٤٩) بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ (١٥٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِن تُطِيعُواْ الَّذِينَ كَفَرُواْ } ؛ يعني اليهودَ والنصارى فيما يقولونَ لكم أنَّ مُحَمَّداً صلى الله عليه وسلم لو كانَ حَقّاً لَمَا ظهرَ عليه المشركونَ ، { يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ } ؛ أي دينِ الشِّرك ، { فَتَنقَلِبُواْ خَاسِرِينَ } ؛ أي فترجِعوا مَغبُونِين إلَى دِينكم الأوَّل ؛ { بَلِ اللَّهُ مَوْلاَكُمْ } ؛ أي وَلِيُّكُمْ وناصرُكم ، { وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ } ؛ المانِعين من الكفَّار ، لأنَّ أحَداً لا يقدِرُ أن يَنْصُرَ كَنَصْرِهِ ، ولا أنْ يدفعَ كدفاعِه. وقُرِئَ في الشواذِّ : (بَلِ اللهَ) بالنصب على معنى : بَلْ أطيعُوا اللهَ.

(٠/٠)

سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (١٥١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً } ؛ قالَ السُّدِّيُّ : (ارْتَحَلَ أبُو سُفْيَانَ وَالْمُشْرِكُونَ يَوْمَ أُحُدٍ مُتَوَجِّهِيْنَ نَحْوَ مَكَّةَ ، فَلَمَّا بَلَغُواْ بَعْضَ الطَّرِيْقِ نَدِمُوا ؛ وَقَالُواْ : بئْسَ مَا صَنَعْنَا ؛ قَتَلْنَاهُمْ حَتَّى لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ إلاَّ الْيَسِيْرَ ثُمَّ تَرَكْنَاهُمْ ، ارْجِعُواْ فَاسْتَأْصِلُوهُمْ. فَلَمَّا عَزَمُواْ عَلَى ذلِكَ ؛ أَلْقَى اللهُ الرُّعْبَ فِي قُلُوبِهِمْ حَتَّى رَجَعُواْ عَمَّا هَمُّوا بِهِ – وستأتي هذه القصةُ بتمامها

إنْ شاءَ اللهُ تعالى – فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ).

وقرأ أبو أيُّوب : (سَيُلْقِي) بالياء يعني (اللهُ مَوْلاَكُمْ). وقرأ الباقون بالنُّون على التَّعظِيْمِ ؛ أي سَنَقْذِفُ في قلوب الذين كفروُا الخوفَ ، وَثَقَّلَ (الرُّعْبَ) ابن عامرٍ والكسائيُّ ، وخفَّفه الآخرون. قَوْلُهُ تَعَالَى : { بِمَآ أَشْرَكُواْ بِاللَّهِ } بإشراكِهم بالله ما لَمْ يُنَزِّلْ به كتاباً فيه عذرٌ وحجَّةٌ لَهم. وقيل : معنى قولهِ { سُلْطَاناً } أي حُجَّةً وبيَاناً وبُرهَاناً.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ } ؛ أي مصيرُهم في الآخرةِ النارُ ، وبئس مقامُ الظالمين النارَ في الآخرةِ. وروي في الخبر : " أنَّ أبَا سُفْيَانَ صَعَدَ الْجَبَلَ يَوْمَ أُحُدٍ ؛ فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " اللَّهُمَّ إنَّهُ لَيْسَ لَهُمْ أنْ يَعْلُونَا " فَمَكَثَ أبُو سُفْيَانَ سَاعَةً ، ثُمَّ قَالَ : أيْنَ ابنُ أبي قُحَافَةَ ؟ أيْنَ ابْنُ الْخَطَّاب ؟ أيْنَ مُحَمَّدٌ ؟ فَقَالَ عُمَرُ رضي الله عنه : هَذا رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم ، وَهَذا أبُو بَكْرٍ ، وَهَا أنَا عُمَرُ ، فَقَالَ أبُو سُفْيَانَ : نَشَدْتُكَ اللهَ يَا ابْنَ الْخَطَّاب ؛ أمُحَمَّدٌ فِي الأَحْيَاءِ ؟ قَالَ : إيْ وَاللهِ يَسمَعُ كَلاَمَكَ ، فَقَالَ : أيْنَ الْمَوْعِدُ ؟ يَعْنِي أيْنَ نُحَارِبُ بَعْدَ هَذا ؟ فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " قُلْ : ببَدْرٍ الصُّغْرَى " وَكَانَتْ وَقْعَةُ بَدْرٍ الصُّغْرَى بَعْدَ أحُدٍ بسَنَةٍ ، فَخَرَجَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم لِبَدْر الصُّغْرَى عَلَى الْمَوْعِدِ ، وَرُعِبَ الْمُشْرِكُونَ فَلَمْ يَتَجَاسَرُواْ عَلَى الْحُضُور.

وروي أنَّ أبَا سُفْيَانَ رَكِبَ الْجَبَلَ يَوْمَ أُحُدٍ فَقَالَ : أعْلُ هُبَلَ ؛ أعْلُ هُبَلَ! فَقَالَ عُمَرُ رضي الله عنه : اللهُ أعْلاَ وَأجَلُّ ، فَقَالَ أبُو سُفْيَانَ : يَوْمٌ بيَوْمٍ ؛ وإنَّ الأَيَّامَ دُوَلَةٌ وَالْحَرْبَ سِجَالٌ ، فَقَالَ عُمَرُ : لاَ سَواءٌ قَتْلاَنَا فِي الْجَنَّةِ وَقَتْلاَكُمْ فِي النَّارِ.

(٠/٠)

وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِّن بَعْدِ مَآ أَرَاكُمْ مَّا تُحِبُّونَ } ؛ وذلك : أنَّهُ لَمَّا رَجَعَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَأصْحَابُهُ إلَى الْمَدِيْنَةِ وَقَدْ أصَابَهُمْ مَا أصَابَهُمْ : قَالَ أنَاسٌ مِنْهُمْ : مِنْ أيْنَ أصَابَنَا هَذا وَقَدْ وَعَدَنَا اللهُ النَّصْرَ؟! فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ { وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ } الذي وعدَ بالنصرِ والظَّفَرِ يومَ أحُدٍ وهو قولهُ : { وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ }[آل عمران : ١٢٠] الآيةُ.

" وقَوْلُ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم للرُّمَاةِ : " لاَ تَبْرَحُواْ مِنْ مَكَانِكُمْ " ، وَكَانَ صلى الله عليه وسلم قَدْ

جَعَلَ أحُداً خَلْفَ ظَهْرِهِ وَاسْتَقْبَلَ الْمَدِيْنَةَ ، وَأقَامَ الرُّمَاةَ فِيْمَا يَلِي خَيْلَ الْمُشْرِكِيْنَ ، وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ عَبْدَاللهِ بْنَ جُبَيْرٍ الأَنْصَارِيَّ ، وَقَالَ لَهُمْ : " احْمُوا ظُهُورَنَا ، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا قَدْ عِشْنَا فَلاَ تُشْرِكُونَا ، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا نُقْتَلُ فَلاَ تَنْصُرُونَا " وأَقْبَلَ الْمُشْرِكُونَ وأَخَذُواْ فِي الْقِتالِ ، فَجَعَلَ الرُّمَاةُ يَتَرَشَّقُونَ خَيْلَ الْمُشْرِكِيْنَ بالنَّبْلِ ، وَالْمُسْلِمُونَ يَضْرِبُونَهُمْ بالسَّيْفِ ؛ حَتَّى وَلَّوْا هَارِبِيْنَ وانْكَشَفُواْ مَهْزُومِيْنَ ، فَذلِكَ قَوْلُهُ { إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ } أي تقتلونَهم قَتْلاً ذريعاً شديداً في أوَّل الحرب بأمْرِه وعلمِه { حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِّن بَعْدِ مَآ أَرَاكُمْ مَّا تُحِبُّونَ } أي إلَى أن فَشِلْتُمْ جعلُوا (حَتَّى) بمعنى (إلَى) فحينئذ لا جوابَ لهُ ، وقيل : (حَتَّى) بمعنى : فَلَمَّا ، وفي الكلامِ تقديمٌ وتأخير.

قالوا : وفِي قوله { وَتَنَازَعْتُمْ } مُقْحَمَةٌ تقديرهُ : حتَّى اذا تنازَعتم في الأمرِ وعصيتُم فشِلْتُم ؛ أي جَبُنْتُمْ وضَعُفْتُمْ. وكان { تَنَازَعْتُمْ } أنَّ الرُّمَاةَ لَمَّا انْهَزَمَ الْمُشْرِكُونَ وَقَعَ المُسْلِمُونَ فِي الْغَنَائِمِ ؛ قَالُواْ : قَدِ انْهَزَمَ الْقَوْمُ وَأمِنَّا ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : لاَ تُجَاوزُواْ أمْرَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، فَثَبَتَ عَبْدُاللهِ بْنُ جُبَيرٍ فِي نَفَرٍ يَسِيْرٍ مِنَ الصَّحَابَةِ دُونَ الْعَشْرَةِ ؛ قِيْلَ : ثَمَانِيَةٌ ، وَانْطَلَقَ الْبَاقُونَ يَنْتَهِبُونَ ، فَلَمَّا نَظَرَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيْدِ وَعِكْرِمَةُ بْنُ أبي جَهْلٍ إلَى ذلِكَ ؛ حَمَلُواْ عَلَى الرُّمَاةِ مِنْ قِبَلِ ذلِكَ الشِّعْب فِي مِائَتَيْنِ وَخَمْسِيْنَ فَارِساً مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ ، وَكَانَ خَالِدُ يَوْمَئِذٍ مُشْرِكاً ؛ فَقَتَلَ عَبْدَاللهِ بْنَ جُبَيْرٍ وَمَنْ بَقِيَ مَعَهُ مِنَ الرُّمَاةِ ، وأَقْبَلُوا عَلَى الْمُسْلِمِيْنَ مِنْ خَلْفِهِمْ ، وَتَفَرَّقَ الْمُسْلِمُونَ وَانْتَقَضَتْ صُفُوفُهُمْ وَاخْتَلَطُواْ ، وَحَمَلَ عَلَيْهِمُ الْمُشْرِكُونَ حَمْلَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ ، وَصَارَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ بَيْنِ قَتِيْلٍ وَجَرِيْحٍ وَمُنْهَزِمٍ وَمَدْهُوشٍ ، وَنَادَى إبْلِيْسُ : ألاَ إنَّ مُحَمَّداً قَدْ قُتِلَ ، فذلكَ قوْلُهُ تَعَالَى : { حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ } أي لَمَّا اختلفتُم في الأمرِ الذي أمرَكم رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم من الثباتِ على المركزِ ، وعصيتُم الرسولَ من بعدِ ما أراكُم ما تحبُّون من النَّصرِ على عدوِّكم والظفرِ والغنيمة. قال بعضُ المفسِّرين : جوابُ { إِذَا فَشِلْتُمْ } هَا هُنَا مُقَدَّرٌ ، كأنهُ قالَ : إذا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ امْتُحِنْتُمْ بما رأيتُم من القتلِ والبلاءِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ } ؛ معنى : مِنَ الرُّمَاةِ مَن يريدُ الحياة ؟ وهمُ الذينَ تركُوا الْمَرْكَزَ وَلم يَثْبُتُوا فيهِ ووقعُوا في الغنائمِ ، { وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ } يعني : الذينَ ثَبَتُوا في المركزِ مع عبدِاللهِ بن جُبير وباقِي الرُّماة حتَّى قُتِلُوا.

(٠/٠)

إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٥٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمّاً بِغَمٍّ لِّكَيْلاَ

تَحْزَنُواْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَآ أَصَابَكُمْ } ؛ راجعٌ إلى قولهِ{ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ }[آل عمران : ١٥٢] لأنَّ عفوَه عنهم لا بُدَّ أن يتعلَّقَ بذنبٍ منهم ؛ وذلك الذنبُ ما بيَّنهُ بقولهِ { إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أحَدٍ } أي ولقد عَفَا عنكُم { إِذْ تُصْعِدُونَ } أي إذ تُبْعَدُونَ هَرَباً في الأرضِ بالْهَزِيْمَةِ. والإصْعَادُ : السَّيْرُ فِي مُسْتَوَى الأَرْضِ.

وقرأ الحسنُ وقتادة : (تَصْعَدُونَ) بفتحِ التاء والعين. قال أبو حاتِمٍ : يقالُ : أصْعَدْتُ ؛ إذا مَضَيْتُ حِيَالَ وَجْهِكَ ، وَصَعَدْتُ ؛ إذا رَقِيْتُ عَلَى جَبَلٍ أوْ غَيْرِهِ. والإصْعَادُ : السَّيْرُ فِي مُسْتَوَى الأَرْضِ وَبُطُونِ الأوديةِ والشِّعاب. والصُّعُودُ : الارتفاعُ على الجبلِ والسُّطوح والسَّلالم والمدرَجِ ، وكِلاَ القراءتين صوابٌ. وقد كان يومئذٍ منهم صَاعِدٌ مُصْعِدٌ ؛ أي صاعدٌ إلى الجبلِ ، ومُصْعِدٌ هَاربٌ على وجههِ ، وَالرَّسُولُ يَدْعُوهُمْ : " إلَيَّ يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِيْنَ ؛ وَيَا أصْحَابَ الْبَقَرَةِ وَآلَ عِمْرَانَ أَنَا رَسُولُ اللهِ " فَلَمْ يَلْتَفِتْ إلَيْهِ مِنْهُمْ أحَدٌ حَتَّى أتَوا عَلَى الْجَبَلِ. ويحتملُ أنَّهم ذهبُوا في بَطْنِ الوادِي أوَّلاً ؛ ثُمَّ صَعَدُوا الجبلَ ، فَلا تَنَافِيَ حينئذٍ بين القرائَتين.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أحَدٍ } أي لا تُعَرِّجُونَ ولا تُقِيْمُونَ على رسولِ الله صلى الله عليه وسلم فلا يقيمُ بعضُكم على بعضٍ ولا يَلْتَفِتُ بعضكم إلى بعضٍ. وقرأ الحسن : (وَلاَ تَلُونَ) بواوٍ واحدة ، كما يقالُ : اسْتَحَيْتُ وَاسْتَحْيَيْتُ. قال الكلبيُّ : (يَعْنِي بقَوْلِهِ (عَلَى أحَدٍ) النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم). قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ } أي مِن خلفِكم ، وذلكَ أنَّهُ لَمَّا انْهَزَمَ الْمُسْلِمُونَ لَمْ يَبْقَ مَعَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم إلاَّ ثَلاثَة عَشَرَ رَجُلاً ، خَمْسَةٌ مِنَ الْمُهَاجِرِيْنَ : أبُو بَكْرٍ ؛ وَعَلِيٌّ ؛ وَعَبْدُالرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ ؛ وَطَلْحَةُ بْنُ عَبْدِاللهِ ؛ وَسَعْدٌ ، وَثَمَانِيَةٌ مِنَ الأنْصَارِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَثَابَكُمْ غَمّاً بِغَمٍّ لِّكَيْلاَ تَحْزَنُواْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَآ أَصَابَكُمْ } أي جزاكم غَمّاً مُتَّصلاً بغمٍّ ؛ فَأحدُ الغمَّين الْهَزِيْمَةُ وَقَتْلُ أصحابهم ، والثَّاني : إشْرَافُ خالدٍ في فَمِ الشِّعْب مع خَيْلِ المشركينَ. وقيل : الغمُّ الأوَّلُ هو القتلُ والجراحُ ، والثانِي : سَمَاعُهم بأنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قُتِلَ ؛ فأساءَهم الغمُّ الأوَّل بقولهِ { لِّكَيْلاَ تَحْزَنُواْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ } أي إذْ أنالَكُم غمَّ النبيِّ صلى الله عليه وسلم نِلْتُمْ بهِ كل غمٍّ من فَوْتِ الغنيمةِ والْهَزِيْمَةِ. وقيل : معناهُ : مَن تَرَادَفَتْ عليه الغمُومُ واعتادَ في ذلك يقلُّ حُزْنُهُ وتأسُّفه على ما يفوتُه من الدُّنيا.

وقال الزجَّاج : (مَعْنَى قَوْلِهِ { غَمّاً بِغَمٍّ } أي جَزَاكُمْ غَمّاً بمَا غَمَمْتُمْ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم بمُفارَقَةِ الْمَكَانِ الَذِي أمَرَكُمْ بحفْظِهِ). وقال الحسنُ : (مَعْنَى هَذا الغَمِّ بغَمِّ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ بَدْرٍ). ويقالُ : { لِّكَيْلاَ تَحْزَنُواْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ } متَّصِلٌ بقولهِ{ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ }[آل عمران : ١٥٢] ، وقيلَ : معناهُ : { لِّكَيْلاَ تَحْزَنُواْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ } بمعنى الغنيمةِ والفَتحِ. { لاَ مَآ أَصَابَكُمْ } : (مَا) في موضعِ خَفْضٍ ؛ أي وَلاَ مَا أصَابَكُمْ مِن القتلِ والْهَزِيْمَةِ. وقال بعضُهم : (لاَ) زائدةٌ ؛ معناهُ : لِكَي تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَمَا أصَابَكُمْ ؛ عقوبةً لكم فِي خِلافكم وتَرْكِكُمْ الْمَرْكَزَ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } ؛ أي عالِمٌ بأعمالِكم من إغْتِمَامِ المسلمينَ وشَمَاتَةِ المنافقينَ.

ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٥٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاساً } ؛ الآيةُ ؛ وذلك أنَّهُ لَمَّا افْتَرَقَ الْفَرِيْقَانِ ؛ " بَعَثَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم عَلِيّاً رضي الله عنه فِي إثْرِ الْمُشْرِكِيْنَ وَقَالَ لَهُ : " انْظُرْ ؛ فَإنْ هُمْ جَنَبُواْ الْخَيْلَ وَرَكِبُواْ الإبلَ فَهُمْ يُرِيدُونَ مَكَّةَ ، وَإنْ رَكِبُواْ الْخَيْلَ وَسَاقُواْ الإبلِ فَهُمْ يُرِيْدُونَ الْمَدِيْنَةَ ". فَخَرَجَ عَلِيٌّ فِي إثْرِهِمْ فَإذا هُمْ رَكِبُواْ الإبلَ وَقَادُواْ الْخَيْلَ ، فَرَجَعَ عَلِيٌّ رضي الله عنه وَأَخْبَرَ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم : سَمِعْتُهُمْ يَقُولونَ إنَّا قَدِ اْجتَمَعْنَا لِنُحَارِبَ ثَانِياً ، فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " كَذبُواْ ؛ فَإنَّهُمْ أرَادُوا الإنْصِرَافَ إلى مَكَّةَ " فَكَانَ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَأَمِنَ الْمُسْلِمُونَ ، وأَلْقَى اللهُ عَلَيْهِمُ النَّوْمَ ؛ فَمَا بَقِيَ مِنْهُمْ أحَدٌ إلاَّ وَقَدْ ضَرَبَ ذقْنَهُ صَدْرَهُ ؛ إلاَّ مُعَتِّبَ بْنَ قُشَيْرٍ وَأصْحَابَهُ الَّذِيْنَ كَانُواْ يَشُكُّونَ فِي أمْرِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ؛ لَمَّا عَلِمَ اللهُ مِنْ بَاطِنِهِمْ خِلاَفَ مَا عَلِمَ مِنْ بَاطِنِ الْمُؤْمِنِيْنَ مَنَعَهُمْ مَا أَعْطَى الْمُؤْمِنِينَ ؛ فَتَرَدَّدُواْ فِي الْخَوْفِ عَلَى أنْفُسِهِمْ وَسُوءِ الظَّنِّ برَبِهِمْ ؛ يَئِسُواْ مِنْ نَصْرِهِ وَشَكُّوا فِي صَادِقِ وَعْدِهِ وَصَادِقِ عَهْدِهِ.

ومعنى الآية : { ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِّن بَعْدِ الْغَمِّ } الذي كنتُم فيه أمْناً. قوله : (نُعَاساً) بدلٌ مِن (أمَنَةً) أي أمَّنَكُمْ أمَناً تَنَامُونَ معهُ ؛ لأنَّ الْخَائِفَ لا ينامُ ، ومِن هنا قالَ ابنُ مسعود رضي الله عنه : (النُّعَاسُ فِي الصَّلاَةِ مِنَ الشَّيْطَانِ ، وَفِي الْقِتَالِ مِنَ الرَّحْمَنِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنْكُمْ } ؛ قرأ الأعمشُ وحمزة والكسائيُّ وخلفُ : (تَغْشَى) بالتاء ؛ ردُّوه إلى الأمَنَةِ ، وقرأ الباقونَ بالياءِ ؛ ردُّوه إلى النُّعاسِ ؛ لأن النعاسَ يلي الفعلَ ، فالتذكيرُ أوفَى منهُ مِمَّا بَعُدَ منهُ ، وهذا قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى }[القيامة : ٣٧] بالياء والتَّاء ، والمراد بالطائفةِ التي غَشِيَهُمُ النُّعاسُ أهلُ الصدقِ واليقين. قال أبو طَلْحَةَ رضي الله عنه : (رَفَعْتُ رَأسِي يَوْمَ أُحُدٍ ؛ فَجَعَلْتُ مَا أرَى أحَداً مِنَ النَّاسِ إلاَّ وَهُوَ يَمِيلُ تَحْتَ حَجَفَتِهِ مِنَ النُّعَاسِ) قالَ أبو طلحةَ : (كُنْتُ مِمَّنْ أنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِ النُّعَاسَ يَوْمَئِذٍ ؛ وَكَانَ السَّيْفُ يَسْقُطُ مَنْ يَدِي ثُمَّ آخُذُهُ ؛ ثُمَّ يَسْقُطُ مَنْ يَدِي ثُمَّ آخُذُهُ). والمرادُ بقولهِ تعالى : { وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ } ؛ المنافقونَ : مُعَتِّبُ ابْنُ قُشَيْرٍ وأصحابُه أمَرَتْهُمْ

أنفسُهم وحملتْهُم على الغمِّ ، يقالُ لكلِّ مَن خَافَ وَحَزُنَ فِي غيرِ موضعِ الْحُزْنِ والخوفِ : أهَمَّتْهُ نَفْسُهُ.
قَوْلُهُ : { يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ } ؛ يعني هذه الطائفةَ التي قد أهَمَّتْهُمْ أنفسُهم ؛ يَظُنُّونَ باللهِ أنْ لا ينصرَ مُحَمَّداً وأصحابَه ، وقيل : ظَنُّوا أنَّ مُحَمَّداً صلى الله عليه وسلم قد قُتِلَ ، وقَوْلُهُ تَعَالَى : { ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ } أي كَظَنِّ أهلِ الجاهليَّةِ والشِّركِ ، وقيل : كَظَنِّهِمْ في الجاهليَّة ، { يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ } ؛ أي مَا لَنَا مِن الأمرِ من شيءٍ ، لفظةُ استفهامٍ ومعناها : الْجَحْدُ ؛ يعنون النَّصْرَ.

(٠/٠)

إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٥٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ } ؛ أي إنَّ الذين انْهزمُوا منكم يا معشرَ المؤمنين يومَ التقَى الْجَمْعَانِ ؛ جَمْعُ المسلمينَ وجَمْعُ المشركين ، إنَّما اسْتَزَلَّهُمُ الشيطانُ عن أماكنِهم ببعضِ ما كَسَبُوا ؛ وهو مفارقةُ المكانِ الذي أمرَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم بحفظِهِ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ } ؛ حينَ لَم يستأصِلْهم. ويقالُ في معنَى هذه الآيةِ : إنَّهم لَم يفرُّوا على جهةِ المعاندَةِ والفرار من الزَّحف ، ولكنْ أذْكَرَهُمُ الشيطانُ خطايَاهُم التي كانَتْ منهُم ؛ فَكَرِهُواْ لقاءَ اللهِ إلاَّ على حالةٍ يرضَونَها ، ولذلك عَفَا اللهُ عنهم.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ } ؛ أي متجاوزٌ لذنوبهم لَمْ يُعَجِّلْ بالعقوبةِ عليهم. رويَ : (أنَّ رَجُلاً مِنَ الْخَوَارِجِ أتَى عَبْدَاللهِ بْنَ عُمَرَ رضي الله عنه فَسَأَلَهُ عَنْ عُثْمَانَ رضي الله عنه : أكَانَ شَهِدَ بَدْراً ؟ قَالَ : (لاَ) ، قَالَ : شَهِدَ بَيْعَةَ الرُّضْوَانِ ؟ ، قَالَ : (لاَ) ، قَالَ : فَكَانَ مِنَ الَّذِينَ تَوَلَّوا يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ؟ قَالَ : (نَعَمْ). فَوَلَّى الرَّجُلُ يَهُزُّ فَرَحاً ، فَلَمَّا عَلِمَ ابْنُ عُمَرَ بُغْضَهُ لِعُثْمَانَ قَالَ لَهُ : (ارْجِعْ) ؛ فَرَجَعَ ، فَقَالَ لَهُ : (أمَّا تَخَلُّفُهُ يَوْمَ بَدْرٍ ؛ فَإنَّ النّبيَّ صلى الله عليه وسلم خَلَّفَهُ عَلَى ابْنَتِهِ رُقَيَّةُ يَقُومُ عَلَيْهَا ، كَانَتْ مَرِيْضَةً فَتُوُفِّيَتْ يَوْمَ بَدْر ، فَكَانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَأَصْحَابُهُ فِي الْغَزْوِ ، وَعُثْمَانُ رضي الله عنه فِي تَكْفِيْنِ ابْنَةِ رَسُولِ اللهِ وَدَفْنِهَا وَالصَّلاَةِ عَلَيْهَا ؛ فَلَمَّا رَجَعَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم جَعَلَ أجْرَهُ كَأَجْرِهِمْ وَسَهْمَهُ كَسَهْمِهِمْ.
وَأَمَّا بَيْعَةُ الرُّضْوَانِ ؛ " فَقَدْ بَايَعَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم بيَدِهِ الْيُسْرَى عَلَى الْيُمْنَى ، وَقَالَ : " هَذِهِ عَنْ عُثْمَانَ " وَيَسَارُ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم خَيْرٌ مِنْ يَمِيْنِ عُثْمَانَ رضي الله عنه ")).وَأَمَّا

الّذِيْنَ تَوَلَّوْاْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ؛ فَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ وَاللهُ غَفُورٌ حَلِيْمٌ ؛ فَاجْهَدْ عَلَى جَهْدِكَ ، فَقَامَ الرَّجُلُ حَزْنَانَ نَاكِساً رَأْسَهُ.

(٠/٠)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١٥٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ياأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزَّى لَّوْ كَانُواْ عِنْدَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ } ؛ معناهُ : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَكُونُوا) كَمُنَافِقِي أهلِ الكتاب عبدِالله بن أبَيّ وأصحابه ؛ قالُوا لإِخْوَانِهِمْ فِي النِّفَاقِ إذا سَارُواْ فِي الأَرْضِ تُجَّاراً مسافرينَ فَمَاتُوا في سفرِهم أو كانوا في الغَزْو فَقُتِلُوا لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا في سَفَرِهم ، وما قُتِلُوا في الغزو.
وَغُزّاً جَمْعُ غَازٍ مْثْلُ رَاكِعٍ وَرُكَّعٍ ، وقد يُجمع غَاز على غُزَاةٍ ، مِثْلُ قَاضٍ وَقُضَاةٍ.
وَقَوْلُهُ : { لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ } ؛ أي ليجعلَ اللهُ ما ظَنُّوا حُزْناً يتردَّدُ في أجوافِهم. ثم أخبرَ اللهُ أنَّ الموتَ والحياة إليه لا يُقَدِّمَانِ لِسَفَرٍ ولا يُؤَخَّرَانِ لِحَضَرٍ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ } ؛ يُحَذِّرُهُمْ عن التَّخَلُّفِ عن الجهادِ وخِشْيَةَ الموتِ والقَتْلِ ؛ لأن الإحياءَ والإماتَةَ إلى اللهِ تعالى في السَّفرِ والحضَرِ ؛ وحالَ القتالِ وحالَ غيرِ القتالِ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } ؛ ترغيبٌ في الطاعةِ ، وتحذيرٌ من المعصيةِ. قرأ ابنُ كثير والأعمشُ والحسن وحمزةُ والكسائي وخلفُ : بالياءِ ، والباقون بالتاءِ.

(٠/٠)

وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ } ؛ معناهُ : لو قُتِلْتُمْ في طاعةِ الله أو مُتُّمْ فيها { لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ } من الأموالِ. وإنَّما قالَ هكذا وإن كانَ هو معلوماً ؛ لأن مِن الناسِ مَنْ آثَرَ الدُّنيا على الجهادِ وخِشْيَةِ القَتْلِ.

قرأ حَفْصٌ : (يَجْمَعُونَ) بالياء على الخبر ؛ خَيْرٌ لكم أيُّها المؤمنونَ مِمَّا يجمعُ المنافقون في الدُّنيا. وقرأ نافعُ وأكثرُ أهلِ الكوفة : (مِتُّمْ) بكسرِ الميم مِنْ مَاتَ يُمَاتُ. وقرأ الباقونَ بضَمِّهَا مِن مَاتَ يَمُوتُ.

(٠/٠)

وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ (١٥٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى الله تُحْشَرُونَ } ؛ معناهُ : لَئِنْ مُتُّمْ على فُرُشِكُمْ ، أو قُتِلْتُمْ في الغَزْو فَإِلَى اللهِ تُرْجَعُونَ في الآخرةِ ، كيفَ ما دارَتِ القصَّة فإنَّ مصيرَكم إلى اللهِ ، ولئن تصِيرُوا إلى اللهِ بالقتلِ الذي تستحقُّون عليه العِوَضَ خيرٌ من أنْ تصيروا إليه بالموتِ الذي لا يستحقُّون عليه العِوَضَ.
قال عَلِيٌّ رضي الله عنه : فَإِنْ تَكُنِ الأَبْدَانُ لِلْمَوْتِ أنْشِئَتْ فَمَقْتَلُهَا بالسَّيْفِ فِي اللهِ أفْضَلُواللاَّمُ في (لَئِنْ) لامُ القسَمِ ، وتصلحُ أن تكونَ للابتداءِ والتأكيدِ ، واللامُ في { لَمَغْفِرَةٌ } جوابُ القسَم ، وتصلحُ أن تكون مؤكِّدةً جوابَ الشرطِ.

(٠/٠)

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ } ؛ أي فَبِرَحْمَةٍ عظيمةٍ مِن الله لِنْتَ لَهم حتى صار لِيْنُكَ لَهُمْ سَبَباً لِدخولِهم في الدِّينِ ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم أتاهُم بالحُجَجِ والبَرَاهِيْنِ مع لِيْنٍ وخُلُقٍ عظيمٍ ، ولِهذا قالَ صلى الله عليه وسلم : " إنَّمَا أنَا لَكُمْ مِثْلَ الْوَالِدِ لِوَلَدِهِ "
و (مَا) في قولِهِ زائدةٌ لا يَمْنَعُ الباءُ من عملِها ، مثلَ قولِهِم{ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ }[النساء : ١٥٥] قال بعضُهم : يُحتمل أن تكونَ (مَا) استفهاميةٌ للتعجُّب ؛ تقديرهُ : فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ سَهُلَتْ لَهُمْ أخْلاَقُكَ وكثرَةُ احتمالِكَ ؛ فلم تَغْضَبْ عليهم فيما كان منهم يومَ أحُدٍ.
قولهُ : { وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ } ؛ أي لو كنتَ يا مُحَمَّدُ خَشِناً في القولِ سَيِّءَ الْخُلُقِ قَاسِيَ القلب لتفرَّقُوا من حولِكَ ، فلم تَرَ منهُم أحداً ، ولكنَّ اللهَ جعلَكَ سَمحاً سَهْلاً طَلْقاً لَطِيْفاً لَيِّناً بَرّاً رَحِيْماً.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ } ؛ أي فَاعْفُ عَنْهُمْ مَا أَتَوْهُ يومَ أحُدٍ ؛ وتَجَاوَزْ عنهُم الجريْمةَ التي تكونُ بينَكَ وبينَهم ، وكانوا عَصَوا النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم في تركِ المركزِ ، وتركِ الآية لِدَعْوَتِهِ : [ارْجِعُوا ارْجِعُوا] ، فَنَدَبَ اللهُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم إلى العَفْوِ عنهُم. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ } أي في الذنب الذي يكونُ منهم حتى أُشَفِّعَكَ فيهِم.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ } ؛ أي إذا أردتَ أن تعملَ عملاً مِمَّا لم يكن عندكَ فيه وحيٌ فَشَاورْهُمْ فيهِ ، وَاعْمَلْ أبداً بتدبيرِهم ومشورتِهم ، وكانَ صلى الله عليه وسلم مُسْتَغْنِياً عن مشورتِهم ، فإنَّهُ كان أرشدَهم وأكملَهم رأياً ، لكنَّ الله إنَّما أمرهُ بالْمُشَاوَرَةِ لِتَقْتَدِيَ بهِ الأُمَّةُ ، وليكونَ فيه تطييبٌ لنفوسِ المؤمنينَ ، ورفعٌ لأقدارهم وثناءٌ عليهم. قال مقاتلُ وقتادة : (كَانَتْ سَادَاتُ الْعَرَبِ إذا لَمْ يُشَاوَرُواْ فِي الأَمْرِ شُقَّ عَلَيْهِمْ ، فَأُمِرَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم بمُشَاوَرَتِهِمْ فِي الأَمْرِ ؛ فَإِنَّهُ أطْيَبُ لأَنْفُسِهِمْ ، وَإذا شاوَرُاْ عَرَفُواْ إكْرَامَهُ لَهُمْ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ } ؛ أي أعْزَمْتَ على شيءٍ فَثِقْ باللهِ ، وفَوِّضْ إليه ولا تَتَّكِلْ على مشورتِهم ، { إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ } ؛ عَلَى اللهِ.

واختلفَ العلماءُ في معنى التَّوَكُّلِ ، فقال سهلُ بن عبدِالله : (أوَّلُ مَقَامِ التَّوَكُّلِ : أنْ يَكُونَ الْعَبْدُ بَيْنَ يَدَي اللهِ كَالْمَيِّتِ بَيْنَ يَدَي الْغَاسِلِ ، يُقَلِّبُهُ كَيْفَ يَشَاءُ ، وَالرَّجَاءُ لاَ يَكُونَ لَهُ حَرَكَةٌ وَلاَ تَدْبيرٌ ، وَالْمُتَوَكِّلُ لاَ يَسْأَلُ وَلاَ يَرُدُّ وَلاَ يَحْبسُ). وقال إبراهيمُ الخوَّاص : (التَّوَكُّلُ إسْقَاطُ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ مِمَّا سِوَى اللهِ). قال بعضُهم : المتوكِّلُ الذي إذا أعْطِيَ شَكَرَ ، وإذا مُنِعَ صَبَرَ ، وَأن يكونَ العطاءُ والمنعُ عندَه سواءٌ ، والمنعُ مع الشُّكْرِ أحبُّ إليه لِعِلْمِهِ باختيار اللهِ ذلكَ. وقال ذُو النُّونُ : (التَّوَكُّلُ إنْقِطَاعُ الْمَطَامِعِ مِمَّا سِوَى اللهِ) ، وقالَ : (هُوَ مَعْرِفَةُ مُعْطِي أرْزَاقِ الْخَلاَئِقِ ، وَلاَ يَصُحُّ لأَحَدٍ حَتَّى تَكُونَ السَّمَاءُ عِنْدَهُ كَالصِّفْرِ ؛ وَالأَرْضُ كَالْحَدِيْدِ ؛ لاَ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَطَرٌ ؛ وَلاَ يَخْرُجُ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتٌ ، وَيَعْلَمُ أنَّ اللهَ لاَ يَنْسَى لَهُ مَا ضَمِنَ مِنْ رِزْقِهِ بَيْنَ هَذيْنِ).

(٠/٠)

إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٦٠)

قَوْلُهُ : { إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ } ؛ معناهُ : إنْ يَمْنَعْكُمُ اللهُ تعالى مِن عدوِّكم فلا غالبَ لكم من العدوِّ ، مِثْلَ يومِ بَدْر ؛ { وَإِن يَخْذُلْكُمْ } ؛ بأنْ يَكِلَكُمْ إلى أنفُسِكم ويرفعَ نصرَهُ عنكم كيومِ أحُدٍ ؛

{ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّنْ بَعْدِهِ } ؛ أي مِن بَعْدِ خُذْلاَنِهِ إيَّاكم ، { وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ } ؛ فِي النُّصْرَةِ.

(٠/٠)

وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦١)

(٠/٠)

أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ } ؛ استفهامٌ بمعنى تقديرِ حالِ الفريقَين ، يقولُ : ليس مَن اتَّبَعَ رضْوَانَ اللهِ ؛ أي مَن تركَ الْغُلُولَ وَالْحَرَامَ وأخذ الحلالَ مِن الغنيمةِ كمنِ استوجبَ سَخَطَ اللهِ بأخذِ الغُلُولِ والحرامِ ، وقيل : معنى الآية : { أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ } بالجهادِ في سبيل الله { كَمَن بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ } بالفرارِ من الجهاد. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ } ؛ راجعٌ إلى { مَنْ بَاء بسَخَطٍ مِنَ اللهِ }. { وَبِئْسَ } ؛ النَّارَ ؛ { الْمَصِيرُ }.

(٠/٠)

هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٦٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ } ؛ معناهُ : إنَّ الذين يتَّبعون رضوانَ اللهِ ذوُو درجاتٍ رفيعَةٍ ، والآخرونَ ذوُو دَرَكَاتٍ خَسِيْسَةٍ ، فإنَّ لأحدِ الفريقين درجاتٌ في الجنَّة ، وللآخرِ دَرَكَاتٌ في النَّار ، والمعنَى : أنَّ مَنِ اتبعَ رضوانَ اللهِ ، وَمَن بَاءَ بسَخَطٍ من اللهِ مختَلِفُو المنازل عندَ الله ، فَلِمَنِ اتبعَ رضوانَ الله الكرامةُ والثوابُ العظيم ، ولِمَنْ باءَ بسَخَطٍ مِن اللهِ المهانةُ والعذاب الأليمُ. وقال بعضُهم : هذه

الآيةُ خاصَّة في المؤمنينَ ؛ أي هُم طبقاتٌ بعضُهم أرفعُ مِن بعضٍ في الجنَّة. قَوْلُهُ تَعَالَى : { واللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ } ؛ أي عالِمٌ بمَنْ غَلّ وَمَنْ لاَ يُغِلُّ.

(٠/٠)

لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (١٦٤) أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٦٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنْفُسِهِمْ } ؛ أي لقد أنْعَمَ على المؤمنينَ إذ بَعَثَ فيهِم رَسُولاً مِنْهُمْ ، وهو النبيُّ صلى الله عليه وسلم ؛ بعثَهُ الله من العرب ، معروفَ النَّسب ، عرفُوهُ بالصِّدقِ والأمانَةِ ، وكان يُسَمَّى (الأمِيْنُ) قبلَ الوحي ، وقيلَ : بعثهُ الله من جِنْسِ بَنِي آدمَ ، ولَمْ يبعثْهُ من الملائكةِ ؛ لأنه إذا كان من جِنْسِهِمْ كانَ تَعَلُّمُهُمْ منهُ أسهلَ عليهم. وقرأ في الشَّواذ : (مِنْ أنْفَسِهِمْ) بنصب الفاءِ ؛ أي أشْرَفِهِمْ ؛ لأن العربَ أفضلُ من غيرهم ، وقريش أفضلُ العرب.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ } ؛ أي يقرأ عليهم القرآنَ بما فيه من أقَاصِيْصِ الأُمم السَّالفة ، وهو أُمِّيٌّ لَمْ يقرأ الكُتُبَ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيُزَكِّيهِمْ } ؛ أي يُطَهِّرُهُمْ من الشِّركِ والذُّنوب ، ويأخذُ منهم الزَّكاةَ التي يُطَهِّرُهُمْ بهَا. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ } ؛ أي القرآنَ والفِقْهَ ، { وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ } ؛ أنْ يَأتِيَهُمْ مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم { لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ } ؛ مِن الْهُدَى.
والخطابُ يُبَيِّنُ قولَه تعالى : { أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِّثْلَيْهَا } ؛ أي لَمَّا أصابتكُم مصيبةُ يومِ أحُدٍ قد أصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا يومَ بدر ؛ أي قَتلتُم يومَ بدر سبعينَ ، وأسرتُم سبعينَ ، وقُتِلَ منكم يومَ أُحدٍ سبعونَ ، ولم يُؤْسَرْ منكم أحدٌ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْتُمْ أَنَّى هَاذَا } ؛ القتلَ والْهَزِيْمَةَ ونحنُ مسلمونَ ورسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم فِيْنَا والوحيُ يَنْزِلُ علينا ، وهُم مشركونَ ، { قُلْ } ؛ يَا مُحَمَّدُ : { هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ } ؛ لِمُخَالَفَتِكُمْ أمرَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم بالخروجِ عَنِ المدينةِ ، وقد كانَ أمَرَكم بالْمُقَامِ فيها ليدخلَ عيلكم الكفَّار فتقلُوهم في أزقَّتِهَا. وقيلَ : إنَّما أصابَكم هذا مِن عند قومِكم بمعصيَةِ الرُّماةِ بتركهم ما أمَرَهُم به النبيُّ صلى الله عليه وسلم ، { إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } ؛ أي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مِن النَّصرِ وغيرِ ذلك قَادِرٌ.

(٠/٠)

وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (١٦٦) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَآ أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ } ؛ معناهُ : مَا أصَابَكُمْ يا معشرَ المسلمين يوم أحُدٍ يَوْمَ الْتَقَى جيشُ المسلمينَ ، وجيشُ المشركينَ يومَ أحُدٍ من القتلِ والْجُرُوحِ والهزيْمَةِ فَبِعِلْمِ اللهِ وقضائِه وإرادته ، ويقالُ : أرادَ بالإذنِ : التَّخْلِيَةَ بين المؤمنينَ والكفَّار ، وإلاَّ فاللهُ لا يُؤْذِنُ بالمعصيةِ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ * وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُواْ } ؛ أي لِيُرِي المؤمنينَ ؛ وقيل : لتعلَمُوا أنتُم أنَّ الله قد عَلِمَ نِفَاقَهُمْ ، وأنتُم لَمْ تكونوا تعلمونَ ذلك ، والمعنى : لِيَرَى اللهُ إيْمَانَ المؤمنينَ بثبوتهم على ما نَالَهُمْ ، ويرَى المنافقين بفَشَلِهِمْ ، وقلَّةِ صبرهم على ما يَنْزِلُ بِهِ في ذاتِ الله تعالى. { وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُواْ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ } ؛ ذلكَ أنَّ عبدَاللهِ بن أبَيّ وأصحابَه لَمَّا رجعوا إلى المدينةِ قال لَهم عبدُالله بنُ جبيرٍ : (تَعَالُواْ إلَى أحُدٍ وَقَاتِلُواْ فِي طَاعَةِ اللهِ وَادْفَعُواْ فِي أنْفُسِكُمْ وَأَهْلِكُمْ وَحَرِيْمِكُمْ) ، فقال المنافقون : لا يكونُ قتالٌ اليومَ ، ولو نعلمُ أن يكونَ قتالٌ لكنَّا معكُم.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ } ؛ أي كانوا قبلَ ذلك القولِ عند المؤمنين أقربَ إلى الإيْمانِ بظاهرِ حالِهم ؛ ثُم هَتَكُوا سَتْرَهُمْ وأظهروا مَيْلَهُمْ إلى الْكُفْرِ ؛ فصارُوا في ذلكَ اليومِ أقربَ إلى الكفرِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ } ؛ كنايةٌ عن كَذِبِهِمْ في قولِهم { لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ }. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ } ؛ أي بما يُخفون من الشِّركِ.

(٠/٠)

الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٦٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { الَّذِينَ قَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا } ؛ معناهُ : الذينَ قالُوا لإخوانِهم من المنافقينَ بالمدينةِ وقعدُوا بأنفسِهم عن الجهادِ : لو أطاعونَا المسلمونَ الذينَ خَرَجُواْ إلى القتالِ ما قُتِلُواْ في الغَزْوِ ، { قُلْ } ؛ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ : { فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ } ؛ في مقالَتِكم : لو لَمْ يخرجُوا إلى القتالِ ما قُتلوا. قال الفقيهُ أبو اللَّيث : (سَمِعْتُ بَعْضَ الْمُفَسِّرِيْنَ يَقُولُ : لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ مَاتَ يَوْمَئِذٍ سَبْعُونَ نَفْساً مِنَ الْمُنَافِقِيْنَ).

وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ } ؛ قال ابنُ عبَّاس وابنُ مسعودٍ وجابرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " لَمَّا أُصِيْبَ إِخْوَانُكُمْ يَوْمَ أحُدٍ ؛ جَعَلَ اللهُ أَرْوَاحَهُمْ فِي أَجْوَافِ طُيُور خُضْرٍ تَرِدُ أَنْهَارَ الْجَنَّةِ ؛ وَتَأْكُلُ مِنْ ثِمَارِهَا ؛ وَتَأْوِي إِلَى قَنَادِيْلَ مِنْ ذهَبٍ تَحْتَ الْعَرْشِ ، فَلَمَّا رَأوْا طِيْبَ مَنْقَلِهِمْ وَمَطْعَمِهِمْ وَمَشْرَبِهِمْ ، وَمَا أَعْطَى اللهُ مِنَ الْكَرَامَةِ ؛ قَالُوْا : يَا لَيْتَ إِخْوَانِنَا عَلِمُواْ مَا أَعَدَّ اللهُ لَنَا مِنَ الْكَرَامَةِ ، وَمَا نَحْنُ فِيْهِ مِنَ النَّعِيْمِ ، فَلَمْ يَنْكِلُواْ عِنْدَ اللِّقَاءِ وَلَمْ يَجْبَنُواْ فِي الْحَرْب ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : أَنَا أَبَلِّغُهُمْ عَنْكُمْ ؛ فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ "

" وقال جابرُ بن عبدِالله الأنصاريِّ : قُتِلَ أبي يَوْمَ أحُدٍ وَتَرَكَ عَلَيَّ ثَلاَثَ بَنَاتٍ ؛ فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " ألاَ أُبَشِّرُكَ يَا جَابِرُ؟! " قُلْتُ : بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ ، قَالَ : " إِنَّ أَبَاكَ حِيْنَ قُتِلَ أَحْيَاهُ اللهُ تَعَالَى وَكَلَّمَهُ كِفَاحاً ؛ فَقَالَ : يَا عَبْدَاللهِ ؛ سَلْنِي مَا شِئْتَ ، قَالَ : أَسْأَلُكَ أَنْ تُعِيْدَنِي إِلَى الدُّنْيَا فَأُقْتَلَ فِيْهَا ثَانِيةً ، فَقَالَ : يَا عَبْدَاللهِ ؛ إِنِّي قَضَيْتُ أَنْ لاَ أُعِيْدَ إِلَى الدُّنْيَا خَلِيْقَةً قَبَضْتُهَا ، قَالَ : يَا رَب فَمَنْ يُبَلِّغُ قَوْمِي مَا أَنَا فِيْهِ مِنَ الْكَرَامَةِ ؟ قَالَ اللهُ : أَنَا ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ ".

ومعنَى الآيةِ : وَلاَ تَظُنَّنَّ يا مُحَمَّدُ الشهداءَ المقتولينَ في طاعةِ الله. { أَمْوَاتاً } نُصِبَ على المفعولِ ؛ لأن الْحُسْبَانَ يتعدَّى إلى مفعولينِ ، { بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ } الجنَّة ، سَمَّاهُمْ أحياءً ؛ لأنَّهم يأكلونَ ويتمتَّعون ويُرزقون كالأحياءِ. وقيل : سَمَّاهُمْ أحياءً ؛ لأنَّهم يُكتب لَهم في كلِّ سنةٍ ثوابَ غَزْوَةٍ ، ويُشْرَكُونَ في فضلِ كلِّ جهادٍ إلى يومِ القيامة. وقيل : لأنَّ أرواحَهم تركعُ وتسجدُ كلَّ ليلةٍ تحتَ العرشِ إلى يومِ القيامة كأرواحِ الأحيَاء. وقيل : لأنَّ الشهيدَ لاَ يَبْلَى في الأرضِ ولا يتغيَّرُ في القبرِ. ويقالُ : أَرْبَعَةٌ لاَ تَبْلَى أَجْسَادُهُمْ : الأَنْبِيَاءُ ؛ وَالْعُلَمَاءُ ؛ وَالشُّهَدَاءُ ؛ وَحَمَلَةُ الْقُرْآنِ.

وعن عبدِالله بنِ عبدِالرَّحمن : (أَنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّ عَمْرَو بْنَ الْجَمُوحِ ، وَعَبْدَاللهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْحَرَامِ الأَنْصَارِيَّيْنِ كَانَا قَدْ أَخْرَبَ السَّيْلُ قَبْرَيْهِمَا وَكَانَا فِي قَبْرٍ وَاحِدٍ ؛ وَهُمَا مِمَّنِ اسْتُشْهِدَ يَوْمَ أُحُدٍ ، وَكَانَ قَبْرَهُمَا مِمَّا يَلِي السَّيْلَ ، فَوُجِدَا فِي قَبْرِهِمَا لَمْ يَتَغَيَّرَا كَأَنَّمَا مَاتَا بالأَمْسِ ، وَكَانَ بَيْنَ أُحُدٍ وَبَيْنَ خَرَاب السَّيْلِ سِتٌّ وَأَرْبَعُونَ سَنَةً).

وقيل : سموا أحياءً ؛ لأنَّهم لم يُغَسَّلُواْ كما تُغَسَّلُ الأحياءُ. قال صلى الله عليه وسلم : " زَمِّلُوهُمْ بدِمَائِهِمْ وَكُلُومِهِمْ ؛ فَإِنَّهُمْ يُحْشَرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بدِمَائِهِمْ ؛ اللَّوْنُ لَوْنُ الدَّمِ ؛ وَالرِّيْحُ رِيْحُ الْمِسْكِ " قرأ الحسنُ وابن عامر (قُتِّلُوا) بالتشديدِ.

(٠/٠)

فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَرِحِينَ بِمَآ آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ } ؛ أي من رزقِه وثوابِه ، وانتصبَ على الحالِ. وقرأ ابنُ السميقع : (فرحين) وهما لُغتان كالفرةِ والفارة ، والطمَعِ والطَّامع ، والحذر والحاذر. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ } ؛ أي يطلبُون السُّرورَ بقدومِ مَن لَمْ يَقْدَمْ عليهم من إخوانِهم ، يقولون : لَيْتَ إخوانَنا قُتِلُوا كما قُتِلْنَا ؛ فينالُوا من الكرامةِ والثواب ما نُلْنَا. وقال السديُّ : (يُؤْتَى الشَّهِيْدُ بِكِتَابٍ فِيْهِ مَنْ يَقْدُمُ عَلَيْهِ مِنْ إخْوَانِهِ وَأَهْلِهِ ؛ فَيُقَالُ : يَقْدُمُ عَلَيْكَ فَلاَنٌ يَوْمَ كَذا ؛ وَيَقْدُمُ عَلَيْكَ فُلاَنٌ يَوْمَ كَذا ؛ فَيَسْتَبْشِرُ بذلِكَ كَمَا بُشِّرَ إنْسَانٌ بقُدُومِ غَائِبٍ ؛ يَتَعَجَّلُ السُّرُورَ بِهِ قَبْلَ قُدُومِهِ).

وأصلُ الاسْتِبْشَار : مِنَ الْبَشَرَةِ ؛ لأنَّ الإنسانَ إذا فَرِحَ ظهرَ أثرُ السرور في بَشَرَةِ وجهِهِ. ومعنى الآيةِ : يَسْتَبْشِرُونَ بأنْ لا خوفٌ عليهم وعلى إخوانِهم الذينَ يأتونهم مِن بعدِهم ؛ وأنَّهم لاَ يَحْزَنُونَ في الآخرةِ.

(٠/٠)

يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (١٧١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ } ؛ أي بجَنَّةٍ وكرامةٍ ، ويَسْتَبْشِرُونَ أنَّ الله لا يُضِيْعُ ثوابَ الموحِّدين. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ } ؛ قرأ الكسائيُّ والفرَّاء : (وَإنَّ اللهَ) بالكسر على الاستئنافِ ودليلهُ قراءة ابنِ مسعود (وَاللهُ لاَ يُضِيْعُ أجْرَ الْمُؤْمِنِيْنَ).

وفي الحديثِ عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّهُ قالَ : " مَا يَجِدُ الشُّهَدَاءُ مِنَ الْقَتْلِ فِي سَبِيْلِ اللهِ إلاَّ كَمَا يَجِدُ أحَدُكُمْ مِنَ الْقَرْصَةِ " وفي حديثٍ آخرَ : " عَضَّةُ النَّمْلَةِ أشَدُّ عَلَى الشَّهِيْدِ مِنْ مَسِّ السِّلاَحِ " وفي حديثٍ آخرَ : " إنَّ الضَّرْبَةَ وَالطَّعْنَةَ عَلَى الشَّهِيْدِ مِثْلِ شُرْبِ الْمَاءِ الْبَارِدِ "

(٠/٠)

الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ للَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ } ؛ يجوزُ أن يكونَ أوَّلُ هذه الآيةِ في موضعِ الخفض على النَّعْتِ للمؤمنين ، والأحسنُ أن يكونَ في موضع الرّفعِ على الابتداءِ أو خبرُه للذين أحسنوا. ومعنى الآيةِ : الذينَ أجابُوا اللهَ بالطاعة والرسولَ بالخروجِ إلى بدر الصُّغرى من بعدِ ما أصابَهم الْجِرَاحُ ؛ { لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ } ؛ أي وَافَوا الميعادَ ، { وَاتَّقَواْ } ؛ سَخْطَ اللهِ ومعصيتَهُ ، { أَجْرٌ عَظِيمٌ } ، لهم ثَوَابٌ وَافِرٌ فِي الجنَّة.

قال ابنُ عباس : " وَذلِكَ أَنَّهُمْ تَوَاعَدُواْ يَوْمَ أُحُدٍ أنْ يَجْتَمِعُواْ ببَدْر الصُّغْرَى فِي الْعَامِ الْقَابِلِ ، فَلَمَّا حَضَرَ الأَجَلُ نَدِمَ الْمُشْرِكُونَ ، فَلَقِيَ أبُو سُفْيَانَ نُعَيْمَ بْنَ مَسْعُودٍ ؛ وَكَانَ يَخْرُجُ إلَى الْمَدِيْنَةِ لِلتِّجَارَةِ ؛ فَقَالَ : إذا أَتَيْتَ الْمَدِيْنَةَ فَخَوِّفْهُمْ كَيْلاَ يَخْرُجُوا وَلَكَ عَشْرٌ مِنَ الإبلِ إنْ رَدَدْتَهُمْ ، فَلَمَّا قَدِمَ نُعَيْمُ إلَى الْمَدِيْنَةِ ؛ وَكَانَ أصْحَابُ رَسُولِ اللهِ يُرِيْدُونَ مَوَافَاةَ أبي سُفْيَانَ ؛ قَالَ : بِئْسَ الرَّأيِ رَأيْتُمْ ، أتَوْكُمْ فِي دِيَارِكُمْ وَقَرَارِكُمْ ، وَلَمْ يَنْفَلِتْ مِنْهُمْ إلاَّ الشَّرِيْدُ ؛ تُرِيْدُونَ أنْ تَأتُوهُمْ فِي دِيَارِهِمْ وَقَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ ، أمَا إنَّ الرَّجُلَ الْوَاحِدَ مِنْهُمْ يُطِيْقُ عَشْرَةً مِنْكُمْ ، إذاً وَاللهِ مَا يَنْفَلِتُ مِنْكُمْ إلاَّ الشَّرِيْدُ. فَكَرِهَ أصْحَابُ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم الخُرُوجَ إلَيْهِمْ وتَثَاقَلُواْ ، فَلَمَّا رَأى رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ذلِكَ مِنْهُمْ قَالَ : " وَالَّذِي نَفْسِي بيَدِهِ لأَخْرُجَنَّ إلَيْهِمْ ، وإنْ لَمْ يَخْرُجْ مَعِي مِنْكُمْ أحَدٌ " فَمَضَى رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم لِلمِيعَادِ ، وَمَعَهُ أبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَعَلِيٌّ وَطَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ وَسَعْدُ وَعَبْدُاللهِ بْنُ مَسْعُودٍ وَحُذَيْفَةُ وَأبُو عُبَيْدَةَ فِي سَبْعِيْنَ رَجُلاً حتى انْتَهَوا إلَى بَدْرٍ ؛ فَلَمْ يَخْرُجْ أبُو سُفْيَانَ وَلَمْ يَلْقَوا بهَا أحَداً مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ ، فَتَسَوَّقُوا مِنَ السُّوقِ حَاجَتَهُمْ ثُمَّ انْصَرَفُواْ ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : { الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ للَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ } " قَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها لِعَبْدِاللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ : (يَا ابْنَ أخْتِي ؛ أمَا وَاللهِ إنَّ أبَاكَ وَجَدَّكَ – تَعْنِي أبَا بَكْرٍ – لَمِنَ الَّذِيْنَ قَالَ اللهُ فِيْهِمْ { الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ للَّهِ وَالرَّسُولِ } الآيَةُ).

(٠/٠)

الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً } ؛ معناهُ :

الذينَ قالَ لَهُمْ نُعَيْمُ بن مسعودٍ إنَّ أبا سفيان وأصحابَه قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ ولا تَخرجوا إليهم ؛ فَزَادَهُمْ هذا القولُ تصدِيقاً ويقيناً وجُرأة على القتالِ. { وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللَّهُ } ؛ أي يَقِيْناً باللهِ ، وكَافِيْنَا اللهُ أمرَهم. { وَنِعْمَ الْوَكِيلُ } ؛ أي النَّاصِرِ الحافظِ ، وموضع (الَّذِيْنَ) خَفْضٌ مردودٌ على (الَّـذِيْنَ) الأوَّل. وقد ذكرَ اللهُ نُعَيْماً بلفظِ النَّاسِ ؛ لأن الواحدَ قد يُذكر بلفظِ الجماعة على معنى الحسنِ ، ولِهذا قالوا : مَن حلفَ وقال : إنْ كلَّمتُ الناسَ فعبدي حُرٌّ ، فكلَّمَ رجلاً واحداً حَنَثَ.

(٠/٠)

فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَانْقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ } ؛ أي فَانْصَرَفُوا بأجْرٍ مِن اللهِ وفَضْلٍ ؛ وهو ما تَسَوَّقُواْ به من السُّوقِ. وروي أنَّهم اشْتَروا أدَماً وزيتاً وأشياءً وغيرَ ذلك بسعرٍ رخيصٍ فربحُوا على ذلكَ. ومعنى { لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ } لَمْ تُصِبْهُمْ جراحةٌ ولا قتلٌ ، { وَاتَّبَعُواْ رِضْوَانَ اللَّهِ } ؛ في الخروجِ إلى المشركينَ ؛ { وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ } ؛ بدَفْعِ المشركينَ عنِ المؤمنين.

(٠/٠)

إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّمَا ذالِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ } ؛ أراد بالشيطانِ نُعَيْمُ بنُ مسعودٍ ؛ وكُلُّ عَاتٍ مُتَمَرِّدٍ فهو شيطانٌ. وقيل : معناهُ : ذلك التخويفُ من عملِ الشَّيطانِ وَوَسْوَسَتِهِ ، وقولهُ { يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ } يعني المنافقينَ ومَن لا حقيقةَ في إيْمانهِ. { فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ } ؛ أي خَافُونِي في تركِ أمْرِي.

وذهبَ بعضُ المفسِّرين إلى أنَّ قولَه تعالى : { الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ }[آل عمران : ١٧٢] أنْزِلَتْ في حربِ أُحُدٍ ، وذلكَ : " أنهُ لَمَّا رَجَعَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم بَعْدَ الْهَزِيْمَةِ ؛ قَالَ لَهُمْ : " رَحِمَ اللهُ قَوْماً انْتَدَبُواْ لِهَؤُلاَءِ الْمُشْرِكِيْنَ لِيَعْلَمُواْ أنَّا لَمْ نُسْتَأْصَلْ " فَانْتَدَبَ قَوْمٌ مِمَّنْ أصَابَهُمُ الْجِرَاحُ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ فَشَدُّواْ عَلَى الْمُشْرِكِيْنَ حَتَّى كَشَفُوهُمْ عَنِ الْقَتْلَى بَعْدَ أنْ مَثَّلُواْ بحَمْزَةَ ، وَقَدْ كَانَ هَمُّوا بالْمُثْلَةِ بقَتْلَى الْمُسْلِمِيْنَ ، فَقَذفَ اللهُ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ؛ فَانْهَزَمُواْ.

وَصَلَّى رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم عَلَى الْقَتْلَى وَدَفَنَهُمْ ، فَجَاءَ أنَاسٌ مِنَ الْعَرَب وَقَدْ مَرُّوا بأبي سُفْيَانَ وَأصْحَابِهِ بمَوْضِعٍ يُسَمَّى حُمْرَاءَ الأَسَدِ ، فَقَالُواْ لِلْمُسْلِمِيْن : تَرَكْنَاهُمْ مُتَأَهِّبِيْنَ للرُّجُوعِ إلَى الْمَدِيْنَةِ لِقَتْلِ بَقيَّتِكُمْ ، فَعِنْدَ ذلِكَ قَالَ الْمُسْلِمُونَ : حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيْلُ ، فَأَمَرَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم أصْحَابَهُ بالْمَسِيْرِ إلَيْهِمْ ، فَلَمَّا سَارُواْ إلَى حَمْرَاءِ الأَسَدِ وَهِيَ عَلَى رَأْسِ ثَمَانِية أمْيَالٍ مِنَ الْمَدِيْنَةِ لَمْ يَرَوا الْمُشْرِكِيْنَ هُنَاكَ ؛ فَانْصَرَفَ الْمُسْلِمُونَ إلَى الْمَدِيْنَةِ بنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ ؛ وَهِيَ كِفَايَتُهُ لَهُمْ شَرَّ قُرَيْشٍ حَتَّى لَمْ يَنَلْهُمْ مِنْهُمْ سُوءٌ " وفي قوله{ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ }[آل عمران : ١٧٤] بيان أنه تعالى تفضّل عليهم من بعد بنعيم الدنيا والآخرة.

(٠/٠)

وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٧٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ اللَّهَ شَيْئاً } ؛ قرأ نافعُ (يُحْزِنْكَ) بضمِّ الياء وكسرِ الزَّاي في جميعِ ما كانَ في هذا الفعلِ في جميعِ القرآن إلاَّ آيةً في الأنبياءِ{ لاَ يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ }[الأنبياء : ١٠٣]. وقرأ الباقون بفتحِ الياء وضمِّ الزَّاي وهما لغتان. وقرأ طلحةُ بن مصرِّف : (يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ) والباقون (يُسَارِعُونَ).

ومعنى الآيةِ : لا يَحْزُنْكَ يا محمدُ الذينَ يُبَادِرُونَ الْجَحْدَ والتكذيبَ ؛ وهم اليهودُ كانوا يَكْتُمُونَ صفةَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم في التوراةِ ، وكان يَشُقُّ على النبيِّ صلى الله عليه وسلم. وقيل : يعني كفارَ قُرَيْشٍ كانوا يكذِّبونَه ، وكان الناسُ يقولون : لو كان حَقّاً لاتَّبَعَهُ أقرباؤُه ، وكان ذلكَ يَشُقُّ عليه. وقيل : نزلَت هذه الآيةُ في قومٍ ارتدُّوا عنِ الإسلامِ فَاغْتَمَّ النبيُّ صلى الله عليه وسلم.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ اللَّهَ شَيْئاً } أي لم يَنْقُصُوا شيئاً من مُلْكِ اللهِ وسلطانِه ؛ { يُرِيدُ اللَّهُ أَلاَّ يَجْعَلَ لَهُمْ حَظّاً فِي الآخِرَةِ } ؛ نَصِيْباً من الجنَّة ؛ { وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ }.

(٠/٠)

إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٧)

قوله عزَّ وَجَلَّ : { إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ لَن يَضُرُّواْ اللَّهَ شَيْئاً } ؛ أي الذينَ اختارُوا الكفرَ على الإيْمانِ لا ينقصُ من مُلْكِ اللهِ شيئاً ، وإنَّما أضَرَّ من أنفسِهم حيثُ استوجَبُوا العذابَ ؛ { وَلهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } ؛ أي وَجَعٌ في الآخرةِ.

(٠/٠)

وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (١٧٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنْفُسِهِمْ } ؛ قرأ حمزة بالتَّاء على الخطاب للنبيِّ صلى الله عليه وسلم ؛ أي لا تَظُنَّنَّ يا مُحَمَّدُ اليهودَ والنصارى والمنافقين إنَّ إمْلاَءَنَا لَهم خيرٌ لَهم من أنْ يَموتوا كما ماتَ شهداءُ أحُدٍ. وقيل : معناهُ : لا تحسبنَّ يا مُحَمَّدُ أمْلِي لَهم لِخيرٍ وتوبةٍ تقعُ منهم ، { إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْمَاً } ، إنَّما إمْلاَؤُنَا لَهُمْ لتكونَ عاقبةُ أمرِهم أنْ يزدادُوا بذلكَ معصيةً على معصيةٍ ؛ { وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ } ؛ يُهَانُونَ فيه.
وقيل : إنَّ المرادَ بالذينَ كفروا كفَّارَ مَكَّةَ ؛ أي لا تَظُنَّنَّ ما أصابُوه يومَ أحدٍ من الظَّفر خيرٌ لأنفسِهم ، وإنَّما كان ذلكَ ليزدادُوا معصيةً فَيُزَادُ في عقوبتِهم. وقرأ الباقون : (وَلاَ تَحْسَبَنَّ) بالتاء معناه : لا تحسبنَّ الكفارَ إملاءَنا إياهُم خيرٌ لَهم ، وَالإمْلاَءُ في اللُّغة : إطَالَةُ الْمُدَّةِ وَالإمْهَالِ وَالتَّأْخِيْرِ ، ومنهُ قَوْلُهُ{ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً }[مريم : ٤٦] أي دَهْراً طويلاً. قال ابنُ مسعود : (مَا مِنْ نَفْسٍ بَرَّةٍ وَلاَ فَاجِرَةٍ إلاَّ وَالْمَوْتُ خَيْرٌ لَهَا مِنَ الْحَيَاةِ ، أمَّا الْفَاجِرَةُ فَقَدْ قَالَ اللهُ : { إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْمَاً }[آل عمران : ١٧٨] ؛ وَأمَّا الْبَرَّةُ فَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى : { وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ }[آل عمران : ١٩٨).

(٠/٠)

مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَآ أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَآءُ } ؛ اختلفُوا في تَأْوِيْلِهَا ؛ قال الكلبيُّ : (قَالَتْ قُرَيْشُ : يَا مُحَمَّدُ ؛ تَزْعُمُ أنَّ مَنْ خَالَفَكَ فَهُوَ فِي النَّار ؛ وَاللهُ عَلَيْهِ غَضْبَانٌ ، وَمَنْ اتَّبَعَكَ عَلَى دِيْنِكَ فَهُوَ فِي الْجَنَّةِ ؛ وَاللهُ عَنْهُ رَاضٍ ، فَخَبرْنَا بمَنْ يُؤْمِنُ بكَ وَمَنْ لاَ يُؤْمِنُ بكَ ، فَأَنْزَلَ اللهُ هذه الآية).

ومعناهَا : لَمْ يَكُنِ اللهُ ليترُكَ مَن كان في علمهِ السَّابق أنهُ يُؤْمِنُ ، عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ حتى يُمَيِّزَ الكافرَ والمنافقَ من المؤمنِ المخلص { وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ } يا أهلَ مَكَّةَ على مَن يصيرُ منكم مؤمناً قبلَ أن يؤمنَ ، ولكنَّ اللهَ يصطفي بالنبوَّةِ والرسالةِ من يشاءُ فيوحِي إليه بما يشاءُ ؛ لأنَّ الغيبَ لا يطَّلِعُ عليه إلاَّ الرُّسُلُ بوحيٍ من اللهِ ليقيمُوا البرهانَ على أنَّ ما أتَوا بهِ من عند اللهِ ؛ { فَآمِنُواْ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ } ؛ أي صَدِّقُوا ، { وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ } ؛ الشِّرْكَ والمعصيةَ ؛ { فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ } ؛ فِي الْجَنَّةِ.

وقال بعضُهم : الخطابُ للكافرِين والمنافقين ، معنى الآيةِ : { مَا كَانَ اللهُ لِيَذرَ الْمُؤْمِنِيْنَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ } يا معشرَ الكفَّار والمنافقين من الكفرِ والنِّفاق { حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّب }. وقيل : الخطابُ للمؤمنينَ ؛ أي ما كانَ اللهُ لِيَذرَكُمْ يَا معشرَ المؤمنين على ما أنتُم عليهِ من الْتِبَاسِ المؤمنِ بالمنافقِ حَتَّى يَمِيْزَ الْخَبِيْثَ.

قرأ الحسنُ وقتادة والكوفيون إلاّ عاصِماً : (يُمَيِّزَ) بضمِّ الياء والتشديد ، وكذلكَ في الأنفالِ. والباقون بالتخفيفِ وفتحِ الياء من الْمَيْزِ وهو الفرقُ ، ويسمَّى العاقلُ مُمَيِّزاً لأنه يُفَرِّقُ بين الحقِّ والباطلِ ، معناهُ : حتَّى تُمَيِّزَ المنافقَ من المخلصِ ، فَيُمَيِّزُ اللهُ المؤمنين يومَ أحدٍ من المنافقين حينَ أظهرُوا النفاقَ وَتَخَلَّفُواْ عن رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم. وقال بعضُهم : معنى الآية : { مَا كَانَ اللهُ لِيَذرَ الْمُؤْمِنِيْنَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ) مِنَ الإقرار حتى يَفْرِضَ عليهِمُ الجهادَ والفرائضَ لِيَمِيْزَ بها من يَثْبُتُ على إيْمانهِ مِمَّنْ ينقلبُ على عَقِبَيْهِ ، وما كانَ لِيُطْلِعَكُمْ على الغيب ؛ لأنه لا يعلمهُ إلاَّ اللهُ ، ولكنَّ اللهَ يَخْتَارُ من رُسُلِهِ من يشاءُ ، فَيُطْلِعَهُ على بعضِ عِلْمِ الغيب.

وروي : أنَّ الحجَّاجَ بنَ يوسفَ كان عندَهُ مُنَجِّمٌ ، فأخذ الحجاجُ حُصَيَّاتٍ بيدهِ قد عَرَفَ عددَها ، فقالَ لِلْمُنَجِّمِ : كَمْ فِي يَدِي ؟ فَحَسَبَ المنجِّمُ فأصابَ ، ثم اغْتَفَلَهُ الحجاجُ فأخذ حُصَيَّاتٍ لَمْ يَعُدَّهَا ، قَالَ للمنجِّم : كَمْ في يَدِي ؟ فَحَسَبَ المنجِّمُ فَأَخْطَأَ ، ثم حَسَبَ فأخطأَ ، فقال : أيُّها الأميرُ : أظُنُّكَ لا تعرفُ عددَهُ ، قال : لاَ ، فقال : إنَّ ذلكَ الأوَّل أحصيتَ عددَهُ فخرجَ عن حَدِّ الغيب ، فأصَبْتَ في حِسَابِهِ. وهذا لم تَعْرِفْ عددَهُ فصارَ غَيْباً ، والغيبُ لا يعلمهُ إلاّ اللهُ.

وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٨٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ } ؛ من قرأ : { وَلاَ تَحْسَبَنَّ } بالتَّاء فمعناهُ : ولا تَظُنَّنَّ يا مُحَمَّدُ بُخْلَ الذين يَبْخَلُونَ بما أعطاهُم اللهُ من المالِ ؛ فيمنعونَ مِن ذلك حقَّ اللهِ في الزَّكاةِ والجهادِ وسائرِ وجوه البرِّ التي وَجَبَتْ عليهم ، لاَ تَظُنَّنَّ ذلك خَيْراً لَهم. وقوله (هُوَ خَيْرٌ) للفصلِ ، ويسمِّيه الكوفيُّون الْعِمَادَ ، ومعنى { بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ } أي بُخْلُهُمْ بحقِّ اللهِ شرٌّ لَهم. ومن قرأ بالياء والفعلِ الْمُبَاخِلِيْنَ ؛ كَأَنَّهُ قالَ : ولا يَحسبنَّ الذين يَبْخَلُونَ الْبُخْلَ خيراً لَهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ } ؛ أي سيأتونَ يومَ القيامة بما بَخِلُوا به من الزَّكاة ونفقةِ الجهاد كَهَيْأَةِ الطَّوْقِ فِي أعناقِهم ، قال صلى الله عليه وسلم : " يَأْتِي كَنْزُ أَحَدِكُمْ شُجَاعاً أَقْرَعَ فَيَتَطَوَّقُ فِي عُنُقِهِ يَلْدَغُهُ ؛ حَيَّةٌ فِي عُنُقِهِ يُطَوَّقُ بِهَا ؛ وَتَقُولُ : أَنَا الزَّكَاةُ الَّتِي بَخِلْتَ بي فِي الدُّنيا " وقال بعضُهم : يُجْعَلُ ما بَخِلَ به من الزَّكاة حَيَّةً في عُنُقِهِ يُطَوَّقُ بها – أي يومَ القيامةِ – تَنْهَشُهُ من قرنِهِ إلى قَدَمِهِ ؛ وَتَنْقُرُ رَأسَهُ وتقولُ : أنَا مَالُكَ ، ولا يزالُ كذلكَ حتى يُسَاقَ إلى النار وَيُغَلَّ ، وهذا قولُ ابنِ مسعود وابنِ عبَّاس والشعبيُّ والسُّدِّيُّ.

وقال صلى الله عليه وسلم : " مَا مِنْ ذِي رَحِمٍ يَأْتِي إِلَى ذِي رَحِمِهِ يَسْأَلُهُ مِنْ فَضْلٍ مَا أَعْطَاهُ اللهُ فَيَبْخَلُ بِهِ عَلَيْهِ ؛ إِلاَّ أَخْرَجَ اللهُ لَهُ مِنْ جَهَنَّمَ شُجَاعاً يَتَلَمَّظُ حَتَّى يُطَوَّقَهُ. ثُمَّ تَلاَ هَذِهِ الآيَةَ " وقَالَ صلى الله عليه وسلم : " مَانِعُ الزَّكَاةِ فِي النَّار " وذهبَ بعضُهم إلى أنَّ المرادَ بهذه الآيةِ اليهودُ ؛ بَخِلُوا بَيَانَ صفةِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، ومعنى { سَيُطَوَّقُونَ } على هذا القولِ : وِزْرَهُ وَمَأْثَمَهُ. والأظهرُ في هذه الآيةِ : أنَّهُ الْبُخْلُ بالْمَالِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَللَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ } ؛ تحريضُ الإنفاقِ ؛ ومعناهُ : يَمُوتُ أهلُ السَّموات وأهلُ الأرضِ كلُّهم من الملائكةِ والجنِّ والإنسِ ولا يبقَى إلاّ اللهُ ، وإذا كانتِ الأموالُ لا تبقَى للإنسانِ ولا يحملُها مع نفسهِ إلى قبرهِ ؛ فالأَوْلَى بهِ أن يُنْفِقَهَا في الوجوهِ التي أمرَ اللهُ بها ؛ فيستوجبُ بها الحمدَ والثوابَ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ } ؛ أي عالِمٌ بمن يُؤَدِّي الزَّكاةَ ومن يَمنعُها.

(٠/٠)

لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (١٨١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ } ؛ قال مجاهدُ : (لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى : { مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً }[البقرة : ٢٤٥] قَالَتِ الْيَهُودُ : إِنَّ اللهَ يَسْتَقْرِضُ مِنَّا وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ). قال الحسنُ : (إِنَّ قَائِلَ هَذِهِ الْمَقَالَةِ حُيَيُّ ابْنُ أَخْطَبَ). قال عكرمةُ والسُّدِّيُّ ومقاتلُ : "كَتَبَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم مَعَ أبي بَكْرٍ رضي الله عنه إِلَى الْيَهُودِ يَدْعُوهُمْ إِلَى الإِسْلاَمِ وَإِلَى إِقَامَةِ الصَّلاَةِ وَإِيْتَاءِ الزَّكَاةِ وَأَنْ يُقْرِضَ اللهَ قَرْضاً حَسَناً ، فَدَخَلَ أَبُو بَكْرٍ مَدَارِسَهُمْ ؛ فَوَجَدَ نَاساً كَثِيراً مِنْهُمْ قَدِ اجْتَمَعُواْ عَلَى رَجُلٍ يُقَالُ لَهُ فِنْحَاصَ بْنِ عَازُورَا ؛ وَكَانَ مِنْ عُلَمَائِهِمْ ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه لِفِنْحَاصَ : إِتَّقِ اللهَ وَأَسْلِمْ ، فَوَاللهِ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ تَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَكُمْ فِي التّوْرَاةِ وَالإِنْجِيْلِ ؛ فآمِنْ وَصَدِّقْ وَأَقْرِضِ اللهَ قَرْضاً حَسَناً يُدْخِلْكَ الْجَنَّةَ. فَقَالَ فِنْحَاصُ : يَا أَبَا بَكْرٍ تَزْعُمُ أَنَّ رَبَّنَا يَسْتَقْرِضُ مِنَّا أَمْوَالَنَا ، وَمَا يَسْتَقْرِضُ إِلاَّ الْفَقِيْرُ مِنَ الْغَنِيِّ ، فَإِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقّاً فَإِنَّ اللهَ فَقِيْرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ. فَغَضِبَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه وضَرَبَ وَجْهَ فِنْحَاصَ ضَرْبَةً شَدِيْدَةً ، وَقَالَ : وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ؛ لَوْلاَ الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ لَضَرَبْتُ عُنُقَكَ يَا عَدُوَّ اللهِ. فَذَهَبَ فِنْحَاصُ إِلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ ؛ انْظُرْ مَا صَنَعَ بي صَاحِبُكُمْ ؟ فَقَالَ صلى الله عليه وسلم لأَبِي بَكْرٍ : " مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ ؟ " فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم ؛ قَالَ قَوْلاً عَظِيْماً زَعَمَ أَنَّ اللهَ فَقِيْرٌ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ ، فَغَضِبْتُ للهِ تَعَالَى وَضَرَبْتُ وَجْهَهُ. فَجَحَدَ فِنْحَاصُ ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةُ رَدّاً عَلَى فِنْحَاصَ ، وَتَصْدِيْقاً لأَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه : { لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ } ".

قَوْلُهُ تَعَالَى : { سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ } ؛ أي سَيَكْتُبُ الكاتبونَ الكرامُ عليهم بأمرِنا قولَهم ؛ { وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ } ؛ بلا جُرْمٍ لَهم فيجازيهم به. وقرأ حمزةُ والأعمش (سَيُكْتَبُ) بياءٍ مضمُومة وفتحِ التاء (وَقَتْلُهُمُ الأَنْبِيَاءَ) بالرفع. { وَنَقُولُ } ؛ بالياءِ اعتباراً بقراءةِ ابنِ مسعود ، وقال : { ذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ } ؛ أي النَّار ، وإنَّما قالَ (الْحَرِيْقِ) لأنَّ النارَ اسمٌ للملتهبَةِ وغيرِ الملتهبةِ ، والحريقُ اسم منها.

(٠/٠)

ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (١٨٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ذلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ } ؛ أي يقالُ للكافرين ذلِكَ بمَا قدَّمَتْ أيْدِيْكُمْ عَلَى الكفرِ وقَتْلِ الأنبياءِ صَلَواتُ اللهِ عَلَيْهِمْ ، وقولهُ : { وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ } لا يُعَذِّبُ أحداً بغيرِ ذنبٍ ولا يَمْنَعُ أحداً جَزَاءَهُ حَسْبَ اسْتحقاقِهِ خيراً فَعَلَهُ أو شَرّاً.

(٠/٠)

الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٨٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ } ؛ قال الكلبيُّ : (نَزَلَتْ فِي كَعْب بْنِ الأَشْرَفِ وَمَالِكِ ابْنِ الصَّيْفِ وَوَهَب بْنِ يَهُوذا وفِنْحَاصُ بْنُ عَازُورَا ؛ أتَوا رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَقَالُواْ : أتَزْعُمُ يَا مُحَمَّدُ أنَّ اللهَ بَعَثَكَ إلَيْنَا رَسُولاً ، وَأَنْزَلَ عَلَيْكَ كِتاباً ، وَأَنَّ اللهَ قَدْ عَهِدَ إلَيْنَا فِي التَّورَاةِ : أنْ لاَ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأتِيَنَا بقُرْبَانٍ تأْكُلُهُ النَّارُ ، فَإنْ جِئْتَنَا بِهِ صَدَّقْنَاكَ. فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ).

ومعناها : وَسَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِيْنَ قَالُوْا إنَّ اللهَ عَهِدَ إلَيْنَا ، ومحلُّ { الَّذِينَ } خَفْضٌ رَدّاً على (الَّذِيْنَ) الأوَّل ؛ ومعناها : عَهِدَ إلَيْنَا : أَمَرَنَا وَأَوْصَانَا في كُتُبِهِ وعلى ألْسِنَةِ رُسُلِهِ أن لا نُصَدِّقَ رسولاً يَزْعُمُ أنَّهُ جَاءَ من عند اللهِ { حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ } وهو ما يُتَقَرَّبُ بِهِ إلى اللهِ من صَدَقَةٍ ، وكَانَتِ القرابينُ والغنائمُ لاَ تَحِلُّ لِبَنِي إسْرَائِيْلَ ، وكانوا إذا قرَّبوا قُرباناً أو غَنِموا غنيمةً فتقبلُ منهم ؛ جاءت من السَّماء نارٌ ولَها دُخَانٌ ولها دَوِيٌّ وَخَفِيْقٌ فتأكلُ ذلكَ القربانَ وتلكَ الغنيمةِ ، فيكون ذلك علامةَ القَبولِ ، واذا لم يُقْبَلْ بقيَ إلى حالهِ ، فقالَ هؤلاءِ اليهودُ : (إنَّ الله عَهِدَ إلينا ألاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ) كما كان في زَمنِ موسَى وزكريَّا ويحيَى وغيرهم عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ.

وكان هذا القولُ منهم كَذِباً على اللهِ واعتلالاً ومدافعةً في الإيْمانِ بالنبيِّ صلى الله عليه وسلم لا إحْتِجَاجاً صحيحاً ؛ فاحْتَجَّ اللهُ عليهم بقولهِ : { قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ } ؛ أي قُلْ يا مُحَمَّدُ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِن قبلي بالعلاماتِ الواضحاتِ والمعجزَاتِ { وَبِالَّذِي قُلْتُمْ } من أمرِ القُربان ، { فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ } ؛ فِي مَقَالَتِكُمْ. وكانوا قتلُوا زكريَّا ويحيَى وغيرَهم ، وأرادَ بذلكَ أسلافَهم فخاطبَهُم بذلك لأنَّهم رَضُوا بفعلِ أسلافِهم.

(٠/٠)

فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (١٨٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ } ؛ فَإِنْ كَذبُوكَ يا مُحَمَّدُ فلستَ بأوَّلِ رسُولٍ كُذِّبَ ، فقد كُذِّبَ نوحُ وهود وصالحُ وغيرُهم ؛ { جَآءُوا بِالْبَيِّنَاتِ } ؛ أي بالعلاماتِ الواضحَاتِ ؛ { وَالزُّبُرِ } ؛ وهو جَمْعُ زَبُور ؛ وهو كلُّ كتابٍ ذي حِكْمَةٍ ؛ يقال : زَبَرْتُ إذا كتبتُ ؛ وَزَبَرْتُ إذا قرأتُ. وأما { وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ } ؛ فهو الكتابُ المبيِّنُ للحلالِ والحرامِ.

(٠/٠)

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (١٨٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ } ؛ قرأ الأعمش : (ذَائِقَةٌ) بالتنوين ، ونصبَ (الْمَوْتَ) ، قال ابنُ عبَّاس : (لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى : { كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ }[الرحمن : ٢٦] قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ : هَلَكَ أَهْلُ الأَرْضِ. فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ أَيْقَنَتِ الْمَلاَئِكَةُ بالْهَلاَكِ). وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " لَمَّا خَلَقَ اللهُ آدَمَ اشْتَكَتِ الأَرْضُ إلَى رَبهَا لِمَا أخِذ مِنْهَا ؛ فَوَعَدَهَا أنْ يَرُدَّ إلَيْهَا مَا أخَذ مِنْهَا ، فَمَا مِنْ أحَدٍ إلاَّ يُدْفَنُ فِي التُّرْبَةِ الَّتِي أخِذ مِنْهَا " ورأى أبُو هريرةُ قَبْراً جديداً ، فَقَالَ : (سُبْحَانَ اللهِ! انْظُرُواْ كَيْفَ سَبَقَ هَذا الْعَبْدُ إلَى تُرْبَتِهِ الَّتِي خُلِقَ مِنْهَا).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ } أي تُعْطَوْنَ جزاءَ أعمالِكم يومَ القيامةِ ، إنْ خَيراً فخيرٌ ؛ وإنْ شَرّاً فَشَرٌّ ، لا تَغْتَرُّوا بِنعَمِ الكُفَّار ، ولا تَحْزَنُواْ لشدائدِ المؤمنيْنَ ، فإنَّ كِلاَ الفريقينَ يَتَفَرَّقُونَ ؛ فلا بُؤْسُ يبقَى ولا نعيمٌ في الدُّنيا.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ } ؛ أي أُبْعِدَ عنها ؛ { وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ } ؛ أي نَجَا وَسَعِدَ وَظَفَرَ بما يرجُو. قوله تعالى : { وَما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ } ؛ متاعُ الدُّنيا مثلُ القِدْر والقَصْعَةِ والفأسِ ، يتمتَّعُ بهذه الأشياءِ ؛ أي يُنْتَفعُ بها ثم تذهبُ فتفنَى ، كذلك الحياةُ الدُّنيا. وقيل : (مَتَاعُ الغُرور) مَا يُغَرُّ به الإنسانُ في الحالِ ، فكما أنَّ التاجرَ يهربُ من متاعِ الغرور وهو ما يسرعُ إليه الفسادُ مثلَ الزُّجاجِ ، والَذِي يسرعُ إليه الكسرُ ويصلحُه الجبرُ ؛ كذلك ينبغِي للحيِّ أن يهربَ من الدُّنيا الفانيةِ إلى متاعِ الآخرةِ.

وعن عبدِ اللهِ بن عمرَ ؛ قَالَ : (لَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم سَجَّيْنَاهُ بثَوْبٍ ، وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ نَبْكِي ، فَأَتَانَا آتٍ نَسْمَعُ صَوْتَهُ وَلاَ نَرَى شَخْصَهُ ، فَقَالَ : السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ ، فَقُلْنَا :

وَعَلَيْكُمُ السَّلاَمُ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكاتُهُ ، فَقَالَ : { كُلُّ نَفْسٍ ذَائقَةُ المَوْتِ } إلَى آخِرِ الآيَةِ ، ثُمَّ قَالَ : إنَّ فِي اللهِ خَلَفاً لِكُلِّ هَالِكٍ ؛ وَعَزَاءً مِنْ كُلِّ مُصِيْبَةٍ ؛ وَدَرْكاً مِنْ كُلِّ فَائِتٍ ، فَباللهِ فَاتَّقُواْ وَإيَّاهُ فَارْجُوا ، فَإنَّ الْمُصَابَ مَنْ حُرِمَ الثَّوَابَ). قالَ : (فَتَحَدَّثْنَا أنَّهُ جِبْرِيْلُ عليه السلام).

(٠/٠)

لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٨٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ } ؛ وذلك أنَّ الله تعالى لَمَّا ذكرَ الجنَّة أتى عَقِبَهَا بما يدعو إليها ويُوجِبُها فقالَ : { لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ } أي لَتُخْتَبَرُنَّ بالنقصِ والذهاب في الأموالِ ، وفي أبدانِكم بالأمراضِ والأوْجاعِ. ويقال : إنَّ المرادَ بالإبتلاءِ فَرَائِضَ الدينِ مثلَ الجهادِ في سبيلِ الله والإنفاقِ فيه.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَذًى كَثِيراً } ؛ معناهُ : وَلَتَسْمَعُنَّ من اليهودِ والنصارى ومشركي العرب كلامَ أذًى كثيراً. أمَّا من اليهودِ فقولُهم : عُزَيْرٌ ابنُ اللهِ ، وقولُهم : إنَّ اللهُ فَقِيْرٌ وَنَحْنُ أغْنِيَاءُ. ومنَ النصارَى قولَهم : الْمَسِيْحُ ابنُ اللهِ ، وقولَهم : إنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ. ومِن المشركينَ قولَهم : الْمَلاَئِكَةُ بَنَاتُ اللهِ ، وعبادتَهم الأوثانَ ونصبَهم الحربَ لرسولِ الله صلى الله عليه وسلم. والأذى : مَا يَكْرَهُ الإنْسَانُ وَيَغْتَمُّ بهِ.

قال الزهريُّ : " نَزَلَتْ فِي كَعْب بْنِ الأَشْرَفِ ؛ وَذَلِكَ أنَّهُ كَانَ يَهْجُو النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم ، وَيَسُبُّ الْمُسْلِمِيْنَ وَيُحَرِّضُ الْمُشْرِكِيْنَ عَلَى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وَأَصْحَابهِ فِي سَمَرِهِ حَتَّى آذاهُمْ ، فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " مَنْ لِي بابْنِ الأَشْرَفِ ؟ " فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ الأَنْصَارِيُّ : أنَا لَكَ بهِ يَا رَسُولَ اللهِ أنَا أقْتُلُهُ ، قال : " أفْعَلُ إنْ قَدِرْتَ عَلَى ذلِكَ " ، قَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم إنَّهُ لاَ بُدَّ لَنَا أنْ نَقُولَ ؟ قَالَ : " قُولُواْ مَا بَدَا لَكُمْ فَأَنْتُمْ فِي حِلٍّ مِنْ ذلِكَ ".

وَاجْتَمَعَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ ، وَأبُو نَائِلَةَ وَهُوَ أخُو كَعْبٍ مِنَ الرِّضَاعَةِ ، وَهُوَ سَلْكَانُ بْنُ سَلاَمَةَ بْنُ وَقَشٍ ، وَعَبَّادُ بْنُ بشْرِ بْنِ وَقَشٍ ، وَالْحَارِثُ بْنُ أوْسٍ ، وَأبُو عَبْسِ ابْنِ جَبْرٍ ، وَمَشَى مَعَهُمْ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم إلَى بَقِيعِ الْغَرْقَدَ ثُمَّ وَجَّهَهُمْ ، فقَالَ : " انْطَلِقُواْ عَلَى اسْمِ اللهِ ، اللَّهُمَّ أعِنْهُمْ ".

ثُمَّ رَجَعَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم إلَى بَيْتِهِ ، وَهُوَ فِي لَيْلَةٍ مُقْمِرَةٍ ، فَأَتَوا حَتَّى انْتَهَواْ إلَى حِصْنِهِ ؛ فَقَوَّمُواْ أبَا نَائِلَةَ لأَنَّهُ أخُوهُ مِنَ الرِّضَاعَةِ ، فَجَاءَهُ فَتَحَدَّثَ مَعَهُ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ : يَا كَعْبُ ؛ إنِّي جِئْتُكَ لِحَاجَةٍ أرِيْدُ ذِكْرَهَا لَكَ فَاكْتُمْهَا عَلَيَّ ، قَالَ : أفْعَلُ ، قَالَ : كَانَ قُدُومُ هَذا الرَّجُلِ بلاَدَنَا بَلاَءً عَلَيْنَا ؛

عَادَتْنَا الْعَرَبُ فَرَمَوْنَا عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ ؛ وَانْقَطَعَتْ عَنَّا السَّبِيلُ حَتَّى ضَاعَتِ الْعِيَالُ وَجَهَدَتِ الأَنْفُسُ.
فَقَالَ كَعْبُ ابْنُ الأَشْرَفِ : أَمَا وَاللهِ لَقَدْ أَخْبَرْتُكَ أَنَّ الأَمْرَ سَيَصِيْرُ إِلَى هَذا. فَقَالَ أَبُو نَائِلَةَ : إِنَّ مَعِيَ أَصْحَاباً أَرَدْنَا أَنْ تَبِيْعَنَا مِنْ طَعَامِكَ وَنَرْهَنُكَ وَنُوْثِقُ لَكَ سِلاَحاً ، وَقَدْ عَلِمْتَ حَاجَتَنَا الْيَوْمَ إِلَى السِّلاَحِ ، فَقَالَ : هَاتُواْ سِلاَحَكُمْ ، وَأَرَادَ أَبُو نَائِلَةَ يَذْكُرُ السِّلاَحَ حَتَّى لاَ يُنْكِرَ السِّلاَحَ إِذا رَآهُ ، فَرَجَعَ أَبُو نَائِلَةَ إِلَى أَصْحَابِهِ فَأَخْبَرَهُمْ خَبَرَهُ ، فَأَقْبَلُواْ إِلَيْهِ حَتَّى انْتَهُواْ إِلَيْهِ ، وَكَانَ كَعْبٌ حَدِيْثَ عَهْدٍ بِعُرْسٍ.
فَبَادَأَهُ أَبُو نَائِلَةَ فَوَثَبَ فِي مِلْحَفِهِ ؛ فَأَخَذتِ امْرَأَتُهُ بِنَاصِيَتِهِ وَقَالَتْ : إِنَّكَ رجُلٌ مُحَارِبٌ وَصَاحِبُ الْحَرْب لاَ يَنْزِلُ فِي مِثْلِ هَذِهِ السَّاعَةِ ، فَقَالَ : إِنَّ هَؤُلاَءِ وَجَدُونِي نَائِماً مَا أَيْقَظُونِي ؛ وَإِنَّهُ أَبُو نَائِلَةَ أَخِي ، قَالَتْ : فَكَلِّمْهُمْ مِنْ فَوْقِ الْحِصْنِ ، فَأَبَى عَلَيْهَا ، فَنَزَلَ إِلَيْهِمْ فَتَحَدَّثَ مَعَهُمْ سَاعَةً ثُمَّ قَالُواْ لَهُ : يَا ابْنَ الأَشْرَفِ ؛ هَلْ لَكَ أَنْ نَتَمَاشَى وَنَتَحَدَّثَ سَاعَةً ؟ فَمَشَى مَعَهُ سَاعَةً ، ثُمَّ إِنَّ أَبَا نَائِلَةَ جَعَلَ يَدَهُ عَلَى رَأْسِ كَعْبٍ ثُمَّ شَمَّهَا وَقَالَ : مَا شَمَمْتُ طِيْبَ عُرْسٍ قَطُّ مِثْلَ هذا! قَالَ كَعْبٌ : إِنَّهُ طِيْبُ أُمِّ فُلاَنٍ ؛ يَعْنِي امْرَأَتَهُ.
ثُمَّ مَشَى سَاعَةً ، فَعَادَ أَبُو نَائِلَةَ لِمِثْلِهَا حَتَّى اطْمَأَنَّ ثُمَّ مَشَى سَاعَةً ، ثُمَّ عَادَ بِمِثْلِهَا ، ثُمَّ أَخَذ بِفَوْدِ رَأْسِهِ حَتَّى اسْتَمْكَنَ ، ثُمَّ قَالَ لأَصْحَابِهِ : اضْرِبُوا عَدُوَّ اللهِ ؛ فَاخْتَلَفَتْ عَلَيْهِ أَسْيَافُنَا فَلَمْ تُغْنِ شَيْئاً ، قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ فَرَكَزْتُ مِغْوَلاً فِي ثُنَّتِهِ ، ثُمَّ تَحَامَلْتُ عَلَيْهِ حَتَّى بَلَغَتْ عَانَتَهُ ، فَصَاحَ صَيْحَةً لَمْ يَبْقَ مِنْ حَوْلِهَا حِصْنٌ إِلاَّ وَقَدْ أَوْقَدَ نَاراً ، فَوَقَعَ عَدُوُّ اللهِ عَلَى الأَرْضِ ، وَقَدْ أُصِيْبَ الْحَارِثُ بْنُ أَوْسٍ بِجُرْحٍ فِي رَأْسِهِ ؛ أَصَابَهُ بَعْضُ أَسْيَافِنَا ، فَنَزَفَهُ الدَّمُ وَأَبْطَأَ عَلَيْنَا ؛ فَوَقَفْنَا لَهُ سَاعَةً ، ثُمَّ احْتَمَلْنَاهُ وَجِئْنَا بِهِ إِلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم آخِرَ اللَّيْلِ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي ، فَسَلَّمْنَا عَلَيْهِ فَخَرَجَ إِلَيْنَا ؛ فَأَخْبَرْنَاهُ بِقَتْلِ كَعْبٍ وَجِئْنَا بِرَأْسِهِ إِلَيْهِ ، وَتَفَلَ عَلَى جُرْحِ صَاحِبِنَا فَبَرَأَ ، وَرَجَعْنَا إِلَى أَهْلِنَا ، فَأَصْبَحْنَا وَقَدْ خَافَتِ الْيَهُودُ لِوَقْعَتِنَا بِعَدُوِّ اللهِ ، فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " مَنْ ظَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ رَجُلٍ يَهُودٍ فَاقْتُلُوهُ ".

(٠/٠)

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ (١٨٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ } ؛ أي قد أخذ اللهُ ميثاقَ أهلِ الكتاب لِيُبَيِّنَ الكتابَ بما فيه من نَعْتِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم وصفتِه للناسِ ولا يُخْفُونَ شيئاً من ذلكَ. قرأ عاصمُ وأبو عمرٍو وابنُ كثير بالياءِ فيهما. وقرأ الباقون بالتَّاء فيها.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ } ؛ أي ضَيَّعُوهُ وتركُوا العملَ به ، يقالُ للذي تركَ العملَ بهِ : جَعَلَهُ

خَلْفَ ظَهْرِهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاشْتَرَوْاْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً } ؛ أي اختارُوا بكِتمَانِ نَعْتِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وصفتهِ عَرَضاً يَسِيراً من المآكِلِ والْهَدَايَا التي كانت لعلمائِهم من رؤسائِهم ، { فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ } ؛ أي يختارُون الدنيا على الآخرةِ.

(٠/٠)

لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوْاْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ } ؛ قرأ اهلُ الكوفةِ : (يَحْسَبَنَّ) بالياءِ ، وقرأ غيرُهم بالتَّاء ، فمن قرأ بالياء فمعناهُ : لا يَحْسَبَنَّ الْفَارحُونَ فَرَحَهُمْ مُنْجِياً لَهم من العذاب ، ومن قرأ بالتاءِ فالخطابُ للنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وقوله : { فَلاَ تَحْسَبَنَّهُمْ } إعادةُ توكيدٍ. قرا الضحَّاك بالتاءِ وضمِّ الباء أرادَ مُحَمَّداً وأصحابَه. وقرأ مجاهدُ وابن كثير وأبو عمر بالياءِ وضمِّ الباءِ خبراً عن الْفَارِحِيْنَ ؛ أي لا يَحْسَبَنَّ أنفُسَهم.

واختلفوا فيمَنْ نزلَتْ ، فقالَ مجاهدُ وعكرمة : (نَزَلَتْ فِي الْيَهُودِ وَكَانُواْ يَقُولُونَ : نَحْنُ أَهْلُ الصَّلاَةِ وَالصَّوْمِ وَالْكِتَاب الأَوَّلِ وَالْعِلْمِ الأَوَّلِ ، يُرِيْدُونَ الْفَخْرَ وَالسُّمْعَةَ وَالرِّيَاءَ لِكَي يُثْنِي عَلَيْهِمْ وَيَحْمِدَهُمْ سَفَلَتَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ مِنْ بَيَانِ صِفَةِ كِتَابِهِمْ). وقالَ عطاءُ : (نَزَلَتْ فِي الْمُنَافِقِيْنَ ؛ كَانُواْ يَأْتُونَ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم وَيُخَالِطُونَ الْمُسْلِمِيْنَ وَيُرَاؤُنَ بالأَعْمَالِ الَّتِي يُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُواْ وَيُمْدَحُواْ عَلَى ذلِكَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَلاَ تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ } ؛ أي لا تَظُنَّهُمْ يا مُحَمَّدُ بمَنْجَاةٍ ؛ أي بُعْدٍ مِن العذاب ، { وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } ؛ وَجِيْعٌ في الآخرةِ ، وتكرارُ (لاَ تَحْسَبَنَّ) لطول القصَّة. ويجوزُ أن يكونَ خبرَ (لاَ تَحْسَبَنَّ) الأوَّل مُضْمَراً تقديرهُ : لاَ يَحْسَبَنَّ الذينَ يَفْرَحُونَ بما أوْتُوا ويُحِبُّونَ أنْ يُحْمَدُوا بما لن يفعلوا نَاجِيْنَ ، ومن قرأ (بمَا أوْتُوا] بالمدِّ ؛ فَمَعْنَاهُ : بما أعطوا من النفقةِ والصَّدقة. ومن قرأ (بمَا أتَوا) بما أعْطَوا من الدُّنيا.

(٠/٠)

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٨٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَللَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } ؛ أي ولله خزائنُ السَّموات والأرضِ ، فخزائنُ السموات المطر ، وخزائنُ الأرضِ النباتُ ، ووجهُ اتِّصال هذه الآيةِ بما سبقَ أنَّ في هذا تكذيبُ اليهودِ في قولِهم : إنَّ اللهَ فَقِيْرٌ ، وَنَحْنُ أغْنِيَاءٌ ، وبيانُ أنَّ مَن كان مَالِكَ السَّموات والأرضِ قادرٌ على الانتقامِ من الكفَّار ، والإثابةِ للمؤمنين وعلى كلِّ شيءٍ.

(٠/٠)

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ } ؛ معناهُ إنَّ في خلقِ السَّموات بما فيها من الشَّمسِ والقمرِ والنُّجوم ، والأرضِ بما فيها من الجبالِ والشَّجر والنَّباتِ والدواب واختلافِ اللَّيل والنَّهار في الْمَجِيْءِ والذهاب واللونِ لَعَلاَمَاتٌ واضحاتٌ لِذوي العقولِ على توحيدِ الله.

(٠/٠)

الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ } ؛ بيانٌ لصفةِ أولي الألباب ، ومعنى الذِّكْرِالمطلقِ ؛ أي يَذْكُرُونَ اللهَ في جميعِ أحوالِهم ، وقيل : المرادُ به الصَّلاةُ ؛ أي لا يتركون الصَّلاةَ ؛ صَحُّوا أو مَرِضُوا ، يُصَلُّونَ قِيَاماً إنِ استطاعوا ؛ أو جُلُوساً إنْ لم يستطيعُوا القيامَ ؛ ومضطجعينَ إنْ لَمْ يستطيعُوا الجلوسَ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ } ؛ أي في عِظَمِ شأنِهما ومَن فيهما مِن الآياتِ والعِبْرَاتِ ؛ القائلينَ : { رَبَّنَآ مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً } ؛ أي ما خَلَقْتَ هَذا الْخَلْقَ لِلْبَاطِلِ وَالْعَبَثِ ؛ بَلْ خلقتَهُ دليلاً على وَحْدَانِيَّتِكَ وَصِدْقِ ما أتَتْ بهِ أنبياؤُكَ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { سُبْحَانَكَ } ؛ أي تَنْزِيهاً لكَ وبراءةً لكَ مِن أن تكون خَلَقْتَهُمَا باطلاً ؛ { فَقِنَا } ؛ فَادْفَعْ

؛ { عَذَابَ النَّارِ } ؛ قال صلى الله عليه وسلم : " مَنْ أحَبَّ أنْ يَرْتَعَ فِي رِيَاضِ الْجَنَّةِ فَلْيُكْثِرْ ذِكْرَ اللهِ " وقال صلى الله عليه وسلم : " ذِكْرُ اللهِ عَلَمُ الإيْمَانِ ؛ وَبَرَاءَةٌ مِنَ النِّفَاقِ ؛ وَحِصْنٌ مِنَ الشَّيْطَانِ ؛ وَحِرْزٌ مِنَ النِّيْرَانِ "

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ } أي لَهما صَانِعٌ قادر مُريد حكِيمٌ ، وكانَ سفيانُ الثوريُّ يَبُولُ الدَّمَ مِنْ طُولِ حُزْنِهِ وَفِكْرَتِهِ ، وَكَانَ إذا رَفَعَ رَأَسَهُ إلَى السَّمَاءِ فَرَأى الْكَوَاكِبَ غُشِيَ عَلَيْهِ.

وانتصبَ قولهُ (بَاطِلاً) بنَزع الخافضِ ؛ أي مَا خَلَقْتُهُ لِلْبَاطِلِ ، فقيلَ على المفعولِ الثاني ، وقوله : { مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً } ذاهباً به إلى لفظِ الْخَلْقِ ، ولو رَدَّهُ إلى السَّماءِ والأَرضِ لقال : هذهِ.

(٠/٠)

رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (١٩٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ } ؛ أي فَقَدْ أهَنْتَهُ وَذلَّلْتَهُ ؛ وقيل : أهلكتَهُ ؛ وقيل : فَضَحْتَهُ ؛ { وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ } ؛ أي ما لَهُمْ مِن مانعٍ يَمنعهم مِمَّا يرادُ دونَهم من العذاب.

(٠/٠)

رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ (١٩٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا } ؛ أي يقولونَ رَبَّنَا إنَّا سَمعنا مُحَمَّداً صلى الله عليه وسلم يدعُو الْخَلْقَ إلى الإيمانِ أنْ آمِنُوا بربكم فَأَجَبْنَا إلى ما دَعَانَا إليهِ وأَمَرْنَا بِهِ.

وقال مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ القُرَظِيُّ : (الْمُنَادِي هُوَ الْقُرْآنُ ؛ يَدْعُو النَّاسَ كُلُّهُمْ إلَى شَهَادَةِ أنْ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ وَأنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ ، وقولهُ : { لِلإِيمَانِ } أي إلى الإيْمانِ ، كقولهِ{ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ }[الأنعام : ٢٨].

قَوْلُهُ تَعَالَى : { رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا } ؛ أي اغْفِرْ لَنَا الكبائرَ وما دونَها ؛ { وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا } ؛ أي شِرْكَنَا في الجاهليَّة ، { وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ } ؛ أي اجْعَلْ أرواحَنا مع أرواحِ الأنبياءِ والصالِحين الذين كانُوا قَبْلَنَا.

(٠/٠)

رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (١٩٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ } ؛ أي أعْطِنَا ما وعدتَنا على ألْسِنَةِ رُسُلِكَ ، { وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ } ؛ أي لا تُعَذِّبْنَا ، { إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ } ؛ من الثَّواب والْجَنَّةِ للمؤمنين ، فإنْ قيلَ : ما فائدةُ قولِهم { رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ } وقد عَلِمُوا أنَّ اللهَ لا يُخْلِفُ الميعادَ ؟ قيلَ : فائدتهُ التَّعَبُّدُ والخضوعُ ورفعُ الحاجةِ إليه في عمومِ الأحوالِ.

(٠/٠)

فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ (١٩٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ } ؛ قال الكلبيُّ : (مَعْنَى فِي الدِّيْنِ وَالنُّصْرَةِ وَالْمُوَالاَةِ). وقيل : حكم جميعكم في الثَّواب واحدٌ ، وقيل : كُلُّكُمْ مِنْ آدمَ وحوَّاء. وقال مجاهدُ : (قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ : يَا رَسُولَ اللهِ ؛ إنِّي أسْمَعُ اللهَ يَذْكُرُ الرِّجَالَ فِي الْهِجْرَةِ ، وَلاَ يَذْكُرُ النِّسَاءَ بشَيْءٍ ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ { فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ }. قال الضحَّاكُ : (مَعْنَاهُ : رجَالُكُمْ شَكْلُ نِسَائِكُمْ فِي الطَّاعَةِ ، وَنِسَاؤُكُمْ شَكْلُ رِجَالِكُمْ فِي الطَّاعَةِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي } ؛ الآيةُ أي الذينَ هاجَروا من مكَّةَ إلى المدينةِ ، وأخرَجُوا مِن أوطانِهم وأوْذُوا في طاعَتِي ، { وَقَاتَلُواْ } ؛ المشركينَ مع مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم ، وقَتَلَهُمُ الْعَدُوُّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقُتِلُواْ لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ } ؛ ذُنُوبَهُمْ ، { وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ } ؛ أي بساتينُ تجري من تحتِ شجرِها ومساكنِها الأنهار ، { ثَوَاباً } ؛ جَزَاءً ، { مِّن عِندِ اللَّهِ } ؛ انتصبَ (ثَوَاباً) على المصدر ؛ معناهُ : لآتِيَنَّهُمْ ثَوَاباً. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ } ؛

أي حُسْنُ الجزاءِ للموحِّدين المطيعين.
قرأ محاربُ بن دثَارٍ : (وَقَاتَلُوا وَقَتَلُواْ) بالفتحِ. وقال يزيدُ بن حازمٍ : (سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ عَبْدِالْعَزِيْزِ يَقْرَأ : وَقَتَلُواْ وَقُتِلُوا ؛ يَعْنِي أَنَّهُمْ قَتَلُواْ الْمُشْرِكِيْنَ ، ثُمَّ قَتَلَهُمُ الْمُشْرِكُونَ). وقرأ أبو رجاءٍ وطلحةُ والحسن : (وَقَتَّلُواْ وَقُتِّلُواْ) بالتشديد. وقرأ عاصمُ وأبو عمرٍو ونافعُ : (وَقَاتَلُواْ وَقُتِلُواْ) بالتخفيفِ أي قَاتَلُواْ ثُمَّ قُتِلُواْ. وقرأ الأعمشُ وحمزة والكسائيُّ وخلَفُ : (وَقُتِّلُواْ وَقَاتَلُوا) أي وقاتَلَ من بَغَى منهم ، وقيل معناهُ : وَقَاتَلُوْا وَقَدْ قَاتَلُوا ؛ وأضمرَ فيه (قَدْ).

(٠/٠)

لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٩٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لاَ يَغُرَّنَّكَ } ؛ أي لا يُحزِنُكَ ولا يُعْجِبُكَ ، { تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِي الْبِلاَدِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ } ؛ إمتدادُ هذه الآيةِ خطابٌ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم ؛ والمرادُ به أصحابَه ؛ كأَنَّهُ قالَ : لاَ يَغُرَّنَّكَ أيُّهَا السامعُ ذهابَ اليهودِ ومجيئَهم في تجاراتِهم ومكاسبهم في الأرضِ ؛ منفعةٌ يسيرةٌ في الدُّنيا تنقطعُ وتفنى ؛ { ثُمَّ مَأْوَاهُمْ } ؛ مصيرُهم إلَى ؛ { جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ } ؛ أي بئْسَ الفراشُ النارُ.
وقيل : كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم لا يغرُّه شيءٌ لتحذيرِ الله إيّاه عن الاغترار بشيءٍ وتأديبُه إيَّاه.
وقيل : نزلت في مشركِي العرَب ؛ كانوا في رَخَاءٍ من العيشِ ، وكانُوا يَنْحَرُونَ ويتنعَّمون ، فقال بعضُ المؤمنينَ : إن أعداءَ الله فيمَا نَرَى من الخيرِ ؛ ونحنُ قد هَلَكْنَا من الجوعِ والجهدِ ، فَنَزلتْ هذه الآيةُ.
وقرأ يعقوب : (لاَ يَغُرَّنْكَ) بإسكانِ النون. قَوْلُهُ تَعَالَى : { لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِي الْبِلاَدِ } أي تصرُّفهم في الأرضِ للتجَارات والبياعَات وأنواعِ المكاسب. وقوله : { مَتَاعٌ قَلِيلٌ } أي متاعٌ قليلٌ فَانٍ. قال النخعيُّ : (إنَّ الدُّنْيَا جُعِلَتْ قَلِيْلاً ؛ وَمَا بَقِيَ مِنْهَا إلاَّ قَلِيْلٌ مِنْ قَلِيْلٍ).

(٠/٠)

لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ (١٩٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِّنْ عِندِ اللَّهِ

} ؛ تقديرُ هذه الآية مع ما قبلَها : لا يُعْجِبُكَ يا مُحَمَّدُ تقلُّبُ أولئكَ الكفار في نعيمِ الدُّنيا ، بل ما أعْطِيَ المتَّقونَ فِي الآخرةِ أفضلُ ، فإنَّ { الَّذِينَ اتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ } أي وَحَّدُوهُ وأطاعوهُ { لَهُمْ جَنَّاتٌ } أي بساتينُ تجري من تحتِ أشجارها ومساكنها الأنْهارُ مُقِيْمِيْنَ فيها.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { نُزُلاً } أي رِزْقاً وثَوَاباً لَهم ، وهذا نُصِبَ على التفسيرِ ؛ كما يقالُ للشيء : هِبَةٌ أو صَدَقَةٌ. ويجوزُ أن يكونَ نصباً على المصدر على معنى : انْزلُوا نُزُلاً ، والنُّزُلُ : ما يُهَيَّأُ للنَّازِلِ من كرامةٍ وبرٍّ وطعامٍ وشرابٍ ومَنظر حَسَنٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَكِنِ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ } ؛ أي مِن عندِ الله من الجزاءِ والثَّواب خيرٌ للصالحين من مَا لَهُمْ في الدُّنيا. قرأ أبو جعفر : (لَكِنَّ الَّذِيْنَ) بالتشديد. وقرأ الحسنُ والنخعيُّ : (نُزْلاً) ساكنة الزَّاي.

روَى أنسُ بن مالكٍ قَالَ : " دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَهُوَ عَلَى سَرِيْرٍ ، وَتَحْتَ رَأْسِهِ وِسَادَةٌ مِنْ أدَمٍ وَحَشْوُهَا لِيْفٌ ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ عُمَرُ رضي الله عنه فَانْحَرَفَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم انْحِرَافَةً ؛ فَرَأى عُمَرُ أثَرَ الشَّرِيْطِ فِي جَنْبِهِ فَبَكَى ، فَقَالَ لَهُ : " مَا يُبْكِيْكَ يا عُمَرُ ؟ " فَقَالَ : وَمَا لِي لاَ أبْكِي يَا رَسُولَ اللهِ! وَكِسْرَى وَقَيْصَرَ يَعِيْشَانِ فِيْمَا يَعِيْشَانِ فِيْهِ مِنَ الدُّنْيَا ، وَأَنْتَ عَلَى الْحَالِ الَّذِي أرَى ، فَقَالَ : " يَا عُمَرُ! أمَا تَرْضَى أنْ تَكُونَ لَهُمُ الدُّنْيَا وَلَنَا الآخِرَةُ ؟ " فَقَالَ : بَلَى ، قَالَ : " هُوَ كَذَلِكَ ".

(٠/٠)

وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ } ؛ معناهُ : إنَّ مِن أهلِ الكتاب لَمَنْ يُصَدِّقُ باللهِ والقرآنِ والتَّوراةِ والإنْجيلِ والزَّبُور وسَائرِ كُتُب اللهِ ، وَهُمْ : عَبْدُاللهِ بْنُ سَلاَمٍ وَأَصْحَابُهُ ؛ { خَاشِعِينَ للَّهِ } ؛ أي ذلِيْلَةٌ أنْفُسُهُمْ لله ؛ { لاَ يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ } ؛ بُمَحَمَّدٍ وَالْقُرْآنِ ؛ { ثَمَناً قَلِيلاً } ؛ عَرَضاً يَسِيْراً كما فعلَهُ رؤساءُ اليهودِ ؛ { أُوْلائِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ }.

وقال قتادةُ : " نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي النَّجَاشِيِّ مَلِكِ الْحَبَشَةِ ؛ لَمَّا مَاتَ نَعَاهُ جَبْرِيْلُ عليه السلام إلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ؛ أيْ فِي الْيَوْمِ الَّذِي مَاتَ فِيْهِ ؛ فَقَالَ صلى الله عليه وسلم لأَصْحَابِهِ : " اخْرُجُواْ فَصَلُّواْ عَلَى أخٍ لَكُمْ مَاتَ بَغَيْرِ أرْضِكُمْ ". قَالُواْ : وَمَنْ هُوَ ؟ قَالَ : " النَّجَاشِيُّ " فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم إلَى الْبَقِيْعِ ، وَكُشِفَ لَهُ مِنَ الْمَدِيْنَةِ إلَى أرْضِ الْحَبَشَةِ ؛ فَأَبْصَرَ سَرِيْرَ النَّجَاشِيِّ فَصَلَّى عَلَيْهِ وَاسْتَغْفَرَ لَهُ ؛ وَقَالَ لأَصْحَابِهِ : " اسْتَغْفِرُواْ لَهُ ". فَقَالَ الْمُنَافِقُونَ : انْظُرُواْ إلَى هَذا يُصَلِّي

عَلَى عِلْجٍ حَبَشِيٍّ نَصْرَانِيٍّ لَمْ يَرَهُ قَطُّ ، وَلَيْسَ عَلَى دِينِهِ! " فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ ".
قَوْلُهُ تَعَالَى : { خَاشِعِينَ للَّهِ } تُنْصَبُ على الحالِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { لاَ يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً } أي لا يُحَرِّفُونَ كُتُبَهُمْ ، ولا يكتمونَ صِفَةَ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم لأجلِ الْمَآكِلِ والرئَاسَةِ ، كما فعلت رؤساءُ اليهودِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ } ؛ فقد تقدَّم تفسيرُه.

(٠/٠)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللَّهَ } ؛ أي { اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ } أي اصبروا على أداءِ الفرائضِ ، واجتناب الْمَحَارِمِ ، وصَابِرُوا أعداءَكم في الجهادِ في مقاتَلَتِهم ، ورَابطُوا خُيُولَكُمْ على الجهادِ. والرِّبَاطُ وَالْمُرَابَطَةُ : أن يَرْبُطَ كلُّ واحدٍ من الفريقين خُيُولَهُمْ في الثَّغْرِ. وقيل : الْمُرَابَطَةُ : الْمُحَافَظَةُ على الصلواتِ.
قال أبُو هريرةَ رضي الله عنه : قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بمَا يَمْحُو اللهُ بِهِ الْخَطَايَا ، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ ؟ " قَالُواْ : بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ ، قال : " إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ ؛ وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ ؛ وَانْتِظَارُ الصَّلاَةِ بَعْدَ الصَّلاَةِ ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ ".
وقال الضحَّاك : (مَعْنَى الآيَةِ : يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا اصْبُروا عَلَى أمْرِ اللهِ). وقال الكلبيُّ : (اصْبِرُواْ عَلَى الْبَلاَءِ) ، وقالتِ الحكماءُ : الصَّبْرُ ثَلاَثَةُ أشْيَاءٍ : تَرْكُ الشَّكْوَى ؛ وَصِدْقُ الرِّضَا ؛ وَقَبُولُ الْقَضَاءِ. وقيل : الصَّبْرُ : هو الثَّبَاتُ على أحكامِ الكتاب والسُّنة.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَصَابِرُواْ } الْكُفَّارَ { وَرَابِطُواْ } بمعنى دَاوِمُوا وأثْبُتُوا. قَالَ صلى الله عليه وسلم : " مَنْ رَابَطَ يَوْماً فِي سَبِيْلِ اللهِ كَانَ كَصِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ ، وَمَنْ تُوُفِّيَ فِي سَبِيْلِ اللهِ أجْرَى اللهُ لَهُ أجْرَهُ حَتَّى يَقْضِيَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّار ، وَمَنْ رَابَطَ يَوْماً فِي سَبِيْلِ اللهِ جَعَلَ اللهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّار سَبْعَةَ خَنَادِقَ ؛ كُلُّ خَنْدَقٍ مِنْهَا كَسَبْعِ سَمَوَاتٍ وَسَبْعِ أرْضِيْنَ "
قال بعضُهم في هذه الآيةِ { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ } عِنْدَ قِيَامِ النَّفِيْرِ عَلَى احْتِمَالِ الْكُرَب ، { وَصَابِرُواْ } عَلَى مُقَاسَاةِ الْعَنَاءِ وَالتَّعَب ، { وَرَابِطُواْ } فِي دَار أعْدَائِي بلاَ هَرَبٍ ، واتقوا عدوَّكم من الألتفاتِ الى السَّبب لكي تُفْلِحُوا غداً بلقائي عند بسَاطِ القُرب. وقال السري السقطي : (اصْبِرُواْ عَلَى الدُّنْيَا رَجَاءَ السَّلاَمَةِ ، وَصَابِرُواْ عِنْدَ القِتَالِ بالثَّبَاتِ وَالاسْتِقَامَةِ ، وَرَابِطُوا هَوَى النَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ، وَاتَّقُوا مَا يَعْقِبُ لَكُمُ النَّدَامَةَ ، { لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } ؛ غَداً على بسَاطِ الكرامةِ.
وقيل : معناهُ : اصبروا على بلائِي ، وَصَابِرُوا بالشُّكر على نَعْمَائِي ، ورَابِطُوا في دار أعدائي ، واتَّقوا

مَحَبَّةَ مَن سِوَايَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ بلقائِي. وقيل : اصْبِرُوا على البغضاءِ ؛ وصابِرُوا على البَأْسَاءِ والضرَّاء ؛ ورابطوا في دار الأعداءِ ؛ واتَّقُوا إلَهَ الأَرضِ والسَّماء ؛ لَعَلَّكُمْ تفلحون في دار البقاءِ. وعن جعفرِ الصَّادق قالَ : (مَعْنَى هَذِهِ الآيَةِ : اصْبِرُوا عَلَى الْمَعَاصِي ؛ وَصَابِرُوا مَعَ الطَّاعَاتِ ؛ وَرَابِطُوا الأَرْوَاحَ بالْمَسَاجِدِ ، وَاتَّقُوا اللهَ لِكَي تَبْلُغُوا مَوَاقِفَ أَهْلَ الصِّدْقِ ؛ فَإِنَّهَا مَحَلُّ الْفَلاَحِ). واللهُ أعْلَمُ.

(٠/٠)

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١)

{ ياأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (قَدْ يَكُونُ { ياأَيُّهَا النَّاسُ } عَامّاً ؛ وَقَدْ يَكُونُ خَاصّاً لأَهْلِ مَكَّةَ ؛ وَهُوَ هَا هُنَا عَامٌّ لِجَمِيْعِ النَّاسِ ، وَمَعْنَاهُ : أجِيْبُواْ رَبَّكُمْ وأَطِيْعُوهُ). وقَوْلُهُ تَعَالَى : { خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ } يعني آدمَ ، وإنَّمَا أتتِ النفسُ لاعتبار اللفظِ دونَ المعنى. قال الشاعرُ : أبُوكَ خَلِيْفَةٌ وَلَدَتْهُ أُخْرَى وَأَنْتَ خَلِيْفَةٌ ذاكَ الْكَمَالُفقالَ : وَلَدَتْهُ أُخْرَى ؛ لأن لفظَ الخليفة مؤنَّث.

وإنَّما مَنَّ اللهُ علينا بأنْ خلقَنا من نفسٍ واحدة ؛ لأن ذلك أقربُ إلى أن يَعْطِفَ بعضٌ على بعضٍ ، ويَرْحَمَ بَعضُنا بعضاً لرجوعنا في القرابةِ إلى أصلٍ واحد.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا } أي وخَلَقَ من نفسِ آدمَ زوجَها حَوَّاءَ ؛ خلَقَها من ضِلْعٍ من أضلاعه اليُسرى وهي القُصْرَى بعدَ ما أُلْقِيَ عليه النومُ فلم يُؤْذِهِ ، ولو آذاهُ لَمَا عَطَفَ عليها أبداً. قال صلى الله عليه وسلم : " إنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلْعٍ أعْوَجٍ ، فَإنْ أرَدْتَ أنْ تُقِيْمَهَا كَسَرْتَهَا ، وَإنْ تَرَكْتَهَا وَفِيْهَا عِوَجٌ اسْتَمْتَعْتَ بهَا عَلَى عِوَجٍ "

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَآءً } ؛ أي بَشَراً وفِرَقاً ، وأظهرَ من آدمَ وحوَّاء خَلْقاً كثيراً من الرِّجال والنسَاء. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاتَّقُواْ اللَّهَ الَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ } ؛ أي اتَّقُوا معاصيَ اللهِ ، { #١٦٤٩;لَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِ } أي يتساءَلُ بعضُكم بعضاً من الجوارحِ والحقُوق ؛ يقولُ الرجل للرجُلِ : أسألُكَ باللهِ افْعَلْ لِي كذا.

قرأ أهلُ الكوفة : (تَسَاءَلُونَ) مخفَّفاً ، وقرأ الباقون بالتشديدِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالأَرْحَامَ } قرأ عامَّة القُرَّاء بنصب (الأَرْحَامَ) على معنى : واتَّقُوا الأرحامَ أن تقطعُوها.

وقرأ النخعيُّ وقتادةُ والأعمش وحمزة بالخفضِ على معنى : وبالأرحامِ على معنى : تساءَلُونَ باللهِ وبالأرحامِ ؛ فيقول الرجلُ : أسألُكَ باللهِ وبالرَّحِمِ. والقراءةُ الأُولى أفصحُ ؛ لأن العربَ لا تعطفُ بظاهرٍ

على مُضْمَرٍ مخفوض إلاَّ بإعادةِ الخافض ، لا يقولونَ : مررتُ به وزيدٍ ، ويقولونَ : بهِ وبزيدٍ ، وقد جاءَ ذلك في الشِّعر ، قال الشاعرُ : قَدْ كُنْتَ مِنْ قَبْلُ تَهْجُونَا وتَشْتِمُنَا فَاذْهَبْ فَمَا بكَ وَالأَيَّامِ مِنْ عَجَبقَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً } ؛ أي حَفِيظاً لأعمالكم ، وَالرَّقِيْبُ هو الحافظُ ، وقال بعضُهم : عَلِيْمَاً ؛ والعَلِيْمُ والحافظُ متهاديان ؛ لأن العليمَ بالشيء حافظٌ له.

(٠/٠)

وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا (٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَآتُواْ الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَتَبَدَّلُواْ الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ } ؛ قال مقاتلُ والكلبيُّ : " نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي رَجُلٍ مِنْ غَطْفَانَ ؛ كَانَ فِي يَدِهِ مَالٌ كَثِيْرٌ لابْنِ أخٍ لَهُ يَتِيْمٍ ، فَلَمَّا بَلَغَ الْيَتِيْمُ طَلَبَ مَالَهُ ، فَمَنَعَهُ الْعَمُّ فَتَرَافَعَا إِلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : { إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيراً }. فَقَرَأَهَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، فَقَالَ الرَّجُلُ : أَطَعْنَا اللهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ وَنَعُوذُ باللهِ مِنَ الْحَوْبِ الْكَبِيْرِ ، فَدَفَعَ مَالَهُ إِلَيْهِ ، فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " مَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ وَيُطِيْعَ رَبَّهُ هَكَذا فَإِنَّهُ يَحِلُّ دَارَهُ إِلى جَنَّةٍ " فَلَمَّا قَبَضَ الصَّبِيُّ مَالَهُ أَنْفَقَهُ فِي سَبِيْلِ اللهِ ، فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " ثَبَتَ الأَجْرُ وَبَقِيَ الْوِزْرُ " فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، عَرَفْنَا أَنَّهُ ثَبَتَ الأَجْرُ ، فَكَيْفَ بَقِيَ الْوِزْرُ وَهُوَ يُنْفِقُ فِي سَبِيْلِ اللهِ ؟ فَقَالَ : " ثَبَتَ الأَجْرُ لِلْغُلاَمِ ؛ وَبَقِيَ الْوِزْرُ عَلَى وَالِدِهِ " لأَنَّ الْوَالِدَ كَانَ مُشْرِكاً ".

وإِنَّما سَمَّى اللهُ تعالى البالغَ يتيماً ، ولا يُتْمَ بعدَ البلوغِ استصحاباً بالاسم الأوَّل ، كما قالَ تعالى : { وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ }[الأعراف : ١٢٠] ولا سِحْرَ مع السُّجود ، ولأنه قريبُ عَهْدٍ باليُتْمِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ تَتَبَدَّلُواْ الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ } أي لاَ تبذِّروا أموالَكم الحلالَ وتأكلُوا الحرامَ من أموالِ اليتامَى. قالَ سعيدُ بن المسيَّب والنخعيُّ والزهريُّ والسدي والضحَّاك : (كَانَ أَوْصِيَاءُ الْيَتَامَى وَأَوْلِيَاؤُهُمْ يَأْخُذُونَ الْجَيِّدَ مِنْ مَالِ الْيَتِيْمِ ، وَيَجْعَلُونَ مَكَانَهُ الرَّدِيْءَ ، وَرُبَّمَا كَانَ أَحَدُهُمْ يَأْخُذُ الشَّاةَ السَّمِيْنَةَ مِنْ مَالِ الْيَتِيْمِ ، وَيَجْعَلُ مَكَانَهَا الْمَهْزُولَةَ ، وَيَأْخُذُ الدِّرْهَمَ الْجَيِّدَ وَيَجْعَلُ مَكَانَهُ الزَّيْفَ وَيَقُولُ : دِرْهَمٌ بِدِرْهَمٍ ؛ فَذلِكَ تَبْدِيْلُهُمْ ، فَنَهَاهُمُ اللهُ تَعَالَى عَنْ ذلِكَ).

وقال مجاهدُ : (مَعْنَى الآيَةِ : لاَ تَجْعَلْ رِزْقَكَ الْحَلاَلَ حَرَاماً ؛ تَتَعَجَّلُهُ بِأَنْ تَسْتَهْلِكَ مَالَ الْيَتِيْمِ ، فَتُنْفِقَهُ عَلَى نَفْسِكَ ، وَتَحَرَّ فِيْهِ لِنَفْسِكَ وَتُعْطِيْهِ غَيْرَهُ ، فَيَكُونَ مَا يَأْخُذُهُ مِنْ مَالِ الْيَتِيْمِ حَرَاماً خَبِيْثاً ، وَتُعْطِيْهِ مَالَكَ الْحَلاَلَ ، وَلَكِنْ آتوهُمْ أَمْوَالَهُمْ بأَعْيَانِهَا). وفي هذا دليلٌ على أنه لا يجوزُ لوليِّ اليتيم أن يستقرضَ مالَ اليتيم ولا أن يستبدلَهُ من نفسهِ ، وقيل : معنى { وَلاَ تَتَبَدَّلُواْ الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ } أي لا تجعلِ الزيف

بدلَ الجيِّد ؛ ولا المهزولَ بدل السَّمين.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ } ؛ كقوله تعالى : { مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ }[آل عمران : ٥٢] أي مَعَ اللهِ ، وقيل معناه : لا تأكلُوا أموالَهم مُضِيْفِيْنَ إلى أموالِكم ؛ لأنَّهم كانوا يَخْلِطونَ أموالَ اليتامَى بأموالِهم حتى يصيرَ دَيْناً عليهم ، ثم كانوا يبيعونَها مع أموالِهم ويربحونَ عليها ويَسْتَبدُّونَ بتلك الأرباحِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيراً } ؛ أي إثْماً عَظِيْماً ، وفيه ثلاثُ لغاتٍ : قراءةُ العامَّة : (حُوباً) بالضمِّ وهي قراءةُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم وهي لغةُ أهلِ الحجازِ ، وقراءة الحسنِ (إنَّهُ كَانَ حَوْباً) بفتح الحاء وهي لغةُ تَميم ، وقراءةُ أبَيِّ بن كعبٍ : (حَاباً) على المصدر مثلُ القَالِ ، ويجوزُ أن يكون اسْماً مثلُ الزادِ ، ويقالُ للذنب : حُوبٌ وَحَوْبٌ وَحَابٌ.

(٠/٠)

وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا (٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُمْ مِّنَ النِّسَآءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً }[النساء : ١٠] الآيَةُ ، خَافَ النَّاسُ أنْ لاَ يَعْدِلُواْ فِي أمْوَالِ الْيَتَامَى – وَكَانُوا يَتَزَوَّجُونَ مِنَ النِّسَاءِ مَا شَاءُوا – فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ).
ومعناها : إنْ خِفْتُمْ أنْ لاَ تعدِلُوا في أموالِ اليتامَى ؛ فَخَافُوا في النِّساءِ إذا اجتمعنَ عندَكُم أن لا تعدلُوا بينهنَّ ، فَتَزَوَّجُوا ما حَلَّ لكم من النِّساءِ ، ولاَ تَنْكِحُوا إلاَّ ما يُمكنكم إمساكهُنَّ : ثِنْتَانِ ثِنْتَانِ ؛ وَثَلاَث ثلاث ؛ وأربع أربعٍ ، ولا يزيدُوا على أربعٍ حرائر. وقيل : معنى الآية : إنْ خِفْتُمْ أن لا تعدِلوا يا معشرَ الأولياءِ في اليتامَى إذا تزوجتُم بهِنَّ ؛ فانْكِحُوا ما حلَّ لكم من النساء غيرهنَّ. وقال مجاهدُ : (مَعْنَاهُ : إنْ خِفْتُمْ فِي ولاَيَةِ الْيَتَامَى إيْماناً وتَصْدِيْقاً ؛ فَخَافُوا فِي الزِّنَا ، وَانْكِحُوا الطَّيِّبَ مِنَ النِّسَاءِ).
وقال بعضُهم : كانوا يَتَحَرَّجُونَ عن أموالِ اليتامى ، ويترخَّصون في النساءِ ، ولا يعدلونَ فيهنَّ ويتزوجُون منهنَّ ما شاءُوا فربما عدلوا ، وربَّما لم يعدلوا ، فلما سألُوا عن أموالِ اليتامى ، أنزلَ اللهُ تعالى{ وَآتُواْ الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ }[النساء : ٢] ، وأنزلَ{ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى }[النساء : ٣] ، أي كما خِفْتُمْ أن لا تُقْسِطُوا في اليتامى وهَمَّكُمْ ذلكَ ؛ فخافُوا في النساءِ أن لا تعدلُوا فيهنَّ ؛ ولا تزوَّجوا أكثرَ مما يُمكنِكم إمساكهنَّ والقيامُ بحقِّهنَّ ؛ لأن النساءَ كاليتامَى في الضَّعْفِ والعَجْزِ ، فما لكم تُرَاقِبُونَ اللهَ في شيء ، وَتَعْصُونَهُ في مثلِهِ ، وهذا قولُ سعيدِ بن جبير وقتادةَ والربيعِ والضحَّاك والسديِّ ، وروايةٌ ابنِ

عبَّاس.
والإقْسَاطُ في اللغة : الْعَدْلُ ، يقال : أقْسَطَ ؛ إذا عَدَلَ ، وَقَسَطَ ؛ إذا جَارَ ، وإنَّما قال : (مَا طَابَ) ولم يقل مَنْ طَابَ ؛ لأن (ما) مع الفعلِ بمنْزلة المصدر ، كأنهُ قالَ : فانكحُوا الطيِّبَ ، يعني الحلالَ من النساء. وقرأ ابن أبي عبلةَ : (مَنْ طَابَ) ؛ لأن (ما) لِما لا يعقلُ و (من) لمن يعقل ، إلاّ أنَّ عامَّة القُرَّاء والعلماءِ يقولون : إن العربَ تجعلُ (ما) بمعنى (مِن) ؛ و (مِن) بمعنى (ما) ، وقد جاءَ القُرْآنُ بذلكَ : قال اللهُ تعالى : { وَالسَّمَآءِ وَمَا بَنَاهَا }[الشمس : ٥] ، وقال تعالى : { فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ }[النور : ٤٥] ، وقال تعالى : { قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ }[الشعراء : ٢٣].
قَوْلُهُ تَعَالَى : { مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ } بدل مِنْ (طَابَ لَكُمْ) وهو مما لا ينصرفُ ، لأن { مَثْنَى } معدولٌ عن اثنين وذلكَ نكرةٌ ، و (ثُلاَثَ) معدولٌ عن ثلاثةٍ.
وذهبَ بعض الرَّوَافِضِ إلى استحلالِ تِسْعٍ استدلالاً بهذه الآية ، ولَيْسَ ذلِكَ بشَيْءٍ ، فإنَّ الواوَ هنا بمعنى (أو) ، " وروي عن قيسِ بن الْحَارثِ : أنَّهُ كَانَ عِنْدَهُ ثَمَانِي نِسْوَةٍ ، فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ أَمَرَهُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم أنْ يُمْسِكَ أرْبَعاً وَيُفَارِقَ أرْبَعاً ، وَقَالَ صلى الله عليه وسلم لِغَيْلاَنَ حِيْنَ أسْلَمَ وَتَحْتَهُ عَشْرُ نِسْوَةٍ : " أمْسِكْ مِنْهُنَّ أرْبعاً ؛ وَفَارِقْ سَائِرَهُنَّ ".

(٠/٠)

وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا (٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَآتُواْ النِّسَآءَ صَدُقَاتِهِنَّ } ؛ قال الكلبيُّ : (هَذا خِطَابٌ لِلأَوْلِيَاءِ ، كَانَ الْوَلِيُّ إذا زَوَّجَ امْرَأَةً ، فَإنْ كانَ زَوْجُهَا مَعَهُمْ فِي الْعَشِيْرَةِ لَمْ يُعْطِهَا الْوَلِيُّ مِنْ مَهْرِهَا قَلِيْلاً وَلاَ كَثِيْراً ، وَإنْ كَانَ زَوْجُهَا غَرِيْباً حَمَلُوهَا عَلَى بَعِيْرٍ إلَى زَوْجِهَا ، وَلاَ يُعْطُونَهَا مِنْ مَهْرِهَا غَيْرَ ذلِكَ الْبَعِيْرِ ، فَنَهَاهُمْ عَنْ ذلِكَ وَأَمَرَهُمْ أنْ يُعْطُوهَا الْحَقَّ أهْلَهُ). وقال مقاتلُ وأكثر أهلِ التَّفسير : (هَذا خِطَابٌ للأَزْوَاجِ ، كَانَ الرَّجُلُ يَتَزَوَّجُ الْمَرْأةَ فَلاَ يُعْطِيْهَا مَهْرَهَا ، فَأُمِرُواْ أنْ يُعْطُواْ نِسَاءَهُمْ مُهُورَهُنَّ الَّتِي هِيَ أثْمَانُ فُرُوجِهِنَّ) وهذا القولُ أضحُّ وأوضحُ. والصَّدُقَاتِ : الْمُهُورُ ، واحدهُ صَدُقَةٌ بضمِّ الدال.
وقَوْلُهُ تَعَالَى : { نِحْلَةً } قال قتادةُ : (فَرِيْضَةً وَاجِبَةً) ، وقال ابن جُريج : (فَرِيْضَةً مُسَمَّاةً) ، وقال الكلبيُّ : (عَطِيَّةً وَهِبَةً) ، وقال أبو عُبيدة : (عَنْ طِيْب نَفْسٍ) ، قال الزجَّاج : (تَدَيُّناً). وقيل : معناهُ : عطيَّةٌ من اللهِ تعالى للنِّساءِ حيث جَعْلِ المهرَ لَهُنَّ ، ولم يوجب عليهنَّ شيئاً من القومِ مع كون الاستِمْتَاع مشتَركاً بينهنَّ وبين الأزواجِ. وقيل معنى (نِحْلَةً) : دِيَانَةً ، فانتصبَ (نِحْلَةً) على المصدر ، وقيل : على التفسيرِ.

وروي عن رسول الله أنه قال : " مَنِ ادَّانَ دَيْناً وَهُوَ يَنْوِي أنْ لاَ يُؤَدِّيَهُ لَقِيَ اللهَ سَارِقاً ، ومَنْ أصْدَقَ امْرَأةً صِدَاقاً وَهُوَ يَنْوِي أنْ لاَ يُوَفِّيَهَا لَقِيَ اللهَ زَانِياً " وقال صلى الله عليه وسلم : " إنَّ أحَقَّ الشُّرُوطِ أنْ تُوَفُّوا مَا اسْتَحْلَلْتُمْ بِهِ الْفُرُوجَ "

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَّرِيئاً } ؛ أي إنْ أحْلَلْنَ لَكُم عن شيءٍ من المهرِ ، وإن وَهَبْنَ لكم منه شيئاً. ونصب (نَفْساً) على التَّمييزِ إذا قيلَ (طِبْنَ لَكُمْ) لم يُعلم في أيِّ صنفٍ وقعَ الطيبُ ، فكأنه قالَ : إن طَابَتْ أنفسُهن بهِبَةِ شيءٍ من المهر فكلُوا الموهوبَ لكم هنيئاً لا إثْمَ فيه ، مَرِيئاً لا مَلاَمَةَ فيه. قال الحضرميُّ : (إنَّ نَاساً كَانُواْ يَتَأَثَّمُونَ أنْ يَرْجِعَ أحَدُهُمْ فِي شَيْءٍ مِمَّا سَاقَ إلَى امْرَأتِهِ). قال اللهُ تعالى : { فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْساً } من غيرِ إكراهٍ ولا خَدِيْعَةٍ { فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَّرِيئاً } أي شافياً طَيِّباً.

وقيل معناهُ : فكلوهُ دواءً شافياً ، وقيل : الْهَنِيءُ : الطَّيِّبُ الْمُسَاغُ الَّذِي لاَ يَغُصُّهُ شَيْءٌ ، وَالْمَرِيْءُ : الْمَحْمُودُ الْعَاقِبَةِ الَّذِي لاَ يَضُرُّ وَلاَ يُؤْذِي ، تقول : لا تخافونَ في الدنيا منهُ مطالبةً ، ولا في الآخرة بتبعةٍ ، يقال : هنأني لِي الطعامُ وَمَرَّأني ، فإذا أفْرِدَ يقال : أَمْرَأني ولا يقال إهْنَأني ، وَهَنِيْئاً مصدرٌ.

وعن عَلِيٍّ رضي الله عنه أنهُ قالَ : (إذا كَانَ أحَدُكُمْ مَرِيْضاً فَلْيَسْأَلِ امْرَأتَهُ دِرْهَمَيْنِ مِنْ مَهْرِهَا تَهَبْ لَهُ بِطِيْبَةِ نَفْسِهَا ؛ فَلْيَشْتَرِ بذلِكَ عَسَلاً ، وَيَشْرَبُهُ مَعَ مَاءِ الْمَطَرِ ، فَقَدِ اجْتَمَعَ الْهَنِيءُ وَالْمَرِيءُ وَالشِّفَاءُ وَالْمَاءُ الْمُبَارَكِ). لأنَّ اللهَ تعالى سَمَّى المهرَ هَنِيْئاً مَرِيْئاً إذا وَهَبَتْهُ المرأةُ لِزَوْجِهَا ؛ وسَمَّى العسلَ شِفَاءً ؛ وسَمَّى المطرَ مُبَاركاً ، فإذا اجتمعتْ هذهِ الأشياءُ يُرْجَى له الشِّفاء.

(٠/٠)

وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا (٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَآءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَاماً } ؛ أي لا تُعْطُوا الْجُهَّالَ بمواضعِ الحقِّ – وهم النساءُ والصِّبيانُ – أموالَكم التي جعلَ اللهُ لكم قَوَامَ أمرِكم ومعيشتِكُم ؛ أي جعلَكم تقومونَ به قِيَاماً إذا عَلِمَ الرجلُ أنَّ امرأتَهُ سفيهةٌ مُفْسِدَةٌ ، وأن وَلَدَهُ سَفِيْهٌ مفسدٌ ، فلا يَنْبَغِي لهُ أن يُسَلِّطَ أحداً منهُما على مالِهِ الذي هو قِوَامُ أمرِهِ. ومن قرأ (قِيَماً) فمعناهُ : التي جعلَها اللهُ لكم قِيْمَةً للأشياءِ فَبِهَا تقومُ أمورُكم.

وقال مجاهدُ : (نَهَى الرِّجَالَ أنْ يُؤْتُوا النِّسَاءَ أمْوالَهُمْ وَهُنَّ سُفَهَاءُ ؛ كُنَّ أزْواجاً ، أوْ بَنَاتٍ أوْ أُمَّهَاتٍ).

وعن الضحَّاك : (النِّسَاءُ مِنْ أسْفَهِ السُّفَهَاءِ) يدلُّ على هذا التأويلِ قولهُ صلى الله عليه وسلم : " ألاَ إنَّمَا

خُلِقَتِ النَّارُ لِلسُّفَهَاءِ – قَالَهَا ثَلاَثاً – ألاَ إنَّ السُّفَهَاءَ النِّسَاءُ إلاَّ امْرَأَةٌ أطَاعَتْ قَيِّمَهَا "

وعن أنسٍ رضي الله عنه قَالَ : " جَاءَتِ امْرَأَةٌ سَوْدَاءُ جَرِيئَةُ الْمَنْطِقِ إلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَتْ : بأَبي وَأمِّي أنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ ؛ بَلَغَنِي أنَّكَ تَقُولُ فِيْنَا كُلَّ شَيْءٍ ، قَالَ : " أيُّ شَيْءٍ قُلْتُ فِيْكُنَّ ؟ " قَالَتْ : سَمَّيْتَنَا السُّفَهَاءَ ، قَالَ : " اللهُ تَعَالَى سَمَّاكُنَّ السُّفَهَاءَ فِي كِتَابِهِ " قَالَتْ : وَسَمَّيْتَنَا النَّوَاقِصَ ، قَالَ : " فَكَفَى نَقْصاً أنْ تَتْرُكَ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْكُنَّ الصَّلاَةَ فِي كُلِّ شَهْرٍ خَمْسَةَ أيَّامٍ لاَ تُصَلِّي فِيْهَا " – يَعْنِي أيَّامَ حَيْضِهَا – ثُمَّ قَالَ صلى الله عليه وسلم : " أمَا يَكْفِي إحْدَاكُنَّ إذا حَمَلَتْ كَانَ لَهَا كَأَجْرِ الْمُرَابِطِ فِي سَبِيْلِ اللهِ ، وَإذا وَضَعَتْ كَانَتْ كَالْمُتَشَحِّطِ بدَمِهِ فِي سَبِيْلِ اللهِ ، فَإذا أرْضَعَتْ كَانَ لَهَا بكُلِّ جُرْعَةٍ عِتْقُ رَقَبَةٍ مِنْ وُلْدِ إسْمَاعِيْلَ ، فَإذا سَهِرَتْ كَانَ لَهَا بكُلِّ سَهْرَةٍ عِتْقُ رَقَبَةٍ مِنْ وُلْدِ إسْمَاعِيْلَ ، وَذلِكَ لِلْمُؤْمِنَاتِ الْخَاشِعَاتِ الصَّابِرَاتِ اللاَّتِي لاَ يَكْفُرْنَ الْعَشِيْرَ " فَقَالَتِ السَّوْدَاءُ : أيَا لَهُ فَضْلاً لَوْلاَ مَا تَبِعَهُ مِنَ الشُّرُوطِ ".

وروي : أنَّ امْرَأَةً مَرَّتْ بعَبْدِاللهِ بْنِ عُمَرَ لَهَا شَارَةٌ وَهَيْئَةٌ ، فَقَالَ لَهَا ابْنُ عُمَرَ : (وَلاَ تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمْ). وقال معاويةُ بن مُرَّةَ : (عَوِّدُوا نِسَاءَكُمْ (لاَ) ، فَإنَّهُنَّ سَفِيْهَاتٌ ، إنْ أطَعْتَ الْمَرْأةَ أهْلَكَتْكَ).

وعن أبي موسَى الأشعريِّ قالَ : (ثَلاَثَةٌ يَدْعُونَ اللهَ فَلاَ يَسْتَجِيْبَ لَهُمْ : رَجُلٌ كَانَتْ تَحْتَهُ امْرَأةٌ سَيِّئَةُ الْخُلُقِ فَلَمْ يُطَلِّقْهَا ، وَرجُلٌ كَانَ لَهُ عَلَى رَجُلٍ دَيْنٌ فَلَمْ يُشْهِدْ عَلَيْهِ ، وَرَجُلٌ أعْطَى سَفِيْهاً مَالَهُ ، وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى : { وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَآءَ أَمْوَالَكُمُ } أي الْجُهَّالَ بَمَوَاضِعِ الْحَقِّ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَاماً }. قرأ ابنُ عمر (قَوَاماً) بفتح القافِ والواو ، وقرأ عيسَى بن عمر (قِوَاماً) بكسر القاف وهما لُغات. وقرأ الأعرجُ ونافع وابنُ عامر (قيماً) بكسر القاف من غير ألف. وقرأ الباقون (قِيَاماً) بالألف.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ } ؛ أي أطْعِمُوا النساءَ والأولادَ واكسُوهم من أموالِكم. { وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفاً } ؛ أي عُدُّوهُمْ عُدَّةً حَسَنَةً ، نحوَ أن يقولَ الرجلُ : سأفعل كذا إن شاءَ اللهُ ، وقيلَ : رُدُّوا عليهم رَدّاً جميلاً ، وقولوا لَهم قَوْلاً لَيِّناً تطيبُ به أنفسُهم. والرِّزْقُ من اللهِ تعالى : الْعَطِيَّةُ غَيْرُ الْمَحْدُودَةِ ، ومن العبادِ الشيءُ الموظَّف لوقتٍ محدود. وإنَّما قال (فِيْهَا) ولم يقل : مِنْهَا ؛ لأنه أرادَ : اجعلوا لَهم حَظّاً فيهَا أي رزْقاً فيها.

(٠/٠)

وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا (٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَابْتَلُواْ الْيَتَامَى } ؛ أي اخْتَبرُوهُمْ في عقولِهم وتدبيرِهم وديانَتِهم حتى إذا بَلَغُوا مبلغَ النِّكاحِ وهو الْحُلُمُ ، وهذا دليلُ جواز الإذن للصبيِّ في التجارةِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { حَتَّى إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِّنْهُمْ رُشْداً } ؛ أي عَلِمْتُمْ منهم ووجدتُم إصْلاحاً في عقولِهم وحِفْظاً في أموالِهم { فَادْفَعُواْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ } ؛ الَّتِي عندكم. نزلَتْ هذه الايةُ في ابنِ رُفَاعَةَ وَعَمِّهِ ، وكان رفاعةُ قد تُوُفِّيَ ، وتركَ ابنَهُ صغيراً ، فَأَتَى عمُّهُ ثابتُ إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فقال لهُ : إنَّ ابْنَ أخِي يَتِيْمٌ فِي حِجْرِي ، فَمَتَى أدْفَعُ إلَيْهِ مَالَهُ ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَن يَكْبَرُواْ } ؛ أي لا تأْكُلُوا أموالَ اليتامَى بغيرِ حَقِّ. والإسْرَافُ : مُجَاوَزَةُ الْحَدِّ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَن كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ } ؛ أي لِيَتَوَرَّعْ بغِنَاهُ عن مالِ اليتيم ، ولا يُنْقِصْ شيئاً من مَالِهِ ، والْعِفَّةُ : الامْتِنَاعُ عَمَّا لاَ يَحِلُّ فِعْلُهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَن كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ } ؛ اختلفُوا في معنَى ذلكَ ، قال عمر بن الخطاب وسعيدِ بن جُبير وعبيدةُ السَّلمانِيُّ : (مَعْنَاهُ : فَلْيَأْخُذْ مِنْ مَالِ الْيَتِيْمِ عَلَى جِهَةِ الْقَرْضِ مِقْدَارَ حَاجَتِهِ ، فَإذا أيْسَرَ رَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَهُ). وهكذا روَى الطحَّاويُّ عن أبي حنيفةَ ، فمعنى قولِه تعالى : { بِالْمَعْرُوفِ } بالْقَرْضِ ، نظيرهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ }[النساء : ١١٤] أي أو قَرْضٍ.

وقال مكحولُ وعطاء وقتادةُ : (إنَّ لِوَلِيِّ الْيَتِيْمِ أنْ يَأْخُذ مِن مَالِ الْيَتِيْمِ قَدْرَ مَا يَسْتُرُ عَوْرَتَهُ وَيَسُدُّ جُوعَتَهُ لاَ عَلَى جِهَةِ الْقَرْضِ). قال الشَّعبيُّ : (لاَ يَأْكُلُ إلاَّ أنْ يَضْطَرَّ إلَيْهِ كَأَنْ يَضْطَرَّ إلَى الْمَيْتَةِ). وقال بعضُهم : (فَلْيَأْكُلْ بالْمَعْرُوفِ) أي يأكل من غيرِ إسرافٍ ، ولا قَضَاءٍ عليهِ فيما أكلَ.

واختلفوا في كيفيَّة هذا بالمعروفِ ، فقالَ عكرمةُ والسُّدِّيُّ : (يَأْكُلُ وَلاَ يُسْرِفُ فِي الأَكْلِ وَلاَ يَكْتَسِي مِنْهُ). وقال النخعيُّ : (لاَ يَلْبَسُ الْكِتَّانَ وَلاَ الْحُلَلَ ، وَلَكِنْ مَا يَسُدُّ الْجُوْعَةَ وَيُوَارِي العَوْرَةَ). وقال بعضُهم : معنى : { فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ } هو أن يأكلَ من تَمْرِ نخيلِهِ ولَبَنِ مَوَاشِيهِ بالمعروفِ ولا قضاءَ عليه ، فأمَّا الذهبُ والفضَّة إذا أخذ منه شيئاً ردَّ بَدَلَهُ. قال الضحَّاك : (الْمَعْرُوفُ رُكوبُ الدَّابَّةِ وَخِدْمَةُ الْخَادِمِ ، ولَيْسَ لَهُ أنْ يَأْكُلَ من مالِهِ شيئاً).

وعن ابنِ عبَّاس : (أنَّ رَجُلاً جَاءَ إلَيْهِ فَقَالَ لَهُ : إنَّ فِي حِجْرِي أمْوَالَ أيْتَامٍ ؛ أفَتَأْذنُ لِي أنْ أُصِيبَ مِنْهَا ؟ فَقَالَ : إنْ كُنْتَ تَبْغِي ضَالَّتَهَا ، وَتَهْنَا جَرْبَاهَا ، وَتَلُوطَ حَوضَهَا فَاشْرَبْ غَيْرَ مُضِرٍّ بالنَّسْلِ وَلاَ نَاهِكٍ فِي الْحَلْب). عنِ ابن عبَّاس روايةٌ أخرى أنَّ معنى الآيةِ : (فَلْيَأْكُلْ مِنْ مَالِ نَفْسِهِ بالْمَعْرُوفِ حَتَّى لاَ يُصِيْبَ مِنْ مَالِ الْيَتِيْمِ شَيْئاً).

وعنِ ابن مسعُودٍ رضي الله عنه أنهُ قال : (لاَ يَأْكُلُ مِنْ مَالِ الْيَتِيْمِ قَرْضاً وَغَيْرَهُ) وهذا قولُ أبي حنيفةَ.

وروى بشْرُ عن أبي يوسف أنه قال : (لاَ يَأْكُلُ مِنْ مَالِ الْيَتِيْمِ إذا كَانَ مُقِيْماً ، فَإنْ خَرَجَ فِي تَقَاضِ دَيْنٍ لِلْيَتِيْمِ أوْ إلَى ضِيَاعٍ لَهُ ، فَلَهُ أنْ يُنْفِقَ وَيَكْتَسِي وَيَرْكَبَ ، فَإذا رَجَعَ رَدَّ الثِّيَابَ وَالدَّابَّةَ إلَى الْيَتِيْمِ).

(٠/٠)

لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا (٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَّفْرُوضاً } ؛ وذلك أنَّ العربَ كانت لا تُورثُ إلاَّ مَن طَاعَنَ بالرِّمَاحِ وَذادَ عن المالِ وحَازَ الغنيمةَ ، فأعلمَ اللهُ تعالى أنَّ حَقَّ الميراثِ لِلرِّجَالِ والنِّسَاءِ. قال ابنُ عبَّاس : " تُوُفِّيَ أوْسُ بْنُ ثابتٍ الأَنْصَارِيُّ وَتَرَكَ ثَلاَثَ بَنَاتٍ لَهُ ، وَتَرَكَ امْرَأَةً يُقَالُ لَهَا أمُّ كُجَّةَ وَهِيَ أمُّهُنَّ ، فَقَامَ رَجُلاَنِ مِنْ بَنِي عَمِّهِ قَتَادَةُ وَعَرْفَطَةُ وَكَانَا وَصِيَّيْنِ لَهُ فَأَخَذا مَالَهُ ، وَلَمْ يُعْطِيَا امْرَأَتَهُ وَلاَ بَنَاتَهُ شَيْئاً مِنَ الْمَالِ ، فَجَاءَتْ أمُّ كُجَّةَ إلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ اللهِ ؛ إنَّ أوْسَ بْنَ ثَابتٍ تُوُفِّيَ وَتَرَكَ ثَلاَثَ بَنَاتٍ ، وَلَيْسَ عِنْدِي مَا أنْفِقُ عَلَيْهِنَّ ، وَقَدْ تَرَكَ أبُوهُنَّ مَالاً حَسَناً وَهُوَ عِنْدَ قَتَادَةَ وَعَرْفَطَةَ وَلَمْ يُعْطِيَانِي وَلاَ لِبَنَاتِي شَيْئاً ، هُنَّ فِي حِجْرِي لاَ يَطْعَمْنَ وَلاَ يَسْقِيْنَ وَلاَ يُرْفَعُ لَهُنَّ رَأسٌ ، فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " ارْجِعِي إلَى بَيْتِكِ حَتَّى أنْظُرَ مَا يُحْدِثُ اللهُ فِيْهِنَّ " فَرَجَعَتْ إلَى بَيْتِهَا ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ لآيَةَ ".
ومعناه : للرجالِ حظٌّ مِمَّا تركَ الولدانِ والأقربونَ ، وللنساءِ كذلكَ أيضاً ، مما قَلَّ مِن المالِ أو كَثُرَ ، { نَصِيباً مَّفْرُوضاً } أي مَعْلُوماً مقدَّراً ، فأرسلَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم إلى قتادةَ وعَرْفَطَةَ : " أنْ لا تَقْرَبَا من مالِ أوْسٍ شَيْئاً ، فإنَّ اللهَ قدْ أنْزَلَ لِبَنَاتِهِ نَصِيْباً ، ولَمْ يُبَيِّنْ كَمْ هُوَ ، أنْظُرُكُمْ يُبَيِّنُ اللهُ تَعَالَى لَهُنَّ " فأنزلَ اللهُ بعد ذلكَ { يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ } إلى قولهِ { ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } فأرسلَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم إلى قتادةَ وعرفطةَ : " أنِ ادْفَعَا إلَى أمِّ كُجَّةَ ثُمْنَ جَمِيْعِ الْمَالِ إدْفَعَا إلَيْهَا لِبَنَاتِهَا الثُّلُثَيْنِ وَلَكُمُ بَاقِي الْمَالِ ".
وانتصبَ قَوْلُهُ تَعَالَى (نَصِيْباً) لِخروجِهِ مخرجَ المصدرِ كقول القائلِ : عِنْدِي حَقّاً ؛ ولك معي درهمٌ هبةً.

(٠/٠)

وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا (٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُواْ الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِّنْهُ } ؛ أي حَضَرَ قسمةَ

المواريثِ ذو قرابةِ الميِّت في الرَّحِمِ الذين لا يورَثون واليتامَى المحتاجونَ والمساكين فأعطُوهم شيئاً من المالِ قبلَ القسمةِ ، { وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفاً } ؛ أي عِدُوهُم عِدَةً حسنةً ، وقيل : اعتذِرُوا عند قِلَّةِ المالِ وقولوا لَهم : كُنَّا نُحِبُّ أن يكونَ أكثر من ذلك.

وعنِ ابن عبَّاس روايَتَان ؛ إحدَاهُما : (أنَّ هَذِهِ الآيَةَ مُحْكَمَةٌ غَيْرُ مَنْسُوخَةٍ) وهو قولُ عطاءٍ ومجاهدُ والزهريُّ وجماعةٌ ، حتى روي عن عبيدةَ السَّلمانيِّ : (أنَّهُ ذَبَحَ لِلأَقْرِبَاءِ شَاةً مِنْ أمْوَالِ الْيَتَامَى وَأعْطَاهُمْ ؛ وَقَالَ : إنِّي أُحِبُّ أنْ يَكُونَ ذلِكَ مِنْ مَالِي لَوْلاَ هَذِهِ الآيَةُ). وعنِ ابن سِيْرِيْنَ أنَّهُ فعلَ مِثلَ ذلكَ. وقال قتادةَ عنِ الحسنِ : (لَيْسَتْ مَنْسُوخَةً ، وَلَكِنَّ النَّاسَ شَحُّواْ وَبَخِلُوا ، وَكَانَ التَّابعُونَ يُعْطُونَ الأَوَانِي وَالشَّيْءَ الَّذِي يُسْتَحْيَا مِنَ قِسْمَتِهِ).

والروايةُ الثَّانيةُ : (أنَّ هَذِهِ الآيَةَ مَنْسُوخَةٌ بآيَةِ الْمَوَارِيْثِ) وهو قول سعيدِ بنِ المسيَّب والسديُّ وأبي مالكٍ وأبي صالحٍ والضحَّاك ؛ لأنَّها لو كانت واجبةً مع كَثْرَةِ قسمةِ المواريثِ في عهدِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم والصَّحابَةِ ومَن بعدَهم لَنُقِلَ وجوبُ ذلك واستحقاقهُ لهؤلاءِ كما نُقِلَتِ المواريثُ للزومِ الحاجَة إلى ذلكَ ، لكن يستحبُّ ذلكَ في حقِّ الوَرَثَةِ لحضور البالغين. وحديثُ عبيدةَ السَّلمانيُّ محمولٌ على أنَّ الورثةَ كانوا بَالِغِيْنَ ؛ فَذبحَ الشاةَ من جُملةِ المال بإذنِهم.

(٠/٠)

وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواّ اللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيداً } ؛ قال عامَّة المفسِّرين : (كَانَ الرَّجُلُ إذا حَضَرَهُ الْمَوْتُ يَقُولُ لَهُ مَنْ حَضَرَهُ عِنْدَ وَصِيَّتِهِ : أنْظُرْ لِنَفْسِكَ ؛ فَإنَّ أوْلاَدَكَ وَذُرِّيَّتَكَ لاَ يُغْنُونَ عَنْكَ شَيْئاً ، قَدِّمْ لِنَفْسِكَ ، أعْتِقْ وَتَصَدَّقْ ، أوْصِ لِفُلاَنٍ بكَذا وَلِفُلاَنٍ بكَذا ، فَلاَ يَزَالُونَ كَذَلِكَ حَتَّى يَذْهَبَ عَامَّةُ مَالِهِ ، وَيَبْقَى عِيَالُهُ بغَيْرِ شَيْءٍ ، فَنَهَاهُمُ اللهُ تَعَالَى عَنْ ذلِكَ وأَمَرَهُمْ أنْ يَتْرُكُوا أمْوَالَهُمُ لِوَرَثَتِهِمْ).

" روي عن رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم : أنَّهُ دَخَلَ عَلَى سَعْدِ بْنِ أبي وَقَّاصٍ يَزُورُهُ ، فَقَالَ سَعْدٌ : " يَا رَسُولَ اللهِ ؛ إنِّي ذُو مَالٍ وَلَيْسَ لِي إلاَّ بنْتٌ وَاحِدَةٌ ، أفَأُوْصِي بالثُّلُثَيْنِ ؟ قَالَ : " لاَ " قَالَ : فَبالشَّطْرِ ؟ قَالَ : " لاَ " فَبالثُّلُثِ ؟ قَالَ : " وَالثُّلُثُ كَثِيْرٌ ، إنَّكَ إنْ تَدَعْ وَرَثَتَكَ أغْنِيَاءَ خَيْراً مِنْ أنْ تَدَعَهُمْ فُقَرَاءَ يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ ".

قال بعضُ المفسِّرين : هذه الآيةُ خطابٌ لِمن يتصرَّف بأموالِ اليتامى ؛ معناهُ : وَلْيَخْشَ الذينَ يخافُونَ الضَّيَاعَ على وَرَثَتِهِمْ الضعافِ بعدَ موتِهم ، فلا يفعلون في أموالِ اليتامَى إلاَّ بما يُحبُّونَ أنْ يُفْعَلَ في

أولادِهم مِن بعدِ موتِهم. والقولُ السَّدِيْدُ : هو الذي لا خلافَ فيه مِن جهةِ الفساد ، مأخوذٌ من سَدِّ الثُّلْمَةِ ، وهو الْعَدْلُ والصَّوَابُ مِن القولِ.

(٠/٠)

إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا (١٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً } ؛ نَزَلَتْ فِي حَنْظَلَةَ بْنِ الشَّمَرْدَلِ ؛ كَانَ يَأْكُلُ مِنْ مَالِ الْيَتِيْمِ فِي حِجْرِهِ ظُلْماً. ومعناها : إنَّ الَّذِينَ يأْكُلُونَ أمْوَالَ الْيَتَامَى بغيرِ حقٍّ ، إنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ حَرَاماً. ويسمَّى الحرامُ ناراً ؛ لأن الحرامَ يُوجِبُ النَّارَ فسمَّاهُ باسْمِها على معنَى أنَّ أجوافَهم تُمَثَّلُ ناراً في الآخرةِ. قال السديُّ : (مَنْ أكَلَ مِنْ مَالِ الْيَتِيْمِ ظُلْماً يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلَهَبُ النَّار يَخْرُجُ مِنْ فِيْهِ وَأُذُنَيْهِ وَعَيْنَيْهِ وأنْفِهِ ، كُلُّ مَنْ رَآهُ عَرَفَ أنَّهُ أكَلَ مَالَ الْيَتِيْمِ ظُلْماً).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً } ؛ أي سَيَصْلَوْنَ النارَ في الآخرة ويلزمونَها ، والصَّلاَءُ : مُلاَزَمَةُ النَّار لِلاحْتِرَاقِ وَالإنْضَاجِ. قرأ العامَّة : (وَسَيَصْلُونَ) بفتحِ الياء أي يدخلونَها كقولهِ تعالى : { إِلاَّ مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ }[الصافات : ١٦٣] وقَوْلُهُ تَعَالَى : { لاَ يَصْلاَهَآ إِلاَّ الأَشْقَى }[الليل : ١٥].

وقرأ أبو رجَاءٍ والحسنُ وابنُ عامرٍ وأبو بكرٍ عن عاصم بضمِّ الياء على معنى : وسَيَدْخُلُونَ النَّارَ على ما لَمْ يُسَمَّ فاعلهُ ، ونظيره{ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ }[المدثر : ٢٦] و{ فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً }[النساء : ٣٠]. وقرأ حمزةُ بن قيسٍ : (وَسَيُصَلَّونَ) بتشديد اللاَّم من التَّصْلِيَةِ لكثرةِ الفعلِ ؛ أي مَرَّةً بعدَ مرةٍ ، نظيرهُ{ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ }[الحاقة : ٣١] والكلُّ صوابٌ ، يقال : صِلْتُ شِيَاءً إذا شَوَيْتُهُ. وفي الحديثِ : (أتِيَ بشَاةٍ مَصْلِيَّةٍ) وَأَصْلَيْتُهُ : فِي النَّار ، وصَلَّيْتُهُ مرَّةً بعدَ مرَّةٍ.

السَّعِيْرُ : النَّارُ الْمَسْعُورَةُ أي الْمَوْقُودَةُ. قالَ صلى الله عليه وسلم : " رَأيْتُ لَيْلَةَ أسْرِيَ بي قَوْماً لَهُمْ مَشَافِرُ الإبلِ ؛ إحْدَاهُمَا قَالِصَةٌ عَلَى مِنْخَرِهِ ، وَالأُخْرَى عَلَى بَطْنِهِ ، وَخَزَنَةُ النَّار يُلَقِّمُونَهُمْ جَمْرَ جَهَنَّمَ وَصخْرَهَا ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْ أسَافِلِهِمْ ، فَقُلْتُ : يَا جِبْرِيْلُ مَنْ هَؤَلاَءِ ؟ قَالَ : الَّذِيْنَ يَأْكُلُونَ أمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً "

(٠/٠)

يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (كَانَ الْمَالُ لِلْبَنَيْنِ ؛ وَكَانَتِ الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِيْنَ إِلَى أَنْ نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ ثُمَّ صَارَ ذلِكَ مَنْسُوخاً بِهَا). ومعناهَا : يَعْهَدُ اللهُ إليكُم وَيَفْرِضُ عليكُم في أولادِكم إذا مِتُّمْ : لِلذكَرِ الواحدِ من الأولادِ مِثْلُ نَصِيْب الأُنْثَيَيْنِ في الميراثِ ، واسمُ الولدِ يتناولُ وَلَدَهُ مِن صُلْبِهِ حقيقةً وَلَدَ وَلَدِهِ في النِّسبةِ والتعصيب ، ولكنَّهم مِن ذوي الأرحامِ مَجَازاً ، فإذا كان للميِّت ولدٌ من صُلْبِهِ وجبَ حملُ اللفظ على الحقيقةِ ، وإن لم يكن لهُ وَلَدٌ من صُلْبِهِ حُمِلَ على مَن كان مِن صُلْب بَنِيْهِ مَجازاً ، وأمَّا ولدُ البَنَاتِ فلا يُعَدُّ مِن وَلَدِهِ في النِّسبةِ والتعصب ، ولكنَّهم مِن ذوي الأرحامِ. قال الشاعرُ : بَنُونَا بَنُوا أبْنَائِنَا وَبَنَاتُنَا بَنُوهُنَّ أبْنَاءُ الرِّجالِ الأبَاعِدِوعن هذا قالَ أصحابُنا : فَمَنْ أوْصَى لولدِ فلانٍ أنَّ ذلك لولدهِ لصلب ، فإن لم يكن لهُ ولدٌ من صُلْبِهِ فهو ولدُ ابنهِ ، ولا يدخلُ أولادُ البناتِ في هذه الوصيَّة على أظهرِ الرِّوايتين.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ } ؛ أي إنْ كان الأولادُ نساءً أكثرَ من اثنتين ليس معهُنَّ ذكَرٌ ؛ { فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ } ؛ مِن المالِ ، والباقِي للعَصَبَةِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ } ؛ قَرَأَ العامَّة بالنصب على خبرِ كَانَ ، وقرأ نافعُ وَحْدَهُ بالرفعِ على أنَّ معناهُ : وَإِنْ وَقَعَتْ وَاحِدَةٌ ؛ فحينئذٍ لا خبرَ لهُ ، وقراءةُ النصب أجْوَدُ ، وتقديرهُ : فإن كانت المولودةُ واحدةً.

فإنْ قيل : لِمَ أعْطَيْتُمُ الْبِنْتَيْنِ الثُّلُثَيْنِ وفي الآيةِ إجَابُ الثُّلُثَيْنِ لأكْثَرَ مِنَ الابْنَتَيْنِ ؟ قِيْلَ : فِي فحوَى الآيةِ دليلٌ على أن فَرْضَ الابنتين الثُّلُثَانِ ؛ لأنَّ في أوَّلِها { لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ } ، فَيقتضِي أنَّ للابنةِ الواحدة مع الابن الثُّلُثُ ، فإنْ كان لها معهُ الثُّلُثُ كانت تأخذُ الثُّلُثَ مع عدمهِ أولَى ، فاحْتَجْنَا إلى بيانِ حُكْمِ ما فوقَ الأُنثيين ؛ فذلك نصٌّ على حُكْمِ ما فوقِهما ، ويدلُّ عليه أنهُ اذا كانَ للابنِ الثُّلُثَانِ ، وللابنةِ الثُّلُثُ دلَّ أن نصيبَ الأُنثيين الثُّلُثَانِ بحالٍ ؛ لأنَّ اللهَ تعالى جَعَلَ للذكرِ مثلُ حَظِّ الأُنثيين.

وجوابٌ آخر : أنَّ اللهَ تعالى جَعَلَ للأُخت من الأب والأمِّ النصفَ في آخرِ هذه السورة ، كما جعلَ للابنة النصفَ في هذه الآيةِ ، وجعلَ للأُختينِ هناك الثُّلُثَيْنِ ، فأعطينَا الاثنين الثُّلُثَيْنِ قياساً على الأُختين في تلكَ الآيةِ ؛ وأعطينَا جُمْلَةَ الأخواتِ الثُّلُثَين قياساً على البناتِ في هذه الآية.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ } ؛ أي لأَبَوَي الميِّت كنايةً عن غيرِ المذكور لكلِّ واحدٍ منهما السُّدُسُ ؛ { إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ } ؛ أو وَلَدُ ابنٍ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَإِن لَّمْ يَكُنْ لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ

أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ } ؛ أي إن لَم يكن للميِّت ولدٌ ذكَرٌ ولا أنثى ، ولا وَلَدَ وَلَدٍ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ ، والباقِي للأب.

(٠/٠)

وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ (١٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَّمْ يَكُنْ لَّهُنَّ وَلَدٌ } ؛ أي لكم يا مَعْشَرَ الرجالِ : نِصْفُ مَا تَرَكَ نساؤُكم إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ ذكرٌ أو أنثى أو مِن غيرِكم أو ولدِ ولده ؛ { فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ } ؛ أي ذكرٌ أو أنثى منكم أو مِن غيرِكم أو ولد ولده ؛ { فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ } ؛ مِن المال ، { مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ } ؛ أي مِن بعدِ قضاء الدَّين عليهنَّ أو إمضاءِ وصيَّة أوْصَيْنَ بهَا من الثُّلُثِ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ } ؛ أي مِمَّا تركتُم أيُّها الزواجُ من المالِ ، { إِن لَّمْ يَكُنْ لَّكُمْ وَلَدٌ } ؛ ذكرٌ أو أنثى أو وَلَد ابن منهنَّ أو غيرهن ؛ { فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم } ؛ ذلك ، { مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ } ؛ قضاءُ دَيْنٍ عليكم ، إوْ إمضاءُ وصيَّة أوصيتم بهَا من الثُّلُثِ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَو امْرَأَةٌ } ؛ الآيةُ وإن كان رجلٌ ، أو امْرأةٌ يورَثُ { كَلَالَةً } وهو نُصِبَ على المصدر ، وقيلَ على الحالِ ، وقيلَ : على خبرِ ما لَم يسمَّ فاعلهُ ؛ تقديرهُ : وإنْ كانَ رجلٌ يوَرثُ مالهُ كَلاَلَةً ، قاله ابنُ عبَّاس. وقرأ الحسنُ : (يُورثُ) بكسرِ الراء ؛ جعلَ الفعل لهُ.
واختلفُوا في الكَلاَلَةِ ، قال ابنُ عبَّاس : (هُوَ مَنْ لاَ وَلَدَ لَهُ وَلاَ وَالِدَ). وعن ابنِ عبَّاس وعمرَ وجابر وأبي بكرٍ وقتادةَ والزهريِّ : (الْكَلاَلَةُ اسْمٌ لِمَا عَدَا الْوَالِدِ وَالْوَلَدِ). وقال الشعبيُّ : (سَمِعْتُ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ رضي الله عنه قَالَ فِي الْكَلاَلَةِ : أَقُضِي فِيْهَا ، فَإِنْ كَانَ صَوَاباً فَمِنَ اللهِ تَعَالَى ، وَإِنْ يَكُنْ خَطَأً فَمِنِّي وَمِنَ الشَّيْطَانِ ، وَاللهُ بَرِيْءٌ مِنْهُ : هُوَ مَا دُونَ الْوَالِدِ وْالْوَلَدِ ، يَقُولُ كُلُّ وَارِثٍ دُونَهُمَا كَلاَلَةٌ). قالَ : (فَلَمَّا كَانَ عُمَرُ بَعْدَهُ ، قَالَ : إِنِّي أَسْتَحِي مِنَ اللهِ أَنْ أُخَالِفَ أَبَا بَكْرٍ رضي الله عنه ، هُوَ مَا خَلاَ الْوَالِدَ وَالْوَلَدَ). وقال طاوُوس : (هُوَ مَا دُونَ الْوَلَدِ) وقال الحكمُ : (هُوَ مَا دُونَ الأَب).
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ } ؛ إنَّمَا لم يقل ولَهُما ؛ لأن مِن عادةِ العرب أنَّ الرجُلَ والمرأةَ ربَّما أضافت إليهما ، وربما أضافت إلى أحدِهما ، وكلاهُما جائزٌ ، ومعنى : وَلَهُ أخٌ أوْ أخْتٌ من أمٍّ ، وفي

قراءةَ أبَيٍّ وسعدِ بن أبي وقَّاص : (وَلَهُ أخٌ أوْ أختٌ مِن أمٍّ) ، { فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ } ؛ مما ترك الميتُ من المالِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَإِن كَانُواْ أَكْثَرَ مِن ذلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِي الثُّلُثِ } ؛ أي أكْثَرَ من واحدٍ فَهُمْ كلُّهم سواءٌ في الثُّلُثِ لا يفضَّل الذكرُ على الأُنثى. قَوْلُهُ تَعَالَى : { مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ } ؛ قد تقدَّم.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { غَيْرَ مُضَآرٍّ } ؛ نُصِبَ على الحالِ ؛ أي يوصي بها الميتُ غير مُضَارٍّ في حالِ وصيَّة بأن يزيدَ على الثُّلُثِ ، ويفضَّل بعضُ الورثةِ على بعضٍ. قال صلى الله عليه وسلم : " إنَّ اللهَ قَدْ أعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ ؛ فَلاَ وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ إلاَّ أنْ يُجِيْزَهَا الْوَرَثَةُ "

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ } ؛ نُصِبَ على المصدر ؛ { وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ } ؛ عَلِيْمٌ بما دبَّره من هذه الفرائضِ ؛ حَلِيْمٌ على مَن عَصَاهُ بأن أخَّرَهُ وقَبلَ التوبةَ.

(٠/٠)

تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ } ؛ أي هذه فرائضُ اللهِ التي أمرَكم بها في المواريثِ وأموال اليتامَى.

والحدودُ : هِيَ الأمْكِنَةُ الَّتِي لاَ يَنْبَغِي أنْ يُتَجَاوَزَهَا. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ } ؛ أن مَن يقيمُ حدودَ اللهِ ، وحدودَ رسولَه في أمرِ الميراثِ وغيره ، { يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ } ؛ قُرِئَ (نُدْخِلْهُ) بالنون في الموضعين ، والياءُ أقربُ من لفظِ الآية.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { خَالِدِينَ فِيهَا } ؛ نُصِبَ على الحال أي نُدْخِلُ المقدَّرين للخلُودِ فيها. { وَذالِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } ؛ أي النُّجاةُ الوافرةُ فازُوا بها في الجنَّة.

(٠/٠)

وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ (١٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ } ؛ أي قِسْمَةَ الميراثِ فلن يقسِمْها ؛ لأنَّ

المنافقينَ كانُوا لا يُقِرُّونَ للنساءِ والصِّبيان الصِّغار من قسمَةِ المواريث بشيءٍ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ } ؛ ظاهر المعنى.

(٠/٠)

وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا (١٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ } ؛ أي اللاَّتِي يَزْنِيْنَ من حَرَائِرِكُمْ الثيِّبَاتِ الْمُحْصَنَاتِ ، { فَاسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعةً مِّنْكُمْ } ، فَاطْلُبُوا عليهِنَّ أربعةً من الشُّهود من أحْرَارِكُم المسلمين العدول ، { فَإِن شَهِدُواْ } ؛ عليهِنَّ بالزِّنَا ، فَاحْبسُوهُنَّ في البيوتِ ، وهي السُّجُونُ ، بيوتٌ معروفةٌ في المدينة ، { فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ } ؛ بالْحَبْسِ ، { حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً } ، مَخْرَجاً مِن الْحَبْسِ قبلَ الموتِ.

وإنَّما كان هذا قبلَ نزولِ الحدود ؛ كانتِ المرأةُ في أوَّل الإسلام إذا زَنَتْ حُبسَتْ فِي البيتِ حتَّى تَموتَ ، وإنْ كان لَها زوجٌ كان مهرُها لهُ ، حتى نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى : { الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُواْ كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ }[النور : ٢] فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " خُذُوا عَنِّي ؛ خُذُوا عَنِّي : قَدْ جَعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيْلاً ، الثَّيِّبُ بالثَّيِّب جَلْدُ مِائَةٍ وَالرَّجْمُ ، وَالْبِكْرُ بالْبِكْرِ جَلْدُ مِائَةٍ وَتَغْرِيْبُ عَامٍ " فَنُسِخَتْ تلكَ الآيةُ بعضَ هذه الآيةِ ، وهو الإمْسَاكُ في البُيُوتِ ، وبقي منها مُحْكَماً وهو الإشْهَادُ.

وكان في هذا النَّسْخِ نَسْخُ القُرْآنِ بالسُّنَّةِ ، ثُم تغريبٌ في البكرِ بقولهِ تعالى : { الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُواْ كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ }[النور : ٢] لأن ظاهرَ تلكَ الآية يقتضِي أنَّ الْجَلْدَ بَيَانٌ لجميعِ الحكم المتعلِّق بالزِّنا ، إذ لو لم يجعل ذلكَ كذلك لكانَ قُصُوراً في البيانِ في مواضع الحاجةِ ، ونُسِخَ جلدُ الزِّنا المحصنِ الثَّيِّب بحديثِ مَاعِزٍ : " أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم رَجَمَهُ وَلَمْ يَجْلِدْهُ ".

وعن عُمَرَ رضي الله عنه أنَّهُ قالَ : (لَوْلاَ أنَّ النَّاسَ يَقُولُونَ زَادَ عُمَرُ فِي كِتَاب اللهِ ؛ لَكَتَبْتُ فِي حَاشِيَةِ الْمُصْحَفِ : الشَّيْخُ وَالشَّيْخَةُ إذا زَنَيَا فَارْجُمُوهُمَا نَكَالاً مِنَ اللهِ وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ تَابَ). وقال الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ : (جَلْدُ الثَّيِّب الْمُحَصَنِ مَنْسُوخٌ ، وَتَغْرِيْبُ الْبِكْرِ غَيْرُ مَنْسُوخٍ) ، وعند داوُدَ ومَن تابعَهُ من أصحاب الظَّواهِرِ : (لَيْسَ بشَيْءٍ مِنْهُمَا مَنْسُوخٌ).

(٠/٠)

وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا (١٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا } ؛ يعني الرجلَ والمرأةَ إلاَّ أنَّ المذكَّر والمؤنَّث إذا اجتمعا غُلِّبَ المذكَّرُ ، والهاءُ راجعةٌ إلى الفاحشةِ. قال المفسِّرون : (هَاءُ) الْبِكْرِ إِنْ يَزْنِيَانِ فَآذُوهُمَا بالشَّتْمِ وَالتَّعْيِيْرِ ؛ يقالُ لَهُما : زَنَيْتُمَا ؛ فَجَرْتُمَا ؛ انْتَهَكْتُمَا حُرُمَاتِ اللهِ. وقيلَ : بهاء اللَّذين لم يُحْصَنَا. وقال عطاءُ وقتادة : (مَعْنَى : { فَآذُوهُمَا } أيْ عَنِّفُوهُمَا باللِّسَانِ : أمَا خِفْتُمَا اللهَ! أمَا اسْتَحَيْتُمَا مِنْهُ!). قال ابنُ عبَّاس : (أرَادَ بالأَذى الضَّرْبَ بالنِّعَالِ وَالأَيْدِي).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمَآ } ؛ أي فإنْ تَابَا عن الزِّنا واصلحَا العملَ بعد التوبةِ فأعرِضُوا عنهما ؛ لا تَسُبُّوهُما ولا تعيِّرُوهما. " وعن أبي هُريرة رضي الله عنه : (أنَّ رَجُلَيْنِ اخْتَصَمَا إِلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ؛ فَقَال أحَدُهُمَا : إقْضِ بَيْنَنَا بِكِتَابِ اللهِ ، وَقَالَ الآخَرُ : أجَلْ يَا رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم ؛ اقْضِ بَيْنَنَا بكِتَاب اللهِ وَأذنْ لِي أنْ أتَكَلَّمَ ، قَالَ : " تَكَلَّمْ " فَقَالَ : إنَّ ابْنِي كَانَ عَسِيفاً عَلَى هَذا – أيْ أجِيْراً – فَزَنَا بامْرَأتِهِ ، فَأخْبَرُونِي أنَّ عَلَى ابْنِي الرَّجْمَ فَافْتَدَيْتُهُ بِمِائَةِ شَاةٍ وَجَارِيَةٍ ، ثُمَّ سَأَلْتُ أهْلَ الْعِلْمِ فَأَخْبَرُونِي أنَّ على ابْنِي جَلْدَ مِائَةٍ وَتَغْرِيْبَ عَامٍ ، وَإنَّمَا الرَّجْمُ عَلَى امْرَأتِهِ! فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " أمَا وَالَّذِي نَفْسِي بيَدِهِ ؛ لأَقْضِيَنَّ بَيْنَكُمَا بكِتَابِ اللهِ ، أمَّا غَنَمُكَ وَجَارِيَتُكَ فَرَدٌّ عَلَيْكَ] وَجَلَدَ ابْنَهُ بمِائَةٍ وَغَرَّبَهُ عَاماً ، وَأمَرَ أنَيْساً الأَسْلَمِيَّ أنْ يَأتِيَ امْرَأةَ الرَّجُلِ ؛ فَاعْتَرَفَتْ فَرَجَمَهَا "

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّاباً رَّحِيماً } ؛ أي لَم يَزَلْ مُتَجَاوزاً عن النَّاسِ رَحِيْماً بهم بعد التوبة.

(٠/٠)

إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ } ؛ معناهُ : إنَّما التَّجَاوُزُ مِن الله للذينَ يعملونَ المعصيةَ بجَهَالَةٍ ، { ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ } ؛ أي ثم يتوبُون من قَبْل أن يَنْزِلَ بهم سلطانُ الموتِ لا في وقتِ المعاينَة ، { فَأُوْلَائِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ } ؛ يَقْبَلُ اللهُ توبتَهم ؛ { وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً } ؛ بأهلِ التوبة ؛ { حَكِيماً } ؛ حَكَمَ بقَبُولِ التوبةِ ، قيل : إنَّ (على) في قولِهِ : { عَلَى اللَّهِ } بمعنى (عِنْدَ) أي إنَّما التوبةُ عندَ الله. وقيل : بمعنى (مِنْ) أي مِن اللهِ.

واختلفُوا في قولهِ : { بِجَهَالَةٍ }. قال مجاهدُ والضحَّاك : (الْجَهَالَةُ الْعَمْدُ). وقال الكلبيُّ : (لَمْ يَجْهَلْ أنَّهُ ذنْبٌ ، ولَكِنَّهُ جَهِلَ عُقُوبَتَهُ). قال سائرُ المفسِّرين : (يَعْنِي الْمَعَاصِي كُلَّهَا ، فَكُلُّ مَنْ عَصَى رَبَّهُ فَهُوَ جَاهِلٌ حَتَّى يَنْزَعَ عَنْ مَعْصِيَتِهِ). وقال قتادةُ : (أجْمَعَ الصَّحَابَةُ أنَّ كُلَّ مَن عَصَى رَبَّهُ فَهُوَ جَاهِلٌ عَمْداً كَانَ أوْ خَطَأً). وقال الزجَّاج : (مَعْنَى قَوْلِهِ { بِجَهَالَةٍ } : اخْتِيَارُهُمُ اللَّذةَ الْفَانِيَةَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : (ثُمَّ يَتُوبُونَ مَنْ قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ) أي ثم يَتُوبُونَ قَبْلَ إصابتهم بأسْبَاب الْمَوْتِ ، سَمَّى ذلك قَرِيْباً لأنَّ كلَّ ما هوَ آتٍ قريبٌ ؛ لأنَّ المرءَ لا يأْمَنُهُ في كلِّ وقتٍ وساعة ، وكلُّ ما يكون هذا صِفَتُهُ فهو موصوفٌ بالْقُرْب.

قال صلى الله عليه وسلم : " مَنْ تَابَ قَبْلَ مَوْتِهِ بسَنَةٍ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ " ثُمَ قَالَ : " إنَّ السَّنَةَ لَكَثِيْرٌ ، مَنْ تَابَ قَبْلَ مَوْتِهِ بشَهْرٍ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ " ثُمَّ قَالَ : إنَّ الشَّهْرَ لَكَثِيْرٌ ، ثُمَّ قَالَ : " مَنْ تَابَ قَبْلَ مَوْتِهِ بِجُمُعَةٍ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ " ثُمَّ قَالَ : " إنَّ الْجُمُعَةَ لَكَثِيْرٌ ، مَنْ تَابَ قَبْلَ مَوْتِهِ بيَوْمٍ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ " ثُمَّ قَالَ : " إنَّ الْيَوْمَ لَكَثِيْرٌ ، مَنْ تَابَ قَبْلَ مَوْتِهِ بسَاعَةٍ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ " ثُمَّ قَالَ : " إنَّ السَّاعَةَ لَكَثِيْرٌ ، مَنْ تَابَ مِنْ قَبْلِ أنْ يُغَرْغِرَ نَفْسُهُ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ ".

وقال الكلبيُّ : (قولهُ : { مِن قَرِيبٍ } الْقَرِيْبُ مَا دَامَ فِي الصِّحَّةِ قَبْلَ الْمَرَضِ وَالْمَوْتِ). وقال أبو موسَى الأشعريُّ : (هُوَ أنْ يَتُوبَ قَبْلَ مَوْتِهِ بفُوَاقِ نَاقَةٍ).

(٠/٠)

وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ } ؛ أي وليسَ قَبُولُ التوبةِ للذين يعمَلُون المعاصِي مقيمينَ عليها حتَّى إذا عَايَنَ أحدُهم أسبابَ الموتِ والسَّوْقِ والنَّزْعِ ومعاينةَ الموتِ ، إنِّي تُبْتُ الآنَ ، وَلاَ على الَّذينَ يَمُوتُونَ على الكُفْرِ ، { أُوْلَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ } ؛ هَيَّأْنَا لَهُمْ ؛ { عَذَاباً أَلِيماً } ؛ مُؤْلِماً وهو النارُ التي مصيرهم إليها. وذهب الربيعُ إلى أنَّ المرادَ بالذين يعملون السيئات : المنافِقُون ، ثم عَطَفَ الكافرين الْمُجَاهِرِيْنَ بالكفرِ على المنافقين. وحاصلُ هذه الآيةِ أنَّ مَن وقعَ في النَّزعِ وقالَ : إنِّي تُبْتُ الآنَ ، فحينئذ لا يُقبَلُ مِن كافرٍ إيْمَانُهُ ، ولا مِن عَاصٍ توبتُه ، وقولهُ : وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ مَوْضِعُ خَفْضٍ.

(٠/٠)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا (١٩)

قولُهُ تَعَالَى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ النِّسَآءَ كَرْهاً } ؛ الآيةُ ، قال ابنُ عبَّاس : "كَانُواْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَأَوَّلِ الإسْلاَمِ إذا مَاتَ رَجُلٌ وَلَهُ امْرَأةٌ ؛ جَاءَ ابْنُهُ مِنْ غَيْرِهَا أوْ قَرِيْبُهُ مِنْ عَصَبَتِهِ الَّذِي يَرِثُهُ ، فَأَلْقَى ثَوْبَهُ عَلَى تِلْكَ الْمَرْأَةِ فورثَ نِكَاحَهَا بِصِدَاقِ الأَوَّلِ ، يَقُولُ : أنَا وَلِيُّ زَوْجِكِ فَوَرِثْتُكَ ، فإنْ كَانَتْ جَمِيْلَةً أمْسَكَهَا وَدَخَلَ لِهَا ، وَإنْ لَمْ تَكُنْ جَمِيْلَةً طَوَّلَ عَلَيْهَا لِتَفْتَدِيَ بنَفْسِهَا مِنْهُ بَما تَرِثُ مِنَ الْمَيِّتِ أوْ تَمُوتَ فَيَرِثُهَا ، فَإنْ ذَهَبَتْ إلَى أهْلِهَا قَبلَ أنْ يُلْقِيَ عَلَيْهَا ثَوْبَهُ فَهِيَ أحَقُّ بنَفْسِهَا.

فَكَانُواْ يَفْعَلُونَ ذلِكَ حَتَّى تُوُفِّيَ أبو قَيْسِ بْنِ الأَسْلَتِ ، وَتَرَكَ امْرَأتَهُ كَبْشَةَ بنْتِ مَعَنِ الأَنْصَاريَّةَ ، فَقَامَ لَهَا ابْنٌ مِنْ غَيْرِهَا يُقَالُ لهَ حُصَيْنُ بْنُ أبي قَيْسٍ ؛ فَطَرَحَ ثَوْبَهُ عَلَيْهَا فَوَلِيَ نِكَاحَهَا ثُمَّ تَرَكَهَا وَلَمْ يَقْرَبْهَا وَلَمْ يُنْفِقْ عَلَيْهَا فَضَارَّهَا بذلِكَ لِتَفْتَدِيَ مِنْهُ بمَالِهَا ، فَأَتَتْ كَبْشَةُ إلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ اللهِ ؛ إنَّ أبَا قَيْسٍ تُوُفِّيَ وَوَرِثَ ابْنُهُ نِكَاحِي ؛ وَقَدْ أضَرَّنِي وَطَوَّلَ عَلَيَّ ، فَلاَ هُوَ يُنْفِقُ عَلَيَّ ، وَلاَ هُوَ يُخْلِيَ سَبيْلِي ، فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " أقْعُدِي فِي بَيْتِكِ حَتَّى يَأْتِينِي فِيْكِ أمْرُ اللهِ " فَانْصَرَفَتْ ، وَسَمِعَ بذلِكَ نِسَاءُ الْمَدِيْنَةِ ، فَأَتَيْنَا رَسُولَ اللهِ عليه السلام فَقُلْنَ : يَا رَسُولَ اللهِ ؛ مَا نَحْنُ إلاَّ كَهَيْئَةِ كَبْشَةَ ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ ".

ومعناهَا : يا أيُّها الذينَ أقَرُّوا وصَدَّقُوا لا يَحِلُّ لكم أنْ تَرِثُوا النساءَ جَبْراً ؛ { وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ آتَيْتُمُوهُنَّ } ؛ أي لاَ تَمْنَعُوهُنَّ تَخْلِيَةَ سبيلهنَّ حتى يَفْتَدِيْنَ ببعضِ ما لَهُنَّ ؛ { إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ } ؛ فَحِيْنَئِذٍ يحلُّ لكم ضِرَارُهُنَّ ليفتدينَ منكُم ، وهو أنَّها إذا زَنَتِ المرأةُ جازَ لزوجِها أن يسألَها الْخُلْعَ.

قال عطاءُ : (كَانَ الرَّجُلُ إذا زَنَتِ امْرَأتُهُ أخَذ مِنْهَا مَا يُسَاقُ إلَيْهَا وَأخْرَجَهَا ، فَنَسَخَ اللهُ ذلِكَ بالْحُدُودِ).

قال قتادةُ والضحَّاك : (الْفَاحِشَةُ النُّشُوزُ ؛ يَعْنِي إذا نَشَزَتِ الْمَرْأةُ حَلَّ لِزَوْجِهَا أنْ يَأْخُذ مِنْهَا الْفِدْيَةَ).

وقَوْلُهُ تَعَالَى : (مبينَةٍ) ؛ بخفضِ الياء أي مُبَيِّنَةٍ فُحشِها.

قرأ حمزةُ والكسائيُّ وخلف والأعمشُ : (كُرْهاً) بضمِّ الكاف هُنا وفي التوبةِ ، وقرأ الباقون بالفتح وهُما لغتان. وعن الضحَّاك : (أنَّ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ فِي الرَّجُلِ يَكُونُ فِي حِجْرِهِ يَتِيْمَةٌ ؛ فَيَكْرَهُ أنْ يُزَوِّجَهَا لِمَالِهَا ، فَيَتَزَوَّجُهَا لأَجْلِ مَالِهَا ، أوْ يَكُونَ تَحْتَهُ عَجُوزٌ ، وَنَفْسُهُ تَتُوقُ إلَى شَابَّةٍ فَيَكْرَهُ فِرَاقَ الْعَجُوز وَيَتَوَقَّعُ مَوْتَهَا لِيَرِثَهَا وَهُوَ يَعْزِلُ فِرَاشَهَا).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ } ؛ أمَرَ للأزواجَ بعشرةِ نسائِهم بالْجَمِيْلِ ، وهو أن يُوَفِّيَهَا حقَّها

من المهرِ والنَّفقةِ والمبيت وتركِ أذاها بالكلام الغليظِ ، والإعراضِ عنها والعُبُوسِ في وجهِها بغيرِ ذنبٍ منها.

قولُهُ تَعَالَى : { فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً } ؛ فيه بيانُ أنَّ الخيرَّة ربَّما كانت للعبدِ في الصَّبر على ما يكرهُهُ ؛ يقولُ : لعلكم أيُّها الأزواجُ أنْ تكرهُوا صُحْبَتَهُنَّ ويجعلُ الله في ذلك خيراً كثيراً بأن يَرْزُقَكُمْ منهنَّ الأولادَ ، فتظهرُ بعد ذلك الأُلْفَةُ والموافقةُ ، وتنقلبُ الكراهة صُحْبَةً ؛ والنفورُ ميلاً.

(٠/٠)

وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (٢٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِنْ أَرَدْتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ } ؛ الآيةُ ؛ أيْ إنْ أردتُم تخليةَ امرأةٍ ، ولم يكن مِن قِبَلِها نشوزٌ وإتيانُ فاحشةٍ ؛ { وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَاراً } ؛ أي مَالاً عظِيماً ، وتقدَّم تفسيرُ القنطار ؛ { فَلاَ تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْئاً } ؛ مِمَّا أعطيتمُوها ، { أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً } ؛ أي ظُلْماً وذنباً ظاهراً ، والْبُهْتَانُ : هُوَ الْبَاطِلُ الَّذِي يَتَحَيَّرُ مِنْ بُطْلاَنِهِ ، ومن ذلك سُمِّيَ الكذبُ العظيم لأنَّهُ يُبَاهِتُ بِهِ مُحَيِّرُهُ ، وَيَتَحَيَّرُ المكذوبُ عليه لِعِظَمِهِ ، وأصلُ البَهْتِ : التَّحَيُّرُ : قالَ اللهُ تعالى : { فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ }[البقرة : ٢٥٨] أي تحيَّر لانقطاعِ حُجَّتِهِ ، وإنَّما سَمَّى اللهُ تعالى أخذ المهرَ بغير حقٍّ بالبهتانِ ؛ لأن الزوجَ لَمَّا استعملَ الْمَكْرَ والخداعَ في أخذِ ما أعطاها ، صارَ في الوزر بمنْزلة مَن يكذِّبوهم أنَّ الذي قالَهُ حَقٌّ.

(٠/٠)

وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (٢١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً } ؛ أي كيف تستحلُّون أخذ شيءٌ منهُ ، وقد وَصَلَ بعضُكم إلى بعضٍ. قال ابنُ عبَّاس : (الإفْضَاءُ كِنَايَةٌ عَنِ الْجِمَاعِ).

وقال جماعةٌ من أهلِ التَّفسيرِ : (إذا كَانَ مَعَهَا فِي لِحَافٍ وَاحِدٍ ، جَامَعَهَا أوْ لَمْ يُجامِعْهَا فَقَدْ وَجَبَ

الْمَهْرُ. وعنْ زُرَارَةُ بن أوفَى أنه قال : (قَضَى الْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ الْمَهْدِيُّونَ : أَنَّهُ مَنْ أغْلَقَ عَلَى امْرَأةٍ بَاباً ، أوْ أرْخَى سِتْراً ، وكَشَفَ خِمَاراً فَقَدْ وَجَبَ الْمَهْرُ وَالْعِدَّةُ). وذكرَ الفرَّاءُ : (الإفْضَاءُ هُوَ الْخُلْوَةُ وَإنْ لَمْ يَقَعْ دُخُولٌ) كَأَنَّهُ ذهبَ إلى أن الإفضاءَ مأخوذٌ من الفضَاءِ ، وهو المكانُ المتَّسعُ الذي ليسَ فيه بناءٌ ولا حاجزٌ عن إدراكِ ما فيه ، فسمِّيت الخلوةُ فضاءً لحصولِ الزوج إلى جميعِ ما يقصدُه من الوطئِ ، والدُّخولِ في موضعٍ لا مانعَ فيه من ذلك.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً } أي عَهْداً وَثِيْقاً وهو ذكرُ المهرِ في النِّكاح ، وقيل : هو ما أشْرَطَ اللهُ تعالى للنِّساءِ على الرجلِ من إمساكٍ بمعروفٍ أو تسريحٍ بإحسان. وقال الشعبيُّ وعكرمة والربيعُ : (هُوَ قَوْلُ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم : " أخَذْتُمُوهُنَّ بأَمَانَةِ اللهِ ؛ وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بكَلِمَةِ اللهِ ")

فَصْلٌ : فيما وردَ من الأخبار في الرُّخصة في الْمُغَالاَةِ بالمهور ، قال عطاءُ : " خَطَبَ عُمَرُ رضي الله عنه إلَى عَلِيٍّ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ ابْنَتَهُ أمِّ كُلْثُومٍ وَهِيَ مِنْ فَاطِمَةَ بنْتِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ رضي الله عنه : إنَّهَا صَغِيْرَةٌ ، فَقَالَ عُمَرُ : إنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ : " إنَّ كُلَّ نَسَبٍ وَصِهْرٍ يَنْقَطِعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إلاَّ نَسَبي وَصِهْرِي " فَلِذلِكَ رَغِبْتُ فِي هَذا ، فَقَالَ عَلِيٌّ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ : فَإنِّي مُرْسِلُهَا إلَيْكَ حَتَّى تَنْظُرَ إلَى صِغَرِهَا ، فَأَرْسَلَهَا إلَيْهِ ، فَجَاءَتْهُ فَقَالَتْ : إنَّ أبي يَقُولُ لَكَ هَلْ رَضِيْتَ هَذِهِ الْحُلَّةَ ؟ فَقَالَ : قَدْ رَضِيْتُهَا ، فَأَنْكَحَهُ عَلِيٌّ ؛ فأَصْدَقَهَا عُمَرُ أرْبَعِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ " وعنْ نافعٍ عن ابن عمرَ رضي الله عنه : (أنَّهُ كَانَ يُزَوِّجُ الْمَرْأةَ مِنْ بَنَاتِهِ عَلَى عَشْرَةِ آلاَفِ دِرْهَمٍ). وتزوَّج ابنُ عبَّاس امرأةً على عشرةِ آلاف دِرْهمٍ.

فَصْلٌ : في أقلِّ المهرِ. رويَ عن عمرَ رضي الله عنه : أنَّهُ خَطَبَ النَّاسَ ؛ فَحَمَدَ اللهَ تَعَالَى وأثْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ : (ألا لاَ تُغَالُواْ فِي صِدَاقِ النِّسَاءِ ؛ فَإنَّهَا لَوْ كَانَتْ مَكْرَمَةً فِي الدُّنْيَا ، أوْ تَقْوَى عِنْدَ اللهِ لَكَانَ أوْلاَكُمْ بهَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم). مِنْ يُمْنِ الْمَرْأةَ أنْ يَسَّرَ صِدَاقَهَا وَأَنْ يَسَّرَ رَحِمَهَا. وعن أبي هُريرة قال : (كَانَ صِدَاقُنَا مُنْذُ كَانَ فِيْنَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم عَشْرُ أوَاقٍ أرْبَعُمِائَةِ دِرْهَمٍ). وعن أبي سعيدٍ الخدريِّ : [أنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم تَزَوَّجَ أمَّ سَلَمَةَ عَلَى عَشْرَةِ دَرَاهِمَ).

(٠/٠)

وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا (٢٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِّنَ النِّسَآءِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ } ؛ روي أنَّهم كانوا بعدَ قوله : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ النِّسَآءَ كَرْهاً }[النساء : ١٩] إذا رَضِيَتِ المرأةُ أمسكَها وَلِيُّ

الميتِ ، وبرضَاها على حكمِ النِّكاح ، فإذا سَخِطَتْ تَرَكَهَا فحرَّم اللهُ ذلك عليهم بهذه الآية. ومعنَاها : لاَ تَزَوَّجُوا ما تَزَوَّجَ آبَاؤُكم من النساءِ ، ويقال : لاَ تَطَأُواْ ما وَطِئ آباؤُكم.

واسمُ النِّكَاحِ يقعُ على العقدِ والوطئ جميعاً. قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ } معناه إلا ما قد سلف في الجاهليَّة من نكاحِ منكوحةِ الأب كان ذلك مَعْفُوّاً لكُم لا تؤاخَذُون به. وقال قُطْرُبُ : (هُوَ اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ ؛ تَقْدِيْرُهُ : لَكِنْ مَا قَدْ سَلَفَ فَدَعُوهُ فَاجْتَنِبُوا).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً } ؛ يعني أنَّ نكاحَ امرأةِ الأب كان فاحشةً فيما سلفَ ؛ لأنَّهم كانوا يسمُّونه في الجاهليِّةِ (نِكَاحَ الْمَقْتِ) وكان المولودُ يقال له الْمَقْتِيُّ ، فأعلَمَهُم اللهُ تعالى أنَّ هذا الذي حَرَّمَ عليهم لم يزل مُنْكَراً في قلوبهم مَمْقُوتاً عندَهم ، وَالْمَقْتُ : هُوَ الْبُغْضُ عَلَى أمْرٍ قَبِيْحٍ رَكِبَهُ صَاحِبُهُ ، وقيل الْمَقْتُ : هُوَ أشَدُّ الْبُغْضِ ، والفاحشةُ اسمٌ لِما يرتفعُ ذكر قَبيحَتِهِ فيما بين الناس. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَسَآءَ سَبِيلاً } ؛ أي نكاحُ امرأةِ الأب طريقُ سوءٍ ؛ لأنه يؤدِّي إلى جهنَّمَ ، و { سَبِيلاً } ؛ نُصِبَ على التمييزِ.

(٠/٠)

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (٢٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ } ، قال ابنُ عبَّاس : ((حَرَّمَ اللهُ مِنَ النِّسَاءِ أَرْبَعَةَ عَشَرَ صِنْفاً ؛ سَبْعَةٌ بالنَّسَب ؛ وَسَبْعَةٌ بالسَّبَب ، وَتَلاَ هَذِهِ الآيَةَ ثُمَّ قَالَ : وَالسَّابعَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : { وَلاَ تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِّنَ النِّسَآءِ }[النساء : ٢٢]. والجدَّاتُ – وإن بعُدت – مُحَرَّمَاتٌ ؛ لأنَّ اسمَ الأُمَّهَاتِ يَشْمَلُهُنَّ ، كما أن اسم الآباء يتناولُ الأجدَادَ وإنْ بَعُدوا ، واسمُ البَنَاتِ يتناولُ بناتَ الأولادِ وإن سَفِلْنَ ، وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَخَوَاتُكُمْ } يشمَلُ الأخواتِ مِن الأب والأمِّ ومن الأب ومن الأمِّ ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ } يتناولُ عمَّاتِ الأب والأُمِّ وخالاتِ الأمِّ والأب.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأُمَّهَاتُكُمُ الَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ } ؛ قال صلى الله عليه وسلم : " يَحْرُمُ مِنَ الرِّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَب " وَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " تُحَرِّمُ الْجُرْعَةُ وَالْجُرْعَتَانِ مَا يُحَرِّمُ الْحَوْلاَنِ الْكَامِلاَنِ "

" وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا : أنَّ أفْلَحَ أخَا أبي الْقُعَيْسِ جَاءَ يَسْتَأْذِنُ عَلَيْهَا بَعْدَ نُزُولِ آيَةِ الْحِجَاب وَكَانَ عَمُّهَا مِنَ الرِّضَاعَةِ ؛ قَالَتْ : فَأَبَيْتُ أنْ آذنَ لَهُ حَتَّى أخْبَرْتُ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم فقالَ : " لِيَلِجَ عَلَيْكِ ؛ فَإنَّهُ عَمُّكِ " فَقَالَتْ : إنَّمَا أرْضَعَتْنِي الْمَرْأَةُ ، ولَمْ يُرْضِعْنِي الرَّجُلُ! فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " لِيَلِجَ عَلَيْكِ فَإنَّهُ عَمُّكِ " ، وَكَانَ أبُو القُعَيْسِ زَوْجَ الْمَرأةِ الَّتِي أرْضَعَتْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ".

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأُمَّهَاتُ نِسَآئِكُمْ } ؛ قال ابنُ عبَّاس وعطاءُ وسعيد بن جبير : [إنَّ أمَّ الْمَرْأَةِ مُبْهَمَةٌ تَحْرُمُ عَلَى زَوْجِ ابْنَتِهَا بنَفْسِ الْعَقْدِ]. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَرَبَائِبُكُمُ الَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِّن نِّسَآئِكُمُ الَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ } ؛ لا خِلاَفَ بينَ أهلِ العلم أنَّ كونَها في حُجُورِهِ لا يكونُ شرطاً في تحريْمِها وإنَّما ذكرَهُ اللهُ تعالى على عادةِ الناسِ أنَّ الرَّبِيْبَةَ تكونُ في حِجْرِ زَوْجِ الأُمِّ ، فخرجَ الكلامُ على وفْقِ العادة دونَ الشرطِ ، وهذا كقولهِ : { وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ }[البقرة : ١٨٧] ومعلومٌ أن المعتكفَ لا يحلُّ له الجماعُ وإن كان قد خرجَ من المسجد لحاجةٍ ، إلاَّ أنَّ الغالبَ مِن حالِ العاكفِ أن يكون في المسجدِ ، فَقَرَنَهُ بذكرِ المسجدِ.

وأما قَوْلُهُ تَعَالَى : { مِّن نِّسَآئِكُمُ الَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ } فمِنَ الناسِ مَن رَدَّ هذا الشرطَ على قوله { مِّن نِّسَآئِكُمُ } وعلى قوله { وَأُمَّهَاتُ نِسَآئِكُمْ } فَشَرَطَ الدخولَ بالنِّساءِ في المسألتين في بيوت التحريمِ المذكور في الآيةِ ؛ على معنى أنَّ اللهَ عَطَفَ حُكماً على حكمٍ وعقَّبهما بشرطِ الدُّخول بقوله : { الَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ } وهو قولُ بشْرِ بن غيَّاث ؛ إلاّ أنَّ هذا لا يَصِحُّ ؛ لأنَّ قولَه { وَأُمَّهَاتُ نِسَآئِكُمْ } جملةٌ مستقلةٌ بنفسِها.

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَرَبَائِبُكُمُ } بما فيه من شرطِ الدُّخول جملةٌ أخرى مستقلة بنفسِها فلم يَجُزْ بناءُ إحدى الجملتين على الأُخرى ، ولو جعلنَا شرطَ الدخولِ راجعاً إلى الأوَّل ، لَخَصَّصْنَا عمومَ اللفظِ الأول بالشَّكِّ.

(٠/٠)

وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٢٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَآءِ إِلاَّ مَا مَلَكْتَ أَيْمَانُكُمْ } ؛ هذه الآيةُ عطفٌ على ما تقدَّم ؛ أي وَحَرَّمَ عليكم المحصناتِ وهنَّ ذواتُ الأزواجِ اللاَّتي أحْصِنَّ بالأزواجِ ، { إِلاَّ مَا مَلَكْتَ أَيْمَانُكُمْ } أي إلاّ مَا أفَاءَ اللهُ عليكم من السَّبَايَا. ورويَ عن أبي سعيدٍ الخدريِّ : " أنَّ الْمُسْلِمِيْنَ أصَابُوا يَوْمَ أوْطَاسَ سَبَايَا

لَهُنَّ أَزْوَاجٌ مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ ؛ فَتَأَثَّمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ وَطْئِهِنَّ ؛ وَقَالُواْ : لَهُنَّ أَزْوَاجٌ فِي دَار الْحَرْب فأَنْزَلَ هَذِهِ الآيَةَ ، فَنَادَى مُنَادِي رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " ألاَ لاَ تُوْطَأُ الْحُبَالُ حَتَّى يَضَعْنَ ، وَلاَ غَيْرُ الْحُبَالِ حَتَّى يَسْتَبْرِئْنَ بحَيْضَةٍ ".

وَذَهَبَ بَعْضُ الصحابَة وهو أبَيُّ بن كعبٍ ، وأنسُ وجابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ : (أنَّ الأَمَةَ إذا خَرَجَتْ مِنْ مِلْكِ مَوْلاَهَا إلَى مِلْكِ رَجُلٍ آخَرَ ؛ حَرُمَتْ عَلَى زَوْجِهَا بأَيِّ سَبَبٍ خَرَجَتْ) حتى رُوِيَ عن ابنِ عبَّاس أنهُ قالَ : (طَلاَقُ الأَمَةِ يُثْبتُ طَلاَقَهَا وَبَيْعَهَا وَهِبَتَهَا وَمِيرَاثَهَا وَسَبْيَهَا وَصَدَقَتَهَا).

وأنكرَ ذلك عَلِيٌّ وعمرُ وعبدُالرحمنِ بن عوفٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ؛ وقالوا : (إنَّمَا نَزَلَتِ الآيَةُ فِي السَّبَايَا خَاصَّةً بِدَلِيْلِ مَا رُوِيَ أنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا اشْتَرَتْ بَرِيْرَةَ وَأعْتَقَتْهَا ؛ فَخَيَّرَهَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، وَكَانَ زَوْجُهَا عَبْداً أسْوَدَ يُسَمَّى مَغِيْثاً).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ } ؛ نُصِبَ على المصدر ؛ أي كَتَبَ اللهُ عليكم كتابَ اللهِ ، وقيل نُصِبَ على الإغراءِ ؛ أي إلْزَمُوا كتابَ اللهِ ، واتَّبعُوا كتابَ اللهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأُحِلَّ لَكُمْ مَّا وَرَاءَ ذَالِكُمْ } ؛ قرأ أهلُ الكوفة (وَأحِّلَ) على ما لَم يسمَّ فاعلهُ ، نَسَقاً على قوله (حُرِّمَتْ) ، وقرأ الباقون بالفتحِ على أنهُ قد ذكرَ اللهُ بقوله : (كِتَابَ اللهِ) ، والمعنى : أحَلَّ لكُم نكاحَ ما سِوَى ما ذكرتُ لكم من المُحَرَّمَاتِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَالِكُمْ مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ } ؛ بدل من (مَا) ، فمن رفعَ أحَلَّ فموضعها رفعٌ ، ومن نصبَ فموضعُها نصبٌ. وقال الكسائيُّ : (مَوْضِعُهُ نَصْبٌ فِي الْقِرَائَتَيْنِ بنَزْعِ الْخَافِضِ ، يَعْنِي لَئِنْ تَبْتَغُوا بأَمْوَالِكُمْ ؛ أيْ تَطْلُبُوا بأمْوَالِكُمْ إمَّا بنِكَاحٍ أوْ بِملْكِ يَمِيْنٍ مُحْصِنِيْنَ ؛ أيْ نَاكِحِيْنَ أعِفَّاءَ غَيْرَ زُنَاةٍ ، وَأصْلُهُ مِن : سَفَحَ الْمَذِيُّ وَالْمَنِيّ). في هذا دليلٌ أن بَدَلَ الْبَضْعِ لا يجوزُ أن يكون صِداقاً ، وكذلكَ خدمةُ الزَّوجِ لا يكونُ صِداقاً عند أبي حنيفةَ وأبي يوسف.

وأصْلُ الإحْصَانِ في اللغة : مَا يَمْنَعُ ، ومنه يسمَّى الْحِصْنُ حِصْناً ؛ لأنه يَمْنَعُ مِن العدوِّ ، ومنه الدِّرْعُ الْحَصِيْنَةُ ؛ أي الْمَنِيْعَةُ ، وَالْحِصَانُ بكسر الحاء : الْفَحْلُ من الخيلِ يَمْنَعُهُ رَاكِبُهُ مِنَ الْهَلاَكِ ، والْحَصَانُ بفتح الحاء : الْعَفِيْفَةُ مِنَ النِّسَاءِ لِمَنْعِهَا فَرْجَهَا ؛ مَنه قال حِسَانُ في عائشةَ : حَصَانٌ رَزَانٌ مَا تُزَنُّ بريبَةٍ وَتُصْبِحُ غَرْثَى مِنْ لُحُومِ الْغَوَافِلِوالإحْصَانُ في القُرْآنِ يقعُ على معانٍ مختلفة منها : نِكَاحٌ كما في أوَّل هذه الآية ؛ ومنها : الْجِزْيَةُ كما في قولهِ تعالى :

وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ

مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ } ؛ قال ابنُ عبَّاس وابن جُبير وقتادةُ ومجاهد : (الطَّوْلُ الْغِنَى وَالسَّعَةُ) أي وَمن لم يستطِعْ منكم غِنىً وقدرةً ، ولم يَجِدْ مَالاً يتزوجُ به الحرائرَ ؛ فليتزوَّجْ بعضُكم من إمَاءِ بعضٍ. وقال جابرُ ابن زيد وربيعةُ والنخعيُّ : (الطَّوْلُ الْهَوَى) أي مَن لم يَقْدِرْ منكم على نكاحِ الحرائرِ هوىً وعِشْقاً بأَمَةٍ من الإماءِ لا يتَّسِعُ قلبُه لنكاحِ الحرَّةِ ، فليتزوَّج بالأَمَةِ التي يَهْوَاها من الإماءِ المؤمناتِ. قرأ الكسائيُّ : (الْمُحْصِنَاتِ) بكسرِ الصَّاد في كلِّ قراءةٍ إلاَّ الأوَّل وهو قولهُ : { وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَآءِ }[النساء : ٢٤].

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ } ؛ أي بحقيقةِ الإيْمان وأنتُم تعرفون الظَّاهِرَ ، وليسَ عليكُم أنْ تبحَثُوا عن الباطنِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { بَعْضُكُمْ مِّن بَعْضٍ } ؛ أي في الدِّين ، وقيلَ : مِنَ النَّسب ؛ أي كلُّكم ولْدُ آدمَ عليه السلام ، وإنَّما قالَ ذلك ؛ لأن العربَ كانت تطعنُ في الأنسابِ ، وتفخرُ بالأحسَابِ وتعيِّرُ بالْهُجْنَةِ ، وتسمِّي ابنَ الأَمَة (الْهَجِيْنُ) ، فأعلَمَ اللهُ أنَّ الأَمَةَ في جواز نكاحِها كالحرَّة لذلك.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ } ؛ أي انْكِحوا الإماء بإذنِ مَوَالِيْهِنَّ واعطوهُنَّ مهورَهن ؛ يعني بإذنِ أهلِهِنَّ ، وقَوْلُهُ تَعَالَى : { بِالْمَعْرُوفِ } ؛ أي مهرٌ غيرُ مهرِ البغيِّ وهو أن يكون عشرةَ دراهِمَ فما فوقَها. قَوْلُهُ تَعَالَى : { مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ } ؛ أي عَفَائفَ غيرَ زَوَانٍ مُعْلِنَاتٍ بالزِّنا ، { وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ } ؛ أي أخِلاَّءَ في السِّرِّ ؛ وذلك لأنَّ أهلَ الجاهليَّة كان فيهم زَوانٍ بالعلانيَةِ لَهنَّ راياتٌ مضروبةٌ ، وبعضُهن اتخذتْ أخْدَاناً في السِّرِّ حتَّى قال ابنُ عبَّاس : (كَانَ فِيْهِمْ مَنْ يُحَرِّمُ مَا ظَهَرَ مِنَ الزِّنَا ، وَيَسْتَحِلُّ مَا خَفِيَ فِيْهِ ، فَنَهَى اللهُ تَعَالَى عَنْ نِكَاحِ الْفَرِيْقَيْنِ جَمِيْعاً.)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ } ؛ معناه : أن الإماءَ إذا أسلمْنَ وتزوَّجن ، ومن قرأ (أُحْصِنَّ) بضمِّ الهمزة فمعناهُ : اذا زُوِّجْنَ وأُحْصِنَّ بالأزواجِ ، { فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ } يعني الزِّنا فَعَلَيْهِنَّ نصفُ قَدْر الحرائرِ : خمْسُونَ جَلْدَةً. والمرادُ بهذه الآيةِ : نصفُ الجلدِ ؛ لأن الرجمَ لا نصفَ له.

وذهبَ عامَّةُ الفقهاءِ إلى أنَّ الإسلامَ والتَّزَوُّجَ لا يكونَا شرطاً في وجوب الجلدِ على الأمَةِ ؛ فإنَّها وإن لم تكن مُحْصَنَةً بالإسلامِ والتزويجِ أقِيْمَ عليها نِصْفُ حَدِّ الْحُرَّةِ إنْ زَنَتْ ؛ فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " إنْ زَنَتْ فَاجْلِدُوهَا ؛ ثُمَّ إنْ زَنَتْ فَاجْلِدُوهَا ؛ ثُمَّ إنْ زَنَتْ فَبِعْهَا " واستدلُّوا بما رُوي عن أبي هُريرة رضي الله عنه عنِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم : " أنَّهُ سُئِلَ عَنِ الأَمَةِ إذا زَنَتْ وَلَمْ تُحْصَنْ (فَبِيْعُوهَا) "

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ } ؛ أي تزويجَ الإماءِ والرِّضا بنكاحهنَّ عند عدمِ طَوْلِ الْحُرَّةِ لمن خَشِيَ الزِّنا منكُم ، وقيل : لِمَنْ خَشِيَ الضررَ في الدِّين والدنيا ، (مِنكُم) ؛ عن نكاحِ الإمَاءِ ، { وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ } ، وإنَّما قالَ ذلكَ ؛ لأن ولدَ الأمةِ رقِيْقاً لِمَوْلَى الأمَةِ ، ولهُ استخدامُ الأمَةِ في الحاجاتِ وبين أيدِي الرِّجال الأجانب.

(٠/٠)

يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ } ؛ أي يُرِيْدُ اللهُ أنْ يُبَيِّنَ لكم ما تحتاجون إلى معرفتهِ من الحلالِ والحرَام ، وكيفيَّة الطاعةِ ، ويُبَصِّرَكُمْ طريقَ الذين مِن قبلِكم من أهلِ التَّوراة والانجيلِ ، يَدُلُّكُمْ على طاعةِ الله ، كما دلَّ مَن قبلَكم ، { وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ } ؛ أي يَتَجَاوَزَ عنكم ما كان مِنكم في الجاهليَّةِ ؛ { وَاللَّهُ عَلِيمٌ } ؛ بما فعلتم وبمَّن يتوبُ ؛ { حَكِيمٌ } ؛ فيما أمَرَكم به ونهَاكم عنهُ في قوله { لِيُبَيِّنَ } بمعنى (أنْ) ، والعربُ تُعَاقِبُ بين لامِ كَي وبين (أنْ) ، فيقعُ أحدُهما مكانَ الآخرِ ، كقولهِ{ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ }[الشورى : ١٥] وقولهُ{ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ }[الأنعام : ٧١] وفي موضعٍ آخر : { وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ }[غافر : ٦٦] وقال : { يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُواْ }[الصف : ٨] وفي موضع آخر{ أَن يُطْفِئُواْ }[التوبة : ٣٢] ، وقال الشاعرُ : أُرِيْدُ لأَنْسَى ذِكْرَهَا فَكَأَنَّمَا تَمَثَّلُ لِي لَيْلَى بِكُلِّ سَبِيْلِيُرِيْدُ أنَّ أنْسَى.

ومعنى الآية : يريدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لكم شرائعَ دينِكم ومصالِحَ أمرِكم. وقال الحسنُ : (مَعْنَاهُ : يُبَيِّنَ لَكُمْ مَا تَأْتُونَ وَمَا تَذرُونَ). وقال عطاءُ : (يُبَيِّنُ لَكُمْ مَا يُقَرِّبُكُمْ إلَيْهِ). وقال الكلبيُّ : (مَعْنَاهُ : يُبَيِّنُ لَكُمْ أنَّ الصَّبْرَ عَلى نِكَاحِ الإمَاءِ خَيْرٌ لَكُمْ { وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ } أيْ شَرَائِعَ الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِكُمْ فِي تَحْرِيْمِ الْبَنَاتِ وَالأُمَّهَاتِ وَالأَخَوَاتِ).

(٠/٠)

وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا (٢٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ } ؛ أي يريدُ أن يَدُلَّكُمْ على ما يكون سَبَباً لتَوْبَتِكم ، { وَيُرِيدُ

الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً عَظِيماً } ؛ اختلفُوا في { الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ } مَنْ هُمْ ؟ قال السُّدِّيُّ : (هُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى) ، وقال بعضُهم : هم الْمَجُوسُ لأنَّهم كانوا يُحِلُّونَ نكاحَ الأخواتِ وبناتِ الأخ وبناتِ الأُخت ، فلمَّا حَرَّمَهُ اللهُ تعالى ؛ قالوا : إنَّكم تنكِحون بناتَ الخالةِ وبناتَ العمَّة ، والخالةُ حرامٌ عليكم ، فانكِحوا بناتَ الأخ وبنات الأخت كما تنكحُوا بناتَ الخالة والعمَّةِ ، فأنزلَ اللهُ تعالى هذهِ الآيةَ. وقال مجاهدُ : (هُمْ الزُّنَاةُ ؛ يُرِيْدُونَ أنْ تَمِيْلُوا عَنِ الْحَقِّ فَتَكُونُوا مِثْلَهُمْ تَزْنُونَ كَمَا يَزْنُونَ).

(٠/٠)

يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا (٢٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنْكُمْ } ؛ أي في نكاحِ الأَمَةِ إذا لم تجدوا طَوْلَ الحرَّةِ ، وفي كلِّ أحكامِ الشَّرعِ. وَقِيْلَ : معناهُ : يريدُ اللهُ لِيُسَهِّلَ عليكُم فيضعَ أوزارَكم ويَحُطَّ ذنوبَكم ، { وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً } ؛ أي أسِيْراً للشهوة ، وقِيْلَ : ضَعِيفاً في كلِّ شيء

وقال طاؤوس والكلبيُّ : (مَعْنَاهُ لاَ يَصبْرُ عَلَى النِّسَاءِ ، لَيْسَ يَكُونُ الإِنْسَانُ فِي شَيْءٍ أضْعَفَ مِنْهُ فِي أمْرِ النِّسَاءِ). وقال سعيدُ بن المسيَّب : (مَا آيَسَ الشَّيْطَانُ مِنْ ابْنِ آدَمَ إلاَّ أتَاهُ مِنْ قِبَلِ النِّسَاءِ ، وَقَدْ أتَى عَلَيَّ ثَمَانُونَ سَنَةً وَذَهَبَتْ إحْدَى عَيْنَيَّ ، وَأنَا أخْوَفُ مَا أخَافُ عَلَى فِتْنَةِ النِّسَاءِ). وقال عبادةُ بن الصَّامت : (ألاَ تَرَوْنِي مَا آكُلُ إلاَّ مَا لُوِّقَ لِي – أي لُيِّنَ وَسُخِّنَ – وَلاَ أقُومُ إلاَّ مَا قَدْ مَاتَ صَاحِبِي – يَعْنِي ذَكَرَهُ – وَمَا يَسُرُّنِي أنِّي خَلَوْتَ بامْرَأةٍ لاَ تَحِلُّ لِي مَخَافَةَ أنْ يَأْتِيَنِي الشَّيْطَانُ فَيُحَرِّكُهُ عَلَيَّ ؛ أنَّهُ لاَ سَمْعَ لَهُ وَلاَ بَصَرَ).

وقال الحسنُ : (مَعْنَى { وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً } أيْ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ مَهِيْنٍ). وقال ابنُ كَيْسَانَ : (مَعْنَاهُ : تَسْتَمِيْلُهُ شَهْوَتُهُ وَيَسْتَلِيْنُهُ خَوْفُهُ وَحُزْنُهُ). قال ابنُ عبَّاس : (ثَمَانِي آيَاتٍ فِي سُورَةِ النِّسَاءِ ؛ هُنَّ خَيْرٌ لِهَذِهِ الأُمَّةِ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ وَغَرَبَتْ : { يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ }[النساء : ٢٦] ؛ { وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ }[النساء : ٢٧] ، { يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنْكُمْ } ؛ { إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ }[النساء : ٣١] ؛ { إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ }[النساء : ٤٠] ؛ { إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَآءُ }[النساء : ٤٨] ؛ { وَمَن يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ }[النساء : ١١٠] ؛ { مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ }[النساء : ١٤٧] ؛ { وَالَّذِينَ آمَنُواْ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ }[النساء : ١٥٢].

(٠/٠)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٢٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ } ؛ أي لا يَأْكُلْ بعضكم مالَ بعضٍ بالظلم وشهادَةِ الزُّور واليمينِ الفاجرةِ والرِّبا والقمار وغير ذلك من الغَصْب والسرقَةِ والخيانَةِ ، وقَوْلُهُ تَعَالَى : { إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنْكُمْ } ؛ استثناءٌ منقطعٌ ؛ لأن الاستثناءَ خلافُ المستثنى منهُ ؛ لأن التجارةَ ليست بباطلٍ ، كأنَّهُ قالَ : لكن كُلُوا ما مَلَكْتُمْ بالْمُبَايَعَةِ عن تراضٍ منكم.

قرأ أهلُ الكوفةِ (تِجَارَةً) بالنصب على معنى : إلاّ أن تكونَ الأموالُ تجارةً ، وقرأ الباقون بالرفعِ على معنى : إلاّ أن تقعَ تجارةٌ. رويَ : أنَّهُ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ امْتَنَعَ النَّاسُ عَنْ أَكْلِ الأَمْوَالِ بالْهِبَةِ وَالْهَدِيَّةِ وَالضِّيَافَةِ حَتَّى نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُواْ مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ }الآيةُ. [النور : ٦١].

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنْفُسَكُمْ } ؛ أي لا يَقْتُلْ بعضُكم بعضاً فإنَّكم أهلُ دِيْنٍ واحدٍ ، وأنتم كنَفْسٍ واحدةٍ. قال صلى الله عليه وسلم : " الْمُؤْمِنُونَ كُلُّهُمْ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ؛ إذا ألِمَ عُضْوٌ تَدَاعَى سَائِرُ الأَعْضَاءِ لِلْحُمَّى وَالسَّهَرِ " وَقِيْلَ : معناهُ : لا يَقْتُلَنَّ الرجلُ نفسَه عند الضَّجَرِ والغضب. قال صلى الله عليه وسلم : " إنَّ رَجُلاً مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أخَذَتْهُ قَرْحَةٌ فِي يَدِهِ فَقَطَعَهَا فَأَرَاقَ دَمَهَا حَتَّى مَاتَ ، فَقَالَ اللهُ تَعَالَى : بَادَرَنِي ابْنُ آدَمَ بنَفْسِهِ فَقَتَلَهَا بيَدِهِ ، فَقَدْ حَرَّمْتُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ " وعن جَابرِ بن سَمُرَةَ : [أنَّ رَجُلاً ذَبَحَ نَفْسَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْهِ صلى الله عليه وسلم].

وقال بعضُهم : معنى الآية : لا تَقْتُلُوا أنفسَكم لطلب المال بما يؤدِّي إلى التلفِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً } ؛ لا يَرْضَى منكُم قَتْلَ بعضِكم بعضاً ، ولا أكلَ المالِ بالباطل ، فيرجعُ ضَرَرُهُ عليكُم في الدُّنيا والدِّين.

(٠/٠)

وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٣٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَن يَفْعَلْ ذلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً } ؛ أي مَن يأكُلِ المالَ بالباطلِ أو يَقْتُلِ النفسَ بغيرِ الحقِّ { عُدْوَاناً } أي اعتداءً وجَوراً بغير حِلٍّ. وَالْعُدْوَانُ : بأَنْ يَعْدُو غَيْرَ ((مَا)) أمْرَ بهِ ، والظُّلْمُ : أنْ يَضَعَ الشَّيْءَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ ، معنى : إذا فعلَ ذلك على وجهِ التعدِّي { فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً } ؛ أي ندخلُهُ النارَ ، { وَكَانَ ذلِكَ } ؛ التعذيبُ ، { عَلَى اللَّهِ يَسِيراً } ؛ لا يَمنع كثرةَ رحمتهِ من تعذيب مَن يستحقُّ العذابَ.

(٠/٠)

إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا (٣١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ } ؛ معناهُ : إنْ تَتْرُكُوا كَبَائِرَ الذُّنوب نُكَفِّرْ عَنْكُمُ الصغائرَ ، كما رويَ عن رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم أنهُ قال : " الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ كَفَّارَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ مَا جُنِّبَتَ عَنِ الْكَبَائِرِ " ، { وَنُدْخِلْكُمْ مُّدْخَلاً كَرِيماً } ؛ يعني الجنَّةَ. قرأ أهلُ المدينة : (مَدْخَلاً) بفتح الميم ، وهو موضعُ الدخول. وقرأ الباقون بالضمِّ على المصدر ، بمعنى الإدخَالِ.

واختلفُوا في الكبائرِ التي جعلَ اللهُ تعالى اجْتِنَابَهَا تكفيراً للصغائرِ ، فقال ابنُ عبَّاس : (هِيَ كُلُّ شَيْءٍ سَمَّى اللهُ فِيْهِ النَّارَ لِمَنْ عَمِلَ بهَا أوْ شَيْءٍ نَزَلَ فِيْهِ حَدٌّ فِي الدُّنْيَا). ويروى : أنَّ رَجُلاً أتَى ابْنَ عُمَرَ رضي الله عنه فقالَ : إنِّي أصَبْتُ ذنْباً فأُحِبُّ أنْ تَعُدَّ عَلَيَّ الْكَبَائِرَ ؛ فَعَدَّ عَلَيْهِ سَبْعاً ؛ فَقَالَ : (الإشْرَاكُ باللهِ ؛ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ ؛ وَقَتْلُ النَّفْسِ ؛ وَأَكْلُ الرِّبَا ؛ وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيْمِ ؛ وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ ؛ وَالْيَمِيْنُ الْفَاجِرَةُ). وعن ابنِ مسعُودٍ قالَ : (الْكَبَائِرُ أرْبَعٌ : الْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ ؛ وَالْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ ؛ وَالأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللهَ ؛ وَالشِّرْكُ).

قال مقاتلُ : (الْكَبَائِرُ : مَا نَهَى اللهُ تَعَالَى عَنْهُ مِنْ أوَّلِ هَذِهِ السُّوَرِ). ويقال : لا كبيرةَ مع الاستغفار ولا صغيرةَ مع الإصرار.

وعن ابنِ مسعُود قال : قُلْتُ : " يَا رَسُولَ اللهِ ؛ أيُّ الذنْب أعْظَمُ ؟ قَالَ : " أنْ تَجْعَلَ للهِ أنْدَاداً وَهُوَ خَلَقَكَ " قُلْتُ : ثُمَّ مَاذا ؟ قَالَ : " أنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خِشْيَةَ أنْ يَأكُلَ مَعَكَ " قُلْتُ : ثُمَّ مَاذا ؟ قَالَ : " أنْ تَزْنِي بحَلِيْلَةِ جَارِكَ " وتصديقُ ذلك قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَـاهًا آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذلِكَ يَلْقَ أَثَاماً * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً }[الفرقان : ٦٨-٦٩].

وعن رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم أنهُ قالَ : " أَكْبَرُ الْكَبَائِرِ الإِشْرَاكُ باللهِ ؛ وَالْيَمِيْنُ الْغَمُوسُ ؛ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ ؛ وَقَتْلُ النَّفْسِ " وعن أنسٍ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " أَرْبَعٌ مِنَ الْكَبَائِرِ : الشِّرْكُ باللهِ ؛ وَقَتْلُ النَّفْسِ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ ؛ وَشَهَادَةُ الزُّور "

وسُئِلَ ابنُ عبَّاس رضي الله عنه عنِ الكبائرِ : أسَبْعٌ هِيَ ؟ قَالَ : (هُنَّ إِلَى سَبْعِينَ لأَقْرَبُ مِنْهُنَّ إِلَى السَّبعِ) ثم قالَ : (الْكَبَائِرُ : الشِّرْكُ ؛ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ ؛ وَقَتْلُ الْمُؤْمِنِ ؛ وَالْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ ؛ وَالأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللهِ ؛ وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ ؛ وَالسِّحْرُ ؛ وَالرِّبَا ؛ وَالزِّنَا ؛ وَالسَّرِقَةُ ؛ وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيْمِ ؛ وَتَرْكُ الصَّلَوَاتِ ؛ وَمَنْعُ الزَّكَاةِ ؛ وَشَهَادَةُ الزُّور ؛ وَقَتْلُ الْوَلَدِ خِشْيَةَ أَنْ يَأْكُلَ مَعَهُ ؛ وَالْحَسَدُ ؛ وَالْكِبْرُ ؛ وَالْحَيْفُ فِي الْوَصِيَّةِ ؛ وَتَحْقِيْرُ الْمُسْلِمِيْنَ). وقال سعيدُ بن جبيرٍ : (كُلُّ ذنْبٍ أَوْعَدَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ النَّارَ فَهُوَ كَبِيْرَةٌ). قال الضحَّاك : (مَا وَعَدَ اللهُ عَلَيْهِ حَدّاً فِي الدُّنْيَا وَعذاباً فِي الآخِرَةِ فَهُوَ كَبِيْرَةٌ).

(٠/٠)

وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٣٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ } ؛ أي لا يَتَمَنَّى الرجلُ مالَ أخيه ولا شيئاً من الذي لغيرهِ ؛ ولكن لِيَقُلْ : اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي مِثْلَهُ ، ولا يتمنَّى الرجلُ امرأةَ أخيهِ ولا خادمَهُ ولا دابَّته.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُواْ } ؛ أي حظٌّ من الأجرِ ما اكتسبُوا من العملِ الصالح { وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ } ؛ حظٌّ من الأجرِ مما عَمِلْنَ من العمل الصالحِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاسْأَلُواْ اللَّهَ مِن فَضْلِهِ } ؛ أي من رزْقِهِ ، { إِنَّ اللَّهَ كَانَ } ؛ لم يزل ، { بِكُلِّ شَيْءٍ } ، من أعمالِ الرجال والنِّساء ، { عَلِيماً } ؛ عالماً.

وعن جابرِ بن عبدِالله قال : بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَهُوَ فِي نَفَرٍ مِنَ الصَّحَابَةِ ؛ " إِذْ أَقْبَلَتِ امْرَأَةٌ حَتَّى قَامَتْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ؛ ثُمَّ قَالَتْ : يَا رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم ؛ أَنَا وَافِدَةُ النِّسَاءِ إِلَيْكَ ، إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ رَبُّ النِّسَاءِ وَرَبُّ الرِّجَالِ ، وَآدَمُ أَبُو النِّسَاءِ وَأَبُو الرِّجَالِ ، وَحَوَّاءُ أُمُّ النِّسَاءِ وأُمُّ الرِّجَالِ ، وَأَنْتَ بَعَثَكَ اللهُ رَسُولاً إِلَى النِّسَاءِ وَالرِّجَالِ ، ثُمَّ الرِّجَالُ إِذا خَرَجُواْ فِي سَبِيْلِ اللهِ ، فَقُتِلُواْ فَهُمْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِهِمْ فَرِحِيْنَ ، وَنَحْنُ نَحْتَبِسُ عَلَيْهِمْ وَنَخْدِمُهُمْ ، فَهَلْ لَنَا مِنَ الأَجْرِ شَيْءٌ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " أَقْرِئِي النِّسَاءَ مِنِّي السَّلاَمَ ؛ وَقُولِي لَهُنَّ : إِنَّ طَاعَةَ الزَّوْجِ وَاعْتِرَافاً لِحَقِّهِ يَعْدِلُ مَا هُنَالِكَ ، وَقَلِيْلٌ مِنْكُنَّ يَفْعَلُهُ ".

وقال قتادةُ والسُّدِّيُّ : (لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى : { لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ }[النساء : ١١] فَقَالَتِ الرِّجَالُ : إنَّا لَنَرْجُوا أنْ يُفَضِّلَنَا اللهُ عَلَى النِّسَاءِ بَحَسَنَاتِنَا فِي الآخِرَةِ كَمَا فَضَّلَنَا عَلَيْهِنَّ بالْمِيرَاثِ ؛ فَيَكُونُ أجْرُنَا مِثْلَي أجْرِ النِّسَاءِ ، وَقَالَ النِّسَاءُ : إنَّا لَنَرْجُوا أنْ يَكُونَ الْوِزْرُ عَلَيْنَا نِصْفَ مَا عَلَى الرِّجَالِ كَمَا لَنَا فِي الْمِيرَاثِ النِّصْفُ مِنْ نَصِيْبِهِمْ ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى { وَلاَ تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ } { لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُواْ } مِنَ الْمِيرَاثِ وَالْعِقَاب ، وَلِلنِّسَاءِ نَصِيْبٌ كَذَلِكَ مِنْهُ). قال قتادةُ : (يُجْزَى الرَّجُلُ بالْحَسَنَةِ عَشْرَ أمْثَالِهَا ، وَالْمَرْأةُ تُجْزَى عَشْرَ أمْثَالِهَا أيْضاً).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاسْأَلُواْ اللَّهَ مِن فَضْلِهِ } وقرأ ابنُ كثيرٍ والكسائيُّ وخلف : (وَسَلُواْ اللهَ مِنْ فَضْلِهِ) (وَسَلْ مَنْ أرْسَلْنَا) و (فَسَلِ الَّذِينَ) يقرأون بغيرِ الهمزة ، وقرأ الباقونَ بالهمزة. قال صلى الله عليه وسلم : " مَنْ لَمْ يَسأَلِ اللهَ مِنْ فَضْلِهِ غَضِبَ عَلَيْهِ " وقال سفيانُ بن عُيَيْنَةَ : (لَمْ يَأْمُرْ بالْمَسْأَلَةِ إلاَّ لِيُعْطِي).

(٠/٠)

وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٣٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ } ؛ أي ولكلِّ واحدٍ من الرجال والنساء جعلنا موالي عَصَبَةٍ يَرِثُونَهُ مِمَّا تركَهُ والدُه وأقرباؤُه من ميراثِهم ، والوالدان والأقربونَ على هذا التأويلِ همُ المورّوثون. وَقِيْلَ : معناهُ : وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ ؛ أي وَرَثَةً مِن الذين تركَهُم ، ثم فسَّرهم فقالَ : الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ ، على هذا التأويل هم الوارثُون.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ } ؛ في محلِّ الرفع بالابتداء ، والمُعَاقَدَةُ هي الْمُعَاهَدَةُ بين اثنين. وقرأ أهلُ الكوفة (عَقَدَتْ) بغير ألف أراد عقدت لهم أيْمانُهم. قال ابنُ عبَّاس : (كَانَ الرَّجُلُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ إذا أعْجَبَهُ ظُرْفُ الرَّجُلِ عَاقَدَهُ وَحَالَفَهُ ؛ وَقَالَ : أنْتَ ابْنِي تَرِثُنِي ؛ خِدْمَتِي خِدْمَتُكَ ؛ وَذِمَّتِي ذِمَّتُكَ ؛ وَثَأْرِي ثَأْرُكَ ، فَيَكُونُ بِهِ ببَعْضِ وَرَثَتِهِ مِثْلُ نَصِيْب أحَدِهِمْ ، إلاَّ أنْ يَنْقُصَ نَصِيْبُهُ عَنِ السُّدُسِ لِكَثْرَةِ الْوَرَثَةِ ؛ فَيُعْطَى السُّدُسَ خَاصَّةً لاَ يُنْقَصُ مِنْهُ شَيْءٌ ، ثُمَّ نُسِخَتْ بقَوْلِهِ تَعَالَى{ وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ }[الأنفال : ٧٥]).

قال قتادةُ : (أرَادَ بقَوْلِهِ : { وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ } : الْحُلَفَاءُ ؛ كَانَ الرَّجُلُ يُعَاقِدُ الرَّجُلَ فَيَقُولُ : دِيْنِي دِيْنُكَ ؛ وَثَأْرِي ثَأْرُكَ ؛ وَحِزْبِي حِزْبُكَ ؛ وَسِلْمِي سِلْمُكَ ؛ تَرِثُنِي وَأرِثُكَ ؛ تَعْقِلُ عَنِّي وَأعْقِلُ عَنْكَ ؛ وَتَطْلُبُ بي وَأَطْلُبُ بكَ ، فَيَكُونُ لِلْحَلِيْفِ السُّدُسُ ثُمَّ نُسِخَ ذلِكَ بِقَوْلِهِ : { وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ }[الأنفال : ٧٥]). وقال مجاهدُ : (أرَادَ بقَوْلِهِ : { فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ } النَّصْرَ وَالْعَقْلَ وَالرَّفَادَةَ

دُونَ الْمِيْرَاثِ).

فَعَلَى هَذا تَكُونُ الآية غيرَ منسوخةٍ لقولهِ تعالى : { أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ }[المائدة : ١] ولقولهِ صلى الله عليه وسلم : " أَوْفُوا لِلْحُلَفَاءِ بعُهُودِهِمْ الَّتِي عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ " وليس معنى قولِ ابن عبَّاس أنَّ هذه الآية منسوخةٌ ، نُسِخَ حُكمها من الأصلِ ، ولكن معناهُ : تقديمُ ذوي الأرحامِ على أهلِ العقد ، وهو كحدوثِ ابنٍ لِمَنْ لهُ أخٌ لا يخرجُ الأخَ من أن يكون أهْلاً للميراثِ إلاَّ أن يكون الابنُ أولى منه ، كذلك أولي الأرحامِ أوْلى من الحليفِ ، فإذا لم يكن للميتِ رَحِمٌ ولا عُصْبَةٌ فالميراثُ للحليفِ ، ولِهذا قال أصحابُنا : فمن أسلمَ على يدَي رجلٍ ووالاهُ – عَاقَدَهُ – ثم ماتَ ولا وارثَ له غيرهُ أن ميراثَه لهُ ، ولِهذا قالوا : إنَّ من أوصَى بجميعِ ماله ولا وارثَ له صحَّتِ الوصيةُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً } ؛ أي لم يَزَلْ شاهداً على كلِّ شيء من إعطاءِ النصيب ومنعِه.

(٠/٠)

الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا (٣٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَآ أَنْفَقُواْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ } ؛ قال ابنُ عبَّاس ومقاتلُ : " نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي سَعْدِ بْنِ الرَّبِيْعِ – وَكَانَ مِنَ النُّقَبَاءِ – وَفِي امْرَأَتِهِ ابْنَةُ مُحَمَّدِ بْنِ مَسْلَمَةَ وَهُمَا مِنَ الأَنْصَار ، نَشَزَتْ عَلَيْهِ فَلَطَمَهَا ، فَانْطَلَقَ أبُوهَا مَعَهَا إِلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ؛ أفْرَشْتُهُ كَرِيْمَتِي فَلَطَمَهَا ، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " اقْتَصِّي مِنْهُ " وَكَانَ الْقِصَاصُ يَوْمَئِذٍ بَيْنَهُمْ فِي اللَّطْمَةِ وَالشَّجَّةِ وَالْجِرَاحِ ، فَانْصَرَفَتْ مَعَ أبِيْهَا لِيَقْتَصَّ مِنْهُ ، فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " ارْجِعُواْ ؛ هَذا جِبْرِيْلُ أتَانِي " فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الآيَةَ ، فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " أَرَدْنَا أمْراً ؛ وَأَرَادَ اللهُ أمْراً ، وَالَّذِي أرادَ اللهُ خَيْرٌ " وَرُفِعَ الْقِصَاصُ ".

ومعناها : الرجالُ مُسَلَّطُونَ على أدب النِّساء بالحقِّ ، والقوَّامُونَ الْمُبَالِغُونَ بالقيامِ عليهنَّ بتعليمهنَّ وتأديبهنّ وإصلاحِ أمورهن ، وقولهُ تعالى : { بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ }[النساء : ٣٤] أي جَعَلَ اللهُ ذلك للرجالِ بفضلِهم على النساء في العقلِ والرَّأي ، وَقِيْلَ : بزيادةِ الدِّين واليقين ، وَقِيْلَ : بقوة العبادةِ والجهادِ ، وَقِيْلَ : بالجمُعة والجماعةِ وبإنفاقِهم أموالِهم في الْمُهُور وأقْوَاتِ النساءِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ } ؛ أي فَالْمُحْصَنَاتُ المطيعاتُ لله

في أمرِ أزواجِهن ، وَقِيْلَ : قائماتٌ بحقوقِ أزواجهن. وأصل الْقُنُوتِ : مُدَاوَمَةُ الطَّاعَةِ ، وقولهُ تعالى : { حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ } أي يَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وأموالَ أزواجهنَّ في حال غَيْبَةِ أزواجهنَّ. ويدخلُ في حفظِ المرأة لغيب الزوج أن تَكْتُمَ عليه ما لا يحسَنُ إظهارهُ مما يقفُ عليه أحدُ الزوجين على الآخرِ. وقولهُ تعالى : { بِمَا حَفِظَ اللَّهُ } أي يحفظُ الله إياهُنَّ من معاصيهِ وبتوفِيقه لَهُنَّ ، ويقال : بما حفظهنَّ اللهَ تعالى في مهورهن وإلزام الزوج النفقةَ عليهن. قال صلى الله عليه وسلم : " خَيْرُ النِّسَاءِ مَنْ إذا نَظَرْتَ إلَيْهَا سَرَّتْكَ ؛ وَإذا أمَرْتَهَا أطَاعَتْكَ ؛ وَإذا غِبْتَ عَنْهَا حَفِظَتْكَ فِي مَالِكَ وَنَفْسِهَا "

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ } ؛ أي النساءِ التي تعلمونَ عصيانَهنَّ لأزواجَهن فَعِظُوهُنَّ ، والنُّشُوزُ : الرَّفْعُ عَنِ الصَّاحِب ، مأخوذٌ من النَّشْزِ وهو المكانُ المرتفعُ ، المرادُ من الْوَعْظِ وَالْهَجْرِ وَالضَّرْب في الآيةِ أن يكونَ ذلك على الترتيب المذكور فيها ؛ لأن هذا من باب الأمْرِ بالمعروف والنَّهي عن المنكرِ ، إذا أمكنَ الاستدراكُ بالأسهلِ والأخفِّ لا يُصَارُ إلى الأثقلِ ، فالأَوْلى أن يبدأ الزوجُ فيقول لامرأتهِ الناشِزَةُ : إتَّقِي اللهَ وارجعي إلى فراشِي ، فأطاعَتْهُ وإلاّ سَبَّهَا ، هكذا قال ابنُ عبَّاس رضي الله عنه.

وَالْهَجْرُ : الْكَلاَمُ الْفَاحِشُ ، يقالُ : هَجَرَ الرَّجُلُ يَهْجُرُ ، إذا هَذَأ ، وأهْجَرَ الرجلُ في مَنْطِقِهِ بهجرٍ هجاراً إذا تكلَّمَ بقبيحٍ. وقال الحسنُ وقتادة : (قَوْلُهُ : { وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ } مِنَ الْهَجْرِ ؛ وَهُوَ أنْ لاَ يَقْرَبَ فِرَاشَهَا وَلاَ يَنَامَ مَعَهَا ؛ لأنَّ اللهَ تَعَالَى قَرَنَهُ بقَوْلِهِ تَعَالَى { فِي الْمَضَاجِعِ }.

(٠/٠)

وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا (٣٥)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُواْ حَكَماً مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَاحاً يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَآ } ؛ أي وإن عَلِمْتُمْ أيُّها المؤمنون بعدَ العِظَةِ والهجرانِ تباعدَ الزوجين عن الحقِّ ، وهو أن يكونَ كلُّ واحد منهما في شِقٍّ على حِدَةٍ ، ولم يَدْرُوا من أيُّهما جاءَ النُّشُوزُ فابعثوا عَدْلاً ذا رأي وعقل من أهلِ الزَّوجِ ؛ وعَدْلاً من أهلِ المرأةِ ؛ يختارُ الحاكمُ حَكَماً مِن أهلهِ وحَكَماً من أهلِها ، فيخلوا حَكَمَ الزوجِ به ؛ فيقول : أخبرني ما في نَفْسِكَ أتَهْوَاهَا أم لاَ ؟ فأنا لا أدري ما أقولُ وما أعمل بهِ حتى أرى ما تريدُ ، فإن قال : أهْوَاهَا ؛ ولكنها تُسِيْءُ معاشرتي ، فَعِظْهَا وَأرْضِهَا عنِّي ، علم أنَّ الرجلَ ليس بنَاشِزٍ ، وإن قالَ : لاَ حاجةَ لِي بها ؛ فَرِّقْ بينِي وبينَها وخُذْ لِي منها ما استطعتَ ؛ علم أنه نَاشِزٌ ، وكذلكَ يفعلُ حَكَمُ المرأةِ بالمرأة.

ثم يلتقي الْحَكَمَانِ ، فيصدِّقُ كلُّ واحد منهما صاحبَهُ فيما سَمِعَ ، فيُقْبلان على الزوجِ إن كان نَاشِزاً فيقولان له : يَا عَدُوَّ اللهِ ؛ أنتَ العاصي لله ، الظالِمُ على امرأتِكَ ، ويَعِظَانِهِ وَيَزْجُرَانِهِ ، وَكَذلِكَ يَفْعَلاَنِ بالمرأة إن كانت هي النَّاشِزَةَ ، فذلك قولهُ : { إِن يُرِيدَآ إِصْلَاحاً يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَآ } أي أنَّ الْحَكَمَيْنِ إذا أرادَا عَدْلاً ونصيحةً أَلَّفَ اللهُ بين الزوجين ، ويقالُ : وَفَّقَ اللهُ بين أقوالِ الْحَكَمَيْنِ ، { إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً } ؛ بأمر الْحَكَمَيْنِ ، { خَبِيراً } ؛ بنَصِيْحَتِهِمَا ، ويقالُ : عَلِيْماً بما فيه صلاحُ الحقِّ ، خَبِيْراً بذلكَ.

وذهبَ بعضُ العلماء : إلى أنَّ الْحَكَمَيْنِ إذا رَأيَا أن يفرِّقا بينهما فَرَّقَا بينهما ، وكذلكَ إذا رأى الْحَاكِمُ أن يُفرِّقَ فعلَ إذا وقَعَ اليأسُ عن زوال الشِّقاق ، واعتبروا بالغاية فما عند أصحابنا رَحِمَهُمُ اللهُ فليسَ للحَكَمين أن يفرِّقا إلاّ أن يكونَا وَكِيلَيْنِ في الخُلْعِ من جانبين ، أو يرضَى الزوجُ بتفريقِها.

(٠/٠)

وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا (٣٦)

وقوله عَزَّ وَجَلَّ : { وَاعْبُدُواْ اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً } ؛ أي وَحِّدُوا اللهَ تعالى ، وأطيعُوه ولا تعبدُوا معه غيرَهُ ، فإن ذلك يُفْسِدُ عبادتَه. قالت الحكماءُ : الْعُبُودِيَّةُ تركُ الاختيار وملازمةُ الافتقار. وَقِيْلَ : الْعُبُودِيَّةُ أربعةُ أشياءٍ : الوفاءُ بالعهودِ ؛ والحفظُ للحُدُودِ ؛ والرِّضَا بالموجودِ ؛ والصَّبْرُ على المفقودِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً } أي أحْسِنُوا بالوالدين إحْسَاناً ، وَقِيْلَ : اسْتَوْصُوا بالوالدين إحْسَاناً ، وقد يذكرُ المصدر المنصوبُ على تقديرِ فعلٍ محذوف كقولهِ تعالى : { فَضَرْبَ الرِّقَابِ }[محمد : ٤] ، ومعناه الأمرُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ } ؛ أي وأحْسِنُوا بذوي القَرَابَةِ واليتامَى والمساكينِ. والإحسانُ إلى ذوي القربَى هو مُوَاسَاةُ الفقيرِ منهم إذا خافَ عليه ضَرَرَ الجوعِ والعُرِيِّ وَحُسْنَ العشرةِ وكفِّ الأذى عنهُ والْمُحَابَاةُ دونه مِمَّنْ يريدُ ظُلْمَهُ. وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه : " أنَّ رَجُلاً شَكَا إِلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَسْوَةً فِي قَلْبِهِ ؛ فَقَالَ : " إِنْ أَرَدْتَ أَنْ يَلِيْنَ قَلْبُكَ فَأَطْعِمِ الْمَسَاكِيْنَ وَامْسَحْ برَأْسِ الْيَتِيْمِ وَأَطْعِمْهُ ".

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنْبِ } ؛ قال صلى الله عليه وسلم : " الْجِيرَانُ ثَلاثَةٌ : جَارٌ لَهُ ثَلاَثَةُ حُقُوقٍ ؛ وَهُوَ الْجَارُ الْقَرِيْبُ الْمُسْلِمُ ، وَجَارٌ لَهُ حَقَّانِ ؛ وَهُوَ الْـَجَارُ

الأَجْنَبِيُّ الْمُسْلِمُ ، وَجَارٌ لَهُ حَقٌّ وَاحِدٌ ؛ وَهُوَ الْجَارُ الْكَافِرُ " فعلى هذا يكون معنى (الْجَار الْجُنُب) : هو الجارُ الذي هو مِن قومٍ آخرين لا قرابةَ بينك وبينه. ويقالُ : إن الجارَ ذوي القربَى هو الذي يُقَاربُكَ في الجوار ، تعرفهُ ويعرِفُكَ ، والجارُ الْجُنُبُ : هو الجارُ الغريبُ المتباعِدُ.

وَالْجُنُبْ في اللغة : الْبَعِيْدُ. وقرأ الأعمشُ : (وَالْجَار الْجَنْبِ) بفتحِ الجيم وإسكان النُّون ، وهما لُغتان. يقالُ : رَجُلُ جُنُبٌ وَجُنْبٌ ؛ إذا لم يكن قَرِيباً ، وجَمْعُهُ : أجَانِبُ ، وقيل للجُنُب جُنُبٌ لاعتزالِهِ الصلاةَ وبُعْدِهِ من المسجدِ حتى يغتسلَ. وقال بعضُهم : (الْجَارُ الْجُنُبُ) الكافر.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالصَّاحِبِ بِالجَنْبِ } هو الرفيقُ في السفرِ ؛ المنقطعُ إلى الرجلِ رجاءَ خَيْرِهِ ، كذا قالَ ابنُ عبَّاس ومجاهدُ وابنُ جبير وعكرمةُ وقتادة ، وقال بعضُهم : الصاحبُ بالْجَنْب هو الْمُلاَصِقُ دارَه بدارِكَ ؛ فهو إلى جَنْبكَ ، ويقالُ : هو جارُ الرجلِ في البيتِ الواحد. وقال عَلِيٌّ وعبدُالله وأبنُ أبي ليلى والنخعيُّ : (هِيَ الزَّوْجَةُ تَكُونُ مَعَهُ إلَى جَنْبِهِ).

وعن أبي هُريرةَ رضي الله عنه قال : قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " لَيْسَ بمُؤْمِنٍ مَنْ لاَ يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ ، وأيَّمَا رَجُلٍ أغْلَقَ بَابَهُ دُونَ جَارِهِ مَخَافَةً عَلَى أهْلِهِ وَمَالِهِ فَلَيْسَ جَارُهُ ذلِكَ بمُؤْمِنٍ " قَالُواْ : يَا رَسُولَ اللهِ ؛ مَا حَقُّ الْجَار ؟ قَالَ : " إنْ دَعَاكَ أجَبْتَهُ ؛ وَإنْ أصَابَتْهُ فَاقَةٌ عُدْتَ عَلَيْهِ ؛ وَإنِ اسْتَقْرَضَكَ أقْرَضْتَهُ ؛ وَإنْ أصَابَهُ خَيْرٌ هَنَّيْتَهُ ؛ وَإنْ مَرِضَ عُدْتَهُ ؛ وَإنْ أصَابَتْهُ مُصِيْبَةٌ عَزَّيْتَهُ ؛ وَإنْ مَاتَ شَهِدْتَ جَنَازَتَهُ ، وَلاَ تَسْتَعْلِي عَلَيْهِ بالْبُنْيَانِ لِتَحْجِبَ عَنْهُ الرِّيْحَ إلاَّ بإذْنِهِ ، وَلاَ تُؤْذِهِ بقُتَّارِ قِدْرِكَ إلاَّ أنْ تَغْرِفَ لَهُ مِنْهَا ، وَإن اشْتَرَيْتَ فَاكِهَةً فَاهْدِ لَهُ مِنْهَا ؛ وإنْ لَمْ تَفْعَلْ فَأدْخِلْهَا سِرّاً وَلاَ يُخْرِجْ وَلَدُكَ مِنْهَا شَيْئاً فَيُغِيْظُ وَلَدَهُ بِهِ "

(٠/٠)

الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (٣٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً } ؛ يجوزُ أن يكونَ أوَّل هذه الآيةِ في موضع نَصْبٍ بدلاً من قولهِ (مَنْ كَانَ) ويحتملُ أن يكون نصباً على الذمِّ ، على معنىَ : أعْنِي الّذِيْنَ يَبْخَلُونَ ، ويحتملُ أن يكون رفعاً على الاستئنافِ على إضمارِ (هُمْ) الذينَ يبخلون. قال ابنُ عبَّاس ومجاهدُ : (الْمُرَادُ بالآيَةِ الْيَهُودُ ، بَخِلُوا بما كَانَ عَنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ بأَمْرِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وَأمَرُواْ قَوْمَهُمْ بالْبُخْلِ وَهُوَ الْكِتْمَانُ) ، ويقال : كانوا لا يعطونَ من أموالِهم شيئاً ، ويأمرون الناسَ بذلك.

وقال بعضُهم : الآية عامَّة في كل من يَبْخَلُ بما أوتي من المالِ ويكتمُ ما أعطاه اللهُ من النعيمِ لا يُخْرِجُ زَكاتَهُ ، فعلى هذا يكون المرادُ بالكافرين في هذه الآية : كَافِرِي النِّعَمِ دون الكفار بالله. فأمَّا على التأويلِ الأوَّل فالمرادُ بالكافرين اليهودَ.

والبُخْلُ : مَنْعُ الْوَاجِب. قرأ يحيى بن يعمر ومجاهدُ وحمزة والكسائي وخلف : (بالْبَخَلِ) بفتح الباء والخاء ، وقرأ قتادةُ وأيوب بفتح الباءِ وسكون الخاء ، وقرأ عيسى ابن يعمر : بضمِّ الباء والخاء ، وقرأ الباقون بضم الباء وسكون الخاء ، وكذلك في سورةِ الحديد ، وكلُّها لغةٌ معروفة فيه إلاَّ أن اللغة العاليَةَ : ضمّ الباء وسكون الخاء ، وبفتح الباء والخاء لغةُ الأنصار.

(٠/٠)

وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا (٣٨)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَآءَ النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ } ؛ في محَل نصبٍ عطفاً على { الَّذِينَ يَبْخَلُونَ } وإن شئتَ جعلتَهُ عطفاً على قوله : { وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ }[النساء : ٣٧]. قال السُّدِّيُّ : (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي الْمُنَافِقِيْنَ الَّذِيْنَ يُرَاؤُن النَّاسَ فِي الإنْفَاقِ ، وَلاَ يَتَصَدَّقُونَ فِي السِّرِّ). قِيْلَ : المرادُ به كفارُ مكَّةَ أنفقُوا على الناسِ وقتَ خروجهم إلى حرب بدر.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِيناً فَسَآءَ قَرِيناً } ؛ أن من يفعلْ ما يَدْعُوهُ إليه الشيطان وسوَّل له فَبِئْسَ قرينهُ الشيطان يُغْوِيَهِ في الدُّنيا ويكون قريناً معهُ في السلسلةِ في النار. و(قَرِيْناً) نُصِبَ على التمييز ، وَقِيْلَ : على القطعِ ؛ أي قطعِ الألف واللام.

(٠/٠)

وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا (٣٩)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُواْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَنْفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ } ؛ أي ماذا عليهم لو صَدَّقُوا الله واليوم الآخرِ وتصدَّقوا مما رَزَقَهُمُ الله من الأموالِ ، وما فرضَ عليهم من الصدقةِ ، { وَكَانَ

اللَّهُ بِهِم عَلِيماً } ؛ أي أنَّهم لا يؤمنون ، وفي الآية بيانٌ أنَّهم إنَّما كفروا لِسُوءِ اختيارهِم وقِلَّةِ تَأَمُّلِهِمْ مع قدرتِهم على الإيْمان ؛ لأنهُ لا يُحْسَنُ أن يُقالَ لمن لا يقدرُ على الشيءِ : ماذا عليك لو فعلتَ كذا.

(٠/٠)

إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا (٤٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ } ؛ أي لا يُنْقِصُ من جزاءِ الأعمال زِنَةَ نَمْلَةٍ حُمَيْرَاءَ صغيرةٍ. والْمِثْقَالُ مِفْعَالٌ من الثُّقْلِ ؛ وهو ما يوزنُ به الشيء ، من ذلك يسمَّى ما يوزنُ به الدينارُ مثقالاً ؛ لأنه يعادلهُ في الثِّقَلِ. وقرأ عبدُالله : (إنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ نَمْلَةٍ) والمعنى : إنَّ اللهَ لا يُنقِصُ أحَداً مِن خَلْقِهِ مِن ثوابِ عمله وَزْنَ ذرَّةٍ ، بل يجازيهِ عليها ويُثِيْبُهُ بها. وقال بعضُهم : الذرُّ الهباءُ في الكوَّة ، فكلُّ جزءٍ منها ذرَّةٌ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا } ؛ قرأ العامَّة (حَسَنَةً) بالنصب على معنى : وإن تَكُ الْفِعْلَةُ حسنةً : وقرأ أهلُ الحجاز : بالرفع على معنى : إن تَقَعْ حَسَنَةٌ ، أو يُؤْخَذْ حَسَنَةٌ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { يُضَاعِفْهَا } قرأ الحسنُ بالنون ، والباقون بالياء ، وهو الصحيحُ لقوله : (وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ) ؛ وقرأ أبو رجاءٍ وابنُ كثير وابن عامر : (يُضَعِّفْهَا) بتشديد العين وهما لُغتان.
وقال أبو عبيد : (يُضَاعِفْهَا ؛ أي يَجْعَلْهَا أضْعَافاً كَثِيْرَةً ، وَيُضَعِّفْهَا بالتَّشْدِيْدِ يَجْعَلْهَا ضِعْفَيْنِ). وقال الضحَّاك : (أرَادَ بالْحَسَنَةِ : التَّوْبَةَ وَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ إلاَّ حَسَنَةً وَاحِدَةً مَقْبُولَةً غَفَرَ اللهُ لَهُ). وَقِيْلَ : معناهُ : إن أزادَ على سيِّئاته مثقالَ ذرَّة من الحسنةِ يضاعفْهُ اللهُ حتى يجعلَهُ مثل أحُدٍ ، ويوجبُ له الجنَّةَ ، ويعطيهُ من عنده الزيادةَ على ما يستحقُّه من جزاءِ عمله ، فذلك الأجر العظيم لا يعلم مقدارَهُ إلاَّ الله. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً } ؛ وهو الجنةُ.

(٠/٠)

فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا (٤١)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ } ؛ معناه : كيفَ يَصْنَعُ الْكُفَّارُ ؟ وكيف يكون حالُهم يومَ القيامة ؟ إذا جِئْنَا من كل جماعةٍ بنَبيِّهَا شهيداً عليهم ولَهُم ، { وَجِئْنَا بِكَ } ؛ يَا مُحَمَّدُ {

عَلَى هَاؤُلاءِ } ؛ الذين أُرْسِلْتَ إليهم ؛ { شَهِيداً } ؛ أَتَشْهَدُ لِمن صَدَّقَ بالتصديقِ ، وعلى كل من كَذبَ بالتكذيب.

(٠/٠)

يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا (٤٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ وَلاَ يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثاً } ؛ معناه : يومَ وقوعِ الشهادة تَمَنَّى الذين كفرُوا باللهِ ، وعَصَوا الرسولَ أن الأرض تُسَوَّى بهم : يَمْشِي عليهَا أهلُ الجمعِ وَيوَدُّونَ أنَّهم لم يَكْتُمُوا اللهَ حَدِيثًا ؛ وذلك حينَ مَيَّزَ اللهُ أصحابَ اليمينِ من أصحاب الشِّمالِ ، ويقولُ للوحوشِ والطيور والبهائمِ : كونِي تُرَاباً ؛ أي ويرَى الكفَّارُ ذلك ويَرَوْنَ ما أكرمَ اللهُ به المسلمينَ ، فيقولُ بعض الكفَّار لبعضٍ : هَلُمُّوا نقولُ إذا سُئِلْنَا : وَاللهِ رَبنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ، فيقولونَ ذلك ، فَيخْتِمُ اللهُ على ألسِنَتِهم ، ويأذنُ لجوارحهم في الكلامِ ، فتشهدُ عليهم عندَ ذلك ؛ فيقولون : يا لَيْتَنَا كُنَّا تُراباً ، ويتمنَّون أنَّهم لم يَكْتُمُوا اللهَ حديثاً ؛ لأنَّهم كانوا كَذبُوا في قولِهم : مَا كُنَّا مُشْرِكِيْنَ.

وقالَ بعضُهم : معنى : { وَلاَ يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثاً } كلامٌ مستأنَفٌ غيرُ داخل في التَّمَنِّي ؛ ومعناهُ : لاَ يَقْدِرُونَ على كِتْمَانِ شيءٍ مما عَمِلُوهُ ؛ لظهور ذلكَ عندَ اللهِ ؛ أي لا يُفِيْدُ كِتْمَانُهُمْ. وقال الكلبيُّ : (يَقُولُ اللهُ لِلْبَهَائِمِ وَالْوُحُوشِ وَالطَّيْرِ : كُونِي تُرَاباً ؛ فَتُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ ؛ فَعِنْدَ ذلِكَ يَتَمَنَّى الْكَافِرُ أنْ يَكُونَ كَذلِكَ). وقال عطاءُ : (مَعْنَاهُ : يَوَدُّ الَّذِيْنَ كَفَرُواْ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ ، ولَمْ يَكْتُمُواْ أمْرَ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم وَلاَ نَعْتَهُ).

قرأ أهلُ المدينةِ والشامِ (تَسَّوَّى) بفتحِ التاء والتشديد على معنَى وَتَتَسَوَّى ؛ فأدغمتِ التاءُ الثانية في السين. وقرأ أهلُ الكوفةِ إلاّ عاصماً بفتحِ التاء والتخفيف على حذفِ أحدِ التاءَين مثلُ قولهِ : { لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ }[هود : ١٠٥] وقرأ الباقونَ بضمِّ التاء والتخفيف على الْمَجْهُولِ ؛ أي لو سُوِّيَتْ بهم الأرضُ وصَارُوا هم والأرضُ شيئاً واحداً.

(٠/٠)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا (٤٣)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلاَ جُنُباً } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ ؛ كَانُواْ يشْرَبُونَ الْخَمْرَ قَبْلَ التَّحْرِيْمِ ، ثُمَّ يَأْتُونَ الصَّلاَةَ مَعَ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم فَيُصَلّ ُونَ مَعَهُ ؛ فَنَهَاهُمُ اللهُ تَعَالَى عَنْ ذلِكَ).

وتأويلُ الآية على هذا : لاَ تَقرَبُوا مواضِعَ الصلاةِ وهو المسجدُ وَأَنْتُمْ سُكَارَى ، حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وما يقرأ إمَامُكم في الصلاةِ. وسُكَارَى : جمعُ سَكْرَانٍ ، وهذا خطابٌ لمن لم يَبْلُغْ به السُّكْرُ إلى حدٍّ لا يفهمُ الكلامَ كلَّهُ ، لأنَّ الذي لا يفهمُ شيئاً لا يصحُّ أن يخاطَبَ ، فكانوا بعد نزولِ هذه الآية يَجْتَنِبُونَ السُّكر أوقاتَ الصلاةِ حتى نزلَ تحريمُ الخمرِ في سورة المائدةِ.

وقال مقاتلُ : (نَزَلَتْ فِي جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ ؛ كَانُواْ يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ فِي دَار عَبْدِالرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ قَبْلَ التَّحْرِيْمِ ؛ فَحَضَرَتْ صَلاَةُ الْمَغْرِب ؛ فَقَدَّمُوا رَجُلاً فَقَرأ{ قُلْ ياأَيُّهَا الْكَافِرُونَ }[الكافرون : ١] وَقَالَ : أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ؛ وَحَذفَ (لاَ) فِي جَمِيْعِ السُّورَةِ ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ).

فمعناها على هذا : لاَ تَقْرَبُوا نَفْسَ الصلاةِ ، وأنتمُ سُكَارى حتَّى تعلموا ما تَقْرَأونَ. وعن عمرَ رضي الله عنه أنهُ قال بَعْدَ نزولِ هذه لآية : (اللَّهُمَّ إنَّ الْخَمْرَ يَضُرُّ بالْعُقُولِ وَالأَمْوَالِ ؛ فَأَنْزِلَ فِيْهَا أَمْرَكَ) فَصَبَّحَهُمُ الْوَحْيُ بآيَةِ الْمَائِدَةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ جُنُباً } أي لا تَقْرَبُوا مواضعَ الصلاةِ وأنتم جُنُباً ، { إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُواْ } ؛ إلاّ أن تكونُوا مُجْتَازِيْنَ ، وإذا لم يكن الماءُ إلاَّ في المسجدِ ، تَيَمَّمَ الْجُنُبُ ودخلَ المسجدَ وأخذ الماء ثم خرجَ واغتسلَ. وقال الشافعيُّ : (يَجُوزُ لِلْجُنُب الْعُبُورُ فِي الْمَسْجِدِ بغَيْرِ تَيَمُّمٍ ، وَلاَ تَجُوزُ لَهُ الإِقَامَةُ فِيهِ). وَقِيْلَ : معنى الآيةِ : لا تُصَلُّوا وأنتم جُنُبٌ إلا أن تكونوا مسافرينَ لا تجدون الماءَ فتيمَّمون وتصلُّون ، هكذا رويَ عن عَلِيٍّ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ ومجاهدُ والحاكم. وانتصبَ قوله (جُنُباً) على الحالِ ؛ أي لا تَقْرَبُوا الصلاةَ وأنتم جُنُبٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِنْ كُنْتُمْ مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ } ؛ أي إذا كنتم مَرْضَى فَخِفْتُمْ الضررَ باستعمالِ الماء أو كنتم مسافرينَ ، { أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِّن الْغَآئِطِ } ؛ معناهُ : وجاءَ أحدُكم من الغائطِ : هو المكانُ المطمئِنُّ من الأرضِ ؛ يقال : تَغَوَّطَ الرجلُ إذا دَخَلَ المكانَ المطمئنَّ لقضاءِ الحاجةِ ، ويجعلُ هذا اللفظ كنايةً عن ذلكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَآءَ } ؛ قال عَلِيٌّ وابنُ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا : (مَعْنَاهُ : أَوْ جَامَعْتُمْ النِّسَاءَ) وبه قال الحسنُ ومجاهد وقتادةُ. وقال ابنُ مسعودٍ وابن عمرَ والنخعيُّ والشعبيُّ : (أَرَادَ بِهِ اللَّمْسَ بالْيَدِ ، وَكَانُوا لاَ يُبِيْحُونَ لِلْجُنُب التَّيَمُّمَ).

واختلفَ العلماء في هذا ، فقال الشافعيُّ : (إذا مَسَّ الرَّجُلُ بَدَنَ الْمَرأَةِ نُقِضَ وَضُوءُهُ سَوَاءٌ كَانَ بالْيَدِ أمْ بغَيْرِهَا مِنَ الأعْضَاءِ). وقال الأوزاعيُّ : (إنْ مَسَّهَا بالْيَدِ نُقِضَ ؛ وَإنْ كَانَ بغَيْرِ الْيَدِ لَمْ تُنْقَضْ).

(٠/٠)